نوبل للآداب
2008

جان ماري غوستاف لوكليزيو

رواية

مكتبة

صحراء

ترجمة: لينا بدر

ساقي

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

صحراء

صحراء - رواية
تأليف: جان ماري غوستاف لوكليزيو
ترجمتها عن الفرنسية: لينا بدر

تصميم الغلاف: نجاح طاهر
ISBN: 7 - 27 - 701 - 9933 - 978
الطبعة الأولى: 2024

Désert
Jean-Marie Gustave Le Clézio

مكتبة
t.me/soramnqraa

14 1 2025

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: 9838
الإمارات العربية المتحدة، الشارقة، مدينة الشارقة للنشر - المنطقة الحرة، مركز الأعمال.
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House
twitter.com /AdwanPH
instagram.com /mamdouh_adwan_publishing_house /

دار سرد للنشر

جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com /Sard.Publishing
twitter.com /SardPublishing
https: / /www.instagram.com /sard.publishing /

© Éditions Gallimard, Paris, 1980

جان ماري غوستاف لوكليزيو

مكتبة
t.me/soramnqraa

صحراء

رواية

ترجمتها عن الفرنسية:
لينا بدر

ملاحظة:

حواشي الرواية جميعها من وضع المترجمة. وقد حاولنا التعريف ببعض المناطق المذكورة، لكي يأخذ القارئ فكرةً عن الأماكن التي تجري فيها الأحداث.

الساقية الحمراء، شتاء 1909-1910

مكتبة
t.me/soramnqraa

ها هم أولاء يظهرون كالحلم فوق قمّة الكثيب، يحجبهم عجاج الرمال الثائر تحت وقع أقدامهم. ينزلون الوادي على مهل، يتبعون طريقاً يكاد لا يُرى. في مقدّمة القافلة رجالٌ تلفّحوا بعباءات الصوف وتلثّموا بقماشٍ أزرق. معهم اثنان أو ثلاثةٌ من الإبل، ووراءهم الماعز والخراف يطوّقها الغلمانُ الصغار. في نهاية الموكب، تلوح النساء كأطيافٍ متثاقلة تتعثّر بعباءاتها السميكة. تحت مناديلهن الزرقاء النيلية، تبدو سواعدُهن وجباههن داكنةً قاتمة.

كانوا يسيرون فوق الرمال بتؤدةٍ دون ضجيج، ودون أن ينظروا إلى الطريق. تهبّ رياح الصحراء بلا هوادة، حارّةً في النهار، باردةً في الليل، والرمال تتسرّب من حولهم، ومن بين قوائم الجمال، تلفح وجوه النساء فيُسدِلنَ أوشحتَهنّ الزرقاء على عيونهنّ. الصِّبية يركضون، والأطفالُ الرُّضّع داخل الأقمطة الزرقاء فوق ظهور أمّهاتهم تعلو أصواتهم بالبكاء. الجمال ترغو، تعطس. لا أحد يعرف إلى أين كانوا يرحلون.

تتربّع الشمس وسط السماء الصافية، والرياح تحمل معها الأصوات والروائح. فوق وجوه المرتحلين، يتصبّب العرق بطيئاً، ويعكس فوق بشرتهم الداكنة لوناً أزرق، على وجناتهم وسواعدهم وعلى امتداد

أرجلهم. على جباه النساء، تلمع الوشومُ وتبدو كالجعلان(*). عيونٌ كقطرات المعدن الأسود، بصعوبةٍ ترى امتداد الرمال، تبحث عن طريقها بين أمواج الكثبان.

لا شيء على الأرض سواهم، لا شيء، ولا أحد. وُلدوا من الصحراء وحيدين وما من طريقٍ آخر يهتدون إليه. لا كلام في ما بينهم، ولا رغبات في دواخلهم. تعبر الرياح فوقهم وتتخلّلهم، كأن لا أحد سواهم فوق الكثبان. بدؤوا المسير منذ مطلع الفجر ولم يتوقّفوا، تلفّهم غمامة التعب والعطش. أيبس العطشُ شفاهَهم وألسنتهم، والجوع أضناهم، وما عاد بوسعهم الكلام. كانوا قد أصبحوا، منذ زمنٍ طويل، بُكماً كالصحراء، يغمرهم الضياء حين تشتعل الشمس في كبد السماء العارية، ويصيبهم الجمود في صقيع الليالي بنجومها الساكنة.

تابعوا طريقهم على مهلٍ وهم ينزلون المنحدر إلى قلب الوادي، يترنّحون في مشيتهم حين تنهار الرمال تحت أقدامهم. كان الرجال يختارون مواطئ أقدامهم دون أن ينظروا، كأنهم يشقّون دربهم فوق آثار غير مرئيّة كانت تهديهم إلى الطرف الآخر للعزلة، وإلى الليل.

من بينهم شخصٌ واحد فقط يحمل سلاحاً، بندقية صيد لها فوهةٌ طويلة من البرونز الأسود. كان يحملها على صدره ويشدّ عليها بين ذراعيه، رافعاً فوهتها نحو الأعلى مثل سارية علم. يمشي إخوته بمحاذاته متدثّرين بالعباءات، مُنحنين إلى الأمام قليلاً تحت وزر أحمالهم الثقيلة. كانت ملابسهم الزرقاء تحت العباءات قد تحوّلت إلى أسمالٍ مزّقتها الأشواك وأبلَتها الرمال. وراء الركب المتهالك، كان نور ابنُ حامل البندقية يمشي أمام أمّه وأخواته، بوجهه الداكن الذي لوّحته الشمس، لكنّ نظرة عينيه كانت تلمع بنورٍ يكاد يفوق الطبيعة.

(*) حشراتٌ سوداء تعيش في رمال الصحراء، وهي إحدى فصائل رتبة الخنافس.

إنهم رجالُ الرمالِ والرياح والنور والليل، ونساؤها. ظهروا كالحلم في أعلى الكثيب، كأنهم وُلدوا من سماءٍ بلا غيوم، يحملون بين جوارحهم قسوةَ المكان، الجوع، العطش الذي يدمي الشفاه، الصمت القاسي حين تشتدّ الشمس، الليالي الباردة، نورَ درب التبّانة، القمر. يحملون معهم ظلالهم التي تستطيل عند الغروب، أمواج الرمال العذراء التي تلامسها أصابع أقدامهم المتباعدة، الأفق بعيد المنال. كان يميّزهم على وجه الخصوص نظراتهم المتّقدة، التي تلمع بشكلٍ واضح داخل بياض عيونهم.

قطيع الماعز الأسود والخراف يسير أمام الأولاد. الماشية أيضاً تسير على غير هدى، تضع حوافرها فوق الآثار القديمة. تهبّ الرمال بين قوائمها وتعلق بصوفها الملبّد. رجلٌ وحيد يقود الإبل، بصوته فحسب، يهمهم ويبصق مثلها. كان صخب الأنفاس الجشّاء يمتزج بالرياح، وسرعان ما يتلاشى بين تجاويف الكثبان نحو الجنوب. غير أنّ الرياح والجفاف لم يعُد لهما أهمّية، فقد كان الناس والدوابّ يسيرون على مهل ويهربون إلى عمق الوادي، حيث لا ظلّ ولا ماء.

كانوا قد بدؤوا الترحال منذ أسابيع، منذ شهور، ينتقلون من بئرٍ إلى بئر، مجتازين مجاري المياه الجافّة التي تاهت في الرمال، عابرين تلال الصخور والهضاب، الماشية تأكل العشب الضامر وأشواك البعير وأوراق الفربيون(*)، وتتقاسمها مع البشر. عند المساء، وحين تصبح الشمس قريبةً من الأفق، وتستطيل ظلالُ دُغَل الأشواك على نحوٍ غير طبيعيّ، كان الرجال والماشية يتوقّفون عن المسير. يُنزل الرجال الأحمال عن الجمال، وينصبون خيمة قماشٍ كبيرة من الصوف البنّي، تستند إلى دعامة واحدة من خشب الأرز. توقد النساء النار ويُعدِدنَ عصيدة الدُّخن،

(*) جنس نباتاتٍ برّيّة تنبت في المناطق الحارّة.

واللبن الرائب، والزبد، والتمر. يباغتهم الليل، وتنجلي السماء الواسعة الباردة فوق الأرض المظلمة، فتظهر النجوم، آلاف النجوم المعلّقة في الفضاء. الرجل صاحب البندقية، ذاك الذي يقود الركب، ينادي نور ويُريه طرف كوكبة الدبّ الأصغر، النجم الوحيد الذي يُسمّى «نجم الجدي»، ثم في الطرف الآخر من المجموعة، أنور الفرقدين(*)، الأزرق. من جهة الشرق، يشير لنور إلى قوسٍ تلمع فيه نجومٌ خمسة: القائد، المئزر، الإلية، المغرز، الفخذة. وإلى الشرق تماماً، عند خط الأفق الرمادي، ظهرت للتوّ كوكبة الجوزاء ومعها نجم النيلم(**) بميلٍ خفيفٍ كصارية السفينة. كان يعرف النجوم كلّها، ويطلق عليها أحياناً أسماء غريبة تليق بمطالع الحكايات. كأنّ الأنوار المضيئة في السماء، كانت تدلّ البشر على الطريق التي عليهم اتّباعها على الأرض. نجومٌ كثيرة! ليل الصحراء عامرٌ بتلك الأنوار التي تومض برفق، والرياح تروح وتغدو كالأنفاس. إنها بلادٌ من خارج الزمن، بعيدة عن تاريخ البشر، لعلّها بلادٌ لا شيء يمكن أن يظهر فيها أو يموت، منفصلةٌ عن باقي البلاد، ترتفع إلى قمّة الوجود على الأرض. الناس فيها ينظرون دوماً إلى النجوم، إلى الدرب الأبيض الذي يشكّل جسراً من الرمال فوق الأرض. لا يتكلّمون إلا لماماً، لكنّهم حين يبدؤون تدخين لفافات الكَيْف، فإنّهم يتحدّثون في ما بينهم عن قصص الترحال وأصوات الحرب والانتقام من جنود المسيحيين. ثم ينصتون إلى الليل.

تتراقص ألسنة نار العيدان تحت إبريق الشاي النحاسيّ، وصوت الماء يغلي داخله. في الجانب الآخر من الموقد، النساء يثرثرن، وإحداهن تهدهد طفلها الرضيع النائم على صدرها. الكلاب البرّيّة

(*) اسمه التقليدي Kochab مشتق من الكلمة العربية «كوكب».

(**) نيلم: النجم الأوسط في حزام كوكبة الجوزاء.

تنبح، فيرتدّ صدى أصواتها بين تجاويف الكثبان، كأنّ هناك كلاباً أخرى. تتصاعد رائحة المواشي فتمتزج برطوبة الرمل الرمادي ودخان المواقد اللاذع.

بعد ذلك، نامت النساء والأطفال تحت الخيمة، واستلقى الرجال متدثّرين بعباءاتهم حول النار الخامدة. وهكذا توارَوا في سهل الرمال والحجارة، وأصبحوا لا مرئيّين، في حين كانت السماء السوداء تشعّ أكثر فأكثر.

كانوا قد ساروا على هذا النحو منذ أشهر، أو ربما سنوات. السماء دليلهم للطريق بين الكثبان، من الطريق الواصلة من الدرعة(*)، من تامكروت، من عرق إقيدي، أو إلى الشمال قليلاً، من طريق آيت عطا، من غريس، من تافيلالت، التي تصل إلى قرى القُصور في محيط جبال الأطلس، أو حتى من الطريق الذي لا نهاية له، الواصل إلى عمق الصحراء، إلى ما بعد هانك، من جهة مدينة تمبكتو(**) الكبرى.

بعضهم قضى على الطريق، ووُلد آخرون، وبعضهم تزوّج. الحيوانات ماتت أيضاً، نُحِرت أعناقُها لكي تخصب أعماق الأرض، أو أصابها الطاعون وتُركت لتنفُق فوق الأرض القاحلة.

كأنما لا أسماء هنا، ولا كلام. كأنّ رياح الصحراء تغسل كلّ شيء وتمحوه. تظهر حرية المدى في عيون الناس، تبدو جلودهم كالمعدن. نور الشمس يسطع في كلّ مكان. الرمل أحمر، أصفر، رماديّ، أبيض.

(*) وادي درعة، هو أطول وادٍ في المغرب. وينبع نهر درعة من جبال الأطلس الكبير، قاطعاً الصحراء في الاتجاه الجنوبي الشرقي ويصبّ أغلبه في المحيط الأطلسي. ويصبّ القليل في شمال طانطان، يجفّ في أغلب أيام السنة.

(**) مدينة في شمال مالي، من أهم العواصم الثقافية الإسلامية في شمال إفريقيا. وهي حاضنة الإسلام في الصحراء الكبرى ومنارة للعلم والعلماء. معنى اسمها بالأمازيغية: حافظة الأمانات.

رملٌ ناعم ينثال، ويُظهر هبوب الرياح، يغطّي الآثار كلّها، والعظام كلّها. إنه يبعد الضوء، يطرد المياه والحياة إلى مكانٍ بعيد لا يستطيع أحدٌ أن يعرفه. الناس يعرفون تمام المعرفة أنّ الصحراء لا تريدهم، غير أنهم يسيرون ولا يتوقّفون، على دروبٍ سارت عليها أقدامٌ أخرى، لتجد شيئاً آخر. المياه في «العيون» بلون السماء، أو في مجرى السواقي الطينية الرطبة. لكنّ هذه المياه ليست للرغد، ولا للراحة، إنها أخاديد من العرق فحسب تسيل فوق وجه الصحراء، هبةُ إلهٍ بخيل يقدّمها بالتقتير، آخر نبضٍ للحياة. مياهٌ ثقيلة يستخرجونها من الرمال، مياهٌ آسنة من بين الشقوق، مياه قلوية تُحدِث المَغص وتسبّب التقيّؤ. يتحتّم عليهم الرحيل إلى مكانٍ أبعد، ها هم أولاء ينحنون إلى الأمام قليلاً في الاتجاه الذي حدّدته النجوم.

لكنّها كانت البلادَ الوحيدة، آخر البلاد الحرّة ربما، حيث لا أهمّية لقوانين البشر. بلاد الحجارة والرياح، العقارب والجرابيع، بلاد أولئك الذين يعرفون الاختباء والهرب من لهيب الشمس وصقيع الليل.

الآن وقد وصلوا إلى أعلى وادي الساقية الحمراء(*)، بدؤوا ينزلون، بتمهّلٍ، المنحدرَ الرملي إلى عمق الوادي، حيث ظهرت لهم علاماتُ حياةٍ بشرية: قِطعُ أراضٍ تحيط بها أسوارٌ من الحجارة الجافة، حظائرُ إبل، أكواخٌ من أوراق النخيل القزم، خيامٌ كبيرة من الصوف شبيهة بالقوارب المقلوبة. بدأ الرجال ينزلون بتؤدة، تغوص كِعابهم وتنهار الرمال. أبطأت النساء الخُطا وبقينَ بعيداً وراء قطيع المواشي التي اضطربت حين شمّت رائحة الآبار. ثم ظهر السهلُ الفسيح، وانكشف تحت الهضبة الصخرية. راح نور يبحث عن أشجار نخيلٍ باسقة لونُها

(*) أحد إقليمي منطقة الصحراء الغربية. اشتُقّ اسمه من مجرى مائي يمرّ بمدينة العيون. ويضمّ مدينة السمارة.

أخضر قاتم، تنتصب فوق الأرض في صفوف متراصّة حول بحيرة مياه صافية، وعن القصور البيضاء والمآذن، عن كلّ ما حدّثوه عنه منذ طفولته، عندما كانوا يتحدّثون عن مدينة «السمارة»(*). مضى وقتٌ طويل لم يرَ فيه أشجاراً. راح ينزل باتجاه الوادي متراخي اليدين، وقد زمّ أجفانه بسبب النور والرمال.

مع نزول الرجال نحو أسفل الوادي، اختفت المدينة التي لمحوها لوهلة، ولم يجدوا سوى أرضٍ جرداءَ قاحلة. كان الطقس حارّاً، ووجه نور يتصبّب عرقاً غزيراً، حتى التصق ثوبه الأزرق بأسفل ظهره وكتفيه.

ثم ظهر رجالٌ ونساء آخرون أيضاً، كأنّ الوادي أنجبهم. نساء أوقدن النار في المواقد لتحضير وجبة المساء، أطفالٌ ورجال يقفون دون حراك أمام خيامهم المغبرّة. كانوا قد أتوا من جهات الصحراء كلّها: من وراء هضاب الحمادة(**) الصخرية، من جبل شهيبة وجبل أوركزيز، من جبل سِروا، من مرتفعات أمّ شكور، من وراء واحات الجنوب الكبرى، من بحيرة قورارة الجوفية. اجتازوا الجبال عبر ممرّ مَيدر باتجاه ترهامانت، أو إلى الجنوب أيضاً، هناك حيث يلتقي نهر الدرعة بتينغوت، عبر الرقبة. جاء أهلُ الجنوب كلّهم: البدو، التجّار، الرعاة، النهّابون، الشحّاذون. وربما غادر بعضهم مملكة بيرو، أو واحة وَلاته(***) الكبرى.

على وجوههم آثارُ الشمس الفظيعة وبرد الليالي القاتلة في تخوم الصحراء. بعضهم كان لهم بشرةٌ سوداء مشوبةٌ بالحُمرة، طِوال القامة والأطراف، يتحدّثون لغةً غريبة، إنهم «التوبو» القادمون من الجهة

(*) شيّدها الشيخ ماء العينين كمشروع حضاريّ في قلب الصحراء، بعيداً عن أخطار المحيط وما يحمله من غزاة، بالقرب من نقاط الماء.

(**) هضاب صخرية تمتلئ بأحواض رملية. تمتدّ في الصحراء الليبية الكبرى.

(***) وَلاته: مدينة في الجنوب الشرقي لموريتانيا.

الأخرى للصحراء، من بورغو وتيبستي(*)، من أكَلة جوز الكولا، السائرون باتجاه البحر.

مع اقتراب حشود الناس والدوابّ، كانت أطياف البشر السوداء تزداد عدداً. وراء أشجار الأكاسيا الملتوية وأكواخ الأغصان والطين، بدت بيوتهم أشبه بمستعمرات النمل. بيوتٌ من اللِّبن، مساكن من الألواح والطين، وعلى وجه الخصوص، تلك الجدران قليلة الارتفاع التي لا تصل إلى مستوى الرُّكَب وتقسم الأرض الحمراء إلى تجاويف صغيرة. وفي الحقول، التي لا تتعدّى مساحة كلّ واحدٍ منها سرج الخيل، كان عبيد الحراطين(**) يحاولون إنبات بعض الفول والفلفل والدُّخن. تغور الأخاديد في السواقي القاحلة على امتداد السهل، للوصول إلى أيّ قطرة ماء.

الجميع وصلوا إلى هنا الآن، إلى مدينة السمارة الكبرى. رجالٌ ودوابّ يراوحون فوق الأرض الجافّة، في عمق هذا الجرح الكبير لوادي الساقية.

انقضت أيامٌ كثيرة، قاسية وأليمة كقسوة الصوان، ساعاتٌ كثيرة بانتظار رؤية الوادي. أوجاع كثيرة في أجسامهم المكلومة وشفاههم الدامية ونظراتهم الحارقة. ها هم أولاء يهرعون إلى الآبار ولا يسمعون أصوات الماشية أو همهمة الرجال الآخرين. عندما وصلوا إليها، أمام الجرف الصخري الذي يسند التراب الطريّ، توقّفوا. بدأ الأولاد يضربون الماشية بالحجارة لإبعادها، بينما جثا الرجال للصلاة. ثم غطّس كلّ واحدٍ منهم رأسه في المياه وشرب مطوّلاً.

(*) بورغو: تقع في إفريقيا الوسطى شمال تشاد، تيبستي: سلسلة جبال في وسط الصحراء الإفريقية الكبرى، في شمال تشاد وأقصى جنوب ليبيا.

(**) الحراطين: مجموعة إثنية سوداء البشرة، تسكن الواحات في الصحراء الكبرى.

هكذا هي عيون الماء في وسط الصحراء. لكن في هذه المياه الدافئة قوّة الرياح والرمال وبرودة سماء الليل الواسعة أيضاً. بينما كان نور يشرب، شعر بالفراغ الذي كان يطارده من بئرٍ إلى بئر يدخل إلى جوفه. كانت المياه العكِرة الغثّة تُشعره بالغثيان ولا تروي عطشه، كأنها تضع داخل جسده صمت الكثبان والهضاب الصخرية الكبرى وهدوءَها. كانت المياه داخل الآبار راكدة، ملساء كالمعدن، تطفو على سطحها بقايا الأوراق وصوف المواشي. وعند البئر الأخرى، كانت النساء يغتسلن ويمشّطن شعورهن. بالقرب منهن، الماعز والجِمال دون حراك، كأنّ قوائمها شُدّت بأوتاد في طين البئر.

رجالٌ آخرون، كانوا يروحون ويجيئون بين الخيام. محاربون ملثّمون، مسلّحون بالخناجر والبنادق الطويلة، يمشون بخطواتٍ واسعة ولا ينظرون إلى أحد. عبيدٌ سودانيون بأسمال بالية يحملون أحمال الدُّخن والتمور وقِرَب الزيت، أبناء عائلات نبيلة، يلبسون الأبيض والأزرق القاتم، شلوح(*) بشرتهم داكنة تقارب السواد، أطفالٌ من الساحل بشعر أحمر وجلود منمّشة، رجالٌ غرباء أصولهم غير معروفة، متسوّلون مصابون بالجذام لا يقاربون الماء. الجميع كانوا يمشون فوق الأرض الصخرية والتراب الأحمر باتجاه الأسوار، يقصدون مدينة السمارة المقدّسة. فرّوا هاربين في الصحراء، لساعاتٍ قليلة، لأيامٍ قليلة. طووا خيامهم الثقيلة، تلفّفوا بعباءاتهم الصوفية، وانتظروا الليل. ها هم يأكلون الآن حساء الدُّخن المشبع باللبن الرائب، والخبز، والتمور المجفّفة بطعم العسل والفلفل. في هواء المساء، كانت أسراب الذباب والبعوض تحوم حول رؤوس الأولاد، والدبابير تقف على أياديهم وخدودهم الملطّخة بالتراب.

(*) مجموعة إثنية تنتمي إلى بربر الأمازيغ، موطنها الجزء الغربي لجبال الأطلس ولها مراكز حضرية عديدة، لغتها تشلحيت أكبر لغة ناطقة بين الأمازيغ.

كانوا يتحدّثون بصوتٍ صاخب، والنساء في ظلّ الخيمة الخانق يضحكن ويقذفن الأولاد اللاهين بالحصى. يخرج الكلام من أفواه الرجال نابعاً من الحلقوم كأصوات السكارى، أصوات غناء، وصياح، وجهير.

وراء الخيام، بالقرب من أسوار السمارة، الرياح تصفر بين أغصان الأكاسيا وسعف النخيل القزم. غير أنّ الرجال والنساء، أصحاب الوجوه والأجساد التي أصبحت زرقاء بلون النيلة من التعرّق، يخيّم عليهم الصمت، كأنهم لم يغادروا الصحراء قطّ.

لم ينسوا، فالصحراء بصمتها المهيب الذي يعبر باستمرار فوق الكثبان كانت في أعماقهم، وفي أحشائهم. هذا هو السرّ الحقيقي. كان الرجل حامل البندقية يتوقّف لبرهة عن التحدّث إلى نور وينظر خلفه، باتجاه أعلى الوادي، هناك إلى جهة الريح.

بين حينٍ وآخر، كان يقترب من خيامهم رجلٌ من قبيلة أخرى، يلقي السلام وهو يمدّ يديه المفتوحتين. قلّما كانوا يتبادلون بضع كلماتٍ وأسماء، لكنّها ليست سوى كلمات وأسماء تتلاشى في الحال، كلمات طفيفة تطمرها الرياح برمالها.

عندما حلَّ الليل فوق مياه الآبار، استعادت سماء الصحراء المرصّعة بالنجوم سلطانها. في وادي الساقية الحمراء، الليالي أكثر دفئاً. ارتفع القمر الوليد في السماء المظلمة، وبدأت الخفافيش رقصتها حول الخيام محلّقةً فوق سطح مياه الآبار. كان النور في المواقد يرتعش ناشراً رائحة زيتٍ حارّ ودخان، الأولاد يلهون بين الخيام، مطلقين الصيحات من حلاقيمهم كالكلاب، الدوابّ هاجعة، الإبل عُقِلَتْ قوائمها، والخراف والماعز محجوزةٌ داخل حظائر من الحجارة الجافّة.

تخلّى الرجال عن حذرهم. وضع المرشد بندقيته عند مدخل الخيمة

وراح يدخّن وهو ينظر أمامه. كان، بصعوبةٍ، يسمع اللغطَ اللطيف لثرثرة النساء الجالسات بالقرب من المواقد وضحكاتهنّ. لعلّه كان يحلم بأمسياتٍ أخرى، بدروبٍ أخرى، وكأنّ حروق الشمس فوق جلده، وغصّة العطش في حلقه لم تكن سوى بداية أمنية أخرى.

يتسلّل النوم ببطء إلى مدينة السمارة. أما بعيداً في الجنوب فوق مرتفعات الحمادة الصخرية، فلا نوم في الليل. هناك خدرٌ من البرد حين تعصف الرياح على الرمال وتعرّي النجود. النوم في دروب الصحراء مستحيل. يكون المرء حيّاً، ثم يموت وهو يحدّق بعيونٍ أحرقها التعب والضوء. أحياناً، كان الرجال الزرق يصادفون أحد أبناء قومهم يجلس منتصباً فوق الرمال، ساقاه ممدودتان أمامه وجسده يابس داخل أسماله المتطايرة، وفي وجهه الرمادي عينان سوداوان تحدّقان في الأفق المتحرّك على الكثبان، ذلك لأنّ الموت باغته هكذا.

كما النوم كذا الماء. في الحقيقة، لا يمكن للإنسان أن ينام بعيداً عن الينابيع. تهبّ الرياح مثلما تهبّ رياح السُّكاك(*) مُجرّدةً الأرض من حرارتها. لكنّ المرتحلين هنا في الوادي الأحمر، يستطيعون النوم.

استيقظ المرشد قبل الآخرين، ووقف ساكناً أمام الخيمة. شاهد الضباب يتصاعد بطيئاً على امتداد الوادي نحو جبال الحمادة. تلاشى الليل بمرور الضباب. عقد ذراعيه على صدره، حبس أنفاسه، وأبقى جفنيه مفتوحين. هكذا كان المرشد ينتظر أوّل شعاعٍ للفجر، تلك الفرجة البيضاء التي تولد في الشرق فوق الهضاب. حين انبثق الضوء، انحنى فوق نور وأيقظه برفق، واضعاً يده على كتفه. ثم ابتعدا معاً بصمت، وسارا في دربٍ رمليّ باتجاه الآبار، بينما كانت أصوات الكلاب تنبح في البعيد.

(*) السُّكاك: الهواء بين السماء والأرض، في الجزء الأعلى من الغلاف الجوّي، ويمتد من 10 إلى 80 كم على وجه التقريب فوق سطح الأرض.

في نور الفجر الرمادي، توضّأا بالترتيب وفقاً للشعائر الدينية، جزءاً بعد جزء، ثلاثَ مرّاتٍ متوالية. مياه البئر باردة وصافية، وُلدت من الرمال والليل. استمرّ الرجل وابنه في غسل وجهيهما وأياديهما، ثم استدارا نحو الشرق لأداء صلاة الفجر، فيما كانت السماء تنجلي عند الأفق.

داخل الخيام، كانت المواقد تومض في ظلمة آخر الليل. ذهبت النساء لينهلن من الماء، ترافقهن البنات الصغيرات، اللواتي كنّ يضحكن لاهياتٍ بمياه البئر، ثم عُدن وهنّ يتمايلن، تتوازن الجِرار على رقابهن النحيلة.

بدأ صخب الناس يعلو من الخيام ومن بيوت الطين. جلبة معادن وحجارة ومياه. تجمّعت الكلاب الصفراء في الساحة تدور وتتقافز. الجِمال والمواشي تراوح في مكانها وتثير الغبار الأحمر.

في ذلك الوقت بالذات، يصبح النور فوق الساقية الحمراء بديعاً. ينبعث من السماء والأرض، في آنٍ واحد، نورٌ ذهبيّ نحاسيّ يرتعش في السماء الصافية، دون أن يحرق أو يسبّب الدوار. فتحَت الفتيات الصغيرات ستائر الخيام، وبدأن تمشيط شعرهن الكثيف وتفلِيَته من القمل، ثم رفعنه وعلّقن عليه أوشحتهن الزرقاء. التمع بريقٌ جميل فوق حمرة وجوههن وسواعدهن.

كان نور يجلس القرفصاء ساكناً على الرمال، وينظر إلى النور الذي يغمر السماء فوق الخيام هو أيضاً. ثمّة طيور حجلٍ كانت تعبر الفضاء على مهل، وتصعد من ناحية الوادي الأحمر. إلى أين ترحل؟ لعلّها ذاهبة إلى أعلى الساقية، تصل إلى وديان الأرض الحمراء الضيّقة بين قمم الأقمار(*). وحين تغيب الشمس سوف تعود فوق الحقول إلى الوادي المكشوف، هناك حيث المنازل شبيهةٌ ببيوت النمل.

(*) جبل يقع في منطقة مكناس في المغرب العربي. ارتفاعه 1992 م عن سطح البحر.

لعلّها تعرف «العيون»، مدينة الطين والألواح، حيث السقوف لبعض المنازل هناك حمراءُ معدنية. تُرى هل تعرف البحر الزمرّدي والبرونزي، البحر الحرّ؟

بدأ المرتحلون يتوافدون إلى الساقية الحمراء. قوافل من البشر والماشية، تنزل الكثبان وتثير سحب الغبار الأحمر. كانوا يمرّون أمام الخيام حتى دون أن يلتفتوا، كأنهم لا يزالون ساهين بمفردهم وسط الصحراء.

مشوا بتمهّل نحو مياه الآبار، ليبلّلوا شفاههم الدامية. كانت الرياح قد بدأت تعصف هناك في الأعلى عند مرتفعات الحمادة، وتهبّ ضعيفةً في الوادي فوق أشجار النخيل الفتيّة وبين دغل الأشواك وفي متاهات الصخور الجافة. ولكن بعيداً عن الساقية، كان العالم يتوهّج في أنظار المسافرين: سهولٌ من الصخور الحادّة، جبالٌ تقطع نياط القلب، صدوع، طيّات رمالٍ تعكس نور الشمس، سماءٌ مترامية شديدة الزرقة، قاسية تحرق الوجوه. وإلى البعيد أيضاً، بين تشابك الكثبان، أناسٌ يسيرون في عالمٍ غريب.

لكنّه عالمهم الحقيقي، هذه الرمال، هذي الحجارة، هذه السماء، هذه الشمس، وهذه المعاناة، وليس عالم المعادن والأسمنت في المدن، حيث يُسمع خرير النوافير وأصوات البشر. إنه هنا، قانون الخلاء الصحراوي، حيث كلُّ شيء ممكن، وحيث يمشي المرء على حافة موته دون ظلّ. الرجال الزرق يغُذّون السير باتجاه السمارة في طريقٍ لا مرئيّ، أحراراً، كما لا يمكن لأحدٍ أن يكون. من حولهم وعلى مدّ النظر، رؤوس الكثبان تتحرّك، أمواجٌ لمسافات لا يمكن التكهّن بها. أقدام النساء والأطفال الحافية تدوس الرمال تاركةً أثراً خفيفاً سرعان ما تمحوه الرياح. في البعيد، يطفو السراب بين الأرض والسماء، مدنٌ بيضاء، أسواق، قوافلُ، جِمالٌ، حميرٌ محمّلة بالمؤن، أحلامٌ مشوّشة.

الرجال أنفسهم، كانوا أشبه بالسراب الذي وُلد من الجوع والعطش والتعب فوق الأرض الجرداء.

تلتفّ الدروب حلقاتٍ، وتؤدّي إلى نقطة الانطلاق دوماً، ترسم دوائر تضيق أكثرَ فأكثر حول الساقية الحمراء. لكنّ طريقهم لا نهاية لها، فهي أطول من حياة البشر.

قدم أناسٌ من الشرق، من وراء جبال «عظم الريح»، وأبعد من «يتي»، و«تبلبالة». وآخرون جاؤوا من الجنوب، من واحة «الحريشة»، من عين «عبد الملك». ساروا باتجاه الغرب، وإلى الشمال، وحتى شواطئ البحر، أو عبروا مناجم تيغازا(*) الملحيّة. جاؤوا إلى الأرض المقدّسة، إلى وادي الساقية الحمراء الكبير، محمّلين بالمؤن والذخيرة، يجهلون أين كانوا يذهبون. ساروا يهتدون بدروب النجوم، يتجنّبون الرياح المحمّلة بالرمال، عندما تصبح السماء حمراء وتبدأ الكثبان بالتحرّك.

هكذا كانت حياة الرجال والنساء، مسيراً لا يعرف الراحة. يباغتهم الموت ذات يوم، في نور الشمس، أو في رصاصة العدوّ، أو تقتلهم الحُمّى. النساء ينجِبنَ الأطفال ببساطة وهنّ مُقعياتٌ في ظلّ الخيمة، يشددن بطونهن بحزامٍ قماشيّ عريض، تساندهنّ امرأتان لا غير. منذ اللحظة الأولى، يكون انتماء الوليد إلى المدى اللامحدود، إلى الرمال، إلى الأشواك، إلى الأفاعي والجرذان، وعلى الأخصّ إلى الرياح، لأنها عائلته الحقيقية. الفتيات الصغيرات ذوات الشعر النحاسي يكبرن ويتعلّمن أعمال الحياة التي لا تنتهي. لا مرآة لديهن سوى الامتداد الرائع لسهول الجصّ تحت السماء الوادعة. أما الصبيان، فقد كانوا يتعلّمون المشي، والكلام، والصيد، والقتال، كي يتعلّموا ببساطة الموت فوق الرمال.

(*) تيغازا: مدينة مهجورة في أقصى شمال مالي.

هناك أمام الخيمة في جهة الرجال، بقي المرشد واقفاً يتفرّج على القوافل وهي تتحرّك باتجاه الكثبان نحو الآبار. كانت الشمس تضيء وجهه الأسمر وأنفه المعقوف كالعُقاب، وشعره النحاسي المجعّد. تحدّث نور إليه، لكنّه لم يصغِ. وعندما ساد الهدوء في المخيّم، أشار لنور، وذهبا معاً باتجاه الطريق الصاعد نحو الشمال، إلى قلب الساقية الحمراء. أحياناً كانا يصادفان شخصاً يسير باتجاه السمارة، فيتبادلان معه بضع كلمات:

– من أنت؟

– من قبيلة بو سباع. وأنت؟

– من الجامعيين[*].

– من أين أنت قادم؟

– من عين راق.

– أنا من الجنوب، من إيغيتّي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثم يفترقون دون وداع. إلى البعيد قليلاً، كان الطريق يخترق أرضاً حصوية وخمائلَ صغيرةً من أشجار الأكاسيا الهزيلة. صعُب عليهما السير بسبب الحصيات المدبّبة البارزة في الأرض الحمراء، ووجد نور مشقّةً في تتبّع خطوات والده. اشتدّ سطوع الضوء، وبدأت رياح الصحراء ترفع الغبار تحت أقدامهما. لم يعد الوادي مفتوحاً في هذا الموقع، كان أشبه بصدعٍ رماديّ وأحمر يلمع كالمعدن في بعض المواضع. تراكم في مجراه الجافّ الحصى الأبيضُ والأحمر، وحجر صوّان يعكس نور الشمس شرارات.

(*) تنقسم قبيلة توبالت إلى الخلائفيين (نسبةً إلى جدّهم الذي يقال إنه كان خليفة)، والجامعيين (نسبةً إلى جدّهم سيدي جامع).

كان المرشد يسير عكس الشمس، ينحني وقد غطّى رأسه بعباءته الصوفيّة. مشى نور وراءه وأشواك الدغل تمزّق ثيابه وتشطب ساقيه وقدميه الحافيتين، لكنّه لم يكن يعبأ بذلك. كان نظره مثبّتاً أمامه، على خيال والده المُجدّ في السير. فجأةً توقّفا معاً في آنٍ واحد، فقد ظهر الضريح الأبيض بين الهضاب الصخرية يلمع في نور السماء. بقي الرجل ساكناً دون حراك بشبه انحناءة، كمن يحيّي القبر. ثم استأنفا المسير فوق الحصى الذي كان ينهار تحت أقدامهما.

على مهلٍ، ودون أن يخفض بصره، اتجه المرشد صعوداً نحو الضريح. كلّما اقتربا أكثر، كان السطح الكرويّ يبرز من بين الحجارة الحمراء ويرتفع نحو السماء، يضيئه النورُ الصافي الساطع، ويزيده الهواء الساخن حجماً. مكانٌ لا ظلّ فيه، صخور التلّ المدبّبة فحسب، وفي الأسفل، قاع مجرى المياه الجافّ.

وصلا أمام الضريح. أربعة جدران طينية مطليّة بالكلس ترتكز على قاعدة من الحجارة الحمراء. له بابٌ وحيد شبيه بمدخل الفرن، كان قد سُدَّ بصخرةٍ حمراءَ كبيرة. فوق الجدران، قبّةٌ بيضاء لها شكل قشرة البيضة، يعلوها رأس حربة. تعلّقت أنظار نور بمدخل الضريح، وصار الباب يكبر في عينيه ليصبح باب صرحٍ عظيم أسواره أشبه بجروفٍ كلسيّة، وقبّته هائلة كالجبل. هنا تتوقّف الرياح وحرارة الصحراء وعزلة النهار، هنا تنتهي الدروب الرِّقاق، حتى تلك التي يسلكها التائهون والمجانين والمهزومون. هنا مركز الصحراء، ولعلّه المكان الذي بدأ فيه كلُّ شيء، في الماضي حين جاء البشر لأوّل مرّة. كان الضريح يسطع فوق منحدر الهضبة الحمراء ونور الشمس ينعكس على التراب المدكوك، يحرق القبّة البيضاء، فينهال منها، بين حينٍ وآخر، تعرّجاتٌ صغيرة من الغبار الأحمر على طول شقوق الجدران. كان نور ووالده وحدهما بالقرب من الضريح، والصمت فوق وادي الساقية الحمراء يخيّم كثيفاً.

عندما دحرج المرشد الحجر الكبير، شاهد عبر الباب المستدير الظلام المدلهمّ البارد، وخُيِّل إليه أنّ نسمة هواء لامست وجهه.

حول الضريح فناءٌ من التراب الأحمر مهّدته أقدام الزائرين. جلس المرشد ونور للصلاة أولاً. بالقرب من قبر الرجل المقدّس، هنا في أعلى الهضبة، فوق وادي الساقية الحمراء الذي يمتدّ قاعه الجافّ على مدّ النظر، في هذا الأفق الشاسع، حيث تظهر هضابٌ وصخور بعيدة قبالةَ السماء الزرقاء، كان الصمت جارحاً، كأنّ العالم قد توقّف عن الحركة والكلام وتحوّل إلى حجر.

غير أنّ نور، كان يسمع، بين حينٍ وآخر، طقطقةَ الجدران الطينية، وطنينَ حشرةٍ وأنين الرياح.

«لقد أتيت» -كان الرجل الجاثي على الأرض المرصوصة يقول- «ساعدني يا روح والدي، ويا روح جدّي.. لقد عبرت الصحراء، وأتيت طالباً البركة قبل أن أفارق الحياة. ساعِدني، امنحْني البركة، فأنا من صلبك، لقد أتيت!».

كان يتحدّث على هذا النحو ونور يصغي إلى كلمات أبيه دون أن يفهم شيئاً. يتحدّث تارةً بالصوت الملآن، وتارةً همساً وهو يرنّم ويهزّ رأسه، مردّداً باستمرار هذه العبارة البسيطة: «لقد أتيت، لقد أتيت!».

كان ينحني إلى الأمام، يأخذ التراب الأحمر ملء يديه، وينهال به على وجهه وجبينه وأجفانه وشفاهه.

ثم نهض وذهب باتجاه الباب. أمام الثغرة، ركع يصلّي مرّةً أخرى مُلصقاً جبهته بحجارة العتبة. تبدّد الظلام داخل الضريح ببطء، كما يتبدّد ضباب الليل. الجدران بيضاء عارية، كما في الخارج، وظهرت في السقف الواطئ دعاماتٌ من العيدان الممزوجة بالطين الجافّ.

دخل نور أيضاً يدبّ على أربع. أحسّ تحت راحتيه بقسوة الأرض

الترابية الباردة الممزوجة بدم الخراف. كان المرشد داخل الضريح ممدّداً على بطنه فوق الأرضية المرصوصة، يمدّ ذراعيه أمامه ويلمس التراب براحتيه، حتى صار هو والأرض واحداً. كان قد توقّف عن الصلاة والترنيم، وبدأ يتنفّس ببطء، فمه لصق الأرض، يصغي إلى نبض دمه في نحره وفي أذنيه. كأنّ شيئاً غريباً كان يدخل إليه، عبر فمه، عبر جبينه، عبر راحتَيْ يديه وبطنه، يتسلّل إلى أعماق أعماقه ويحرّكها على نحوٍ غير محسوس. لعلّه الصمت الآتي من الصحراء، من بحر الكثبان، من الجبال الصخرية تحت ضوء القمر، أو ربما من سهول الرمال الوردية الشاسعة، حيث يرقص نور الشمس كستارة المطر، من تجاويف المياه الخضراء، التي تحدّق إلى السماء كأنها عيون، أو من السماء التي تخلو من الغيوم والطيور، هناك، حيث الرياح حرّةٌ طليقة.

أحسّ الرجل الممدّد على الأرض بخدرٍ في أعضائه. غمرت الظلمة عينيه كأنه سيستغرق في النوم. مع ذلك، ثمّة قوّة جديدة كانت تدخل عبر بطنه ويديه في الوقت نفسه، وتنتشر في كلّ عضلة من عضلاته. كان كلّ شيء في داخله يتغيّر، يكتمل، ذهب الألم ومعه الرغبة وحبّ الثأر. نسي ذلك كلّه، كأنّ مياه الوضوء غسلت روحه. لم يعد هناك كلماتٌ أيضاً، إذ إنّ ظلام الضريح البارد جعلها عديمة النفع. حلَّ محلَّ الكلمات هذا التيّارُ الغريب الذي كان يهتزّ داخل التراب الممزوج بالدم، تلك الموجةُ، وهذه الحرارة. لا شيء ممّا يحدث هنا يشبه ما يحدث على الأرض. إنها قوّةٌ مباشرة، عفوية، نابعة من عمق الأرض وتذهب نحو عمق الفضاء، كأنّ صلةً غير مرئيّة كانت توحّد جسد الرجل الممدّد على الأرض بباقي العالم.

كان نور يتنفّس بصعوبة، وهو ينظر إلى والده في ظلمة الضريح، كان يلامس الأرض الباردة بأصابعه المتباعدة، فتحمله عبر فضاء المكان في جولة مدوّخة.

بقيا على هذه الحال طويلاً، المرشد ممدّد على الأرض، ونور يجثو ساكناً وعيناه شاخصتان. وبعد أن انتهى كلّ شيء، نهض الرجل على مهلٍ وأخرج ابنه. أعاد دحرجة الحجر وأغلق المدخل، ثم ذهب ليجلس مستنداً إلى جدار الضريح بالقرب من الباب. بدا منهَكاً، كأنه سار لساعاتٍ دون مأكل أو مشرب، لكنّ في داخله قوّةً جديدة، وفرحاً يضيء نظرته. كأنه أدرك الآن ما عليه فعله، وصار يعرف أيَّ طريق يجب أن يسلك.

أسدل غطاء رداءه الصوفيّ على وجهه، وشكر الوليّ الصالح دون أن ينطق بالكلام، حرّك رأسه قليلاً ورنّم من داخل حنجرته، بينما كانت يداه الزرقاوان الطويلتان تمسّدان الأرض المدكوكة وتقبضان التراب الناعم.

كانت الشمس أمامهما تواصل مسيرها المنحني في السماء على مهل، تنحدر إلى الجهة الأخرى من الساقية الحمراء، فتستطيل معها ظلال التلال والصخور في أسفل الوادي. غير أنّ المرشد كان ساهياً عن كلّ شيء. فقد كان يجلس ساكناً مسنداً ظهره إلى جدار الضريح، لا يشعر باليوم العابر ولا بالجوع أو العطش. كان ممتلئاً بقوّةٍ أخرى، بزمنٍ آخر، جعلاه غريباً عن رتبة البشر. لعلّه لم يعُد ينتظر شيئاً، ولم يعد يعرف شيئاً، وصار شبيهاً بالصحراء: هادئاً، ساكناً، وخالياً.

عندما بدأ الليل بالهبوط، شعر نور بالخوف قليلاً ولامس كتف أبيه. نظر إليه الرجل دون أن يقول شيئاً، وعلا وجهَه طيفُ ابتسامة. ثم بدأا ينزلان الهضاب نحو المجرى الجاف. على الرغم من الليل المتسلّل، شعرا بألمٍ في عيونهما، إذ إنّ الرياح كانت حارّة، وأحرقت وجهيهما وأياديهما. راح الرجل يترنّح قليلاً على الطريق، واضطرّ إلى الاتكاء على كتف نور.

في عمق الوادي هناك في الأسفل، كانت المياه قد أصبحت سوداء، والبعوض يرقص في الهواء، يحاول أن يلسع أجفان الأطفال. إلى البعيد قليلاً، بالقرب من أسوار السمارة الحمراء، كانت الخفافيش تطير فوق سطوح الخيام وتدور حول المواقد. عندما وصل نور ووالده أمام أوّل الآبار، توقّفا مرّةً أخرى كي يتوضّأا. ثم أدّيا آخر صلاة وهما متجهان إلى الناحية التي كان يقترب منها الليل.

ثمّ ازدادت أعداد الواصلين إلى وادي الساقية الحمراء أكثر فأكثر. يتوافدون من الجنوب، البعض مع الجِمال والخيول، لكنّ غالبيّتهم سيراً على الأقدام، لأنّ المواشي كانت تنفق من العطش والمرض على الطريق. في كلّ يوم، كان الشابّ اليافع يرى مخيّماتٍ جديدةً حول سور السمارة الطيني، وتضاف حلقاتٌ جديدة من خيام الصوف البنّيّ حول أسوار المدينة. في كلّ مساء، وعند حلول الليل، كان نور يقف ليتفرّج على الواصلين الجدد داخل سحبٍ من الغبار. لم يكن قد رأى في حياته هذا العدد من البشر. رجالٌ ونساء في صخب دائم، صراخ أطفالٍ حادّ، بكاء، تتداخل مع أصوات ثغاء الماعز ومأمأة الخراف، وقرقعة الجرّ، ورغاء الجمال. كانت تنبعث من الرمال رائحةٌ غريبة، تصله منها نفحاتٌ مع رياح المساء، لم يستطِع نور أن يعرف كنهها على وجه التحديد. رائحةٌ قوية، لاذعة وحلوة في آنٍ معاً. إنها رائحة أجساد البشر وأنفاسهم وعرقهم، ورائحة فحم نار الحطب والعيدان اليابسة والروث المتّقِد في الظلام. ارتفع دخان المواقد فوق الخيام، وسمع نور غناءً شجيّاً لنساءٍ يهدهدن أطفالهن.

كان غالبية الواصلين من الكهول والنساء والأطفال مُنهَكين من السير الشاقّ عبر الصحراء، ثيابهم ممزّقة، أقدامهم حافية أو ملفوفة بالخرق. اسودّت وجوههم من حروق الشمس، وصارت عيونهم أشبه بقطعٍ من الفحم. الأطفال يسيرون عُراة، ندوب الجروح ظاهرة فوق أرجلهم، وبطونهم منتفخة من الجوع والعطش.

راح نور يطوف في المخيّم متسلّلاً بين الخيام، ويدهش من رؤية هذا العدد من الناس، وفي الوقت نفسه، يشعر بشيء من الخوف، لأنه يظنّ، دون أن يدرك السبب، أنّ الكثير من هؤلاء الرجال وتلك النسوة وأولئك الأطفال، سوف يلقون حتفهم قريباً.

كثيراً ما كان يلتقي بمسافرين جدد، يمشون بتمهّل على طول الممرّات بين الخيام. البعض منهم جاء من أقصى الجنوب، سود البشرة كأهل السودان، ويتحدّثون لغةً لا يفهمها نور. غالبية الرجال ملثّمون ومدثّرون بعباءات صوفيّة وأسمال زرقاء، ينتعلون نعالاً من جلود الماعز. يحملون بنادق طويلة بفوهات برونزية، ورماحاً وخناجر. كان نور يتنحّى مفسحاً لهم الطريق، بينما كانوا يتجهون إلى باب السمارة لإلقاء التحيّة على الشيخ الكبير، مولاي «أحمد بن محمد الفاضل»، الشيخ الذي يدعونه: «ماء العينين»(*).

جميعهم كانوا ذاهبين للجلوس على مقاعد من الطين الجاف، حول فناء بيت الشيخ. ذهبوا لأداء صلاة المغرب عند شرق البئر، وهم جاثون على الرمال وأجسادهم متجهة إلى الصحراء.

عندما حلَّ الليل، عاد نور إلى خيمة أبيه وجلس إلى جوار أخيه البكر. في الجانب الأيمن من الخيمة، كانت أمّه وأخواته يتبادلن أطراف الحديث وهنّ مستلقياتٌ فوق البُسط بين المؤن وسروج الجمال. شيئاً فشيئاً، عاد الهدوء فوق السمارة وفي الوادي، وخمدَت أصواتُ البشر وصيحات الدوابّ واحدةً بعد الأخرى. ظهر البدر في السماء السوداء، قرصاً بهيّاً كبيراً أبيض. كان الليل بارداً، على الرغم من حرارة النهار

(*) الشيخ ماء العينين (1831–1910): عالم جليل ومؤلّف ومجاهد، أخذ عن والده القرآن وكان متأثّراً بالتصوّف. وُلد في موريتانيا وهو من أسّس مدينة الساقية الحمراء. لجأ إليه الخائفون وكان مرشداً للمخطئين، اقتنى مكتبةً كبرى وكان له مريدون كثر. ارتبط اسمه بمقاومة الاستعمار الفرنسي والإسباني.

التي بقيت في الرمال. بعض الخفافيش كانت تطير أمام القمر، وتتهاوى بسرعة نحو الأرض. أما نور الممدّد على جنبه مسنداً رأسه إلى ذراعه، فقد كان يلاحقهم بنظراته بانتظار أن يغفو. غفا فجأةً، دون أن يعي وعيناه مفتوحتان.

عندما استيقظ، انتابه شعورٌ غريب، كأنّ الوقت لم ينقضِ. راحت عيناه تبحثان عن قرص القمر، وعندما رآه قد أصبح من جهة الغرب، أدرك أنه نام طويلاً.

كان الهدوء فوق المخيّمات ثقيلاً. لا صوت سوى صوت كلابٍ بريّة تنبح في البعيد، في مكانٍ ما عند تخوم الصحراء.

نهض نور ولاحظ أنّ والده وأخاه قد غادرا الخيمة. وحدها خيالات النساء والأطفال الملفوفة بالبسط، كانت تظهر في يسار الخيمة. بدأ نور يمشي في الطريق الرملي بين الخيام، متجهاً إلى أسوار السمارة. كان نور القمر يضيء الرمال، فتبدو بيضاء ناصعة، تتخلّلها ظلال الحصى والشجيرات الزرقاء. غاب كلّ صوت، الناس كلّهم نيام، لكنّ نور يعرف أنّ الرجال ليسوا داخل الخيام. لم يكن هناك سوى الأطفال النائمين، والنساء دون حراكٍ ينظرن إلى الخارج، يتدثّرن بالعباءات والبُسط. ارتجف الصبيّ من هواء الليل البارد، فقد كان الرمل تحت قدميه الحافيتين بارداً وقاسياً.

عندما اقترب نور من أسوار المدينة، سمع أصوات الرجال. إلى البعيد قليلاً، شاهد خيال الحارس ساكناً دون حراك، يجلس القرفصاء أمام بوّابة المدينة، يسند بندقيته الطويلة إلى ركبتيه. لكنّ نور كان يعرف مكاناً مهدّماً من السور الطيني، وتمكّن من الدخول إلى السمارة متفادياً المرور أمام الحارس.

لمح على الفور جموع الرجال في فناء منزل الشيخ. كانوا يجلسون على الأرض، مجموعاتٍ من خمسة رجالٍ أو ستة حول المواقد، حيث

كان الماء يغلي في الأواني النحاسية الكبيرة لتحضير الشاي الأخضر. تسلّل نور بين الجمع دون صوت. ما من أحدٍ نظر إليه. كان الرجال كلُّهم منشغلين بزمرةٍ من المحاربين الواقفين أمام باب البيت. بعض جنود الصحراء بثيابهم الزرقاء، وقفوا دون حراك ينظرون إلى رجلٍ مسنّ يرتدي عباءةً بسيطةً من الصوف الأبيض تغطّي رأسه، معه رجلان مسلّحان بعمر الشباب، يتكلّمان بالتناوب، بلهجةٍ محتدّة.

من المكان الذي جلس فيه نور، وبسبب صخب الرجال الذين يردّدون أو يعلّقون على ما قيل، لم يستطع أن يفهم الكلام. وعندما أَلِفَت عيناه التباين بين العتمة وأضواء المواقد الحمراء، تعرّف على خيال الرجل المسنّ، إنه الشيخ الأكبر ماء العينين، ذاك الذي رآه عندما أتى والده وأخوه لإلقاء السلام عليه عندما وصلوا إلى بئر السمارة.

سأل نور جاره عن هذين الشابّين اللذين يحيطان بالشيخ، فأعطاه اسميهما: «سعدبو والأغظف، شقيقا أحمد الدهيبة، الرجل الملقّب بشذرة الذهب، وهو الذي سيصبح ملكنا قريباً».

لم يحاول نور أن يفهم كلام المحاربين الشابين. كان ينظر بكلّ قواه إلى وجه الرجل العجوز النحيل الواقف ساكناً بينهما، وقد بدت عباءته البيضاء التي أضاءها نورُ القمر بقعةً شديدة البياض.

اتجهت أنظار الرجال كلّهم إليه أيضاً، وتحوّلت إلى نظرة واحدة، كأنّه المتكلّم الفعليّ، كأنه على أهبة القيام بحركةٍ واحدة، وسوف يتغيّر كلُّ شيء من بعدها، فهو الذي يعطي الأوامر للصحراء نفسها.

لم يكن ماء العينين يتحرّك، وبدا كأنه لا يسمع كلام ولديه والضجيج المستمرّ الآتي من مئات الرجال الجالسين في الفناء أمامه. أحياناً، كان يدير رأسه قليلاً وينظر إلى البعيد، إلى ما وراء الرجال وأسوار المدينة الطينية، نحو السماء المظلمة من جهة التلال الصخرية.

لم يفهم نور الكلام حوله. ظنّ أنّ الشيخ ربما يريد من الرجال أن يعودوا أدراجهم ببساطة إلى الصحراء من حيث أتوا، فاعتصر قلبه. كانت السماء فوق السمارة باردةً لا قرار لها، تسبح نجومها في سحابة نور القمر البيضاء، فبدت له كنذير موتٍ أو هجران، علامةً من علامات التخلّي الرهيب الذي يشقّ فراغاً عميقاً في الخيام الهاجعة وفي أسوار المدينة. شعر نور بذلك على وجه الخصوص حين نظر إلى هيكل الشيخ الكبير النحيل، كأنه ينفذ إلى قلب الشيخ ذاته، ويدلف إلى أعماق صمته.

شيوخٌ آخرون، رؤساء الخيمة الكبرى، محاربون زرق، جاؤوا واحداً تلو الآخر. جميعهم روَوا الحكاية نفسها، وقد تهدّجت أصواتهم من التعب والظمأ. تحدّثوا عن جنود مسيحيّين دخلوا إلى واحات الجنوب، جلبوا معهم الحرب للبدو. تحدّثوا عن مدنٍ محصّنة بناها المسيحيون في الصحراء، تقطع الطريق إلى الآبار وتصل حتى سواحل البحر. عن معاركَ خاسرة، ورجالٍ ماتوا بأعداد كبيرة، بحيث لم يعد باستطاعتهم تذكّر أسمائهم، أفواجٌ من النساء والأطفال هربت نحو الشمال عابرةً الصحراء، هياكلُ مَواشٍ نفقت صادفوها على طول الطريق في كلّ مكان. تحدّثوا عن القوافل التي يعترضها الجنود المسيحيون لتحرير العبيد وإعادتهم إلى الجنوب، وكيف كان محاربو الطوارق يتلقّون المال من المسيحيين عن كلّ عبدٍ سرقوه من القوافل. حكوا عن البضائع والمواشي المسلوبة، عن عصابات قطّاع الطرق التي دخلت الصحراء في الوقت نفسه مع المسيحيين. عن جيوش جنود المسيحيين، يرشدهم رجالٌ سود من الجنوب بأعدادٍ كبيرة، تغطّي كثبان الرمال من طرف الأفق إلى طرفه. ثم عن الفرسان الذين يطوّقون الخِيام ويقتلون كلّ من يقاومهم في أرضه، يأخذون الأولاد في ما بعد لكي يضعوهم في مدارس المسيحيين، في حصون على سواحل البحر. حينذاك، وعندما

كان الرجال الآخرون يسمعون هذا الكلام، كانوا يقولون إنّ ذلك صحيح بحقّ الله، فيعلو صخب الأصوات في الفناء ويتحرّك كأنّ الرياح قد وصلت.

كان نور يصغي إلى جلبة الأصوات التي تتعاظم ثم تعود لتخفُتَ، مثل رياح الصحراء حين تمرّ فوق الكثبان، فتنقبض حنجرته، لأنّ هناك خطراً مخيفاً يهدّد المدينة والرجال، تهديداً لا يستطيع أن يدركه.

دون أن يرفّ له جفن، راح نور ينظر إلى طيف الرجل العجوز الأبيض، الواقف دون حراك بين ولديه، متحدّياً البرد والليل. فكّر أنّ ماء العينين وحده قادرٌ على تغيير مجرى الأمور هذه الليلة، يستطيع أن يهدّئ غضب الجماهير بحركةٍ واحدة من يده، أو على العكس، أن يثير حميّتها ببضع كلماتٍ فقط، يتناقلونها من فمٍ إلى فم، فتخلق موجةً متعاظمة من الغضب والمرارة. شأنهم شأن نور، كان الرجال كلّهم يتطلّعون إليه، بعيونٍ اشتعلت من التعب والحمّى، وقد أجهد الألم أفكارهم. جميعهم كانوا يشعرون بجلودهم التي أيبسَتها الشمسُ وشفاهِهم التي جفّفتها رياحُ الصحراء. كانوا ينتظرون، دون حراكٍ تقريباً، بأنظار شاخصة ترقب أيَّ إشارة. لكنّ ماء العينين بدا غافلاً عنهم. كانت عيناه تحدّقان في البعيد، ونظرته تمرّ فوق رؤوس الرجال، وإلى ما وراء أسوار السمارة الطينية الجافّة. لعلّه كان يبحث عن جواب لمخاوف الرجال في أعماق السماء المظلمة، في سحابة الضوء الغريبة التي كانت تسبح حول دائرة القمر. رفع نور نظره، إلى المكان الذي يرى فيه عادةً نجوم مجموعة الدبّ الأصغر السبعة، لكنّه لم يجد شيئاً. وحده كوكب المشتري ظهر ثابتاً في السماء الباردة. كان القمر قد كسا كلّ شيء بنوره الشفيف. كان نور يعشق النجوم، فقد علّمه أبوه أسماءها منذ الصغر، لكنّه هذه الليلة، شعر بأنه غير قادر على التعرّف إلى السماء. كلُّ شيء شاسعٌ، بارد،

وغارق في نور القمر الأبيض، كلُّ شيء مبهر. كان جمر المواقد على الأرض يبدو حفراً حمراء تضيء وجوه الرجال على نحوٍ غريب. لعلّه الخوف، هو الذي غيّر كلّ شيء، جعل الوجوهَ والأيدي هزيلةً وألقى هالاتٍ سوداء حول محاجر العيون الغائرة. لعلّ الليل، هو الذي جمّد النور في نظرة الرجال، وحفر هذا الثقب الهائل في عمق السماء.

انتهى الرجال من الكلام، كلُّ واحدٍ بدوره وهو واقف بالقرب من الشيخ ماء العينين. هؤلاء الرجال الذين سمع نور أسماءهم من فم والده في ما مضى، رؤساء القبائل المحاربة، رجال الأسطورة، بنو معقل وعريب وأولاد يحيى، وأولاد دليم، العروسيون، الشرقاويون، الركيبات الذين يلثمون وجوههم بالكوفية السوداء، ومن يتحدّثون لغة التشلحيت(*)، وأهالي إداو بلال، وإداو مرباط، وآيت باعمران، وأولئك الذين يجهل أسماءهم وجاؤوا من أطراف موريتانيا وتمبكتو. والآخرون الذين لم يرغبوا في الجلوس بالقرب من المواقد وظلّوا واقفين قريباً من مدخل الساحة، مدثّرين بعباءاتهم وعلى وجوههم أمارات الخوف والازدراء في الوقت نفسه. والرجال الذين لم يرغبوا في الكلام. كان نور ينظر إليهم جميعاً، هنا وهناك، ويرى الفراغ الرهيب الذي يتعمّق في وجوههم، كأنهم على موعد مع الموت في وقتٍ قريب.

لم يكن ماء العينين يراهم، فهو لم ينظر إلى أيّ شخص، ربما لمرّةٍ واحدة فقط، عندما وقعت نظرته لبرهةٍ قصيرة على وجه نور، كأنه دُهش من رؤيته وسط جمع الرجال. ومنذ تلك اللحظة الخاطفة كالبرق، ولو أنها محسوسةٌ إلى حدٍّ ما، بدأ قلب نور يخفق أسرع وأقوى، وانتظر الإشارة التي سيعطيها الشيخ للرجال المجتمعين أمامه. بقي الرجل المُسنّ ساكناً، كأنه يفكّر بشيءٍ آخر، بينما كان ولداه يميلان نحوه

(*) لغة أمازيغية لجماعة الشلوح، التي تعيش أساساً في جبال الأطلس.

ويتحدّثان بصوتٍ خفيض. في النهاية، أخرج من ردائه مسبحةً من خشب الأبنوس، وجلس القرفصاء على التراب، على أقلّ من مهله، ومال برأسه نحو الأمام. ثم بدأ يصلي، وهو يتلو الصيغة التي كان قد كتبها لنفسه، بينما جلس ولداه على جانبيه. بعد قليل، كأنّ هذه الحركة كانت كافية كي تتوقّف جلبة الآدميين، عمَّ الهدوء في الساحة، هدوءٌ شديد وبارد في ضوء القمر المكتمل الأبيض. الأصوات البعيدة، التي يكاد لا يمكن سماعها، الآتية من الصحراء والرياح وصخور الهضاب الجافة، ونباح الكلاب البرّيّة المتقطّع، عادت لتملأ المكان. دون سلام أو كلام، دون أيّ صوت، نهض الرجال، واحداً تلو الآخر، وغادروا الساحة. راحوا يمشون على الطريق الترابي، واحداً واحداً، إذ ما عادوا يرغبون في الكلام. عندما لامس والده كتفه، نهض نور وغادر هو أيضاً. قبل أن يغادر الساحة، التفت وشاهد خيال الرجل العجوز النحيل. كان وحيداً حينئذٍ في نور القمر، يبسمل صلاته وهو يهزّ أعلى جسده كمن يعتلي صهوة جواد.

في الأيام التي تلت، تعاظم الخوفُ أكثر في مخيّم السمارة. لم يكن بالإمكان تفسير الأمر، لكنّ الناس جميعهم كانوا يشعرون به، مثل ألمٍ في القلب، مثل تهديد. كانت الشمس خلال النهار حارقةً جداً، تعكس ضياءها القوي على زوايا الحصى وأرض المجرى الجافّ، وتهتزّ في البعيد عند مرتفعات جبال الحمادة الصخرية، وفوق وادي الساقية سرابٌ لا يغيب. في كلّ ساعة من النهار، كانت تصل أفواجٌ جديدة من القبائل منهكة من التعب والعطش. جاؤوا من الجنوب مجبَرين على السير. كانت أخيلتهم عند الأفق تختلط بارتعاشات السراب، يسيرون ببطء وقد حزموا أقدامهم بسيور من جلد الماعز، يحملون فوق ظهورهم أحمالهم القليلة. تتبعهم أحياناً جِمالٌ هزيلة وخيول عرجاء، وماعز

وأغنام. كانوا ينصبون خيامهم عند أطراف المخيّم على وجه السرعة. لا أحد يذهب لإلقاء التحيّة عليهم، أو ليسألهم من أين جاؤوا. البعض منهم يحمل ندوب الطعنات التي تلقّوها في معاركهم ضدّ الجنود المسيحيين، أو ضدّ لصوص الصحراء. معظمهم كانوا في الرمق الأخير، أعيتهم الحمّى أو أوجاع البطن. أحياناً، كانت تصل بقايا جيوش قُضِي على القسم الأعظم منها، دون قيادة ودون نساء، رجالٌ سود البشرة شبه عراة بثياب ممزّقة، ونظراتٍ خاوية تلمع من الحمّى والجنون. كانوا يسارعون إلى مياه البئر أمام باب السمارة ليَرْووا ظمأهم، ثم يستلقون على الأرض في ظلّ أسوار المدينة كمن يريد النوم، لكنّ عيونهم تبقى مفتوحة على اتساعها.

منذ ليلة اجتماع القبائل، لم يرَ نور الشيخَ ماء العينين ولا ولديه. لكنّه كان يشعر أنّ اللغط الكبير الذي هدأ عندما بدأ الشيخ صلاته لم يتوقّف حقيقةً. لم يعُد اللغط في الكلام الآن. توقّف والده وأخوه البكر وأمه عن الكلام، وصاروا يشيحون بوجوههم كأنهم يتفادون الأسئلة. لكنّ القلق كان يتعاظم باستمرار، في جلبة الخيام، في أصوات المواشي التي عيل صبرُها، في وقع خطوات القادمين الجدد من الجنوب، في الكلام الجافي الذي يتبادله الرجال في ما بينهم، أو الذي يوجّهونه لأطفالهم. كان القلق بادياً أيضاً في الروائح القوية، في العرق، والبول، وتلك الحموضة الطاغية الآتية من الأرض ومن ثنايا الخيام. كان القلق يتعاظم بسبب ندرة الطعام الذي اقتصر على بضع حبّات من التمر بالتوابل والقليل من اللبن الرائب ومغليّ الشعير، يأكلونه على عجل في أول ساعات النهار قبل أن تظهر الشمس من بين الكثبان. كان في مياه البئر الآسنة التي عكّرتها أقدام البشر والمواشي، ولم يعد الشاي الأخضر يطيّبها. مضى زمنٌ طويل لم يبقَ فيه لا سكّر ولا عسل، ويبس التمر كالحجارة، وأصبح

لحم الجمال النافقة من الإنهاك قاسياً وحامزاً. القلق يتعاظم في الأفواه الجافة والأصابع الدامية، في الأحمال التي تثقل على رؤوس الرجال ومناكبهم، في حرارة النهار يعقبها صقيع الليل، الذي يجعل الأطفال يرتجفون داخل طيّات البسط القديمة.

في كلّ يوم، عند مرور نور أمام الخيام، كان يسمع نحيب النساء، لأنّ أحدهم قد مات أثناء الليل. في كلّ يوم، كانوا يمضون بشكلٍ ما نحو اليأس والغضب أكثر، فيزداد قلب نور اعتصاراً. كان يتذكّر كيف كانت نظرة الشيخ تطفو في البعيد فوق الهضاب غير المرئية في الليل، ثم حطّت عليه لبرهةٍ قصيرة كالبرق، فأنارت أعماقه الدفينة.

الجميع جاؤوا إلى السمارة من أماكن قصيّة، كأنها مقصد رحلتهم، وبعدها لن يحتاجوا إلى أيّ شيء. جاؤوا لأنّ الأرض ضاعت تحت أقدامهم، كأنها غارت وراءهم، وصار من المستحيل العودة إلى الوراء. وها هم هنا الآن، بالمئات، بالآلاف، فوق أرض لا يمكن أن تستوعبهم، أرض تخلو من المياه والأشجار والطعام. كانوا يديرون أنظارهم باستمرار ناحية نقاط في دائرة الأفق كلّها، إلى جبال الجنوب المخيفة، والصحراء الشرقية، ومجاري مياه الساقية الجافّة، وهضاب الشمال المرتفعة. كانت تتوه في السماء الخالية من الغيوم أيضاً، التي تعمي الأبصار بشمسها الحارقة. حينذاك، كان القلق يتحوّل إلى خوف، والخوف إلى غضب، فيشعر نور بموجة غريبة تمرّ فوق الخيام، ربما هي رائحة تنبعث من قماش الخيام وتطوف حول مدينة السمارة. وهي شعور بالسُّكْر أيضاً، من الخواء والجوع اللذين كانا يشوّهان الأشكال والألوان على الأرض، يغيّران زرقة السماء، يجعلان البشر يتخيّلون بحيراتٍ زرقاء واسعة مياهها رقراقة فوق سطوح الملّاحات الحارقة، ويرون الأفق يعجّ بسحبٍ من الطيور والذباب.

في ساعة المغيب، كان نور يذهب للجلوس في ظلّ السور الطينيّ، وينظر إلى المكان الذي ظهر فيه ماء العينين تلك الليلة في الساحة، وإلى الموضع غير المرئي الذي جثا فيه كي يصلّي. في بعض الأحيان، كان يأتي رجالٌ آخرون، ويمكثون مثله دون حراك عند مدخل الساحة، ينظرون إلى السور الترابيّ الأحمر وثغراته الضيّقة. لا يقولون شيئاً، ينظرون فقط، ثم يعودون إلى خيامهم.

ثمّ، بعد تلك الأيام المليئة بالغضب والخوف على الأرض وفي السماء، وليالي الصقيع التي ينام فيها الناس أقلّ وقت، ويستيقظون فجأةً دون سبب، بعيونٍ محمومة وأجساد غارقة بالعرق المسموم، بعد هذا الوقت الطويل المديد، الذي كان يُميت المسنّين والأطفال الصغار شيئاً فشيئاً، فجأةً، ودون أن يعرف أحدٌ السبب، عرفوا أنّ أوان الرحيل قد حان.

كان نور قد سمع الخبر حتى قبل أن تتحدّث عنه أمه، وقبل أن يخبره أخوه ضاحكاً وكأنّ كلّ شيء تغيّر: «سوف نرحل غداً أو بعد غد، اسمعني جيّداً، سوف نرحل نحو الشمال، الشيخ ماء العينين هو الذي قال ذلك، سنرحل بعيداً عن هنا!». ربما وصله الخبر عبر الهواء، أو مع الغبار، أو سمعه وهو ينظر إلى الأرض المدكوكة في ساحة السمارة.

وصل الخبر وانتشر في الخيام كلّها بسرعة فائقة، ورنَّ صداه كالموسيقا. أصواتُ رجال، صياح أطفال، قرقعة أوانٍ نحاسية، همهمة جِمال، وطءُ حوافر، فرقعة ضراط الجياد. كان ذلك كلّه شبيهاً بصوت هطول المطر، حين ينزل في الوادي ويدحرج معه المياه الحمراء في مجراه. كان الرجال والنساء يروحون ويجيئون مهرولين على طول الممرّات، الخيول تضرب بحوافرها، الجِمال المربوطة تعضّ على وُثُقِها، فقد عيل صبرُ الجميع. على الرغم من حرارة الطقس، وقفت النساء أمام الخيام يتحدّثن ويصِحن. لا أحد كان يعرف كيف وصل

الخبر في البداية، لكنّ الجميع كانوا يردّدون العبارة التي كانت تشرح صدورهم: «سوف نرحل، سوف نرحل إلى الشمال!».

كانت عينا والد نور تلمعان بفرحٍ محموم: «سوف نرحل من هنا قريباً، شيخنا قال ذلك، سوف نرحل قريباً!».

«إلى أين؟» سأل نور.

«إلى الشمال، وراء جبال الدرعة، إلى سوس وتزنيت. هناك حيث الماء والأراضي بانتظارنا، للجميع، مولاي هيبة ملكنا الحقيقي، ابن ماء العينين قال ذلك، وأحمد الشمس أيضاً».

كانت جموع الناس تسير مندفعةً في الممرّات نحو مدينة السمارة، وعلق نور في التيّار معهم. ثار غبارٌ أحمر تحت خطوات الرجال ووَقْعِ حوافر الدواب، وشكّل سحابةً فوق المخيّم. دوّى أزيز أول طلقات الرصاص من البنادق، فطرد البارود رائحة الخوف التي كانت تسود فوق الخيام. كان نور يسير ولا يرى أمامه، يدفعه الناس فيصطدم بحواجز الخيام. أيبس الغبار حنجرته وأحرق عينيه. كانت حرارة الشمس رهيبةً، تلقي ومضاتٍ بيضاء من خلال الغبار الكثيف. مشى نور على غير هدى هكذا لبرهة، وهو يمدّ يديه أمامه. ثم سقط على الأرض وزحف ملتجئاً إلى داخل إحدى الخيام. في ظلّ الخيمة، تمكّن من استعادة حواسه. كانت هناك امرأةٌ عجوز تجلس على الأرض لصق قماش الخيمة، تلفّ نفسها بعباءةٍ زرقاء. عندما رأت نور، ظنّت في البداية أنه لصّ، فراحت تشتمه وترميه بالحصى. ثم اقتربت منه وشاهدت وجنتيه المعفّرتين بالتراب والأخاديد الحمراء التي تركتها دموعه فوقهما. قالت له بصوت أكثر عطفاً: «ما بك؟ أأنت مريض؟!».

هزّ نور رأسه. فجاءت العجوز إليه تدبّ على أربع: «لا شكّ أنك مريض، سوف أسقيك قليلاً من الشاي».

صبّت الشاي في قصعة نحاسية.

«اشرب!».

استعاد نور قواه بفضل الشاي الساخن الخالي من السكّر.

قال لها بصوتٍ متردّد بعض الشيء: «سوف نرحل قريباً من هنا».

نظرت إليه، ثم هزّت كتفيها: «نعم، هذا ما يقال».

«إنه يومٌ عظيم بالنسبة إلينا»، قال نور.

ولكن لم يبدُ على المرأة العجوز أنّ للخبر أهمّية، ربما ببساطة، لأنها كانت مسنّة.

«أنت قد تصل إلى هناك، إلى حيث يقولون، إلى الشمال، ولكن أنا سأموت قبل ذلك».

وكرّرت قولها: «سأموت قبل أن أصل إلى الشمال».

في ما بعد، خرج نور من الخيمة. كانت ممرّات الخيام قد خلت من جديد، كأنّ الناس كلّهم قد رحلوا. ولكن في ظلّ الخيام، كان يرى أشكالاً بشرية: عجائزَ ومرضى يرتجفون من الحمّى على الرغم من القيظ الشديد، أمّهاتٍ صغيرات في السنّ يحملن في أحضانهن أطفالهن الرضّع، وينظرن إلى الأمام بعيونٍ خاوية وحزينة. مرّةً أخرى، شعر نور بانقباضٍ في قلبه، لأنّ ظلّ الموت كان تحت الخيام.

مع اقترابه من جدار سور المدينة، كان إيقاع الموسيقا يعلو متواتراً. اجتمع الرجال والنساء أمام باب السمارة وشكّلوا نصف دائرةٍ واسعة حول العازفين. كان نور يسمع صوت المزامير الحادّ يعلو وينخفض، ثم يعلو ويتوقّف، بينما كانت الطبلات والربابات تعيد النغمة نفسها دون كلل. صوت ذكوريّ، خفيض ورتيب، يغنّي أغنيةً أندلسية، لكنّ نور لم يتمكّن من فهم الكلمات. فوق المدينة الحمراء، السماء ملساء، شديدة الزرقة، بالغة القسوة. سيبدأ حفل المسافرين عمّا قليل، وسوف يستمرّ

إلى الغد حتى الفجر، وربما حتى اليوم الذي يليه. سوف ترفرف الأعلام في الهواء، ويدور الفرسان حول الأسوار وهم يفرغون الرصاص من بنادقهم الطويلة، بينما تطلق النساء الزغاريد بأصواتهن المهتزّة كالجلاجل.

أحسّ بنشوة الموسيقا والرقص، ونسي ظلّ الموت الرابض تحت الخيام. كأنه بدأ المسير نحو جروف الشمال العالية، هناك حيث تبدأ سلاسل الجبال وتنبع شلّالات المياه الصافية، مياهٌ لم ترَها عينٌ قطّ. غير أنّ الخوف الذي استقرّ في داخله عندما رأى وصول قبائل البدو، بقي في مكانٍ ما من أعماقه.

أراد أن يرى ماء العينين. دار حول الجمع محاولاً رؤيته من جهة المنشدين، لكنّ الشيخ لم يكن مع الجمع. حينئذٍ، عاد نور إلى باب الأسوار. دخل إلى المدينة من الثغرة نفسها التي استخدمها ليلة المحفل. كانت الساحة الترابية المدكوكة خاليةً تماماً، وجدران منزل الشيخ تلمع تحت ضوء الشمس. حول باب المنزل، رسومٌ غريبة رُسمت بالصلصال فوق الجدار الأبيض. بقي نور ينظر إليها طويلاً، وإلى الجدران التي حتّتها الرياح. ثم اتجه نحو مركز الفناء. كانت الأرض تحت قدميه الحافيتين قاسيةً وساخنة، مثل صخور الصحراء. صوت موسيقا المزامير خافتٌ هنا، في هذه الساحة الخالية، كأنه في الطرف الآخر من العالم. كلّ شيء أصبح واسعاً هنا، بينما كان الصبيّ اليافع يمشي نحو مركز الساحة. كان يحسّ بشكلٍ واضح بخفقان دمه في شرايين عنقه وصدغَيه، وبدا له أنّ إيقاع ضربات قلبه يدوّي حتى في الأرض تحت باطن قدميه.

عندما وصل نور بالقرب من الجدار الطينيّ، في الموضع الذي سجد فيه الرجل العجوز ليؤدّي صلاته، ارتمى على الأرض، ولامس وجهه التراب، بقي دون حراك، ودون أن يفكّر في شيء. تشبّثت يداه

بالتراب، كمن يتمسّك بجدار جرفٍ شديد العلوّ، وملأ طعمُ التراب فمَه وفتحتَيْ أنفه.

بعد برهةٍ طويلة، تجرّأ نور ورفع وجهه، فشاهد عباءة الشيخ البيضاء.

«ماذا تفعل هنا؟» سأله ماء العينين. كان صوته رقيقاً وعميقاً، كأنه آتٍ من الطرف الآخر للساحة.

تردّد نور ونهض على ركبتيه، لكنّ رأسه بقي إلى الأمام، لأنه لم يكن يملك الجرأة على النظر إلى الشيخ.

«ماذا تفعل هنا؟» كرّر الشيخ العجوز.

«كنت.. كنت أصلي»، قال نور، وأردف: «كنت أريد الصلاة».

ابتسم الشيخ. «ولم تستطع الصلاة؟».

«كلّا» قال نور ببساطة. ثم أخذ يدَي الرجل العجوز: «أرجوك، امنحني بركة الله!». مكتبة سُر مَن قرأ

مرّر ماء العينين يديه فوق رأس نور، ومسح على عنقه برفق. ثم أنهض الصبي وقبّله.

«ما اسمك؟» -سأله- «ألست أنت من رأيت في ليلة المحفل؟».

قال نور اسمه، واسم أبيه وأمه. عندما نطق الاسم الأخير، أشرق وجه ماء العينين: «تنحدر أمّك من نسل سيدي محمد، الملقّب بالأزرق إذاً؟».

«إنه خال جدّتي»، قال نور.

«أنت حقّاً سليل امرأة من الشرفاء»، قال ماء العينين. ثم بقي صامتاً لبرهة طويلة، تحدّق نظرته الرمادية في عينَيْ نور، كمن يبحث عن ذكرى. ثم حدّثه عن الرجل الأزرق، الذي التقاه في واحات الجنوب بالجانب الآخر من هضاب الحمادة، في زمنٍ لم يكن فيه أيّ شيء هنا،

حتى مدينة السمارة، لم يكن لها وجود. كان الرجل الأزرق يعيش عند أطراف الصحراء في كوخ من الحجارة والأغصان، لا يخشى شيئاً، لا البشر ولا الحيوانات البرّيّة. في صباح كلّ يوم، كان يجد أمام باب كوخه حبّات تمرٍ، وقصعةً من اللبن الرائب، وجرّةَ من الماء العذب، لأنّ الله كان يسهر عليه ويطعمه. عندما أتى ماء العينين يطلب منه أن يعلّمه، لم يرغب في استقباله. خلال شهر، تركه ينام أمام الباب، دون أن يتوجّه إليه بالكلام أو بالنظر. كان فقط يترك له نصف حصّته من التمر واللبن. لم يأكل ماء العينين طعاماً ألذّ منه. أما عن ماء الجرّة، فقد كانت تروي عطشه على الفور وتملؤه بالحبور، لأنها كانت مياهاً عذراء، جُمعت من الندى نادر الوجود.

غير أنه، في نهاية الشهر، كان حزيناً جداً لأنّ الشيخ لم ينظر إليه بعدُ. قرّر حينئذٍ أن يعود إلى عائلته، لأنه ظنّ أنّ الرجل الأزرق يراه غير أهلٍ لخدمة الله. ذهب يسير باتجاه طريق القرية، عندما شاهد رجلاً بانتظاره. كان الرجل الأزرق هناك، وسأله لماذا تركه، ثم دعاه للبقاء معه في المكان نفسه الذي توقّف فيه. فبقي ماء العينين شهوراً عديدة بالقرب منه. ثم، في أحد الأيام، قال له الأزرق إنه لم يبقَ لديه شيء يلقّنه إياه. «لكنّك لم تمنحني علمَك حتى الآن!»، قال ماء العينين. فأشار الرجل حينذاك إلى صحن التمور وقصعة اللبن الرائب وجرّة الماء: «ألم أشاركك هذا كلّ يوم منذ وصولك؟!». ثم أشار نحو الأفق، ناحية الشمال، نحو الساقية الحمراء، وطلب منه أن يُنشئ مدينةً مقدّسة لأبنائه، بل تنبّأ له بأنّ أحد أبنائه سيكون ملكاً. عند ذاك، غادر ماء العينين قريته مع عائلته، وبنى مدينة السمارة.

عندما انتهى الشيخ من قصّ هذه الحكاية، عانق نور مرّةً أخرى، وعاد إلى ظلّ منزله.

في اليوم التالي، عند مغيب الشمس، خرج ماء العينين من منزله ليؤدّي صلاته الأخيرة. كان رجال الخيام ونساؤها قد غفوا منذ فترة وجيزة، إذ إنهم لم يتوقّفوا عن الغناء وضرب الأرض بأقدامهم. لكنّ الرحلة الكبرى إلى الطرف الآخر من الصحراء قد بدأت، وحميّة المسير على الطريق الطويل كانت قد سكنت أجسادهم، وأشعلت نفوسهم بالحماس، وجعلت السراب يلمع أمام أعينهم. لا أحد منهم نسي الألم والعطش وحروق الشمس المؤلمة فوق الحجارة والرمل اللامتناهي، ولا الأفق الهارب الذي كان يتراجع أمامهم باستمرار. لا أحد منهم نسي الجوع القارص. ليس الجوع للطعام فحسب، إنما الجوع للأمل والحرية، لكلّ ما ينقصهم ويحفر دواراً في الأرض، الجوع الذي يدفعهم إلى الأمام للسير داخل سحب الغبار وسط القطعان المبهوتة، ويجعلهم يتسلّقون منحدرات الهضاب حتى القمّة، وينزلون منها مجدّداً دون مفرّ، وأمامهم عشرات، بل مئاتٌ من الهضاب الأخرى المماثلة.

سجد ماء العينين مجدّداً على الأرض المدكوكة في منتصف الساحة أمام البيوت المطليّة بالكلس. ولكن هذه المرّة، كان زعماء القبائل يجلسون إلى جواره. بالقرب منه تماماً، أجلس نور وأباه، بينما بقي أخوه البكر وأمّه بين الجمع. تجمّع رجال القبائل ونساؤها في نصف دائرة حول الساحة، بعضهم جاثياً يتدثّر بالعباءات الصوفيّة اتقاءً لبرد الليل، وآخرون وقوفاً، أو يمشون على طول أسوار الساحة. كان العازفون يعزفون لحناً حزيناً، يضربون على أوتار القيثارة وينقرون بأطراف سبّاباتهم على جلود الطبلات الفخارية الصغيرة.

بدأت رياح الصحراء تهبّ متقطّعة، وترمي في وجوه الرجال حبّات رمال تحرق الجلد. فوق الساحة، أظلمت السماء قليلاً، وبدت بلونٍ أزرقَ قاتم. حول مدينة السمارة، وفي كلّ مكان، خيّم هدوءٌ لا حدود

له. هدوء الهضاب الصخرية، وهدأة الليل الأزرق العميق. كأن لا رجال آخرين سواهم في الوجود، أسرى داخل حفرتهم الطينية الجافّة الصغيرة، يمسكون التراب الأحمر حول غدائر المياه الرمادية. وفي الجهة الأخرى، الصخور والرياح، وأمواج الكثبان، والملح، ثم البحر أو الصحراء.

عندما بدأ ماء العينين بـ«الذِّكر»، صدح صوتُه في صمت الساحة على نحوٍ غريب، أشبه بنداء ماعز في البعيد. كان ينشد بصوت جهوري تقريباً، مؤرجحاً أعلى جذعه من الأمام إلى الخلف، لكنّ الصمت المخيّم على الساحة وفي المدينة وفوق وادي الساقية الحمراء كلّه، كان مصدره خلاء رياح الصحراء، لذلك كان صوت الرجل الكهل واضحاً وواثقاً، كصوت حيوانٍ حيّ.

أصغى نور إلى النداء الطويل فأصابته قشعريرة. كلّ رجل، وكلّ امرأة في الساحة، كان ساكناً، كأنّ أنظارهم قد التفتت إلى دواخل أجسادهم.

كانت الشمس في الغرب قد ألقت بقعة حمراء كبيرة على صخور الحمادة المسنّنة. استطالت الظلال على نحوٍ غير طبيعي على الأرض، لتتلاقى بعضها إلى بعض، مثل مياه السواقي.

«سبحان الله، الله حيٌّ لا يموت، الله الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. سبحان الله الهادي، لأنه بعث الحقيقة مع المرسلين...».

كان صوت ماء العينين يتهدّج في نهاية كلّ دعاء، منقطع الأنفاس، يقف واهياً كاللهب، مع ذلك، كانت مقاطع ألفاظه طويلة، منفصلة، واضحة، تدوّي وسط الساحة.

«سبحان الله، لا إله إلا هو، الوهّاب الأحد، السيّد الأحد، العلّام والشهيد والعليم بكلّ الأمور، الآمر الناهي. سبحان الله واهب الخير

والشرّ، فكلامه الملاذ الوحيد، وإرادته منتهى المنى، أمام شرّ الناس والموت والسقم، الذين وُجدوا مع العالم...».

كان الليل يتغلغل ببطء، إلى الأرض أولاً وتجاويف الرمال، عند أسفل أسوار الطين، وأمام الرجال الواقفين، وتحت قماش الخيام، وفي حفر الكلاب النائمة، وفي أعماق مياه الآبار الآسنة.

«بسم الله الحامي، المغيث، مانح القوّة، لأنه الأكبر، باسمه لا أهاب أعدائي. أنطق اسمه في سريرتي عند ذهابي إلى المعركة، فاسمهُ يسود الأرض والسماء...».

كانت الشمس في السماء تأفل ونورها نحو المغيب، بينما كان البرد يخرج من أعماق الأرض وينبعث عبر الرمل القاسي ليخترق أطراف الرجال.

«سبحان الله العظيم، لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم. بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، لا أدركه بالبصر ولا بالمعرفة، لكنّه يعلم بي، ولا أستطيع إدراكه. الله العليّ القدير...».

كان صوت ماء العينين يتردّد صداه بعيداً في الصحراء، كأنه يسافر ليصل إلى تخوم الأرض المقفرة، بعيداً إلى ما وراء الكثبان والصدوع، ما وراء النجود الجرداء والوديان القاحلة، كأنه يصل إلى أراضٍ جديدة، في الجانب الآخر لجبال الدرعة، فوق حقول القمح والدُّخن، هناك حيث سيجد الناس طعامهم في النهاية.

«الله القدير، الكامل، لا إله إلا الله، الحكيم، القدير، أرحم الراحمين، وأعرف العارفين، الوهّاب بلا حدود، وحده الكريم العطوف، يعطي الأمر لجيوش السماء والأرض، الكامل الرحيم...».

لكنّ الصوت الواهن البعيد كان يلامس كلّ رجلٍ وكلّ امرأةٍ كما لو

أنه يلامس داخل أجسادهم ويخرج من حناجرهم، كأنه يمتزج بأفكارهم وكلماتهم ليصنع لحنها.

«سبحان الله الحيّ الذي لا يموت، ربّنا الأعلى ذو السلطان والعظمة، فهو السميع العليم!».

كان الهواء يدخل إلى صدر ماء العينين، ثم يزفره بقوّة دون أن يحرّك شفتيه تقريباً، مغمض العينين، يؤرجح أعلى جسده كأنه ساقُ شجرة.

«ربّنا وإلهنا، سيّدنا وإلهنا الأعظم، نور الأنوار، شمس الليل وظلّ الظلال، إلهنا الحقيقي الأحد، وكلامه الأوحد. سبحان من يقاتل في معركتنا، سبحان الذي نهزم الأعداء باسمه، سيّد الأرض...».

عندئذٍ، ودون انتباه، بدأ الرجال والنساء يردّدون كلام الذِّكر، وتعلو أصواتهم في كلّ مرة يتوقّف فيها صوت العجوز المتهدّج.

«العظيم، القدير، الكامل، سيّدنا وإلهنا، الذي كتب اسمه على أجسادنا، الجليل، القدّوس، الظاهر، من لا سيّد له، وقال لنا: كنت كنزاً مخفيّاً، فأحببت أن أُعرفَ، فخلقت الخلق...».

«العظيم، البديع، العزيز، السابق لكلّ وجود، وخالق الوجود، الباقي، المالك، البصير، السميع، العليم، الكامل، البديع... الله أكبر، الله جميل في قلب المخلص له، الله نقيّ في قلب الذي عرفه، بديعٌ في روح من بلغه، هو سيّدنا، وسيّد المعلمين... لا كفواً له ولا شريك، هو القيوم في أعالي الجبال وفي رمل الصحراء، في المياه، هو الطريق، سيّد الليل والنجوم...».

حينئذٍ، وبشكلٍ عفويّ، تحرّك العازفون. راحت موسيقاهم الخافتة تتناغم مع صوت ماء العينين وهو يغمغم مشاركاً أنغام الماندولين الحادّة المكتومة، وأولئك الذين يربّتون على الطبلات الصغيرة، أو يقاطع فجأةً لحن مزامير القصب الصافي كصرخة الطير.

علا صوتُ الرجل العجوز ليتجاوب مع لحن المزامير، وأصبحا صوتاً واحداً يطغى على أصوات الرجال ووقع الخطوات الخافتة فوق الأرض الصلبة.

«لا شريك له ولا نظير، القادر، الأول، الأزليّ، النور الذي منح نور الكواكب، النار التي أضرمت باقي النيران، أوّل الشموس، أوّل نجوم الليل، الموجود قبل أن تُخلق الكائنات، المُحيي، البارئ، المُميت!».

كان الجمع حينذاك قد بدأ يرقص ويصرخ بصوتٍ واحد يمزّق السكون: «هُوْووووا!»، يهزّون رؤوسهم ويرفعون راحات أياديهم نحو السماء المظلمة.

«مانح الحقيقة للأولياء الصالحين، مباركُ سيّدنا محمد، ومانح السلطان والكلمة لسيّدنا رسول الله على الأرض...».

«آه، هو! هُوْووووا!».

«سبحان الله، والحمد لله العليّ العظيم، الكامل، الباطن، المكتوب على القلب، لعليّ العظيم...».

«هُوْوووا!».

«سبحان الله، نحن خلائقه، الفقراء، الجاهلين، العميان، البكم، نحن الناقصون...».

«هُوْوووا!».

«أيها العليم، امنحنا الحقّ! أنت يا أيها الرؤوف الرحيم، الصبور، الكريم، الغنيّ!».

«هُوْوووا!».

«سبحان الله الملك القدّوس، القدير، المتين، الممجّد، الحيّ، القيّوم، الجليل، العليم، البصير، السميع، العليّ، العظيم، الشهيد،

الخالق الواحد الأحد، العظيم، البصير، السميع، البديع، الكريم، القادر، الكامل، العليّ، العظيم!».

كان صوت ماء العينين يصدح عالياً. ثم توقّف بشكلٍ فجائي، كما يتوقّف غناء الجندب في الليل. ساعتئذٍ، توقّفت تمتمة الأصوات، ومعها الطبلات والقيثارات والمزامير، ولم يبقَ سوى الصمت الطويل الرهيب من جديد، صمت يشدّ على الأصداغ ويوجف القلوب.

بعينين مليئتين بالدموع، كان نور يشاهد الشيخ العجوز يميل إلى الأرض وقد غطّى وجهه بيديه، فشعر في أعماقه باضطرابٍ عظيم لم يعرف مثله من قبل، قاطع كنصل السيف. حينذاك، بدأ الأغظف، الابن الثالث لماء العينين، ينشد بدوره. صدح صوتُه القويّ في الساحة، ليس كصوت ماء العينين الصافي، بل قريباً إلى نبر الغضب، وبدأ الموسيقيّون العزف على الفور.

«يا ربّنا وإلهنا! تقبّل شهود الإيمان والحقّ، وأصحاب مولاي بوعزّة من بكارية(*)، وأتباع الغظفية، وأصغِ إلى كلمات الذِّكر كما أملاها علّينا معلّمنا الشيخ ماء العينين!».

تحوّل همسُ الجمع فجأةً إلى صراخ: «العزّةُ لشيخنا ماء العينين، العزّة لرسول الله!».

«العزّة لماء العينين! العزّة لأتباع الغظفية!».

«يا إلهنا، أصغِ لذِكر ولده الشيخ أحمد الدهيبة، الذي ندعوه الشمس، شذرة الذهب، مولاي هيبة، ملكنا الحقيقي!».

«العزّة لهم! المجد لمولاي هيبة الملك!».

(*) بلدة تابعة لبلدية تبسة في الجزائر. سُمّيت نسبة إلى قبائل البكاكارية التي يعود أصلها إلى الساقية الحمراء في الصحراء الغربية وفيها آثار تعود لآلاف السنين.

عند ذاك، استولت النشوة على الرجال، وأشعل صوت الشابّ الأجشّ الغضب وطرد التعب.

«اللهم نطلب رضاك عمّن تبعك وآثر صحبتك! نحن رجال العزّة والمجد، رضاك يا ربّي عنهم! رجال الحبّ والحق، رضاك يا الله عنهم! رجال الوفاء والنقاء، رضاك يا الله عنهم! الأسياد، الأشراف، المحاربون، رضاك يا ربّي عنهم! الأولياء الذين باركتهم، ومن هم في خدمة الإيمان، رضاك يا الله عنهم! الفقراء، التائهون، المعوزون، رضاك يا الله عنهم! امنحنا اللهمّ عظيم بركتك!».

كانت همهمة الجمع تتعاظم وترتدّ فوق جدران المنازل، بينما كانت الأصوات تصدح بالأسماء وتحفرها على جدران الذاكرة للأبد، وعلى الأرض الباردة العارية، والسماء المليئة بالنجوم.

«لتحلّ علينا بركة سيّدنا رسول الله، وبركة المرسل إلياس، وبركة الخضر الذي شرب من نبع الحياة ذاتها، يا إلهنا، وبركة الأُويس القرني(*)، يا إلهنا، وبركة عبد القادر الجيلاني(**)، وليٌّ ببغداد المرسل من عند الله إلى الأرض، يا الله!».

كانت الأسماء تدوّي في صمت الليل، وتعلو فوق الموسيقا التي تنبعث بهمسٍ غير محسوس كالنسمة.

«كلّ ما في البرّ وما في البحر يا الله، أهل الشمال والجنوب، يا إلهي. أهل الشرق والغرب يا الله. أهل السماء والأرض، يا الله!».

(*) أويس القرني المرادي (549–657 م): وهو أكثر النسّاك زهداً وورعاً وتواضعاً، أصله من اليمن. عاش في الكوفة. ناصَرَ عليَّ بن أبي طالب وشارك في معركة صفّين. مات في مدينة الرقّة السورية، وفيها مسجدٌ باسمه بالقرب من قبره.

(**) عبد القادر الجيلاني (470–561 هجرية): يقال إنه ولد في جيلان بالقرب من بغداد. وهو إمامٌ صوفيّ وفقيه حنبليّ شافعيّ. وإليه تُنسب الطريقة القادرية الصوفية. لُقِّب بسلطان الأولياء.

أجملُ كلمات الذِّكر، كانت تلك الآتية من أبعد مكان في الصحراء وتجد لها ركناً في قلب كلّ رجل وكلّ امرأة، مثل حلم قديم يبدأ من جديد.

«امنحنا اللهمّ البركة الكبرى من أوليائنا بوعزّة النور، أبو مدين ومعروف والجُنيد والحلّاج والشبلي(*)، أولياء بغداد الصالحين!».

كان نور القمر يظهر فوق الهضاب الصخرية رويداً رويداً، من جهة شرق الساقية. راح نور يتأمله وهو يؤرجح جسده وعيناه شاخصتان في السماء المظلمة السحيقة. وسط الساحة، كان ماء العينين لا يزال مطويّاً على نفسه، أبيض كلّياً، يبدو شبه الشبح. أصابعه النحيلة وحدها تسبّح حبات مسبحته الأبنوسية.

«امنحنا يا الله بركة الأولياء، الحلوي الذي كان يرقص للأولاد، ابن حواري، التصاوري، يونس بن عبيد، بصري، أبو يزيد، محمد الصغير السهيلي الذي علّم كلام الله العظيم، عبد السلام، الغزالي، أبو شُهَيب، أبو مهدي، مالك، سيدي عبد العزيز التباع، وليّ مدينة مراكش الصالح يا الله!».

(*) بوعزّة (توفي في عام 1177 م): ويلقّب بالنور وهو من أولياء المغرب العربي. عاش متنسّكاً حياة التقشّف والفقر.

أبو مِدْيَنْ التلمساني (509–594 هجرية): أبو مدين شعيب بن حسين الأنصاري المعروف بسيدي بومدين والملقّب بشيخ الشيوخ. فقيه وشاعر ومتصوّف أندلسي.

معروف بن فيروز الكرخي (توفي في عام 200 هجرية): أحد الرموز الكبار في بغداد، اشتهر بزهده وورعه وتقواه، وكان كثير العطاء والتسامح.

الجنيد البغدادي (215–298 هجرية): عالم مسلم وسيّد من سادات الصوفية، أصله من نهوند في إيران. جمع بين قلب الصوفي وعقل الفقيه.

الحلّاج (858–922 م): الحسين بن منصور الحلّاج. شاعر وخطيب صوفي في الدولة العباسية ومن روّاد أعلام التصوّف. واختلف الكثيرون في أمره.

أبو بكر الشبلي (861–946 م): بعد أن انخرط في سلك الخلافة وحظي بالنِّعَم الوفيرة، رأى المظالم من الحكّام، فأصبح شيخاً زاهداً وله تلاميذ.

كانت الأسماء هي نشوة صلاة الذِّكر بحدّ ذاتها، كأنها عيونٌ تطلّ من كويكبات النجوم وتمنحهم القوّة بنظرتها التائهة، هنا، فوق الساحة الجليدية، حيث اجتمع الرجال.

«ربّنا وإلهنا، امنحنا بركة أوليائك الصالحين جميعاً، الصحابة والأتباع وجنود مجدك: أبو إبراهيم التونسي، سيدي أبو العباس السبتي، سيدي أحمد الحارثي، سيدي جاكير، سيدي أبو زكريّا يحيى النووي، سيدي محمد بن عيسى، سيدي أحمد الرفاعي، مولاي محمد بن سليمان الجزولي، المعلّم الأكبر، المرسل من الله إلى هذه الأرض وليّ مدينة مراكش الصالح، يا الله!».

كانت الأسماء تروح وتجيء على كلّ شفة ولسان، أسماء رجال، أسماء نجوم، أسماء حبّات الرمل في هواء الصحراء، أسماء أيامٍ وليالٍ لا نهاية لها، أبعد من الموت.

«ربّنا وإلهنا، امنحنا بركة أولياء الأرض أجمعين، أولئك الذين عرفوا السرّ، أولئك الذين عرفوا الحياة والمغفرة، أسياد الأرض الحقيقيين، أسياد الأرض والبحر والسماء. سيدي عبد الرحمن الملقّب بالصحابيّ، صاحب النبيّ، سيدي عبد القادر، سيدي مُبارك، سيدي بالخير، الذي حلب التّيس، لالا منصورة، لالا فاطمة، سيدي أحمد العروسي، الذي أصلح الجرّة المكسورة، سيدي محمد الملقّب بالأزرق، الذي علّم الطريقة للشيخ الأكبر ماء العينين، سيدي محمد الشيخ الكامل، وأسياد الأرض والبحر والسماء كلّهم!».

عاد الصمت مجدّداً، مُفعَماً بالنشوة والنور. انطلقت موسيقا المزامير مجدّداً للحظات، تتسلّل وتخفت. ثم نهض القوم وساروا باتجاه أبواب المدينة. وحده ماء العينين بقي دون حراك محنيّاً فوق التراب، ينظر إلى النقطة نفسها غير المرئية فوق الأرض التي أضاءها نور القمر الأبيض.

عندما حان أوان الرقص، نهض نور وانضمّ إلى الجمع. كان الرجال يضربون الأرض الصلبة بأقدامهم الحافية، لا يتقدّمون ولا يتراجعون، متراصّين كهلال كبير يقطع الساحة. كان اسم الله يُنطَق بقوّة مع الزفير، كأنّ الرجال كلّهم يتألمون ويتوجّعون معاً. ومع كلّ صرخة تدوّي طبلة الفخّار: «هُوْوووا!»...

وانطلقت الزغاريد من النساء، كأنّ هناك من كان يعتصر حناجرهن.

كانت الموسيقا تغوص في الأرض الباردة، تذهب إلى أعماق السماء المظلمة، وتمتزج بهالة القمر. لم يعُد للزمن وجود، تلاشى الألم. الرجال والنساء يضربون الأرض بكِعابهم وأطراف أقدامهم وهم يردّدون الصرخة التي لا تُقهر: «هُوْوووا حَيييييي!».

دارت الرؤوس، ذات اليمين، ذات الشمال، ذات اليمين، ذات الشمال، نفذت الموسيقا إلى أجسادهم، إلى حناجرهم، وانطلقت زفرةً واحدة وصلت إلى ما وراء الأفق. زفرة مبحوحة متقطّعة حملتهم وطارت بهم، رفعتهم فوق الصحراء الشاسعة، نحو بقع الفجر الشاحبة، إلى الجانب الآخر من الجبال، فوق بلدة سوس وتزنيت، وإلى سهل فاس.

«هُوْوووا... الله!» تصيح أصوات الرجال الجهورية، وقد ثملوا بضربات الطبلات الفخارية المكبوتة، وبألحان مزامير القصب، بينما كانت النساء الجاثيات يؤرجحن جذوعهن، ويضربن براحات أياديهن على صدورهن المزيّنة بعقود الفضة والبرونز الثقيلة. كانت أصواتهن ترتعش للحظات كأنين مزامير تخفت حتى تصبح على حدود الإدراك البشري، ثم تتوقّف فجأة. فيستأنف الرجال ضرب الأرض، ليدوّي صوت زفرتهم التي تمزّق فضاء الساحة: «هُوَ حيّ... هُوَ حيّ... هُوَ حيّ!».

بعيونٍ نصف مغمضة ورؤوس مائلة نحو الخلف، كانت أصواتهم تفوق قوى الطبيعة، تمزّق الواقع وتلقي السكينة في آنٍ معاً، كأنها منشارٌ جبّار يروح ويجيء لِيَلْتَهِمَ جذعَ شجرة.

مع كلّ زفرة حزينة وعميقة، كان جرحُ السماء يتّسع، زفرة توحّد البشر بالفضاء، تمزج دماءهم وخلائط أجسادهم. كلّ منشد فيهم ينادي الله بصوتٍ صارخ، أكثر فأكثر تسارعاً، يمدّ رأسه ويجأر كالثور، فتنتفخ شرايين عنقه كالحبال من شدّة الصراخ. كان جمر المواقد ونور القمر يلقي الضوء على أجسادهم المتمايلة، كأنّ بروقاً تسطع وسط سحب الأغبرة دون توقّف. صار النفَسُ أكثر فأكثر لهاثاً، يُطلق نداءاتٍ تخفُت تدريجياً، بشفاهٍ ساكنة وحناجرَ نصف مفتوحة. فوق الساحة في ليل الصحراء الخالي، لم يعُد هناك صوتٌ سوى مصهر حناجر تجاهد كي تتنفّس: «هه! هه! هه! هه!».

ثم توقّف الكلام. هكذا أصبح الرجال على صلة مباشرة بمركز السماء والأرض، وحّدتهم رياح زفراتهم القوية، كأنهم حين يعجّلون إيقاعها، تبطل الأيام والليالي، والشهور، والفصول، وتكاد تلغي كلّ زمان لا أمل فيه وتقرّب نهاية الرحلات كلّها، ونهاية الأزمنة كلّها. كان الألم كبيراً، ونشوة الأنفاس تُرجف الأطراف وتوسّع الصدور. وسط حلقة الرجال المفتوحة، كانت النساء يرقصن بأقدامهن الحافية فقط، الجسد ثابت، الذراعان متباعدتان قليلاً عن الجسد الذي قلّما يهتزّ. كان إيقاع كعابهن الخافت يخترق الأرض ويُحدث هديراً مستمراً، كأنّ جيشاً يعبر هنا. بالقرب من العازفين، محاربون من الجنوب بوجوهٍ ملثّمة بالسواد، كانوا يثبون فوق الساحة وهم يرفعون رُكَبهم عالياً، فيبدون كطيور جارحة عملاقة تحاول الطيران. شيئاً فشيئاً في الليل، توقّفوا عن الحركة، بعضهم وراء بعض. جثا الرجال والنساء على الأرض، مدّوا

أذرعهم أمامهم، وقلبوا راحات أياديهم نحو السماء. وحدها أنفاسهم المبحوحة تابعت الخروج، وهم يطلقون في الصمت أصواتاً لا تتعب: «هو! هو! هُوووَ حبيبيّ! هو! هو!».

كان صوت الأنفاس المتقطّعة قويّاً وعظيماً، كأنّ الكلّ صار بعيداً جدّاً عن السمارة، اجتاز السماء، والرياح، وامتزج بنور القمر ورمل الصحراء الناعم. لا مكان للصمت الآن، ولا للعزلة. كان هدير الأنفاس قد غمر الليل وملأ الفضاء كلّه.

كان ماء العينين جالساً وسط الساحة فوق التراب، لا ينظر إلى أحد. تشدّ يداه على حبّات مسبحة الأبنوس، يُسقط حبّةً مع كلّ نفس من أنفاس الجموع. هو من كان مركز النفس، هو الذي أرشد الناس إلى طريق الصحراء وعلّمهم كلّ إيقاع. لم يعُد ينتظر شيئاً الآن، ولا يسأل أحداً. كان يتنفّس هو أيضاً على إيقاع أنفاس المصلّين، كأنه والجمع صاروا حنجرةً واحدة وصدراً واحداً. فتحَت زفراتُهم الطريق نحو الشمال، نحو الأراضي الجديدة. لم يعُد الرجل الكهل يشعر بالعجز، ولا بالتعب، ولا بالخوف. كان النفَس يسري في داخله، آتياً من تلك الأفواه كلّها، النفس القويّ والرقيق في الوقت ذاته، ويعزّز وجوده. لم يعُد الرجال ينظرون إلى ماء العينين. بعيونٍ مغمضة، وأذرع متباعدة، ووجوه متّجهة إلى الليل، كانوا يحلّقون، وينسابون نحو طريق الشمال.

عندما طلع النهار من جهة الشرق فوق الهضاب الصخرية، راح الرجال والنساء يسيرون نحو الخيام. على الرغم من نشوة هذه الأيام والليالي كلّها، لم يكن أحدٌ يشعر بالتعب. أسرجوا الخيول، طووا خيام الصوف الكبيرة، حمّلوا الجمال. لم تكن الشمس قد ارتفعت عندما كان نور وأخوه في بداية الطريق الترابي نحو الشمال. كانوا يحملون فوق مناكبهم حزمة الملابس والمؤن. أمامهم وعلى الطريق، رجالٌ وأولاد

آخرون يسيرون هم أيضاً، وقد بدأت سحب الغبار الرمادي والأحمر تتصاعد نحو السماء الزرقاء. في مكانٍ ما عند أبواب السمارة، محاطاً بمحاربيه الزرق وأبنائه فوق الخيول، كان ماء العينين ينظر إلى القافلة الطويلة الممتدّة عبر السهل الصحراوي. لفَّ عباءته البيضاء، وهمز بقدمه عنق الناقة. على مهلٍ، ودون أيّ التفاتة، كان يبتعد عن السمارة ويذهب إلى حتفه.

السعادة

ارتفعت الشمس فوق الأرض، استطالت الظِّلالُ على الرمال الرمادية وتراب الطريق. توقّفت الكثبان أمام البحر، وارتجفت النباتات العصارية(*) الصغيرة في الهواء. في سماءٍ زرقاءَ جارحة، لا طير فيها ولا سحاب، كانت الشمس فقط. لكنّ نور الصباح كان يرتعش قليلاً، كأنه حائرٌ بعض الشيء.

على طول الطريق، وفي حمى خطّ الكثبان الرمادية، تمشي لالا على مهل. تتوقّف بين حينٍ وآخر، تنظر إلى شيءٍ ما على الأرض، أو تقطف ورقةً من نبات، تسحقها بين أصابعها وتشمّ رائحة النسغ العطرية اللاذعة. النباتات بلونٍ أخضر قاتم، لامعة، أشبه بأعشاب بحرية. أحياناً تصادف ذكر نحلٍ ذهبي فوق خصلة من عشبة الشوكران(**)، تركض لالا وتلاحقه، لكنّها لا تقترب كثيراً، فهي تخاف رغم كلّ شيء. عندما تطير الحشرة، تركض وراءها ويداها ممدودتان، كأنها تريد التقاطها فعلاً، لكنّها كانت تفعل ذلك بداعي اللهو لا أكثر.

في هذه الأرجاء، لا شيء سوى نور السماء، الذي يصل إلى أبعد ما يمكن للمرء أن يرى، كثبانٌ ترتعش تحت سياط البحر غير المرئي، لكن الذي يمكن سماعه، نباتاتٌ عصارية صغيرة تلمع بحبّات ملحٍ كقطرات العرق، حشرات هنا وهناك، خنفسة شاحبة اللون، دبابيرُ رهيفة الجذع

(*) هي النباتات التي تختزن الماء. من الأمثلة عليها الصبّاريات.

(**) شوكران: عشبة طبّية سامّة.

تظنّ أنها مقسومة إلى اثنين، أمّ أربعة وأربعين معمّرة تترك آثاراً خفيفة فوق التراب، ذباب الشَّعْراء بلون المعدن يبحث عن ساقَي الفتاة الصغيرة ووجهها ليمتصّ الملح.

لالا تعرف الدروب كلّها، وتجاويف الكثبان كلّها. تستطيع أن تذهب إلى أيّ مكان مغمضةَ العينين، وتعرف أين موقعها بمجرّد أن تلامس الأرض بقدميها الحافيتين. تجتاز الرياحُ حواجز الكثبان للحظات، تلسع جلد الطفلة بحفناتٍ من الإبر ويشتبك شعرها الأسود. يلتصق ثوب لالا بجلدها الرطب، وتضطرّ إلى شدّ القماش لنزعه عنها.

لالا تعرف الدروب كلّها، تلك التي تمتدّ على مدّ البصر على امتداد الكثبان الرمادية بين الدُّغَل، والأخرى التي تلتفّ وتعود إلى الوراء، والدروب التي لا تصل إلى أيّ مكان. غير أنها، في كلّ مرّة تمشي فيها هنا، كانت ترى شيئاً جديداً. اليوم رأت ذكر النحل الطنّان الذي أخذها بعيداً جداً، إلى ما وراء بيوت الصيّادين وبحيرة المياه الميتة. بعد قليل، ظهر لها فجأةً بين دغل الأعشاب هذا الهيكل المعدنيّ الصدئ، بمخالبه المنتصبة وقرونه المخيفة. ثمّ عثرت في رمل الطريق على علبة أغذية محفوظة صغيرة من المعدن الأبيض، مثقوبة على جانبي الغطاء وزالت عنها اللصاقة.

تابعت لالا سيرها ببطء وهي تنظر إلى الرمال بانتباهٍ شديد، حتى إنّ عينيها آلمتاها قليلاً. كانت تراقب الأشياء على الأرض دون أن تفكّر في أيّ شيء آخر، ودون أن تنظر إلى السماء. ثم توقّفت تحت شجرة صنوبر ظليلة في منأى عن الضوء، وأغمضت عينيها لبرهة.

عقدت يديها حول ركبتيها، وتأرجحت قليلاً من الأمام إلى الخلف،

ثم على الجانبين، وبدأت تدندن أغنيةً فرنسية، أغنية تقول كلماتها فقط: «ميديترّانيـــــــــه(*)...».

لم تكن لالا تعرف معنى الكلمة. إنها أغنية سمعتها في المذياع ذات يوم، ولم تحفظ سوى هذه الكلمة التي أعجبتها كثيراً. وهكذا بين حينٍ وآخر، عندما تشعر بأنها مرتاحة وليس لديها ما تفعله، أو على العكس، عندما تكون حزينةً قليلاً دون أن تعرف السبب، تغنّي الكلمة، تغنّيها لذاتها، بصوتٍ خفيض أحياناً لا يُمكن سماعه، أو بصوتٍ عالٍ يكاد يصمّ الآذان، لكي يتردّد صداه ويبدّد الخوف.

الآن تغنّي الكلمة بصوتٍ ضعيف، لأنها سعيدة. النمل الأحمر الكبير برؤوسه السود يدبّ على أوراق الصنوبر الإبرية، يقف حائراً، ثم يتسلّق الأغصان. تبعِده لالا بعودٍ يابس. تشمّ أريج الأشجار الذي يصل مع الرياح ممتزجاً برائحة البحر الحريفة. تتطاير حبّاتُ الرمل في السماء للحظات، فتشكّل زوابع تتأرجح باتّزان فوق قمّة الكثبان، سرعان ما تتكسّر على نحوٍ فجائيّ وترمي آلاف الإبر على وجه الطفلة وساقيها.

بقيت لالا في ظلّ شجرة الصنوبر الكبيرة إلى أن ارتفعت الشمس في السماء. حينذاك، عادت أدراجها إلى المدينة دونما استعجال. هي تعرف آثار أقدامها فوق الرمال، التي تبدو أصغر وأدقّ من قدميها، لكنّها أثناء العودة، كانت تتأكّد من أنها آثارها فعلاً. ترفع كتفيها وتبدأ الركض. لكنّ أشواك نبات الشوك كانت تخِز أصابع قدميها، فتتوقّف من وقتٍ إلى آخر، بعد أن تعرج بضع خطوات، كي تنزع الأشواك من إصبع قدمها الكبير.

حيثما تقف، هناك نملٌ دائماً. يبدو خارجاً من بين الحصى، ويركض

(*) Méditerranée: البحر الأبيض المتوسّط.

كالجواسيس فوق الرمل الرمادي الذي أحرقه الضوء. لكنّ لالا تحبّه جداً رغم كلّ شيء. وتحبّ أيضاً حشرات الحريش البطيئة، والخنافس السُّمر الذهبية، والجلّالة(*)، وخنافس قرن الأيّل، وخنفساء البطاطا، والدعسوقة، والجنادب الشبيهة بقطعة الحطب المحروقة. أما حشرات فرس النبي الكبيرة فهي تخيفها. تنتظر لالا أن ترحل، أو أنها تغيّر طريقها دون أن تبعد نظرها عنها، بينما تقف الحشرات وهي تتوثّب في مكانها وتُشهر مقصّاتها.

هناك أيضاً سحالٍ رمادية وخضراء، تهرب نحو الكثبان وهي تضرب بأذيالها ضرباتٍ قوية كي تعجّل الهروب. أحياناً كانت لالا تفلح في التقاط إحدى تلك السحالي وتلهو بإمساكها من ذيلها إلى أن ينقطع، ثم تنظر إلى الجُذيع المبتور كيف يتلوّى وحيداً في التراب. قال لها أحد الصبيان ذات يوم إنها لو انتظرت، فسوف ترى ظهور أرجل جديدة ورأس جديد على الذيل، لكنّ لالا لم تصدّق كلامه البتّة.

أكثر ما كانت تراه على وجه الخصوص، هو الذباب. لالا تحبّه جداً رغم طنينه ولسعاته. لا تعرف حتى الآن سبب حبّها له على وجه التحديد، ولكن هكذا هو حالها. ربما بسبب قوائمه الدقيقة وأجنحته الشفّافة، أو حتى لأنه يعرف كيف يطير بسرعة، إلى الأمام، إلى الوراء، متعرّجاً، وتظنّ أنّ إجادة الطيران على هذا النحو شيءٌ رائع.

استلقَت لالا على ظهرها فوق رمال الكثبان، فحطّ الذباب على وجهها ويديها وعلى ساقيها العاريتين، مجموعةً بعد الأخرى. لم يكن يأتي كلّه دفعةً واحدة، لأنه يخاف لالا بعض الشيء في البداية. لكنّه يحبّ المجيء ليمتصّ العرق المالح على جلدها، وسرعان ما يصبح جسوراً. حين تمشي

(*) الجلّالة: خنفساء تعيش على روث الحيوانات الماشية.

الذبابة بقوائمها الأربع الخفيفة، تبدأ لالا بالضحك، إنما ليس بصوتٍ عالٍ كي لا تخيفها. أحياناً، تلسع إحداها وجنة لالا، فتطلق صرخةً حانقة.

لهَت لالا طويلاً مع الذباب. ذباب الشَّعْراء الذي يعيش في الفوقس(*) على الشاطئ. ولكن هناك الذباب الأسود أيضاً في بيوت المدينة، وفوق السطوح المشمّعة. وعلى جدران الكرتون، وفوق زجاج النوافذ. أما في مباني مستودعات الثلج، فهناك ذبابٌ أزرق كبير الحجم، يطير فوق حاويات القمامة مُحْدثاً ضوضاء كقاذفة القنابل.

نهضت لالا فجأةً وركضت أسرع ما بوسعها نحو الكثبان. تسلّقت منحدر الرمال الذي كان يغور تحت قدميها الحافيتين. وخزت الأشواك أصابعها، لكنّها لم تُلقِ بالاً لها. فهي تريد الارتقاء إلى أعلى الكثيب لترى البحر، بأسرع ما يمكن.

ما إن وصلت إلى أعلى الكثبان، حتى هبّت رياحٌ قويّة في وجهها، وكادت تنقلب على ظهرها. ضغط هواء البحر البارد على فتحتَيْ أنفها وألهب عينيها. كان البحر واسعاً، رماديّ الزرقة، ملطّخاً بالزبد، يهدر خافتاً، تتكسّر أمواجه القصيرة فوق السهل الرملي، حيث كان ينعكس من السماء الشاسعة لونٌ أزرقُ أقرب إلى السواد.

انحنَت لالا إلى الأمام بوجه الرياح. التصق ثوبها (في الواقع، الثوب قميصٌ صبيانيّ من قماش الشيت الخشن، قصّت عمّتها أكمامه) ببطنها وفخذيها كأنها خارجة من الماء للتوّ. ضجَّ صخبُ الرياح والبحر في مسامعها، على اليسار تارةً، وعلى اليمين تارةً أخرى، اختلط بالفرقعة التي تُحدِثها خصلات شعرها على صدغيها. أحياناً، كانت الرياح تأخذ حفنةً

(*) جنس من الطحالب الموجودة في مناطق المدّ والجزر لشواطئ البحار الصخرية.

من الرمال وترميها في وجه لالا، فتضطرّ إلى إغماض عينيها كي لا تفقد الرؤية. مع ذلك، أفلحت الرياح في إدماع عينيها، ودخلت بعض حبّات الرمل إلى فمها وصرّت تحت أسنانها.

حينذاك، وبعد أن انتشَت كلّياً بالريح والبحر، عادت للنزول على سور الكثبان. جلسَت القرفصاء قليلاً عند السفح، الوقتَ الكافي لاستعادة أنفاسها. لم تكن الرياح تصل إلى الجانب الآخر من الكثبان، بل تعبر فوقها وتتجه داخل الأراضي حتى تصل إلى الهضاب الزرقاء، حيث ينتشر الضباب. الرياح لا تنتظر، تفعل ما يحلو لها، ولالا تبتهج حين يكون هناك رياح، حتى وإن أحرقت عينيها وأذنيها، حتى وإن رمت في وجهها حفناتٍ من الرمال. إنها تفكّر دائماً بهذه الرياح، وبالبحر أيضاً، حين تكون في المنزل المُعتِم في المدينة، ويكون الهواء مثقَلاً بالروائح. تفكّر بالرياح القوية الشفّافة التي تتقافز باستمرار فوق البحر، وتجتاز الصحراء بلمح البصر حتى غابات الأرز، وترقص هناك عند سفوح الجبال وسط الأطيار والأزهار. الرياح لا تنتظر، تجتاز الجبال، تكنس التراب، والرمال، والرماد، تقلب الكراتين، تحمل إلى المدينة أحياناً لوائح وكراتين مطليّة بالزفت، وتلهو بقلع بعض السطوح والجدران. ولكن لا بأس، إذ إنّ لالا تراها بديعةً، شفّافة كالمياه، سريعة كالصاعقة، وقوية جداً، حتى إنها قادرة على هدم مدن العالم كلّها لو شاءت، حتى تلك المدن ذات المنازل البيضاء العالية، والنوافذ الزجاجية الواسعة.

ولالا تعرف كيف تقول اسمها، تعلّمته بمفردها وهي صغيرة، عندما كانت تسمع وصولها بين ألواح البيت في الليل. هذا هو اسمها عندما تهبّ: هـــــووووووو. هكذا، مع صفير.

إلى الأمام قليلاً، وسط دغل النباتات العشبية، رأته هناك. كان يبعد الأعشابِ الصفراء، كأنّ يداً تمرّ فوقها.

باشقٌ شبه ساكن فوق سهل العشب، يفرد في الهواء جناحين بلون النحاس. نظرت لالا إليه بإعجاب، لأنه يجيد الطيران في الهواء. كان يحرّك أطراف قوادمه شيئاً فشيئاً، ويفتح قليلاً ريش ذيله كالمروحة، يحلّق دونما جهدٍ يُذكر ويرتسم ظلّه على شكل صليبٍ مرتعش فوق العشب الأصفر. بين حينٍ وآخر، كان يطلق صياحاً كهذا فقط: كاااااك! كاااااك! فتردّ عليه لالا.

ثم ضمَّ جناحيه وغاص بغتةً باتجاه الأرض، لامس العشب طويلاً، مثل سمكةٍ تنزلق نحو القاع لعميق، حيث تتمايل أعشاب البحر. وهكذا اختفى بعيداً بين أوراق العشب المقلوبة. مع أنّ لالا صاحت وأطلقت صراخها: كاااااك! كاااااك! إلا أنّ الطير لم يعُد. لكنّه بقي طويلاً في عينيها، ظِلَّ سهمٍ ينزلق فوق رؤوس الأعشاب الصفراء دون صوت، داخل موجة الخوف التي خلّفها.

بقيت لالا ساكنةً حينذاك، ثم قلبت رأسها إلى الخلف وفتحت عينيها على اتساعهما أمام السماء البيضاء، فرأت دوائرَ تسبح في الفضاء وتتقاطع، كما يحدث عندما نرمي حصاةً في خزّان مياه. ما من حشرات، ولا طيور، لا شيء من هذا كلّه، مع ذلك، رأت آلاف النقاط تتحرّك في السماء، كأنها مأهولةٌ بالنمل والسوس والذباب. لم تكن تطير في الهواء الأبيض، بل تمشي في كلّ الاتجاهات، تحرّكها سرعةٌ محمومة، كأنها لا تدري أين المفرّ. لعلّها وجوه أولئك البشر الذين يعيشون في المدن، المدن الكبرى التي لا يمكن مغادرتها، هناك حيث تجد سيّاراتٍ كثيرة، وبشراً كثراً، ولا

يمكن أن نصادف الوجه نفسه مرّتين. هذا ما يقوله العجوز نعمان، عندما يذكر أسماء غريبة: الجزيرة، مدريد، مرسيليا، ليون، باريس، جنيف.

لالا لا ترى تلك الوجوه دائماً. في بعض الأيام فقط، حين تهبّ الرياح وتطرد الغيوم نحو الجبال، ويصبح الهواء شديد البياض يهتزّ مع نور الشمس. حينئذٍ فقط يمكن رؤية «البشر-الحشرات»، يتحرّكون، يركضون، يرقصون، هناك في الأعلى، بصعوبة يمكن رؤيتهم، كأنهم ذبابٌ صغير وليد.

ثم ناداها البحر من جديد، فركضت عبر دغل الأعشاب حتى وصلت إلى الكثبان الرمادية. والكثبان شبيهةٌ بأبقارٍ رابضة، خافضة الجبين، مقوّسة الظهر. تحبّ لالا الصعود إلى ظهورها بيديها وقدميها، سالكةً طريقاً يخصّها وحدها فقط، ثم تتدحرج كالكرة إلى الجانب الآخر، نحو رمل الشاطئ. تتلاطم مياه المحيط فوق رمال الشاطئ القاسية فتحدث صوت تمزّقٍ هائل، ثم تتراجع ويتلاشى الزبد تحت الشمس. الضوء والصخب قويّان جدّاً هنا، واضطرّت لالا أن تغلق فمها وعينيها. كان ملح البحر يحرق جفنيها وشفاهها، والرياح التي تهبّ رشقاتٍ تقطع أنفاسها داخل حلقومها، لكنّ لالا تحبّ البقاء بالقرب من البحر. دخلت إلى المياه، فشدّت الأمواج على ساقيها وبطنها، والتصق القميص الأزرق بجسدها. شعرت بقدميها تنغرسان في الرمل مثل عمودين، لكنّها لم تغامر بعيداً لأنّ البحر يلتقط الأطفال بين حينٍ وآخر، هكذا وهم غافلون، ثم يلفظهم على رمال الشاطئ القاسية بعد يومين، ببُطونٍ ووجوه امتلأت بالمياه، وأنوف قرضتها سرطانات الماء مع الشفاه وأطراف الأصابع والأعضاء التناسلية.

مشت لالا على الرمال بمحاذاة أطراف الزبد. كان ثوبها المبلّل حتى

الصدر يجفّ في الهواء، وشعرها الأسود الفاحم تجدله الرياح من جانب واحد. وبدا وجهها في نور الشمس بلون النحاس.

بين مسافةٍ ومسافة، قناديلُ بحرٍ جانحة على الرمال تتناثر مجسّاتها حولها كالشعر. كانت لالا تنظر إلى لثقوب التي تتشكّل داخل الرمال في كلّ مرّة تنسحب فيها الموجة. تجري أيضاً وراء السرطانات الرمادية الصغيرة التي تركض هاربةً بشكلٍ جانبيّ، خفيفةً، شبيهةً بالعناكب، رافعةً ملاقطها إلى الأعلى، وهذا ما يُضحك لالا كثيراً. لكنّها لا تحاول الإمساك بها كما يفعل بقية الأولاد، بل تتركها تهرب إلى البحر وتختفي في الزبد المتلألئ.

سارت على طول الشاطئ وهي تدندن الأغنية نفسها التي تقول كلمةً واحدة: «ميديتيرّانيـــــــه...»، ثم ذهبت لتجلس عند سفح الكثبان أمام الشاطئ، لفّت ذراعيها حول ركبتيها، وخبّأت وجهها بين ثنايا قميصها الأزرق كي لا تستنشق الرمال التي تذريها الرياح.

تذهب لالا للجلوس في المكان نفسه دائماً داخل تجويف الكثبان، هناك حيث يبرز من الماء عمودٌ خشبيّ متآكل، وتنبت بين الحصى شجرةُ تينٍ كبيرة. إنّها تنتظر نعمان الصيّاد.

نعمان الصيّاد ليس ككلّ الناس. إنه رجلٌ فارع الطول، نحيل، له منكبان عريضان ووجهٌ بادي العظام من هزاله، وبشرةٌ بلون القرميد. يسير دوماً حافي القدمين، يرتدي سروالاً من الكتّان الأزرق وقميصاً أبيض واسعاً جداً عليه يرفرف عندما تهبّ الريح. ولكنْ، وإن كان هكذا، فإنّ لالا تراه وسيماً جداً وفي غاية الأناقة، ويَجِفُ قلبُها قليلاً حين تشعر بقدومه. لوجهه ملامحُ واضحة قسَت من هواء ابحر، وجلدُ جبهته ووجنتيه أسمرُ

مشدودٌ من شمس البحر. له شعرٌ كثيف بلون بشرته نفسها. لكنّ لون عينيه هو الرائع، أزرقُ مخضرّ ممزوجٌ بالرمادي، عينان صافيتان وشفّافتان في وجهه الأسمر، كأنهما احتفظتا بنور البحر وشفافيته. في سبيل رؤية عينيه، كانت لالا تنتظر الصيّاد على الشاطئ بالقرب من شجرة التين الكبيرة، ولكي ترى ابتسامته حين يلمحها أيضاً.

انتظرته طويلاً وهي جالسةٌ على رمال الكثبان الناعمة، في ظلّ شجرة التين. تدندن قليلاً ورأسها بين ذراعيها، كي لا تبتلع الكثير من الرمال. تغنّي الكلمة الأثيرة لديها، الكلمة الحلوة الطويلة، والتي تقول فقط: «ميديتيرّانيـــــــــــــه...».

انتظرته وهي تنظر إلى البحر الذي أصبح مخيفاً، بلونٍ رماديّ أزرق كالفولاذ، واختفى خطّ الأفق بشيء يشبه السحاب. أحياناً يُخيَّل إليها أنها ترى نقطةً سوداء تتراقص وسط انعكاسات رؤوس الأمواج، فتنتصب قليلاً، إذ تظنّ أنها ترى قارب نعمان. لكنّ النقطة السوداء تختفي، فهي سرابٌ فوق البحر، أو ربما ظَهْرُ دلفين.

نعمان هو الذي حدّثها عن الدلافين. حكى لها عن أسرابٍ لها ظهورٌ سوداء تقفز أمام صدر القوارب بمرح، كأنها تلقي التحيّة على الصيّادين، ثم تذهب فجأةً باتجاه الأفق وتختفي. يحبّ نعمان أن يحكي للالا حكايات الدلافين. حين يحدّثها، يصبح نور البحر أكثر لمعاناً في عينيه، كأنّ لالا تستطيع أن تلمح الحيوانات السوداء من خلال لون بؤبؤيه. مع أنها تنظر بتمعّنٍ شديد إلى البحر، لكنّها لا ترى الدلافين. لم تكن تحبّ الاقتراب من السواحل بالتأكيد.

يروي لها نعمان حكاية الدلفين الذي أرشد مركب أحد الصيّادين

إلى الشاطئ، ذات يومٍ تاهَ فيه في البحر أثناء العاصفة. كانت الغيوم قد نزلت إلى البحر وغطّته كالوشاح، وكسرت الرياح العاتية صاري المركب. حينئذٍ، أخذت العاصفة مركب الصيّاد إلى البعيد، بعيداً جداً، بحيث ما عاد بإمكانه رؤية الساحل. جنح المركب لمدّة يومين وسط أمواجٍ تهدّد بإغراقه، وظنّ الصيّاد أنه هالكٌ لا محالة، وبدأ يتلو صلاته، عندما ظهر دلفين هائل الحجم وسط الأمواج. صار يقفز حول المركب ويلعب بين الأمواج، كما تفعل الدلافين عادةً. لكنّ هذا الدلفين كان وحيداً. فجأةً، بدأ يرشد المركب. صعب عليه فهم ذلك، لكنّ هذا ما فعله. كان يسبح وراء المركب ويدفعه أمامه. يغيب أحياناً ويختفي بين الأمواج، فيظنّ الصيّاد أنه خذله. ثم يعود ويبدأ من جديد في دفع القارب بجبهته، وهو يضرب البحر ضرباتٍ قوية بذيله. وعلى هذا النحو، أبحرا النهار بطوله، وعندما جاء الليل وانقشع الغيم قليلاً، لمح الصيّاد أنوار الشاطئ أخيراً. صاح وبكى فرحاً، فقد علم أنه نجا. عندما وصل القارب إلى برّ الأمان، استدار الدلفين ورحل باتجاه البحر. رآه الصيّاد يغيب بظهره الأسود اللامع في نور الشفق.

لالا تحبّ هذه الحكاية كثيراً، وتبحث دائماً فوق البحر علّها ترى الدلفين الأسود، لكنّ نعمان قال لها إنّ ذلك حدث منذ زمن قديم جداً، ولا بدّ أنّ الدلفين طاعنٌ في السنّ اليوم.

ككلّ صباح، انتظرت لالا وهي تجلس في ظلّ التينة الكبيرة وتنظر إلى البحر الأزرق الرمادي، إلى حيث كانت تقترب رؤوس الأمواج المدبّبة، التي تتلاطم على الشاطئ في طريقٍ موارِبٍ تقريباً، تتكسّر أولاً عند الشرق من جهة الرأس الصخري، ثم عند الغرب من جهة النهر. وفي النهاية تتحطّم في الوسط. هبّت الرياح وأمسكت بتلابيب الزبد وألقتها بعيداً

باتجاه الكثبان، فامتزج الزبد بالرمال والتراب. وحين ارتفعت الشمس عالياً في السماء الخالية من الغيوم، عادت لالا إلى المدينة دون استعجال، فهي تعرف أنّ الأعمال بانتظارها. عليها أن تذهب لجلب الماء من النبع، تأخذ صفيحةً قديمة صدئة تحملها متوازنة فوق رأسها، ثم تذهب لغسل الملابس على النهر، غير أنّ هذا العملَ ممتعٌ، فقد كان بوسعها الثرثرة مع الآخرين، وسماع كلّ أنواع القصص غير المعقولة من الأفواه، على وجه الخصوص من تلك الفتاة التي تدعى إِكيكر (ويعني اسمها: الحمّص، باللهجة البربرية)، بسبب ثؤلول فوق خدّها. لكنّ هناك عملين لا تحبّهما لالا البتّة: الذهاب لإحضار العيدان اليابسة من أجل النار، وطحن القمح لصنع الدقيق.

لذلك عادت على مهلها تجرجر قدميها على الطريق. ولم تعُد للغناء حينئذٍ، لأنها كانت تصادف الناس عند الكثبان في هذه الساعة. صبيانٌ ذاهبون لنصب فخاخٍ للعصافير، أو رجالٌ يتجهون إلى أعمالهم. أحياناً يسخر الصبيان منها، لأنها لا تُحسن السير حافية القدمين، ولا تعرف الكلمات البذيئة. لكنّ لالا حين تسمعهم آتين من بعيد، كانت تختبئ وراء دغلٍ شوكيّ بالقرب من أحد الكثبان وتنتظر رحيلهم. هناك أيضاً تلك المرأة المخيفة، التي لم تكن طاعنةً في السن، لكنّها قذرة جداً، شعرها أسود وأحمر متشابك، ملابسها ممزّقة بفعل الأشواك. حين تصل إلى الكثبان، كان لا بدّ للالا أن تحتاط، فهي شديدة الخبث ولا تحبّ الأولاد. الناس ينادونها عايشة قنديشة، ولكنّ هذا ليس اسمها الحقيقي. لا أحد يعرف اسمها الحقيقي. يقال إنها تخطف الأطفال لتؤذيهم. حين تسمع لالا باقتراب عايشة قنديشة إلى الطريق، كانت تختبئ وراء الدغل

وتحبس أنفاسها. تمرّ عايشة قنديشة وهي تغمغم بكلماتٍ غير مفهومة. تتوقّف للحظة، ترفع رأسها لأنها أحسّت بوجود أحد. لكنّها شبه عمياء، ولا تستطيع رؤية لالا. حينذاك، كانت تتابع طريقها وهي تعرج وتطلق الشتائم بصوتها المقيت.

في بعض الأصباح، يظهر في السماء شيءٌ تحبّه لالا كثيراً، سحابةٌ بيضاء كبيرة، طويلة ورفيعة تعبر السماء في المكان الأشدّ زرقةً. وفي طرف الخط الأبيض، ترى صليباً فضّياً صغيراً يتقدّم على مهل، عالياً جداً، بصعوبة يمكن تمييزه. تقلب لالا رأسها إلى الوراء، وتنظر طويلاً إلى الصليب الصغير الذي يسير في السماء. تحب أن تتابع مساره في السماء الزرقاء الواسعة، دون صوت، تاركاً وراءه هذه السحابة البيضاء الرفيعة، التي تشكّل كريّات قطنية تمتزج وتتوسّع كأنها طريق، ثم يتخلّلها الهواء ويغسل السماء. تحبّ لالا التفكير بأنها هناك في الأعالي، داخل هذا لصليب الفضّيّ الصغير فوق البحر، وفوق الجزر، وحتى فوق الأراضي النائية. تظلّ هكذا لوقتٍ طويل تنظر إلى السماء بعد أن تختفي الطائرة.

ظهرت المدينة عند منعطف الطريق، بعد أن ابتعدت عن البحر وسارت لمدة نصف ساعة باتجاه النهر. لا تعرف لالا لماذا سُمّيت «المدينة»، فهي منذ البدء لم تكن سوى بضعة أكواخ من الصفيح والورق المعالج بالقطران في الجانب الآخر من النهر، مع أراضٍ واسعة تفصلها عن المدينة الحقيقية. ربما مُنحت هذا الاسم كي تجعل الناس ينسون أنهم يعيشون مع الكلاب والجرذان وسط التراب.

إلى هنا جاءت لالا لتعيش عندما توفّيت أمها، منذ زمن طويل جداً، حتى إنها لم تعد تذكر تماماً الوقت الذي حدث فيه ذلك. كان الطقس حارّاً

جداً لأنّ الفصل صيف، والرياح تثير سحب الغبار فوق أكواخ الصفيح. كانت قد سارت مغمضة العينين وراء خيال عمّتها، إلى أن وصلت إلى هذا الكوخ الخالي من النوافذ، حيث يعيش أولاد عمّتها. حينذاك، انتابتها رغبةٌ شديدة في الركض والهرب إلى الطريق المؤدّي إلى الجبال العالية، وألّا تعود البتّة.

في كلّ مرّة تعود فيها لالا من الكثبان، وترى سطوح الصفيح المتدلّية مع الورق المقطرن، ينقبض قلبها وتتذكّر اليوم الذي وصلت فيه إلى المدينة أوّل مرّة. لكنّ ذلك مضى عليه زمنٌ طويل الآن، حتى كأنّ كلّ ما مرَّ بها، لم يحدث في الواقع، وإنما كأنه قصةٌ سمعَتها.

كذلك حكاية ولادتها في جبال الجنوب، هناك حيث تبدأ الصحراء. أحياناً في الشتاء، حين تكون معفاةً من العمل في الخارج، والرياح تعصف بقوّة فوق سهل التراب والملح، وتصفر بين ألواح منزل العمّة المتخلخل، كانت لالا تجلس على الأرض وتصغي إلى قصة ولادتها.

هي حكاية طويلة وغريبة جداً، والعمّة لا ترويها بالطريقة نفسها دائماً. كانت تنغّم صوتها قليلاً، تؤرجح رأسها كأنها على وشك النوم، وتحكي الحكاية:

«عندما آن أوان ميلادك، كان ذلك قبل الصيف بقليل، وقبل موسم الجفاف. شعرت حوّا أنها على وشك الولادة، وبما أنّ الناس كلّهم كانوا نياماً، خرجت من الخيمة دون أن تُحدِث أيَّ صوت. شدّت بطنها بقطعة قماشٍ فقط، ومشت قدر استطاعتها إلى الخارج، حتى وصلت إلى مكانٍ فيه شجرة ونبع ماء، لأنها كانت تعرف أنها سوف تحتاج إلى الظلّ والماء حين تشرق الشمس. هكذا هي العادات هناك، يجب أن تنجب

المرأة بالقرب من عين ماء دائماً. حينذاك، مشت إلى هناك، ثم ولدَتكِ بالقرب من الشجرة، وانتظرت نهاية الليل. لم يعرف أحدٌ أنّ أمّك كانت في الخارج. لقد تمكّنت من السير دون أن تُحدث صوتاً، ودون أن تنبح الكلاب عليها. مع أنني كنت نائمة بالقرب منها، لم أسمعها تئنّ أو تنهض للخروج من الخيمة...».

«وبعد ذلك، ماذا حدث يا عمّة؟!».

«بعد ذلك، طلع النهار واستيقظت النسوة. لاحظن أنّ أمّك لم تكن موجودة، وعرفن لماذا خرجت. ذهبتُ للبحث عنها حينئذٍ باتجاه النبع، وعندما وصلت إلى هناك، كانت تنف ملتصقةً بشجرة، تتشبّث ذراعاها بغُصنٍ، وتئنّ بصوتٍ واهٍ كي لا توقظ الرجال والأولاد...».

«ماذا جرى بعد ذلك، يا عمّة؟!».

«حينئذٍ وُلِدْتِ على الفور، هكذا على الأرض بين جذور الشجرة. نظّفوك بماء النبع، وغطّوك بعباءة، لأنّ برودة الليل كانت لا تزال باقية. ارتفعت الشمس وعادت أمّك إلى الخيمة كي تنام. أذكر أنه لم يكن هناك قماطٌ لإلباسك، وغفوتِ داخل عباءة أمّك الزرقاء. كانت سعيدةً لأنك ولدت بسرعة كبيرة، لكنّها كانت حزينة أيضاً بسبب موت والدك، وتعتقد أنها لا تملك المال الكافي لتربيَتِك، وخافت أن تضطرّ لإعطائك لأحدٍ غيرها».

أحياناً، كانت العمّة تروي الحكاية بطريقةٍ مغايرة، كأنها لم تعد تذكرها بشكلٍ صحيح. على سبيل المثال، كانت تقول: إنّ حوّا لم تكن متشبّثة بجذع الشجرة، إنما بحبل البئر، وإنها كانت تشدّ عليه بكلّ قواها كي تتغلّب على الآلام. أو تقول إنّ راعياً عابراً خلّص الطفلة ولفّها بردائه الصوفيّ.

لكنّ ذلك كلّه كان داخل ضباب ذاكرتها المشوّشة، كأنّ ما حدث كان في عالم آخر، في الطرف الآخر من الصحراء، هناك حيث السماء مختلفة، وفيها شمسٌ أخرى.

«بعد أيام قليلة، استطاعت أمُّك السير لأوّل مرّة إلى البئر كي تستحمّ وتمشّط شعرها. كانت تحملك وأنت داخل العباءة الزرقاء نفسها، تعقدها على خصرها. تمشي بخطوات صغيرة، إذ إنها لم تكن قوية كما في السابق، غير أنها كانت في غاية السعادة لأنك أتيت، وحين تُسأل عن اسمك، كانت تقول إنّ اسمك لالا حوّا مثل اسمها، لأنك سليلة الشرفاء».

«أرجوك يا عمّة، حدّثيني عن الرجل الذي يُدعى الأزرق!».

لكنّ العمّة كانت تهزّ رأسها.

«ليس الآن، في يومٍ آخر».

«أرجوك يا عمّة، حدّثيني عنه!». لكنّ العمّة تهزّ رأسها دون أن تجيب وتنهض لتمسّد عجينها في الوعاء الفخاري الكبير بالقرب من الباب. هكذا هي العمّة، لا تحبّ التحدّث طويلاً البتّة، ولا تقول الكثير من الكلام حين يتعلّق الأمر بالرجل الأزرق، أو بمولاي أحمد بن محمد الفاضل، الملقّب بماء العينين.

الغريب في أمر المدينة، هو أنّ الناس في فقرٍ مدقع، ولكن لا أحد منهم يشتكي البتّة. المدينة بشكلٍ خاص هي هذا الكدس من أكواخ مصنوعةٍ من الألواح والزنك، وقطعٍ كبيرة من الورق المقوّى المعالج بالقطران مترابطة بالحصى، تقوم مقام السطوح. عندما تهبّ الرياح قويّةً فوق الوادي، يُسمع صفيق الألواح، وقعقعة قطع الزنك، ورشقات فرقعة الورق المزفّت وهي تتمزّق. يا لها من موسيقا غريبة تهتزّ وتقرقع! كأننا داخل حافلة كبيرة تسير

متخلّعة فوق طريقٍ ترابيّ، أو كأنّ رهطاً من الحيوانات والجرذان يجري فوق السطوح وعلى طول الأزقّة.

أحياناً تكون العاصفة عنيفةً جدّاً وتطيح بكلّ شيء، ويضطرّون لإعادة بناء المدينة في اليوم التالي. لكنّ الناس يفعلون ذلك وهم يضحكون، لأنهم فقراء جداً ولا يخافون خسارة ما يملكون. ربما لأنهم سعداء أيضاً، ولأنّ السماء فوقهم بعد العاصفة تصبح أوسع وأشدّ زرقة، والنور أكثر روعة. في كلّ الأحوال، لا يوجد حول المدينة سوى أرضٍ منبسطة، ورياحٍ محمّلة بالغبار، والبحر الواسع الشاسع، بحيث ليس بالمستطاع رؤيته كلّه.

تحبّ لالا أن تنظر إلى السماء كثيراً. تذهب في أغلب الأحيان إلى جهة الكثبان، هناك حيث يتجه الطريق الرملي باستقامة، ترتمي على ظهرها فوق الرمل والأشواك مباشرةً وتصالب ذراعيها. تنجلي السماء حينئذٍ أمام وجهها الأملس وتلمع كالمرآة، ساكنةً، هادئة، خاليةً من الغيوم، خاليةً من الطيور، خاليةً من الطائرات.

تفتح لالا عينيها على اتساعهما، وتترك السماء تدخل إليها، وهذا ما كان يُشعرها بحركةٍ كالأرجوحة كأنها فوق مركب، أو كأنها دخّنت كثيراً ودار رأسها. ذلك بسبب الشمس، فهي تتلظّى بشدّة رغم رياح البحر الباردة، تستعِرُ بحيث تدخل حرارتها إلى جسد البنيّة. وتغمر بطنها وصدرها وذراعيها وساقيها. وهذا ما يسبّب الألم أيضاً، ألمٌ في العينين وفي الرأس، لكنّ لالا تبقى ساكنةً دون حراك، فهي تحبّ الشمس والسماء حبّاً جمّاً.

حين تكون مستلقيةً هناك على الرمال، بعيداً عن بقية الأولاد، بعيداً عن المدينة المليئة بالأصوات والروائح، وعندما تكون السماء زرقاءَ تماماً،

كما هي اليوم، تستطيع لالا أن تفكّر بما تحبّ. تفكّر بذاك الذي تسمّيه «السرّ»، صاحب النظرة التي تلفّها وتحميها كنور الشمس.

لا أحد يعرفه هنا في المدينة، ولكن أحياناً، حين يكون الطقس في غاية الروعة، والنور يتألق فوق البحر والكثبان، كان اسم السرّ يظهر في كلّ مكان، ويدوّي في كلّ مكان، ويصل إلى أعماقها. يُخيّل لِلالا أنها تسمع صوته، ووقع خطواته الرشيقة، وتشعر فوق جلد وجهها بنظرته الحارقة التي ترى كلّ شيء، وتخترق كلّ شيء. نظرة آتية من الجانب الآخر للجبال، من وراء الدرعة، من قلب الصحراء، تلمع مثل نورٍ لا يضمحلّ.

لا أحد يعرف شيئاً عنه. عندما تتحدّث عنه إلى نعمان الصيّاد، كان يهزّ رأسه، فهو لم يسمع باسمه قطّ، ولا يأتي على ذكره البتّةَ في حكاياته. مع ذلك، هذا اسمُه الحقيقي بالتأكيد كما تظن لالا، فهو الاسم الذي سمعَته. ولعلّه حلمٌ فحسب. حتى العمّة، يبدو أنها لا تعرف عنه شيئاً. مع ذلك إنه اسمٌ جميل كاسمها، وله وقعٌ جميل على المسامع.

لذلك، ولكي تسمع اسمه وتلمح نور نظرته، تذهب لالا إلى البعيد دائماً، بين الكثبان، حيث لا شيء سوى البحر والرمال والسماء. ذلك لأنّ السرّ لا يمكن سماع اسمه، ولا يمنح دفء نظرته حين تكون لالا في مدينة الصفيح والورق المقطرن، فهو رجلٌ لا يحبّ الصخب والروائح، يحبّ أن يكون وحيداً في الرياح، وحيداً مثل طائر معلّق في السماء.

أهل المدينة لا يعرفون لماذا تذهب إلى هناك. ربما يظنّون أنها تذهب إلى بيوت الرُّعاة، في الجانب الآخر من التلال الصخرية، ولا يقولون شيئاً.

هنا في المدينة، الناس ينتظرون. لا يفعلون شيئاً آخر في الحقيقة. إنهم محتجزون داخل أكواخهم المصنوعة من الألواح والزنك غير البعيدة عن

شاطئ البحر، يستلقون دون حراك في ظلّها الكثيف. عندما يطلع النهار فوق الحصى والتراب، يخرجون لبرهةٍ كأنّ شيئاً ما سيحدث. يتحدّثون قليلاً، تذهب الفتيات إلى نبع المياه، ويذهب الصبيان إلى العمل في الحقول، أو للتسكّع في شوارع المدينة الحقيقية في الطرف الآخر من النهر، أو أنهم يجلسون على طرف الطريق لمشاهدة الشاحنات العابرة.

في صباح كلّ يوم، تجتاز لالا المدينة. تذهب لجلب الماء في دلاءٍ من النبع. أثناء سيرها، تسمع موسيقا المذياع على التوالي من بيتٍ إلى آخر، الأغنية المصرية نفسها تتردّد عبر أزقّة المدينة. تحبّ لالا كثيراً سماع تلك الموسيقا التي تعلو وتنخفض في اتساقٍ بين نشاز ونشيج، ممتزجةً بوقع خطوات الفتيات وخرير المياه. عندما تصل إلى نبع القرية، تنتظر دورها وهي تؤرجح دلو الزنك بطرف ذراعها. تنظر إلى الفتيات، بعضهنّ سوداوات كأنهن زنجيّات مثل إكيكر، وبعضهن الآخر بشرتهن بيضاء وعيونهن خضراء مثل مريم. تأتي أيضاً نساءٌ عجائز محجّبات، ينقلن الماء في طناجر سوداء، يتحدّثن بسرعة وبصوتٍ خفيض.

ونبع الماء في المدينة عبارة عن صنبور من النحاس الأصفر في أعلى أنبوب رصاصيّ طويل، يهتزّ ويشخر كلّما فُتح أو أُغلق. تغسل الفتيات سيقانهن ووجوههن تحت رشق المياه الباردة. أحياناً يتراشقن الماء بالدلاء وهنّ يطلقن صيحات تصمّ الآذان. هناك دائماً دبابيرُ تحوم حول رؤوسهن، وتعلق في شعورهن المتشابكة.

ترفع لالا الدلو فوق رأسها، وتمشي مستقيمة العود كي لا تُسقط قطرة مياهٍ واحدة. في الصباح، السماء بديعةٌ وصافية، كأنّ كلّ شيء لا يزال جديداً كلّياً. ولكنْ حين تقترب الشمس من السمت، يرتفع بالقرب من الأفق ضبابٌ كالغبار، وترخي السماء بثقلها على الأرض.

ثمّة مكانٌ تحبّ لالا الذهاب إليه كثيراً. كان عليها أن تسلك الدروب التي تبتعد عن البحر وتتجه شرقاً، ثم تصعد بالاتجاه المعاكس لمجرى الماء الجافّ. وحين بلغت الهضاب الصخرية، أكملت طريقها فوق الحجارة الحمراء متتبّعةً آثار الماعز. كانت الشمس تسطع بقوّةٍ في السماء، لكنّ الهواء بارد، لأنه آتٍ من بلاد لا أشجار فيها ولا مياه. هواءٌ قادم من أعماق الصحراء، حيث يعيش ذاك الذي تدعوه «السرّ»، لأن لا أحد يعرف اسمه.

هكذا وصلت إلى هضبة الصخور البيضاء الممتدّة حتى حدود الأفق، وحتى السماء. كان الضياء مبهراً، والهواء بارداً يجفّف الشفاه ويدفع الدمع إلى المآقي. نظرت لالا بكلّ قواها، إلى أن خفق قلبها ضرباتٍ قويّةً كتيمة في صدرها وفي صدغيها، إلى أن غطّت السماءَ غلالةٌ حمراء، وسمعت في أذنيها الأصوات المجهولة التي تتحدّث وتغمغم كلّها معاً.

ثم سارت إلى الأمام وسط الهضبة الصخرية، هناك حيث تعيش العقارب والأفاعي فقط. ما من طريقٍ فوق الهضبة، ليس فيها سوى ردم حجارة متكسّرة حادّة كالسكاكين، يتناثر النور فوقها شرارات. لا شجر ولا عشب، رياحٌ قادمة من مركز الفضاء فحسب.

إلى هنا يأتي الرجل لملاقاتها أحياناً. هي لا تعرف من يكون، ولا من أين أتى. مخيفٌ مرّات، لطيفٌ وهادئ جداً مرّاتٍ أخرى، ممتلئ بجمال

سماويّ. لا ترى منه سوى عينيه، إذ إنّ وجهه ملثّم بقماشٍ أزرق مثل لثام محاربي الصحراء. يرتدي عباءةً بيضاء واسعةً، تسطع كالملح في ضوء الشمس. تتّقد عيناه في ظلّ عمامته الزرقاء بحرارة غريبة وحزينة، وتحسّ لالا بدفء نظرته تعبر فوق وجهها وجسدها، كما يحدث عندما تقترب من جمر النار المتأجّجة.

لكنّ «السرّ» لا يأتي دائماً. كان رجل الصحراء يصل عندما تنتاب لالا رغبةٌ قويّة برؤيته فقط، حين تحتاج إليه حقيقةً، وتشعر بحاجة ماسّة للحديث إليه، أو للبكاء. ولكن وإن لم يأتِ، ثمّة شيءٌ منه باقٍ فوق حجارة الهضبة، لعلّها نظرته الحارقة التي تضيء المنظر وتتحرّك بين طرفي الأفق. تمشي لالا حينئذٍ وسط المنبسط الحجريّ المتكسّر، لا تعبأ إلى أين تذهب، ولا تحاول أن تعرف. فوق بعض الصخور علاماتٌ غريبة نُقشت على الحجر لا تفهمها: صلبان، نقاط، بقع على شكل الشمس أو القمر، أسهم. لعلّها علامات سحر، هذا ما يدّعيه صبيان المدينة، ولهذا السبب لا يحبّون المجيء إلى الهضبة البيضاء. لكنّ لالا لا تخاف العلامات ولا العزلة، فهي تعرف أنّ رجل الصحراء الأزرق يحميها بنظرته، ولم تعُد تخشى الصمت ولا فراغ الريح.

إنه مكانٌ يخلو من أيّ كائنٍ بشريّ، لا أحد هنا. لا أحد سوى رجل الصحراء الأزرق الذي ينظر إليها باستمرار دون أن يتكلّم، وهي لا تعرف ماذا يريد وماذا يطلب. تحتاج إليه، فيأتيها بصمت، بنظرته الممتلئة قوّةً. هي سعيدة حين تكون فوق الهضبة الصخرية، في مرمى النظرة المنيرة. تعرف أنه يجب ألّا تتحدّث عنه لأيٍّ كان، حتى للعمّة، لأنّ هذا سرّ، وأهمُّ شيء حدث معها. هو سرّ أيضاً، لأنها الوحيدة التي لا تخشى المجيء إلى

الهضبة الصخرية دائماً، رغم الصمت والفراغ الذي تُحدثه الرياح. ربما الراعي الشلوحيّ وحده، الذي ينادونه الحرطاني، يأتي إلى الهضبة هو أيضاً في بعض الأحيان، لكنّ ذلك يحدث حين تتوه إحدى مِعاز القطيع وهي تجري على امتداد الوهاد. هو مثلها لا يخاف العلامات فوق الحجارة، لكنّ لالا لم تجرؤ قطّ على التحدّث إليه عن سرّها. إنه الاسم الذي تطلقه على الرجل الذي يظهر أحياناً على الهضبة الصخرية. «السرّ»، لأن لا أحد جديرٌ بمعرفة اسمه.

والسرّ لا يتكلّم، فهو لا يتحدّث لغة البشر، لكنّ لالا تسمع صوته داخل أذنيها. يقول بلغته أشياء رائعة الجمال تتحرّك داخل جسدها وتصيبها بالارتعاش. لعلّه يتحدّث بصوت الريح الخافت الآتي من آخر المدى، أو بالصمت الفاصل بين أنفاس الريح. أو ربما يقول كلماتٍ من نور، كلماتٍ تسطع باقاتٍ من شرر فوق حوافّ الحجارة الحادّة، كلماتٍ من الرمال، من الحصى الذي يتفتّت غباراً قاسياً، وكلماتٍ من العقارب والأفاعي أيضاً، التي تترك آثارها الخفيفة فوق التراب. إنه يتحدّث بهذه الكلمات كلّها، تتقافز نظرته من حجرٍ إلى حجر مثل حيوانٍ حيّ، وتذهب بحركةٍ واحدة نحو الأفق، تصعد مباشرةً نحو السماء، وتحلّق أعلى من الطيور.

لالا تحبّ المجيء إلى هنا، إلى هضبة الحجارة البيضاء كي تسمع تلك الكلمات السرّيّة. هي لا تعرف ذلك الذي تسمّيه السرّ، لا تعرف من يكون، ولا من أين أتى، لكنّها تحبّ ملاقاته في هذا المكان، لأنه يحمل معه، بنظرته ولغته، حرارة بلاد الكثبان والرمال من الجنوب، من الأراضي الخالية من الأشجار والمياه.

حتى عندما لا يأتي، تستطيع رؤية نظرته. يصعب فهم الأمر، فهو شبيهٌ

بالحلم بعض الشيء، كأنّ لالا لا تعود هي ذاتها تماماً، كأنها تدخل إلى عالم يقع في الجانب الآخر لنظرة الرجل الأزرق.

الآن تتبدّى الأشياء بديعةً وغامضة. أشياء لم ترَها في أيّ مكانٍ قطّ، تشوّشها وتزرع القلق في نفسها. ترى سهل الرمال الذهبيّ الأصفر الشاسع أشبهَ ببحرٍ أمواجُه كبيرة وساكنة. فوق امتداد الرمال هذا، لا يوجد أحد، لا يوجد شيء، لا شجرة، ولا عشبة، لا شيء سوى ظلال الكثبان، تستطيل، تتلاقى، وتشكّل بحيرات عند المغيب. هنا الشيء نفسه أيضاً، كأنها هنا وهناك في آنٍ واحد. في البعيد حيث تقع نظرتها مصادفةً، ثم في مكانٍ آخر قريب من الحدود بين الأرض والسماء. تتحرّك الكثبان تحت أنظارها ببطء، تُباعد أصابعها الرملية، تجري سواقٍ ذهبية في عمق الوديان اللاهبة، تموّجات صلبة شوَتها الشمس بحرارتها الحارقة، شواطئ بيضاء واسعة تنحني انحناءةً متكاملة ساكنة أمام بحر الرمال الحمراء. يتوهّج النورُ الأحمر وينساب من كلّ الجهات، يتولّد من كلّ حدبٍ وصوب في آن معاً، من الأرض، من الشمس، من السماء، سماء لا حدود لها. عند خطّ الأفق ضبابُ غبارٍ جافّ لا غير، يتماوج، يعكس أضواء متكسّرة، يتراقص كأعشاب نورانية، يرتعش الغبار الأحمر الوردي في الهواء البارد ويصعد إلى عنان السماء.

كلّ هذا غريبٌ وبعيد، مع ذلك، يبدو مألوفاً لديها. رأت لالا أمامها الصحراء الكبرى يسطع فيها النور، كأنها تراها بعيونِ شخصٍ آخر، شعرت فوق جلدها بأنفاس رياح الجنوب وهي تثير سُحبَ الرمال، برمال الكثبان الحارقة تحت قدميها الحافيتين، شعرت بشكلٍ خاصّ بوسع السماء الخالية فوقها، سماء لا تلقي الظلال، تسطع فيها الشمس بصفاء.

هكذا ولوقتٍ طويل، لم تعُد لالا تشعر بذاتها، أصبحت شخصاً آخر من مكانٍ بعيد، من عالم النسيان. رأت أشكالاً أخرى، وأطيافَ أطفالٍ ورجال ونساء وخيول وجِمال وقطعان ماعز، رأت طيفَ مدينة، وقصراً من الحجارة والكلس، وأسواراً من الطين تخرج منها فصائلُ من المحاربين. رأت ذلك ليس كالحلم، إنما كذكرى من ذاكرة شخص آخر دخلت إليها دون أن تدرك. سمعت صخبَ أصواتِ رجال، غناء نساء، ألحانَ موسيقا، وربما هي ذاتها كانت ترقص، تدور وتدور حول نفسها، تضرب الأرض بقدميها العاريتين وبكعبيها، تخشخش بأساورها النحاسية وعقودها الثقيلة.

فجأةً، كنسمة رياح خاطفة، تلاشى كلُّ شيء. ذلك لأنّ نظرة السرّ تركتها، وأشاح وجهه عن هضبة الحجارة البيضاء. حينذاك، استعادت لالا نظرتها، وشعرت بقلبها ورئتيها وجلدها من جديد. وأحسّت بأدقّ التفاصيل، بكلّ حجر، بكلّ صدع، بكلّ رسمٍ صغير فوق التراب.

عادت أدراجها. نزلت إلى مجرى النهر الجافّ متفاديةً الحجارةَ المسنّنة والأعشاب الشوكية. عندما وصلت إلى الأسفل، كانت متعبة جداً، من كلّ هذا الضوء، من كلّ هذا الفراغ في الرياح التي لا تتوقّف. على مهلٍ، سارت في دروب الرمال نحو المدينة، حيث لا تزال ظلال الرجال والنساء تتحرّك. مشت إلى أن وصلت إلى نافورة المياه، غسلت وجهها ويديها وهي جاثية على الأرض، كأنها عائدة من رحلةٍ طويلة.

ما هو رائعٌ أيضاً هو هذه الدبابير، فهي تنتشر في كلّ أرجاء المدينة بأجسامها الطويلة الصفراء المخطّطة بالأسود وأجنحتها الشفّافة. تراها أينما ولّيت وجهك، تطير على مهلٍ باحثةً عن غذائها ولا تعبأ بالناس. لالا تحبّها كثيراً وتتابعها بأنظارها دائماً وهي معلّقة في أشعّة الشمس فوق أكوام القمامة، أو حول البسطات في حانوت الجزّار. أحياناً تقترب من لالا التي تأكل برتقالة، وتحاول أن تقف على وجهها ويديها. يلسعها دبّورٌ في عنقها، أو في ذراعها، ويسبّب لها حرقةً تدوم ساعات. ولكن لا بأس، فهي تحبّ الدبابير رغم كلّ شيء.

لكنّ الذباب أقلّ مرتبةً، فهو لا يمتلك هذا الجسم الطويل الأصفر والأسود، ولا هذا القدّ الرفيع، حين يقف على أطراف المائدة. يتحرّك بسرعة، يحطّ بشكلٍ فجائيّ، مسطّحٌ له عيونٌ واسعة رماديّة-حمراء تحملق داخل رؤوسه.

هناك دائماً سحبٌ كثيفة من الدخّان فوق أكواخ الصفيح في المدينة، على امتداد الأزقّة الترابية المرصوصة: نار مواقد الطين التي تطبخ عليها النساء الطعام، ونار القمامة المحترقة، ونار إذابة القطران المخصّص لدهن الأسطح.

حين يتسنّى الوقت للالا، تحبّ التوقّف لمشاهدة النار كثيراً. أو أنها تذهب إلى مجرى النهر الجافّ لتجمع أغصان الأكاسيا، ثم تحزمها

بحبلٍ رفيع، وتُحضِر الحِمل إلى بيت العمّة. ترتفع ألسنة اللهب بمرح بين العيدان، وتفرقع معها الغصونُ والأشواك، فيبدأ أزيز النسغ. يتراقص اللهب في هواء الصباح البارد، مُحدِثاً موسيقا جميلة. لو نظر أحدهم إلى داخل اللظى، لاستطاع رؤية الجان، هذا ما كانت تقوله العمّة في الحقيقة. يستطيع أن يرى أيضاً مناظرَ، ومدناً، وأنهاراً، وكلّ صنوف الأشياء العجيبة التي تظهر وتختفي، مثل السحب نوعاً ما.

كانت الدبابير تأتي حين تشمّ رائحة لحم الضأن ينضج في القدر الحديدي. الأطفال الآخرون يخافون الدبابير ويريدون إبعادها، يحاولون ضربها بالحجارة لقتلها، لكنّ لالا تتركها تحوم حول شعرها، تحاول أن تعرف ماذا تدندن وهي تئزّ هادرةً بأجنحتها.

عندما يحين وقت الغداء، تكون الشمس الحارقة عاليةً في السماء، والضوء أبيض ساطعاً، بحيث لا يمكن للمرء أن ينظر أمامه، وتصبح الظلال سوداء كالحة إلى درجة تبدو معها كأنها ثقوبٌ في الأرض. ساعتئذٍ، يصل أولاد العمّة أوّلاً. وهما اثنان: أحدهما اسمه عليّ، في الرابعة عشرة من العمر، والثاني بعمر السابعة عشرة ويدعونه البركة، لأنه بورك في يوم مولده. هما أوّل من تقدّم لهما العمّة الطعام، فيأكلان بسرعة وشراهة دون أن يتكلّما. يبعدان الدبابير دوماً بظاهر أيديهما وهما يأكلان. ثم يأتي زوج العمّة، الذي يعمل في مزارع الطماطم في الجنوب. اسمه سليم ولكن ينادونه السوسي، لأنه آتٍ من منطقة نهر سوس. وهو رجلٌ قصير القامة ونحيل، عيناه خضراوان جميلتان، ولالا تحبّه كثيراً مهما قال عنه الجيران إنه كسول. وهو لا يقتل الدبابير، بل على العكس، يأخذ واحداً منها أحياناً بين السبّابة والإبهام، ويتسلّى بإخراج إبرته منه، ثم يتركه برفق على الأرض لكي يطير.

هناك ضيوفٌ دائماً، يأتون من أماكن بعيدة، والعمّة تضع قطعة لحمٍ جانباً خصّيصاً لهم. أحياناً يأتي نعمان الصيّاد للغداء في بيت العمّة. تفرح لالا كثيراً حين تعلم بقدومه، لأنّ نعمان يحبّها أيضاً، ويحكي لها حكاياته الجميلة. يأكل على مهل، وبين حينٍ وآخر يقول أشياء تضحكها. يناديها لالا الصغيرة، لأنها سليلة امرأة من الأشراف. حين تنظر لالا إلى عينيه، يُخيّل لها أنها ترى لون البحر وتعبر المحيط لتصبح في الجانب الآخر من الأفق، في تلك المدن الكبرى، حيث المنازل البيضاء والحدائق وينابيع المياه. تحبّ لالا كثيراً سماع أسماء المدن، وتطلب دائماً من نعمان أن يعيد على مسامعها أسماءها، لا شيء غير أسمائها، ببطء، كي يتسنّى لها الوقت لرؤية الأشياء التي تخبّئها:

«الجزيرة»

«غرناطة»

«إشبيلية»

«مدريد».

لكنّ ابني العمّة كانا يريدان معرفة المزيد عنها. ينتظران أن ينتهي نعمان العجوز من الطعام، ويطرحان عليه شتّى أنواع الأسئلة، عن الحياة هناك في الجانب الآخر من البحر. يريدان معرفة أمورٍ جدّيّة وليس أسماء يحلمان بها. يسألان نعمان عن مقدار المال الذي يمكن أن يكسباه، عن العمل، عن ثمن الملابس، والطعام، وسعر السيّارة، وهل هناك الكثير من دور السينما؟ العجوز نعمان طاعنٌ في السنّ ولا يعرف تلك الأشياء، أو أنه نسيها، كما أنّ الحياة تغيّرت دون شكّ منذ الزمن الذي كن فيه هناك، قبل الحرب. حينئذٍ، يشعر الشابّان بالازدراء ولا يقولان شيئاً، ذلك لأنّ لنعمان أخاً مقيماً في مرسيليا، ويمكن أن يفيدهما ذات يوم.

في بعض الأيام، يُلمس لدى نعمان رغبةٌ في الحديث عمّا رآه، فيحكي للالا لأنها لا تطرح عليه الأسئلة، ولهذا كان يفضّلها. حتى وإن يكن ما يقوله ليس صحيحاً، إلا أنّ لالا تحبّ ما يرويه. تصغي إليه بانتباه، حين يتحدّث عن المدن البيضاء الكبرى على ساحل البحر، بشوارعها المحفوفة بأشجار النخيل، وحدائقها الواصلة إلى أعلى الهضاب، المليئة بالأزهار وأشجار البرتقال والرمّان، وعن أبراجها العالية كالجبال، وشوارعها الطويلة التي لا تُرى نهاياتها. تُسرّ لالا أيضاً حين يتحدّث عن السيّارات السوداء التي تسير على مهل، وعلى وجه الخصوص ليلاً بمصابيحها المضاءة، وكذلك عن تلك الأنوار الكثيرة على واجهات المخازن. أو حتى عن السفن الكبرى التي تصل إلى مرفأ مدينة «الجزيرة» مساءً، تنساب ببطء على طول الأرصفة المبلّلة، حيث الجموع يصيحون ويشيرون بالأيادي لاستقبال الواصلين. أو عن القطارات المتجهة إلى الشمال، من مدينة إلى مدينة، تعبر المدن الغائمة بالضباب، تجتاز الأنهار والجبال، تدخل في أنفاق طويلة مظلمة، هكذا والمسافرون كلّهم على متنها مع حقائبهم، حتى تصل إلى مدينة باريس الكبرى. تصغي لالا إلى ذلك كلّه وترتجف قليلاً من الخوف، في الوقت نفسه، تتمنّى أن تكون فوق سكّة الحديد هذه، تسافر من مدينة إلى مدينة نحو أماكن مجهولة، نحو تلك البلاد التي لا يعرفون فيها شيئاً عن الغبار والكلاب الجائعة، ولا عن أكواخ ألواح الصفيح التي تخترقها رياح الصحراء.

«خذني معك عندما تذهب إلى هناك»، تقول له لالا.

يهزّ العجوز نعمان رأسه: «أنا طاعن في السن الآن يا لالا الصغيرة، لن أذهب بعد الآن، وإلّا سأموت على الطريق».

لكي يطيّب خاطرها، يردف قائلاً: «أنت ستذهبين وترين تلك المدن كلّها، ثم ستعودين إلى هنا، مثلي».

تكتفي لالا بالنظر إلى عينَيْ نعمان كي ترى ما رآه، كأنها تنظر إلى عمق البحر. تفكّر طويلاً بأسماء المدن الجميلة، وتدندنها داخل رأسها مثل كلمات أغنية.

أحياناً، العمّة نفسها تطلب منه أن يحكي عن تلك البلاد الغريبة. حينذاك، يعيد القصة مرّةً أخرى عن رحلته إلى إسبانيا، والحدود، ثم الطريق البحري، ومدينة مرسيليا الكبيرة. يحكي عن المنازل، والشوارع، والسلالم، والأرصفة التي لا نهاية لها، والرافعات، والسفن الكبيرة الشبيهة بالمنازل، والأخرى الشبيهة بالمدن، التي تُنزل حمولتها المؤلّفة من شاحنات وقاطرات وحجارة وأسمنت، ثم تعود فوق المياه السوداء وهي تطلق صفّاراتها. لم يكن الشابّان يلقيان بالاً لهذا الكلام، فهما لا يصدّقان نعمان العجوز. وعندما يرحل، يقولان إنّ جميع الناس يعرفون أنه كان طبّاخاً في مرسيليا، يهزؤون به ويلقّبونه بالـ«طيّب»، لأنّ الكلمة تذكّر بأنه كان طبّاخاً.

لكنّ العمّة تصغي إلى ما يقول نعمان، فالأمر سيّان عندها لو أنه كان طبّاخاً هناك، وصيّاداً هنا. تطرح عليه المزيد من الأسئلة في كلّ مرّة، كي تسمع مرّةً أخرى قصة السفر والحدود والحياة في مرسيليا. عند ذاك، يحدّثها نعمان عن المشاجرات في الشوارع أيضاً، حين يُهاجَمُ الرجال العرب واليهود في الشوارع المظلمة، فيضطرّون، من أجل الدفاع عن أنفسهم، إلى الطعن بالسكاكين، أو إلى رمي الحجارة والجري بأسرع ما يمكنهم للهروب من شاحنات الشرطة، التي تجمع الناس وتأخذهم

إلى السجن. يتحدّث أيضاً عن أولئك الذين يجتازون الحدود عن طريق التهريب عبر الجبال، يسيرون في الليل، ويختبئون في النهار داخل المغاور وبين الدغل. لكنّ الكلاب البوليسية تقتفي آثارهم أحياناً، وتهاجمهم حين يصلون إلى الجانب الآخر من الحدود.

يتحدّث نعمان عن ذلك كلّه وهو حزين، فتشعر لالا بالبرودة التي تعبر عينَيْ الرجل العجوز. إنه شعورٌ غريب لم تختبره، لكنّه يثير الخوف والقلق، كعبور الموت والمصائب. لعلّ هذا ما جلبه معه العجوز نعمان من هناك أيضاً، من تلك المدن في الجانب الآخر للبحر.

حين لا يتحدّث عن تلك الأسفار، كان يروي حكاياتٍ سمعها في الماضي، يحكيها إكراماً للالا فقط، وللأولاد الصغار، فهم الوحيدون الذين يصغون دون أن يطرحوا الأسئلة.

في بعض الأيام، يجلس قبالة البحر تحت شجرة التين، ويُصلح شباكه. في هذه الأوقات بالذات، كان يروي أجمل حكاياته، تلك التي تحدث في المحيط فوق السفن أثناء العواصف، قصص الغرق التي يصل فيها الناس إلى جزر مجهولة. نعمان قادر على روايةِ حكايةٍ عن أيّ شيء كان، وهذا ما كان بديعاً. على سبيل المثال، تجلس لالا بالقرب منه في ظلّ التينة، تراقبه وهو يصلح الشباك. تتحرّك يداه الكبيرتان السمراوان بأظافره المقصّفة بسرعة، وتعقدان الخيوط بخفّة. ترى لالا مزقاً كبيراً في الشبكة، فتسأل نعمان بشكلٍ طبيعي: «أهذا بسبب سمكة كبيرة؟».

بدلاً من الإجابة، يفكّر نعمان ويقول: «ألم أحكِ لك عن اليوم الذي اصطدنا فيه سمكة قرش؟».

تهزّ لالا رأسها نافية، ويبدأ نعمان الحكاية. وكما في حكاياته كلّها،

«هناك عاصفة تلمع فيها البروق من طرف السماء إلى طرفها الآخر، أمواج عالية كالجبال، أمطار غزيرة. الشباك ثقيلة، ثقيلة جداً، حتى مال المركب على جانبه، وخاف الرجال من السقوط. عندما رفعوا الشباك، رأوا قرشاً أزرق هائل الحجم يتخبّط داخلها، يفتح فكّاً مليئاً بالأسنان الرهيبة. كان على الصيّادين حينئذٍ مقاومة القرش الذي حاول سحب الشباك. راحوا يضربونه بالعقّاف والفأس. لكنّ القرش عضَّ على طرف المركب ومزّقه كأنه يقضم خشب صندوق. أخيراً، تمكّن الربّان من صرع القرش بضربة محجن، ورفع الحيوان إلى ظهر المركب. بعد ذلك، فتحوا بطنه ليروا ما في داخله، فوجدوا خاتماً من 'لذهب الخالص، مزيّناً بحجر كريم أحمر بديع، إلى حدّ جعل الأنظار كلّها معلّقة به. بالطبع، أراد كلّ واحد منا أخذ الخاتم لنفسه، وبعد وقتٍ قصير، كان الجميع مستعدّين للاقتتال في سبيل الاستحواذ على هذا الخاتم اللعين. حينئذٍ، اقترحت أن نراهن عليه بحجر النرد، لأنّ الربّان يمتلك زوجاً من حجر النرد مصنوعاً من العظام. لعبنا بالنرد على سطح المركب، على الرغم من العاصفة القوية التي تهدّد بقلب المركب في كلّ لحظة. كنا ستّة أشخاص، ولعبنا ستّ مرّات، والرهان لمن يرمي بأكبر رقم. بعد الجولة الأولى، لم يبقَ سوى الربّان وأنا، لأنّ كلّ واحدٍ منا قد جمع إحدى عشرة، ستة زائد خمسة. تحلّق الجميع حولنا ليشاهدوا من الظافر. رميت النرد، فكان المجموع اثنتي عشرة! وهكذا ربحت الخاتم. كنت سعيداً للحظات كما لم أكن في حياتي. لكنني نظرت إلى الخاتم طويلاً، وإلى حجره الأحمر الذي كان يلمع مثل نار الجحيم، بنورٍ خبيث أحمر كالدماء. ورأيت حينئذٍ أيضاً عيون رفاقي تلمع بالنور الشرير نفسه، وأدركت أنه خاتم ملعون، مثل ذاك الشخص الذي كان يلبسه وابتلعه القرش، وأدركت أن من سيحتفظ به سيكون ملعوناً مثله. بعد أن

نظرت إليه مليّاً، نزعته من إصبعي ورميته في البحر. امتلأ رفاقي والربّان بالغضب، وأرادوا أن يرموني في البحر أنا أيضاً. حينئذٍ قلت لهم: «لماذا أنتم غاضبون مني؟ ما جاء من البحر عاد إلى البحر، والآن، كأنّ شيئاً لم يكن». في تلك اللحظة، هدأت العاصفة فجأة وسطعت الشمس فوق البحر. فهدأ البحّارة أيضاً، والربّان نفسه الذي كان راغباً بشدة بهذا الخاتم نسيه بلحظة، وقال لي إنني أحسنت صنعاً برميه في البحر. وهذا ما فعلناه أيضاً بجسم القرش، وعدنا إلى الميناء لإصلاح الشباك».

«هل تظن أنّ هذا الخاتم كان ملعوناً فعلاً؟!»، سألت لالا.

«لا أعلم ما إذا كان ملعوناً» -قال نعمان- «ولكنّ ما أعرفه هو أنني لو لم أرمِه في البحر، لقتلني أحد الرفاق في اليوم نفسه ليأخذه مني بالتأكيد، وهلك الجميع على التوالي حتى آخر واحدٍ فينا».

هذه حكايات تحبّ لالا سماعها هكذا وهي بالقرب من الصيّاد العجوز، تجلس قبالة البحر في ظلّ شجرة التين، بينما يهبّ الهواء ويحرّك أوراقها. الأمر شبيهٌ بسماع صوت البحر نوعاً ما، كلمات نعمان تثقل جفنيها، فيدبّ النعاس في جسدها. حينذاك، تتكوّر فوق الرمال، وتسند رأسها إلى جذور شجرة التين، بينما الصيّاد مستمرّ في إصلاح الشباك بخيوطه الحمراء، والدبابير تطنّ فوق قطرات الملح.

- هيــــــــه، حرطاني!

صاحت لالا بأعلى صوتها وسط الرياح، بينما كانت تقترب من هضاب الحجارة وأشواك العلّيق. تنتشر في الهضبة أحياناً سحالٍ تزحف بين الحجارة، وأحياناً أُخَر ثعابين تتسلّل وهي تفحّ، وكذلك نباتات كبيرة قاطعة كالسكاكين، والكثير من أشجار النخيل الصغيرة التي تُستخدم في صنع السلال والحصر. طنين الحشرات مسموع في كلّ مكان، لوجود ينابيع مياه عذبة صغيرة بين الصخور، وأخرى كبيرة تختبئ داخل الآبار الجوفية، حيث تركد المياه الباردة. أثناء عبورها من هنا، ترمي لالا الحصى داخل الشقوق، وتصغي إلى الصوت يرنّ عميقاً في الظلام.

«حا را طا ني!».

في غالب الأحيان، كي يلهو معها، كان يختبئ مستلقياً ببساطة على الأرض تحت دغلٍ شوكيّ. يرتدي الحرطاني دوماً ثوبه الطويل الخشن، المنسَّل عند أطراف الأكمام وفي الأهداب، ووشاحاً طويلاً أبيض يلفّ به رأسه وعنقه. وهو طويل القامة ونحيلٌ مثل نبتةٍ معرّشة، يداه سمراوان جميلتان، أظافره بلون العاج، أما قدماه فقد خُلقتا للجري. لكنّ أكثر ما تحبّ لالا فيه هو وجهه، لأنه لا يشبه أحداً ممن يعيشون هنا في المدينة. وجهه دقيقٌ وأملسُ، جبهته محدّبة وحاجباه مستقيمان تماماً، وعيناه كبيرتان قاتمتان بلون المعدن. شعره قصير مجعّد قليلاً، لا شارب له ولا

لحية، لكنّه يبدو قوي البنية وواثقاً من نفسه، نظرته مباشرة، تتفحّصك دون جزع، ويعرف كيف يضحك حين يرغب ضحكته المجلجلة التي تُبهجك على الفور.

اليوم، عثرت عليه لالا بسهولة، فهو لم يختبئ. كان ببساطة جالساً فوق صخرة كبيرة، وينظر أمامه مباشرة، ناحية قطيع الماعز. لم يكن يتحرّك. كانت الرياح تعبث بخفّة بثوبه البنّيّ فوق جسده، وتحرّك عمامته البيضاء. مشت لالا باتجاهه دون أن تناديه، فهي تعرف أنه سمع وصولها. للحرطاني سمعٌ حادّ، يستطيع سماع أرنب برّيّ يقفز في الجانب الآخر من التل، ويدلّ لالا على الطائرات في السماء، قبل أن تسمع صوت محرّكاتها بوقت طويل.

عندما وصلت بالقرب منه، وقف الحرطاني والتفت. لمعت الشمس فوق وجهه الأسمر. ابتسم فلمعت أسنانه البيضاء بالضوء أكثر. صحيح أنه أصغر سنّاً من لالا، إلا أنه بطول قامتها. كان يمسك بيده اليسرى مديةً لا مقبض لها.

«ماذا تفعل بهذه المدية؟» سألت لالا.

وبما أنها كانت متعبة من المشي على طول الطريق، جلست على الصخرة. بقي واقفاً أمامها، متوازناً على ساقٍ واحدة. ثم وثب فجأة إلى الوراء، وشرع يجري فوق الهضبة الحصوية. بعد لحظات، عاد وجلب معه حزمة من القصب قطعها من المستنقعات، أراها للالا مبتسماً. كان يلهث مثل كلبٍ جرى سريعاً.

«إنها جميلة!» -قالت لالا- «هل هي لعزف الموسيقا؟».

في الواقع، هي لم تسأله. غمغمت فقط بضع كلمات وهي تشير بيديها.

في كلّ مرّة تتكلّم فيها، يبقى الحرطاني ساكناً، ينظر إليها باهتمام وجدّيّة، لأنه يحاول أن يفهم.

لعلّ لالا هي الشخص الوحيد الذي يفهمه الحرطاني، وهي الوحيدة التي تفهمه. عندما قالت: «موسيقا»، قفز في مكانه مباعداً ذراعيه على طولهما، كأنه سيشرع في الرقص. أطلق صفرةً من بين أصابعه، صفرة قوية، حتى إنها أجفلت المعاز والجداء فوق سفح الهضبة.

ثم أخذ بضع قصبات مقطوعة، جمعها بيديه ونفخ فيها، فأخرج منها لحناً غريباً، صوتاً أجشّ إلى حدٍّ ما، كنداء طائر السبد في الليل، لحناً حزيناً قليلاً، كغناء الرعاة الشلوح.

عزف الحرطاني للحظة دون أن يأخذ نفساً. ثم أعطى عيدان القصب للالا وعزفت هي أيضاً. بقي الراعي الشاب ساكناً، يلمع نور السعادة في نظرته القاتمة. بقيا يلهوان هكذا، ينفخ كلٌّ واحدٍ منهما بالتناوب في تجاويف القصبات المتفاوتة الطول، فتبدو الألحان الحزينة كأنها تنبعث من المنظر الذي ابيضَّ من شدّة النور، من المغاور تحت الأرض، من السماء نفسها، التي يروح الهواء فيها ويجيء بخفّة.

بين حينٍ وآخر، كانا يتوقّفان لالتقاط أنفاسهما، وينفجر الفتى بضحكة مجلجلة، فتبدأ لالا الضحك هي أيضاً، دون أن تعرف السبب.

ثم سارا عبر حقول الحجارة، الحرطاني يمسك بيد لالا، لأنّ المكان مليء بالحصى المسنّنة ولن تراها بين أكوام العشب. كانا يثِبان فوق أسوار الحجارة الجافة الصغيرة، يتعرّجان في سيرهما بين أدغال الأشواك. كان الحرطاني يدلّ لالا على كلّ ما في حقول الحجارة وفوق منحدرات الهضاب، فهو يعرف الخفايا أكثر من أيّ شخص. مخابئ الحشرات الذهبية

والجنادب وفرس النبيّ والوارقات(*). يعرف أيضاً النباتات كلّها، تلك التي تطلق روائح زكية عند فركها بين الأصابع، والأخرى التي تمتلئ جذورها بالماء، وتلك التي لها طعم اليانسون، والفلفل، والنعناع، والعسل. يعرف البذور التي تقرمش تحت الأسنان، وثمار العنابية التي تصبغ الأصابع والشفاه باللون الأزرق. بل يعرف أيضاً المخابئ التي نجد فيها قواقع حلزونية صغيرة متحجّرة، أو حبيبات رمل صغيرة لها شكل النجمة. كان يأخذ لالا معه بعيداً، إلى ما وراء الأسوار الحجرية الجافّة، على طول دروبٍ لم تكن تعرفها، إلى أن يصلا إلى الهضبة التي تُرى منها بداية الصحراء، فتبرقِ عيناه بشدّة، وتبدو بشرة وجهه سمراء لامعة. حين وصل إلى أعلى الهضبة، دلَّ لالا على جهة الجنوب، هناك حيث أبصر النور.

لم يكن الحرطاني ولداً كسائر الأولاد. لا أحد يعرف من أين جاء حقيقةً. كلّ ما يُعرف عنه هو أنه وصل ذات يوم مع رجلٍ فوق ظهر جمل منذ زمن طويل. كان الرجل يرتدي لباساً كالذي يلبسه محاربو الصحراء، وعباءةً زرقاء سماوية واسعة، ويغطّي وجهه بوشاح أزرق. توقّف عند البئر ليسقي جمله، وارتوى طويلاً هو أيضاً من ماء البئر. ياسمينة زوجة المعّاز هي التي رأته، عندما ذهبت لجلب الماء. تنحَّتْ كي تسمح للغريب أن يروي عطشه، وعندما عاود الرحيل فوق جمله، لاحظت أنه ترك على حافة البئر طفلاً رضيعاً مقمّطاً بالقماش الأزرق. وبما أنّه لا أحد كان يريد هذا الطفل، فقد احتفظت به ياسمينة. ربّته وكبر في كنف عائلتها كأنه ابنها. هذا الطفل هو الحرطاني، اللقب الذي مُنح له، لأنّ بشرته سوداء مثل زنوج الجنوب.

(*) مجموعة من الحشرات شديدة الشبه بالورقة الخضراء أو الغصن الصغير الأخضر.

ترعرع الحرطاني في المكان نفسه الذي تركه فيه محارب الصحراء، بالقرب من حقول الحجارة والهضاب، هناك حيث تبدأ الصحراء. هو الذي رعى معاز ياسمينة، وأصبح مثل بقية الصبيان الرعيان، يعرف كيف يهتمّ بالمواشي ويقودها أينما يشاء دون أن يضربها، يصفّر لها بين أصابعه فحسب، لأنها لا تخاف منه. وهو يعرف كيف يتحدّث إلى قفير النحل ويرشده بيديه بالصفير بين أسنانه ببساطة. الناس يخشون الحرطاني بعض الشيء، يقولون إنه «مجنون»، ولديه مقدراتٌ مصدرها العفاريت. ويقولون أيضاً إنه يجيد التحكّم بالأفاعي والعقارب، وباستطاعته إرسالها لتقتل مواشي الرعاة الآخرين. لكنّ لالا لا تصدّق ذلك، فهي لا تخشاه. لعلّها الشخص الوحيد الذي يعرفه تمام المعرفة، لأنها تحدّثه بطريقة تختلف عن الكلمات. تنظر إليه وتقرأ في نور عينيه السوداوين، هو ينظر إلى أعماق عينيها الكهرمانيتين، لا ينظر إلى وجهها فقط، إنما إلى عمق عينيها فعلاً، وهكذا يفهم ما تريد قوله.

لم تكن العمّة تحبّ أن تذهب لالا للقاء الراعي في أغلب الأوقات في حقوله الحجرية وهضابه. كانت تقول لها إنه طفل لئيط، غريب، ولا يناسبها. ولكنّ لالا ما إن تنتهي من أعمالها في منزل العمّة، حتى تركض إلى طريق الهضاب، وتطلق الصفير بين أصابعها كما يفعل الرعاة، وتنادي: «هيـــــــــــــه! حرطاني!».

أحياناً تبقى معه هناك حتى هبوط الليل. حينذاك، كان الفتى يجمع مواشيه ويقودها إلى الحظيرة في السفح، بالقرب من بيت ياسمينة. في معظم الأحيان، وبما أنهما لا يتكلّمان، كانا يمكثان جالسين دون حراك فوق الصخور أمام التلال الحجرية. من الصعب التصوّر ماذا يفعلان في

تلك اللحظات. ربما ينظران أمامهما، كأنهما يريان من خلال الهضاب حتى ما وراء الأفق. لالا نفسها لا تدرك كيف يحدث ذلك، لأنّ الزمن يبدو لا وجود له عندما تكون بالقرب من الحرطاني. ينساب الكلام بحرّيّة، يذهب إلى الحرطاني ويعود نحوها محمّلاً بمعنى آخر، كما في الأحلام عندما يكون المرء اثنين في آنٍ معاً.

الحرطاني هو الذي علّمها أن تبقى هكذا دون حراك، تنظر إلى السماء والحجارة والأشجار الصغيرة، تشاهد طيران الدبابير والذباب، تصغي إلى غناء الحشرات المختبئة، تشعر بظلّ الطيور الجارحة وباختلاج الأرانب البرّيّة بين أعشاب الدغل.

في الحقيقة، إنّ الحرطاني مثل لالا، لا عائلة له ولا يعرف القراءة ولا الكتابة، كما أنه لا يحفظ الصلوات، ولا يعرف الكلام، مع ذلك، يعرف تلك الأشياء كلّها. لالا تحبّ وجهه الأملس، ويديه الطويلتين، وعينيه المعدنيتين القاتمتين، وابتسامته. تحبّ طريقته في المشي، الحيوية والخفيفة كأنه أرنبٌ برّيّ، ولأنه يجيد القفز من صخرةٍ إلى صخرة، ويختفي بلمح البصر في أحد مخابئه.

لا يأتي الحرطاني إلى المدينة البتّة. ربما يخاف الصِّبية الآخرين لأنه ليس مثلهم. إذا ما ذهب، فهو يذهب إلى الجنوب صوب الصحراء، هناك حيث دروب البدو المرتحلين فوق جمالهم. يرحل لبضعة أيام هكذا دون أن يُعرف أين كان، ثم يعود ذات صباح إلى مكانه في حقول الحجارة مع الماعز والجداء، كأنه لم يرحل سوى لبضع لحظات.

عندما تكون لالا جالسة هكذا إلى جانب الحرطاني فوق صخرة، ينظران معاً إلى سهل الحجارة في ضوء الشمس. يهبّ الهواء بين حينٍ وآخر، الدبابير تطنّ فوق النباتات الرمادية الصغيرة، وصوت وقع حوافر

الماعز فوق الحصى المنهار، لا حاجة إلى أيّ شيء آخر في الحقيقة. تشعر لالا بحرارة داخلية، كأنّ نور السماء والحجارة كلّه قد جاء إلى مركز جسدها وصار يكبر. يمسك الحرطاني يد لالا بيده السمراء الطويلة وأصابعه الرفيعة، ويشدّ عليها بقوّة تكاد توجع لالا. تشعر لالا بتيّارٍ حارّ يعبر راحة يدها، كارتعاشٍ خفيٍّ غريب. تفقد الرغبة في الكلام وفي التفكير. فهي مرتاحة هكذا، وتتمنّى المكوث دون حراك طوال النهار، إلى أن يغمر الليل الوهاد. تنظر أمامها وترى تفاصيل سهل الحجارة كلّها، كلّ خصلة عشب، تسمع كلّ طقطقة، وكلّ نأمة حشرة. تشعر بحركة أنفاس الراعي البطيئة وهي قريبة منه جداً، بحيث تصبح ترى بعينيه، وتشعر بجلده. يدوم ذلك برهةً قصيرة، لكنّه يبدو لها طويلاً جداً، تنسى كلّ ما تبقّى ويصيبها الدوار.

فجأةً، يترك الفتى يد لالا ويثب على قدميه، كأنه خاف من شيءٍ ما. حتى دون أن ينظر إليها، يبدأ الركض بسرعة كالكلب، قافزاً فوق الصخور والوهاد الجافة. يجتاز أسوار الحجر الجاف، وترى لالا خياله بوضوح يختفي بين دغل الأشواك.

«حَرَطاني! حَرَطاني! عُدْ!». تنادي لالا وهي تقف على الصخرة، يرتجف صوتها لأنها تعرف أن لا جدوى من النداء. اختفى الحرطاني فجأةً، ابتلعته إحدى تلك المغاور المظلمة في الصخر الكلسي. لن يعود للظهور اليوم. ربما يعود غداً، أو بعد ذلك؟ تنزل لالا الهضبة أيضاً، على مهل، من صخرة إلى أخرى، على نحوٍ أخرق، وتلتفت بين حينٍ وآخر علّها تلمح الراعي. تغادر حقول الحجارة وسياج الحجارة الجافة، تعود إلى السفح نحو جوف الوادي، ليس بعيداً جداً عن البحر، هناك، حيث يعيش الناس في بيوت من الألواح والصفيح والورق المطليّ بالقطران.

تمضي الأيام متشابهةً هنا في المدينة، وأحياناً لا يعي الناس تماماً في أيّ يوم يعيشون. كأنهم في زمن قديم مضى، كأن لا شيء مكتوب، ولا شيء مؤكّد. مع ذلك، لا أحد يفكّر على هذا النحو هنا، لا أحد يسأل نفسه من يكون. لكنّ لالا تفكّر في ذلك غالباً حين تذهب إلى هضبة الحجارة حيث يعيش الرجل الأزرق الذي تسمّيه «السرّ».

لعلّ السبب هو الدبابير أيضاً، فهي كثيرة في المدينة، أكثر من عدد الرجال والنساء. منذ الفجر وحتى المغيب، تئزّ في الهواء بحثاً عن غذائها، وترقص في نور الشمس.

من جهةٍ أخرى، الساعات لا تمضي متشابهةً كلّها، كلام العمّة مثلاً، ووجوه الصبايا اللواتي يَرِدن إلى عين الماء. ثمّة ساعاتٌ لاهبة تخترق فيها الشمس الملابس وتحرق الجلد، والضوء يغرس إبراً في العيون ويدمي الشفاه. حينذاك، تتدثّر لالا كلّياً بالقماش الأزرق، تعقد منديلاً كبيراً وراء رأسها يغطّي وجهها حتى العينين، وتلفّ رأسها بمنديلٍ آخر من القماش الأزرق يتهدّل حتى صدرها. يهبّ الهواء الحارق من الصحراء، وينثر حبّات الرمل القاسية. في الخارج، تخلو زواريب المدينة، حتى الكلاب تختبئ في حفر التراب أسفل جدران البيوت، لصق صفائح الوقود الفارغة.

لكنّ لالا تحبّ الخروج في أيام كهذه، ربما لأن لا أحد في الخارج، كأنّ الأرض خلَت من الناس، ولا شيء يدلّ على وجود البشر. حينئذٍ فقط

كانت تشعر بأنها أبعد ما تكون عن ذاتها، وكأن لا أهمية لأيّ شيء فعلته، وكأنها لم تعُد تذكُر شيئاً.

ولذلك ذهبت باتجاه البحر، هناك حيث تبدأ الكثبان. جلست على الرمال، متدثّرةً بأوشحتها الزرقاء، تتأمل الغبار المتصاعد في الهواء. فوق الأرض، السماء في السمت زرقتها داكنة أشبه بلون الليل، وحين وجّهت لالا أنظارها ناحية الأفق فوق خطّ الكثبان، رأت ذاك اللون الوردي الضارب إلى الرمادي كلون الفجر. في أيام كهذه، ترتاح من الذباب والدبابير أيضاً، لأنّ الرياح تبعدها إلى تجاويف الصخور، وإلى أعشاشها الطينية الجافّة، أو إلى زوايا البيوت المعتمة. لا يوجد هنا رجالٌ، ولا نساء، ولا أولاد. ولا كلابٌ، ولا طيور. الرياح فحسب، تعصف بين أغصان الشجيرات وأوراق الأكاسيا والتين البرّيّ. تحمل معها آلاف الجزيئات من الحجارة، تلسع وجه لالا وتتفرّق حولها لتشكّل شرائط طويلةً، أفاعيَ، أدخنةً. هنا صوتُ الريح، وهدير البحر، وصرير الرمال، تميل لالا نحو الأمام كي تتنفّس، ويلتصق خمارها الأزرق بفتحتَيْ أنفها وشفاهها.

الأمر ممتعٌ، فهو شبيهٌ بركوب مركب، مثل نعمان ورفاقه التائهين وسط العاصفة العاتية. السماء صافية ورائعة الجمال، اختفت الأرض تقريباً، تكاد لا تُرى من خلال أثلام الرمال، ممزّقةً، مهترئة، وهناك بقعٌ سوداء من الرصيف المرجاني وسط البحر.

لا تعرف لالا لماذا تخرج في أيام كهذه، الأمر أقوى منها، فهي لا تحتمل البقاء حبيسةً داخل منزل العمّة، ولا المشي في زواريب المدينة. كانت الرياح الحارقة تجفّف شفاهها ومنخريها، وتشعر بالحرارة تنزل إلى جوفها. لعلّها حرارة نور السماء، تلك الآتية من الشرق والتي تُدخلها

الرياح إلى جسدها. لكنّ النور يحرقها ويحرّرها، وتشعر أنها صارت خفيفةً، رشيقة. تشبّثت بيديها برمل الكثيب، أسندت ذقنها إلى ركبتَيها. تنفّست أنفاساً قصيرة ومتقطّعة، كي لا تزداد خفّةً أكثر.

حاولت التفكير بمن تحبّ، لأنّ التفكير يمنع الرياح من أن تحملها. فكّرت بالعمّة، بالحرطاني، وبنعمان على وجه الخصوص. ولكن في تلك الأيام، لا شيء يهمّ حقيقةً، ولا حتى أيّ شخص تعرفه، لذلك، كان تفكيرها يتحرّر على الفور، ويهرب كأنّ الرياح اقتلعته وحملته معها على امتداد الكثبان.

في ما بعد، أحسّت بنظرة رجل الصحراء الأزرق تقع عليها فجأةً. إنها النظرة عينها التي كانت في الأعلى فوق الهضبة الصخرية عند حدود الصحراء. نظرة فارغة ومتسلّطة تثقل على كاهلها، تزيد فوق ثقل الرياح والنور، نظرة جافية فظيعة أوجعتها، قاسية مثل جزيئات الحجر التي تضرب وجهها وملابسها. لا تدرك لالا ماذا يريد منها وماذا يطلب. ربما لا يريد شيئاً، إنه يمرّ ببساطة أمام المنظر البحري، على النهر، على المدينة، ويذهب أبعد من ذلك أيضاً، ليُضرم النار في المدن والبيوت البيضاء والحدائق والينابيع، والجادّات الكبرى في بلاد الجانب الآخر من البحر.

شعرت لالا بالخوف. أرادت أن توقف هذه النظرة، توقفها عليها كي لا تذهب أبعد من هذا الأفق، أرادت أن توقف ثأرها، ونارها، وعنفها. لم تكن لالا تفهم غضب هذا الرجل الذي يريد تدمير المدن. أغمضت عينيها كي لا تبصر أفاعي الرمال التي تتلوّى حولها، وتلك الأدخنة المخيفة، بينما كانت أسماعها تصغي إلى صوت مُحارب الصحراء، ذاك الذي تدعوه «السرّ». لم يسبق لها أن سمعته بهذا الوضوح، حتى عندما ظهر أمام عينيها

فوق الهضبة الصخرية، بعباءته البيضاء ووجهه الملثّم بالعمامة الزرقاء. يا له من صوتٍ غريب! تسمعه داخل رأسها، يختلط بصوت الريح وهسهسة حبّات الرمل. إنه صوتٌ بعيد، يقول كلماتٍ لا تفهمها، يعيد ويكرّر الكلمات نفسها والأقوال نفسها إلى ما لا نهاية.

«أوقِف الرياح!» -صاحت لالا دون أن تفتح عينيها- «لا تدمّر المدن، اجعل الرياح تتوقّف، والشمس لا تحرق، وليكن كلُّ شيء بسلام!».

ثمّ رغماً عنها، سألت: «ماذا تريد؟ لماذا أتيت إلى هنا؟ أنا نكرة بالنسبة إليك؟ لماذا تكلّمني، تكلّمني أنا وحدي فقط؟!».

لكنّ الصوت كان يتابع همسه وارتعاشه داخل جسد لالا. إنه صوت الرياح فحسب، صوت البحر والرمال، صوت النور الذي يبهر ويُسكر إرادة البشر. يصل في الوقت نفسه مع النظرة الغريبة، يحطّم ويقتلع كلّ ما يقف في وجهه على سطح الأرض. ثم يذهب إلى مكانٍ بعيد نحو الأفق، ويتيه فوق البحر بأمواجه الجبّارة، يحمل السحب والرمال إلى السواحل الصخرية، إلى الضفة الأخرى من البحر، نحو أراضي الدلتا الكبرى، حيث كانت مداخن مصافي التكرير تقدح بالنار.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«حدِّثيني عن الرجل الأزرق!»، قالت لالا.

لكنّ العمّة كانت تجبل عجين الخبز في الوعاء الفخّاريّ الكبير. فهزّت رأسها بالنفي: «ليس الآن».

ألحّت لالا: «بلى يا عمّة، الآن أرجوكِ!».

«حكيت لك كلّ ما أعرفه عنه من قبل».

«فليكن! أريد أن أسمعك تتحدّثين عنه من جديد، وعن الرجل الملقّب بماء العينين».

عند ذاك، كانت العمّة تتوقّف عن دعك العجين وتجلس على الأرض لتبدأ الحديث. فهي في الحقيقة تحبّ أن تروي الحكايا.

«سبق أن حكيت لك، حدث هذا منذ زمن طويل، لم نعرفه لا أنا ولا أمّك، لأنه الزمن الذي كانت فيه جدّة أمّك طفلة، عندما مات الأزرق الكبير، الملقّب بالرجل الأزرق، ولم يكن ماء العينين سوى شابٍّ يافع في ذلك الزمان».

لالا تعرف أسماءهم جيّداً، لطالما سمعتها منذ طفولتها، مع ذلك، في كلّ مرّة تسمعها تحسّ برعشة، كأنّ شيئاً ما يتحرّك في أعماقها.

«الأزرق من قبيلة جدّة والدتك، كان يعيش في الجنوب تحديداً، ما بعد الدرعة، بل بعد الساقية الحمراء. في ذلك الحين، لم يكن في البلاد

أيُّ غريب، ولم يكن للمسيحيين الحقُّ في الدخول. في ذلك الزمان، كان محاربو الصحراء لا يُقهرون، وأراضي الدرعة كلّها في الجنوب ملكاً لهم، بعيداً جداً، حتى قلب الصحراء، حتى مدينة شنقيط(*) المقدّسة».

في كلّ مرّة تروي فيها العمّة حكاية الأزرق، كانت تضيف شيئاً جديداً، جملة جديدة، أو تغيّر شيئاً ما، كأنها لا تريد للحكاية أن تنتهي. بصوتٍ قويّ يميل إلى التنغيم قليلاً، يدوّي على نحوٍ غريب في أرجاء المنزل المعتم، يرافقه طنينُ الدبابير وقرقعة الصفيح تحت الشمس.

«كان يلقّب بالأزرق، لأنه قبل أن يصبح من الأولياء، كان محارباً في الصحراء، في أقصى الجنوب، في منطقة شنقيط، فهو نبيلٌ وابن أحد الشيوخ. ولكن ذات يوم، لبّى نداء الله وأصبح زاهداً. تخلّى عن ملابسه الزرقاء الصحراوية وارتدى ثوباً صوفياً مثل الناس الفقراء، وسار عبر البلاد من مدينة إلى مدينة، حافي القدمين، بيده عصا مثل متسوّل. لكنّ الله لم يشأ أن يخلط الناس بينه وبين بقية المتسوّلين، وكان أن جعل بشرة وجهه ويديه بلون أزرق على الدوام، ولا يزول البتّة، ولو أنه كان يغتسل بالماء. بقي اللون الأزرق على وجهه ويديه، وعندما كان الناس يرون ذلك، على الرغم من ثوبه الصوفي البالي، كانوا يعرفون أنه ليس متسوّلاً، إنما محاربُ صحراءٍ حقيقيّ، رجلٌ أزرقُ ناداه الله، ولهذا السبب لقّبوه بهذا الاسم: الأزرق...».

عندما تتكلّم العمّة، كانت تتمايل نائسةً قليلاً، من الأمام إلى الوراء، كمن

(*) شنقيط: مدينة تاريخية في موريتانيا عاشت فترات مزدهرة، ويرجع أصل الاسم «شنقيط» إلى البربر أو الأمازيغ ومعناه: عين الخيل. وكانت مركز انطلاق قوافل الحجّ إلى مكّة المكرّمة.

ينظم إيقاع لحن. أو أنها تصمت لبرهة طويلة، محنيةً فوق طست الفخار، منشغلةً بتفتيت العجين وتجميعه، ثم سحقه بقبضتيها المضمومتين.

تنتظر لالا أن تتابع الكلام، لكنّها لا تقول شيئاً.

«لم يبقَ حيٌّ من ذاك الزمان» -تقول العمّة- «ما يقال عنه هو ما يُروى، أسطورته، ذكراه. ولكنّ الناس اليوم لا يريدون تصديق ذلك. يقولون إنها أكاذيب».

تتردّد العمّة، فهي تختار أقوالها بحرص.

«كان الأزرق وليّاً صالحاً عظيماً. كان لديه القدرة على شفاء المرضى، حتى أولئك المرضى من الداخل، الذين فقدوا عقولهم. كان يعيش في كلّ مكان، في أكواخ الرعاة، أو في مآوٍ من أوراق النبات بُنيت حول الأشجار، أو حتى داخل المغاور في قلب الجبل. كان الناس يأتون إليه من كلّ مكان لطلب المعونة. ذات يومٍ، جاء رجلٌ عجوز مصطحباً معه ابنه الضرير، وقال له: «اِشْفِ ولدي، أنت يا مَن حظيت ببركة الله. اشفِه، وأنا سأعطيك كلّ ما أملك!». وأشار له إلى كيسٍ مملوء بالذهب جلبه معه. قال له الأزرق: «ما نفع ذهبك هنا؟»، ودلّ بيده على الصحراء التي تخلو من قطرة ماء ومن أيّ ثمار. ثم أخذ ذهب الرجل العجوز وألقاه على الأرض، فتحوّل إلى عقارب وأفاعٍ هربت بعيداً، فبدأ العجوز يرتجف خوفاً. حينئذٍ، قال الأزرق للرجل العجوز: «هل ترضى بأن تصبح ضريراً، عوضاً عن ولدك؟»، فأجاب الرجل: «أنا طاعنٌ في السنّ، بماذا تنفعني عيناي؟ اجعل ولدي يبصر، وسوف أكون راضياً». فاستعاد الشاب بصره على الفور، وانبهر بنور الشمس. لكنّه عندما لاحظ أنّ والده أصبح ضريراً، فارقته السعادة وقال: «أَعِد البصرَ لوالدي، لأنّ هذا حكمُ الله بي!». حينذاك، أعاد الأزرق البصر

للاثنين لأنه أدرك طيبة قلبيهما. ثم أكمل طريقه باتجاه البحر، وتوقّف ليعيش في مكانٍ هنا بالقرب من الكثبان، عند شاطئ البحر».

صمتت العمّة قليلاً. وفكّرت لالا بالكثبان، هناك حيث كان يعيش الأزرق، وبدأت تسمع صوت الرياح والبحر.

«كان الصيّادون يعطونه الزاد كلّ يوم، لأنهم كانوا يعرفون أنّ الرجل الأزرق وليٌّ صالح، ويطلبون بركته. بعض الناس كانوا يأتون من البعيد، من مدن الجنوب المحصّنة، يأتون لسماع كلامه. لكنّ الأزرق لم يكن يعلّم السنّة بالكلمات، وعندما يأتي أحدهم ويسأله: «علّمني الطريق!»، كان يكتفي بتلاوة السبحة لساعات، دون أن يقول شيئاً آخر. ثم يطلب من الزائر: «اذهب لإحضار الحطب للنار، اذهب لجلب الماء»، كأنه خادمه. يقول له: «روّح لي». وكان يكلّمه بقسوة، وينعته بالكسول والكاذب، كأنه عبدٌ عنده».

تتحدّث العمّة ببطء، داخل البيت المعتم، ويُخيّل للالا أنها تسمع صوت الرجل الأزرق.

«هكذا كان يعلّم السنّة، لا بالكلمات ولا بالأقوال، إنما بالسلوك والصلاة، كي يجعل قلوب الزائرين تتَضع. ولكن حين يأتيه أناسٌ بسطاء أو أطفال، يصبح الأزرق في غاية الرقّة معهم، يحدّثهم بكلامٍ لطيفٍ وديع، ويروي لهم أساطيرَ مدهشةً، لأنه كان يعلم أنهم لا يملكون قلوباً قاسية، وهم قريبون حقاً من الله. من أجل هؤلاء كان يصنع الأعاجيب، ليساعدهم، إذ لا ملجأ لهم سواه».

تتردّد العمّة: «هل حكيت لك عن أعجوبة نبع الماء الذي فجّره من تحت الصخرة؟».

«نعم، ولكن احكيها لي مرّةً أخرى ياعمّة!»، قالت لالا.

إنها الحكاية الأحبّ إلى قلب لالا في العالم كلّه. في كلّ مرّة تسمعها، تشعر بشيءٍ غامض يتحرّك في أعماقها، كأنّ البكاء يغلبها مثل رعشة الحمّى. تفكّر كيف حدث ذلك كلّه منذ زمنٍ طويل عند مشارف الصحراء، في قرية من الطين والنخيل فيها ساحةٌ كبيرة خالية تطنّ فيها الدبابير، ومياه منهل الماء تلمع تحت الشمس ملساء كالمرآة، تعكس السحاب والسماء. في ساحة القرية الخالية، الشمس حارقةٌ لاهبة، والناس أجمعين التجؤوا إلى داخل بيوتهم الباردة. فوق سطح ماء المنهل الساكنة، المفتوحة مثل عينٍ تنظر إلى السماء، تعبر بين حينٍ وآخر، رعشةٌ خفيفة من الهواء الحارّ الذي يلقي غباراً دقيقاً وأبيض على السطح، كأنه نحاسٌ غير مرئيّ، يغوص على الفور. المياه رائعة وعميقة، زرقاء مخضرّة، تسكن راكدةً في جوف الأرض الحمراء، حيث تركت أقدام النساء الحافية آثاراً لامعة. وحدها الدبابير تروح وتغدو فوق المياه، تلامس السطح، وتعاود الرحيل ناحية البيوت، التي تتصاعد منها أدخنةُ المواقد.

«كانت هناك امرأةٌ ذهبت لإحضار المياه في جرّتها من المنهل. لم يعد أحدٌ يتذكّر اسمها الآن، فقد حدث ذلك منذ زمنٍ بعيد جداً. لكنّها كانت عجوزاً لا حول لها ولا قوّة، وعندما وصلت إلى عين الماء، صارت تبكي وتلطم لأنّ طريق البيت أمامها طويلٌ جداً. بقيت هناك جاثيةً على الأرض تبكي وتئنّ. فجأةً، ودون أن تسمع وصوله، كان الأزرق يقف أمامها...».

لالا تراه بوضوحٍ الآن: طويلَ القامة، نحيلاً، ملتحِفاً بردائه الرمليّ اللون. يخفي وجهَه وراء لثامه، لكنّ عينيه تلمعان ببريقٍ غريب، يمنح الهدوء والقوّة مثل شعلة المصباح. أصبحت تعرفه الآن. هو الذي يظهر

فوق الهضبة الصخرية، هناك حيث تبدأ الصحراء، ويحيط لالا بنظرتِه بإلحاحٍ وقوّة كبيرين، حتى تشعر بالدوار من تأثيرها. يأتي هكذا كالطيف، بصمتٍ، يعرف كيف يكون هناك، متى يكون ذلك ضرورياً.

«استمرّت العجوز بالبكاء، فسألها الأزرق حينئذٍ، بعطف: لماذا تبكين؟!».

لا يمكن للمرء أن يخشاه حين يصل بهدوء، كأنه بزغ من الصحراء. بنظرته المفعمة بالطيبة، وصوته الهادئ البطيء، ووجهه المشعّ بالنور أيضاً.

«حكت له المرأة العجوز عن حزنها ووحدتها، لأنّ منزلها بعيدٌ جداً عن عين الماء، وليس لديها المقدرة على العودة وهي تحمل الجرّة...».

صوته ونظرته سيّان، كأنه عالِمٌ مسبقاً بما سيحدث في المستقبل، وعارفٌ بسرّ أقدار البشر.

«لا تبكي لهذا السبب! -قال الأزرق- سوف أساعدك في العودة إلى بيتك. أمسك ساعدها حتى البيت، وعندما وصلا، قال لها فقط: ارفعي هذا الحجر على جانب الطريق، ولن تحتاجي الماء بعد اليوم. فعلت المرأة ما طلب منها، وظهر تحت الحجر نبعُ ماءٍ صافٍ رقراق انبجس من الأرض، فارت مياهُه على الجوانب، إلى أن شكّلت نبعاً أجمل وأبرد من أيّ نبعٍ في البلاد. حينذاك، شكرت المرأة العجوز الرجل الأزرق. بعد ذلك، صار الناس يأتون من كلّ الأرجاء لمشاهدة النبعة، وتذوّق مائها، وأشادوا بالأزرق الذي نال تلك المقدرة من عند الله تعالى».

فكّرت لالا بالينبوع المنبجس من تحت الحجر، وبمياهه النقية السلسبيل اللامعة في نور الشمس. فكّرت بها طويلاً وهي في العتمة، بينما

كانت العمّة تكمل دعك عجين الخبز. وانسحب طيف الرجل الأزرق، بهدوء كما جاء، لكنّ نظرته الممتلئة بالقوّة بقيت معلّقةً فوقها، وغمرتها كما النسمة.

ثم صمتت العمّة وتوقّفت عن الكلام نهائياً. استمرّت في ضرب عجينها وتمسيده في الطست الفخاري الكبير الذي كان يتأرجح. لعلّها تفكّر هي أيضاً، بالينبوع الجميل، بمياهه العميقة المنبجسة من تحت حجر الطريق، كقول كلام الأزرق الحقّ، والطريق الحقّ.

النور بديعٌ هنا فوق المدينة. لم تنتبه لالا قطّ، في يوم من الأيام، للنور هكذا، حتّى ذلك اليوم الذي علّمها فيه الحرطاني أن تنظر إليه. نورٌ شديد الصفاء، في الصباح على وجه الخصوص، بعد شروق الشمس تحديداً. يضيء الصخور والأرض الحمراء، ويبثّ الحياة فيها. ثمّة أماكنُ لرؤية النور. قاد الحرطاني لالا ذات صباح إلى أحدها، هاوية تطلّ على وهدٍ حجريٍّ عميق، الحرطاني وحده يعرف هذا المخبأ، ولا بدّ من معرفة المعبر جيّداً. أمسك الحرطاني بيد لالا، وقادها على طول ممرٍّ ضيّق ينزل إلى داخل الأرض. شعرا على الفور بعدئذٍ ببرودة الظلام الرطبة وتوقّف الأصوات، كما يحدث عندما يغطس الإنسان رأسه تحت الماء. كان الممرّ غائرٌ في الأرض بعيداً. شعرت لالا بالخوف قليلاً، فهذه أول مرّة تنزل فيها إلى داخل الأرض. لكنّ الراعي كان يشدّ على يدها بقوّة، وهذا ما كان يشجّعها.

توقّفا فجأة. كان النور يغمر الممرّ الطويل، الذي يفضي إلى السماء مباشرةً. لم تفهم لالا كيف حدث ذلك، إذ إنهما لم يتوقّفا عن النزول، لكنّه مع ذلك حقيقيّ، ها هي ذي السماء أمامها، شاسعةً وخفيفة. بقيت ساكنةً دون حراك، مقطوعة الأنفاس، عيناها مفتوحتان على اتساعهما. لا شيء هنا سوى السماء الصافية، إلى حدٍّ يجعل المرء يظنّ نفسه طيراً محلّقاً.

أشار الحرطاني للالا بأن تقترب من الثغرة. ثم جلس فوق الحجارة

على مهل، كي لا يسبّب أيّ انهدام. جلست لالا إلى الخلف قليلاً وهي ترتجف بسبب الدوار. في القاع، في أسفل الجرف تماماً داخل الضباب، رأت السهل الصحراوي الواسع والسيول الجافة، وبخاراً منسحباً قرميديّ اللون عند الأفق. إنها بداية الصحراء. إلى هناك كان الحرطاني يذهب أحياناً، وحيداً، لا يحمل معه سوى القليل من الخبز الملفوف بمنديل. هناك في الشرق، حيث الضوء في أبهى صوره، بديعٌ إلى حدٍّ يجعل المرء راغباً في أن يفعل كما يفعل الحرطاني، أن يجري حافي القدمين فوق الرمال، يقفز فوق الحجارة الحادّة والوهاد، يبتعد أكثر فأكثر نحو الصحراء.

«هذا بديعٌ يا حرطاني!».

أحياناً تنسى لالا أنّ الحرطاني لا يستطيع أن يفهم. عندما تكلّمه، يدير وجهه نحوها وتلمع عيناه، تحاول شفتاه محاكاة حركة الكلام ثم يعبس، فتبدأ لالا بالضحك.

«أووووه!».

تدلّه لالا إلى نقطة سوداء ساكنة وسط الفضاء. ينظر الحرطاني برهةً إلى جهة النقطة، ويصنع بيده إشارة طير، السبابة مثنيّة، والأصابع الثلاثة الأخرى متباعدة كريش الطير. كانت النقطة السوداء تنزلق ببطء وسط السماء، تلتفّ قليلاً حول نفسها، ثم تنزل وتقترب. تستطيع لالا الآن أن تميّز جسم الطير جيّداً، وخوافي ريش جناحيه المفرودين. إنه باشقٌ يبحث عن طريدة، ينزلق فوق تيّارات الهواء بصمت، مثل الظلّ.

بقلبٍ خافق، نظرت لالا إليه طويلاً. لم ترَ قطّ بجمال هذا الطير الذي يخطّ دوائر بطيئة في السماء، فوق الأرض الحمراء في الأعالي، وحيداً وصامتاً في الهواء، في نور الشمس، يهوي للحظاتٍ نحو الصحراء كأنه

آخذٌ في السقوط. ازداد خفقان قلب لالا، إذ إنّ صمت الطير الجارح كان يخترقها ويولّد الخوف لديها. حدّقت في الباشق ولم تستطِع أن تزيح نظرها عنه. صمت السماء المهيب، برودة الهواء الحرّ، والنور الحارق على وجه الخصوص، كان كلّ هذا يذهلها ويسبّب لها الدوار. أسندت يدها إلى ذراع الحرطاني: كي لا تسقط إلى الأمام نحو الفراغ. هو أيضاً، كان ينظر إلى الباشق، ولكن كأنّ الطير أخوه، ولا شيء يفرّقهما. لهما النظرة نفسها، الشجاعة ذاتها، يتقاسمان صمت السماء والرياح والصحراء الذي لا ينتهي.

عندما لاحظت لالا أنّ الحرطاني والباشق متشابهان، أصابتها رعشة، لكنّ دوارها توقّف. السماء أمامها واسعة، الأرض بخارٌ رماديّ وأحمر يطفو عند الأفق. ولأنّ الحرطاني كان يعرف ذلك كلّه، لم تعُد خائفةً من الدخول إلى عالم الصمت. أغمضت عينيها، وانساقت مستسلمةً في الهواء إلى وسط السماء، وهي متشبّثة بساعد الراعي اليافع. على مهل، كانا يخطّان معاً دوائر كبيرة فوق الأرض، بعيداً جداً. توقّفا عن سماع أيّ صوت، لا شيء سوى ارتعاش الهواء الخفيف في الريش الخفيّ، عالياً جداً، بحيث لم يعودا يريان شيئاً تقريباً، لا الصخور، ولا دغل الأشواك، ولا بيوت الصفيح بسطوحها الورقيّة المطليّة بالقار.

ثم، بعد أن حلّقا طويلاً معاً، وامتلأا بنشوة نور السماء وزرقتها، عادا إلى ثغرة المغارة، في أعلى الجرف الأحمر. حطّا برفق، دون أن يدحرجا حصاةً واحدة، أو يحرّكا حبّةَ رملٍ واحدة. هذه من الأشياء التي يجيد الحرطاني فعلها، هكذا دون كلام، دون تفكير، بنظرته فقط ولا شيء غيرها.

كان الفتى يعرف الأماكن التي يمكن أن يُرى منها النور، ذلك لأنه ليس هناك نورٌ واحد فحسب، إنما أنوارٌ كثيرة مختلفة. في البدء، عندما كان يصطحب لالا عبر الصخور إلى داخل التجاويف، نحو الصدوع القديمة الجافّة، أو إلى أعلى صخرة حمراء، كانت تظنّ أنه يأخذها من أجل صيد السحالي، أو سرقة أعشاش الطيور، كما يفعل بقيّة الصبية. لكنّ الحرطاني كان يمدّ يده حينئذٍ وعيناه تلمعان فرحاً، ويُريها ما هو أبعد من يده، لم يكن هناك سوى السماء، واسعة، بيضاء ساطعة، أو أشعّة الشمس المتراقصة على امتداد الانكسارات الحجرية، أو تلك الأقمار التي تصنعها الشمس عبر ظلال أوراق الشجيرات. أحياناً، كان يُريها أيضاً الناموس الصغير المعلّق بالهواء كالفقاعات بين خصلتين من الأعشاب، كأنه داخل شبكة عنكبوت هائلة الحجم. كانت تلك الأشياء تبدو أكثر جمالاً عندما ينظران إليها، تبدو مبتكَرةً، كأن لا أحد قبلهما رآها، كما لو أنهما في بداية الخلق.

تحبّ لالا أن تتبع الحرطاني. تسير وراءه، على طول الدرب الذي يفتحه أمامها. إنه ليس درباً بالضبط، إذ لا وجود لأيّ آثار عليه، مع ذلك، حين يتقدّم في طريقه، ترى أنه الدرب الصحيح، وليس في مكانٍ آخر. لعلّها دروب الماعز والثعالب وليست دروب البشر. لكنّ الحرطاني كأنه واحد منهم، فهو يعرف أشياء لا يعرفها البشر، يراها بكلّ جسده، وليس بعينيه فقط.

والأمر نفسه بالنسبة للروائح. أحياناً، كان الحرطاني يسير بعيداً جداً في سهل الحجارة باتجاه الشرق. تحرق الشمس أكتاف لالا ووجهها، ويصعب عليها اللحاق بالراعي. حينذاك، لم يكن يعبأ بها، فهو يبحث عن شيء ولا يتوقّف تقريباً، ينحني قليلاً نحو الأرض، ويقفز من صخرة

إلى صخرة. ثم يتوقّف بغتةً، يضع وجهه لصق الأرض، منبطحاً على بطنه مباشرةً كأنه يشرب. تقترب لالا بهدوء، بينما ينهض الحرطاني على مهل. تبرق عيناه المعدنيتان من السرور، كمن عثر على أثمن الأشياء على وجه الأرض. بين الحصى دخل التربة الناعمة، عشبةٌ خضراء ورمادية، شجيرة صغيرة لها أوراق رفيعة، يوجد منها الكثير هنا، ولكن حين تقرّب لالا وجهها أيضاً، تشمّ عطرها، خفيفاً في البداية، ثم يصبح أقوى وأقوى، عطر أجمل الزهور، شذى النعناع والشيبة، والليمون أيضاً، ورائحة البحر والرياح والبراري في فصل الصيف. كلُّ هذا وأكثر في تلك العشبة الصغيرة، المتّسخة والهشّة، التي تنبت في حماية الحصى وسط الهضبة الوعرة القاحلة، والحرطاني وحده يعرف مكانها.

هو الذي عرّف لالا على تلك الروائح الشذيّة كلّها، لأنه يعرف مخابئها. الروائح مثل الحصى والحيوانات، لكلّ واحدةٍ منها مخبؤها. ولكن يجب أن نعرف كيف نبحث عنها، مثل الكلاب، من خلال الهواء ونحن نتلمّس الآثار الضئيلة، ثم بالقفز، دون تردّد، إلى أن نصل إلى المخبأ.

علّم الحرطاني لالا ما يجب فعله. في ما مضى، لم تكن تعرف. إذ كان يمكن أن تعبر بالقرب من دغلٍ عشبيّ، أو جذر، أو قرص عسل، دون أن تشعر. الهواء مشبع بالروائح، وهي تتحرّك كالأنسام باستمرار، ترتفع، تهبط، تتقاطع، تختلط، وتفترق. فوق آثار أرنبٍ برّيّ تطفو رائحة الخوف، وإلى البعيد قليلاً، يشير الحرطاني إلى لالا بأن تدنو منه. فوق الأرض الحمراء، في البدء لم يكن هناك شيء، لكن، شيئاً فشيئاً، شمّت الفتاة شيئاً لاذعاً وقاسياً، رائحة بول وعرق، وبلمحة واحدة، عرفت الرائحة. إنها رائحةُ كلبٍ برّيّ جائع منفوش الوبر، كان يجري عبر الهضبة يطارد أرنباً.

تحبّ لالا أن تقضي الأيام مع الحرطاني. فهي الوحيدة التي يُريها كلّ شيء. إنه لا يثق بالآخرين، فهم لا يملكون الوقت للانتظار وللبحث عن الروائح، أو لرؤية طيور الصحراء المحلّقة. ولا يخاف الناس، هم بالأحرى من يخافونه. يقولون إنه «مجنون» تسكنه الشياطين، وإنه ساحرٌ عينه شرّيرة. الحرطاني الذي، لا أبٌ له ولا أمّ، جاء من مكان غير معروف، تركه محاربٌ من الصحراء بالقرب من البئر ذات يوم، دون أن يقول كلمة. هو ذاك الذي لا اسم له. أحياناً، كانت لالا ترغب في أن تعرف من يكون، وتريد فعلاً أن تسأله: «من أين أتيت؟». لكنّ الحرطاني لا يعرف لغة الناس، ولا يجيب عن الأسئلة. يقول ابن العمّة البكر إنّ الحرطاني لا يستطيع أن يتكلّم لأنه أصمّ. في كلّ الأحوال، هذا ما قاله معلّم المدرسة ذات يوم. وهذا ما يسمّونه: «أصمّ-أبكم». لكنّ لالا تعرف تمام المعرفة أنّ هذا ليس صحيحاً، لأنّ الحرطاني يسمع أكثر من أيّ شخص آخر. بوسعه سماع أرهف الأصوات، الضعيفة جداً، والتي لا يمكن سماعها حتى لو ألصقنا آذاننا بالأرض. بإمكانه سماع قفز أرنب في الجانب الآخر من الهضبة الصخرية، أو حتى عندما يقترب رجلٌ في الدرب، في الطرف الآخر من الوادي. وهو قادر على كشف مكان جندب يغني، أو عشّ طيور الحجل بين الأعشاب العالية. لكنّ الحرطاني لم يكن راغباً في سماع لغة البشر، لأنه قادمٌ من بلاد لا بشر فيها. فيها الرمال والكثبان والسماء فحسب.

في بعض الأحايين، كانت لالا تكلّم الراعي وتقول له على سبيل المثال: «بيلوووو-لا!» ببطء وهي تنظر إلى داخل عينيه، فيلتمع نورٌ عجيب يضيء عينيه المعدنيتين القاتمتين. يضع يده على شفاه لالا، ويتابع حركتها حين تتكلّم هكذا. لكنّه لا ينطق أيّ كلمة البتّة.

بعد لحظة، كان يصيبه الضجر، فيشيح بوجهه ويذهب ليجلس بعيداً فوق حجرٍ آخر. ولكن لم يكن لهذا أهمية في الحقيقة، لأنّ لالا تعرف الآن أنّ الكلمات لا أهمية لها، فكلّ ما نريد قوله هو في دواخلنا، مثل سرّ، مثل صلاة، هذا الكلام بالذات هو ما يهمّ. والحرطاني لا يعرف غير ذلك، يعرف كيف يعطي ويتلقّى هذا الكلام. أشياء كثيرة تُفهم من خلال الصمت. هذا أيضاً شيء لم تكن تعرفه قبل أن تلتقي الحرطاني. الآخرون لا ينتظرون سوى الكلام، أو بالأحرى الأفعال والإثباتات، أما الحرطاني، فهو ينظر إلى لالا بنظرته المعدنية الجميلة ولا يقول شيئاً، وبالتماع نظرته، يمكن سماع ما يقول وما يسأل.

حين يكون قلقاً، أو على العكس، حين يكون سعيداً، يقف ويضع يديه على صدغَيْ لالا، يمدّهما على جانبي رأس الفتاة دون أن يلمسها، ويبقى لحظةً طويلة، يشعّ وجهه كلّياً بالنور. تشعر لالا بحرارة راحتيه على صدغيها وخدّيها، مثل نار تبعث فيها الدفء. إنه شعورٌ غريب، يملؤها بالسرور هي أيضاً، يدخل إلى أعمق أعماقها، يجعلها تسترخي وتهدأ. لهذا السبب لالا تحبّ الحرطاني، لأنّ لديه تلك القدرة في راحتي يديه. ربما كان ساحراً فعلاً.

تنظر إلى يدَي الراعي كي تفهم. يداه رشيقتان، أصابعهما طويلةٌ ورهيفة وأظافرها بلون اللؤلؤ، لهما بشرةٌ رقيقة سمراء تميل إلى السواد من الأعلى، ولونٌورديّ مصفرّ في الأسفل، مثل أوراق الأشجار، التي تجمع بين لونين.

كم كانت لالا تحب يدَي الحرطاني! إنهما لا تشبهان أيادي الرجال الآخرين في المدينة، وتظن أن لا مثيل لهما في البلاد كلّها. يدان ماهرتان،

رشيقتان، مملوءتان بالقوّة في الوقت نفسه. تعتقد أنهما يدا شخصٍ نبيل، ابن شيخٍ ربما، أو لعلّه ابن محاربٍ من الشرق جاء من بغداد.

يجيد الحرطاني فعل كلّ شيء بيديه، ليس التقاط الحصى وتقطيع الحطب فحسب، بل صنع عقدة منزلقة بألياف النخيل، وصنع فخاخٍ لإيقاع الطيور. وهو يجيد التصفير أيضاً، وعزف الموسيقا، وتقليد صوت الحجل والباشق والثعلب، وتقليد صوت الريح والعاصفة والبحر. وعلى وجه الخصوص، تجيد يداه الكلام، وهذا أكثر ما تحبّه لالا. في بعض الأحيان، ولكي يتكلّم، كان الحرطاني يجلس على حجر مسطّح كبير تحت الشمس، قدماه تحت ثوبه الخشن الواسع، ثوبه ناصع البياض، فلا يُرى منه حينئذٍ سوى وجهٍ ويدَين بلونٍ داكن، وهكذا يبدأ الكلام.

في الحقيقة، ما يحكيه للالا ليس قصصاً. هي بالأحرى إيماءاتٌ بشفاهه وبالتماع نور عينيه. صورٌ خاطفة تمرّ كالبرق، تضيء وتنطفئ، لكنّ لالا لم تسمع أجمل منها، ولا أصدق منها. حتى تلك التي يرويها نعمان الصيّاد، أو حكاية العمّة عن الأزرق رجل الصحراء، وعن نبع الماء المنبجس من تحت الحجر، لم تكن بهذا الجمال. ما يقوله الحرطاني بيديه جنونيٌّ مثله، لكنّه كالحلم، لأنّ كلّ صورة يخلقها كانت تأتي بلحظة لا تتوقّعها البتّة، مع ذلك تكون هي الصورة التي تنتظرها. هكذا يتكلّم طويلاً، يستحضر طيوراً فردت ريشها، صخوراً هاجعة، منازل، كلاباً، عواصف، طائرات، أنهاراً عملاقة، جبالاً، رياحاً تصفر فوق الوجوه النائمة. أشياء لا معنى لها، لكنّ لالا عندما تنظر إلى وجهه، وإلى تلاعُب يديه السوداوين، كانت ترى ظهور الصور، رائعةً وجديدة، ساطعة بالنور والحياة، كأنها تنبجس فعلاً من باطن يديه، كأنها تخرج من شفتيه في نظرته المشعّة.

ما هو بديعٌ حقاً حين يتكلّم الحرطاني على هذا النحو، هو أن لا شيء يعكّر الصمت. الشمس تلهب الهضبة الصخرية والجروف الحمراء، الرياح تصل باردةً للحظات، أو حتى يُسمَع احتكاك الرمال المتسرّبة بين شقوق الصخور. بيديه الطويلتين وأصابعه المرنة، يستعرض الحرطاني أفعى تنساب في عمق الوهد، ثم تتوقّف وترفع رأسها. أو طائرَ «أبو منجل» كبيراً أبيض يفرّ مصفّقاً بجناحيه. في سماء الليل، يرسم الحرطاني بسبّابته القمر بدراً مكتملاً، يضيء النجوم واحدةً واحدة، ثم واحدة أخرى... في الصيف، يبدأ المطر في الهطول، تجري المياه في السواقي، يكبر مستنقع المياه ويطير فوقه البعوض. يلقي الحرطاني حجراً مثلّثاً إلى وسط السماء الزرقاء يسير بخطٍّ مستقيم، يصعد ويصعد. ثم، هوب! بلمح البصر، يتفتّح ويتحوّل إلى شجرة وارفة عملاقة مأهولة بالطيور.

أحياناً يستخدم الحرطاني وجهه ليقلّد الناس أو الحيوانات. وهو يجيد تقليد السلحفاة على نحوٍ رائع، يرقّق شفاهه، يقحم رأسه بين كتفيه، ويحدّب ظهره. وكان ذلك يُضحك لالا كثيراً، مثل أوّل مرّة. أو أنه يقلّد الجمل، يمطّ شفتيه إلى الأمام كاشفاً عن قواطعه. كما يقلّد بشكلٍ ممتاز الأبطال الذين شاهدهم في السينما. طرزان، أو ماشيستي، أو أبطال الرسوم المتحرّكة.

كانت لالا تحضر له بين حينٍ وآخر مجلّات القصص المصوّرة للأولاد، التي تسرقها من ابن العمّة البكر، أو تشتريها بمدّخراتها. فيها قصص «أكيم»(*)، أو «روش رافال»، أو قصص تحدث على سطح القمر، والكتب المصوّرة الصغيرة لميكي ماوس، ودونالد داك. وهذه القصص

(*) سلسلة قصص مصوّرة إيطالية، البطل يحمل اسم أكيم وهو شبيه طرزان.

هي المفضّلة عندها. لا تعرف لالا قراءة المكتوب، لكنّ ابن العمّة حكى لها الحكاية مرّةً أو مرّتين، وهي تحفظها عن ظهر قلب. غير أنّ الحرطاني، في كلّ الأحوال، لا رغبة لديه في سماع القصة. كان يأخذ الكتب الصغيرة، وينظر إليها مستغرباً، يضعها منحرفةً ويميل برأسه قليلاً. وبعد أن يكون قد شاهدها طويلاً، يقفز على قدميه، ويقلّد روش رافال، أو أكيم على ظهر الفيل (الصخرة تحلّ محلَّ الفيل).

لكنّها لا تبقى مع الحرطاني لوقتٍ طويل بتاتاً، لأنّ هناك دائماً لحظة يتجهّم فيها وجهُه ويتحوّل إلى العبوس. وهي لا تفهم تماماً ما الذي يحدث، عندما يصبح وجه الراعي الشابّ قاسياً وشاخصاً، ونظرته بعيدة وساهية. كما يحدث عندما تعبر سحابةٌ أمام الشمس، أو مثلما يحصل عندما ينزل الليل بغتةً فوق الهضاب وفي كهوف الوديان. وهذا فظيع، لأنّ لالا تريد أن تتذكّر الوقت الذي يكون فيه الحرطاني مسروراً فقط. تتمسّك بابتسامته، وببريق عينيه، لكنّ ذلك مستحيل، لأنّ الحرطاني يرحل على حين غرّة مثل حيوان. يثب ويختفي بطرفة عين، دون أن تتمكّن لالا من رؤية وجهته. لكنّها لا تحاول أن تُبقيه بعد ذلك. حتى في الأيام التي ينتشر فيها الضوء فوق الهضبة الصخرية، ويكون الحرطاني قد تحدّث بيديه ليخلق أشياء كثيرةً ساحرة، كانت تفضّل العودة قبله. تقف وتذهب دون عجلة، نحو الطريق المؤدّي إلى مدينة الصفيح والكرتون المطليّ بالقار. لعلّها، لكثرة ما التقت الحرطاني، أصبحت مثله الآن.

فضلاً عن ذلك، لم يكن الأهل يحبّون أن تذهب لالا لرؤية الحرطاني. ربما كانوا يخافون أن تصبح «مجنونة» هي أيضاً، وأن تأخذ الأرواح الشرّيرة الساكنة في جسد الراعي. يقول ابنُ العمّة البكر إنّ الحرطاني

سارق، فهو يملك ذهباً يحمله في كيسٍ جلديّ صغير حول عنقه. لكنّ لالا تعرف أنّ ذلك ليس صحيحاً. فقد عثر الحرطاني على الذهب ذات يوم في قاع مجرى الماء الجافّ. كان قد أخذ لالا من يدها، وقادها حتى عمق الشقّ، وهناك في رمل الشلّال الرمادي، رأت لالا غبار الذهب البرّاق.

«هذا الشابّ لا يصلح لك»، تقول العمّة، حين كانت لالا تعود من الهضبة الصخرية.

وجه لالا الآن اسود كوجه الحرطاني، بسبب الشمس الحارقة أكثر في الأعلى.

أحياناً كانت العمّة تردف قائلة: «لكنّك لن تتزوّجي الحرطاني، أليس كذلك؟!».

«لِمَ لا؟»، تسأل لالا وهي ترفع كتفيها. هي لا تريد الزواج، ولا تفكّر في ذلك البتّة. وفكرة الزواج من الحرطاني كانت تضحكها.

غير أنها وفي كلّ مرّة تقرّر فيها التوقّف عن أشغالها، كلّما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، كانت تخرج من المدينة وتتجه نحو الهضاب التي ينتشر عليها الرِّعيان في شرق المدينة، هناك حيث تبدأ الأراضي الخالية من المياه وجروف الصخر الأحمر العالية. كانت تحبّ السير في الدروب البيضاء المضيئة بين التلال، وهي تصغي إلى غناء الجنادب الصارخ، وتشاهد آثار الثعابين فوق الرمال.

إلى البعيد قليلاً. كانت تسمع صفير الرعيان. وهم في غالبيتهم شبّانٌ صغار، صبيانٌ وبنات، ينتشرون في كلّ مكان تقريباً فوق التلال مع قطعان أغنامهم ومِعازهم. يصفّرون ببساطة لينادي بعضهم بعضاً، أو ليتكلّموا في ما بينهم، أو لإخافة الكلاب الضالّة.

تحبّ لالا السير بين التلال، تضيّق عينيها من شدّة الضوء، يرافقها ذاك الصفير المنبعث من كلّ الجهات. وهذا يجعلها ترتجف قليلاً رغم الحرارة، ويخفق قلبها على نحوٍ أسرع. أحياناً تلهو بالصفير وتردّ عليهم، إذ إنّ الحرطاني كان قد علّمها كيف تصفّر بوضع إصبعين في فمها.

حين يأتي الرعاة الصغار لرؤيتها على الطريق، يبقون على مسافة منها في البداية، لأنهم يرتابون قليلاً. كانت وجوههم ملساء بلون النحاس المحروق، جباههم محدّبة، ولهم شعرٌ غريب لونه شبه أحمر. أحرقت شمسُ الصحراء وهواؤها جلدهم وشعرهم. بأسمالٍ بالية، يقتصر لباسُهم على قميصٍ طويل من القماش الخام، أو ثوب من أكياس الطحين. كانوا لا يقتربون منها لأنهم يتحدّثون لهجة الشلوح ولا يفهمون لغة أهل الوادي. لكنّ لالا تحبّهم كثيراً، وهم لا يخافونها، فقد كانت تجلب لهم أحياناً شيئاً يأكلونه، ما تستطيع سرقته خِفيةً من بيت العمّة: القليل من الخبز، بسكويت، تمور مجفّفة.

الحرطاني وحده كان يستطيع البقاء معهم، فهو راعٍ مثلهم ولا يعيش مع أهل المدينة. حين تكون لالا معه، بعيداً وسط الهضبة الصخرية، كانوا يأتون متقافزين من صخرة إلى صخرة دون أن يُحدِثوا أيّ صوت. لكنّهم كانوا يصفّرون بين حينٍ وآخر للتحذير. حين يصلون، يحيطون بالحرطاني وهم يتكلّمون بسرعة كبيرة لغتهم الغريبة الشبيهة بزقزقة العصافير. ثم يعاودون الرحيل بسرعة، يتقافزون فوق الهضبة الصخرية وهم يصفّرون على الدوام. أحياناً يبدأ الحرطاني الركض معهم، وتحاول لالا اللحاق بهم، لكنّها لم تكن تعرف القفز بسرعة مثلهم. كان الجميع يضحكون لدى رؤيتها، ويتابعون الركض وهم يطلقون ضحكاتهم الصاخبة بمرح.

فوق الصخور البيضاء وسط الهضبة، يتقاسم الرعاة الطعام في ما بينهم. كانوا يحملون تحت قمصانهم صرّةً من القماش يعقدونها فوق صدورهم، فيها القليل من الخبز الأسمر والتمور والتين والجبن الجافّ. يعطون حصّة للحرطاني، وحصّة للالا. وهي بالمقابل، تقدّم لهم القليل من خبزها الأبيض. أحياناً، كانت تجلب معها تفاحةً حمراء اشترتها من متجر التعاونية، فيُخرج الحرطاني سكّينه الذي فقد مقبضه، ويقسم التفاحة إلى شرائح رقيقة لينال كلّ واحدٍ منهم قطعة.

فترةُ العصر أخّاذة فوق الهضبة الصخرية! الضوء لا يتوقّف عن التقافز فوق زوايا الحجارة الصغيرة، ولذلك يحيط بك الشرار من كلّ حدبٍ وصوب. زرقة السماء قاتمة وكثيفة، تخلو من ذاك البخار الأبيض القادم من البحر والأنهار. حين يشتدّ هبوب الرياح، تضطرّ لالا للاختباء داخل مغاور الصخور اتقاءً من البرد، ولا تسمع حينئذٍ إلا صوت الرياح وهي تصفر فوق الأرض بين أدغال النباتات. الأمر شبيهٌ بصوت البحر، لكنّه أبطأ وأطول.

تصغي إلى صوت الريح، وإلى أصوات الأولاد الرعاة الحادّ والخافت، وثغاء القطعان في البعيد. هذه الأصوات هي التي تحبّها لالا أكثر من أي أصوات أخرى في العالم، مع صرخات النوارس وتلاطم الأمواج. إنها أصواتٌ توحي بأنّ ما من سوء يمكن أن يحدث على الأرض.

ذات يوم، وبعد أن أكلت خبزاً وبلحاً، لحقت لالا بالحرطاني حتى سفوح التلال الحمراء، حيث تقع الكهوف. هناك كان ينام الراعي في مواسم الجفاف، عندما يضطرّ قطيع الماعز للسير بعيداً في سبيل العثور على مراعٍ جديدة. داخل الجرف الأحمر ثغراتٌ سوداء تخفيها الأحراج

الشوكية قليلاً. بعضها صغيرٌ يقارب حجم الأوكار، ولكن عندما يُنفذ إليها، يتّسع الكهف ويصبح فسيحاً وبارداً جدّاً كالبيت.

هكذا دخلت لالا، منبطحةً على بطنها تلحق بالحرطاني. في البدء، لم تكن ترى شيئاً وتملّكَها الخوف. فجأةً، بدأت تصرخ: «حرطاني! حرطاني!».

عاد الراعي إلى الوراء، سحب لالا من ذراعها ورفعها إلى داخل الكهف. وحين استعادت الرؤية، شاهدت القاعة الكبيرة بجدرانها الشاهقة عالية جداً، بحيث لا يمكن أن يُرى لها نهاية، تعلوها بقعٌ رماديّة وزرقاء، عروق العنبر الخام والنحاس. كان الجوّ أغبرَ بسبب ندرة النور الداخل من فتحات الجرف. سمعت لالا صوت خفقانِ أجنحةٍ عالٍ، فالتصقت بالراعي. لكنّ ذلك لم يكن سوى خفافيش أُزعجت في نومها، فطارت لتجثم إلى البعيد قليلاً، وهي تصرّ وتئزّ.

جلس الحرطاني على صخرةٍ بيضاء كبيرة مسطّحة وسط الكهف، وجلست لالا إلى جانبه. راحا ينظران معاً إلى النور المبهر الداخل عبر فتحة الكهف أمامهما. داخل الكهف، ظلام الليل ورطوبته على الدوام، أما في الخارج فوق الهضبة الصخرية، فإنّ الضوء يجرح العيون. كأنك هنا في بلادٍ أخرى، في عالمٍ آخر. كأنك في أعماق البحر.

صمتت لالا، ولم تعُد لديها الرغبة في الكلام. هي كالحرطاني الآن في الجانب المظلم، نظرتها داكنة كالليل، وبشرتها بلون الظلال.

شعرت لالا بحرارة جسد الراعي بالقرب منها، ونفذ إليها نور نظرته شيئاً فشيئاً. كانت ترغب حقاً في الوصول إليه، وإلى مملكته، أن تكون معه بكلّ كيانها، لكي يسمعها أخيراً. قرّبت فمها من أذنه، شمّت رائحة

شعر، وجلده، وهمست اسمه بصوتٍ واهٍ جدّاً، يكاد يكون صامتاً. كان الظلام في الكهف حولهما يغطّيهما كغلالةٍ رقيقة ومتينة. سمعت لالا بوضوحٍ صوت تسرّب المياه على طول جدران الكهف، وأصوات الخفافيش الضعيفة التي تُحْدثها أثناء نومها. عندما لامست بشرتها بشرة الحرطاني، سرت في جسدها موجةٌ حارّة غريبة، رافقها دوار. إنها حرارة الشمس التي دخلت إلى جسديهما طوال النهار تنبجس الآن، على شكل موجاتٍ محمومة. تلاقت أنفاسهما أيضاً وامتزجت، إذ لا مجال للكلام الآن، هناك الأحاسيس فحسب. إنه إحساسٌ بالنشوة لم تعرفه حتى الآن، وُلد بلحظاتٍ من ظلمة الكهف، وكأنّ الجدران الصخرية والظلمة الرطبة، ومنذ وقتٍ طويل، كانت بانتظار مجيئهما لكي تحرّر قوّتها. سرى الدوار أسرع فأسرع في جسد لالا، وسمعت بوضوح خفقان دمائها يمتزج بصوت قطرات المياه على الجدران، وبهسيس الخفافيش. كأنّ جسديهما قد صارا جزءاً من داخل الكهف، أو كأنهما حبيسان في جوف مارد.

امتزجت رائحة الماعز والغنم للحرطاني برائحة الفتاة الصبية. شعرت بحرارة يديه، بلّل العرق شعره والتصق بجبهته.

فجأةً، لم تعد تفهم ما يحدث لها. خافت وهزّت رأسها في محاولة للتخلّص من عناق الراعي الذي ثبّت ذراعيها على الحجر، وعقد ساقيه الطويلتين القاسيتين بساقيها. أرادت لالا الصراخ، ولكن كما في الحلم، لم يصدر أيٌّ صوتٍ من حنجرتها. أحاط بها الظلام الرطب وأرخى غلالةً على عينيها، ومنعها ثقل جسد الراعي من التنفّس. أخيراً، وخلال برهة، استطاعت أن تصرخ، فدوّى صوتها كالهزيم فوق جدران الكهف. أما الخفافيش التي أيقظتها على حين غرّة، فقد بدأت تحوّم كالإعصار بين الجدران ويعلو صريرُها وصوت أجنحتها.

كان الحرطاني قد وقف على الحجر وابتعد قليلاً. بدأت ذراعاه الطويلتان تلوّحان لإبعاد سحب الخفافيش السكرى التي تنوس حوله. لم ترَ لالا وجهه، إذ إنّ ظلام الكهف كان قد اشتدّ كثافةً، لكنّها أدركت أيّ اضطراب كان يعتريه. غمرها حزنٌ كبير ازداد دون توقّف. لم تعُد خائفةً من الظلمة، ولا من الخفافيش. هي الآن من تمسك بيد الحرطاني، وأحسّت أنه يرتجف على نحوٍ فظيع، تهزّه الاختلاجات. لم يكن يتحرّك، بل يميل بجذعه إلى الوراء، يمدّ ذراعه أمام عينيه كي لا يرى الخفافيش، يرتجف إلى حدّ أنّ أسنانه كانت تصطكّ. حينئذٍ، قادته لالا نحو باب الكهف، وهي التي سحبته إلى الخارج، إلى أن غمرت الشمس رأسيهما وأكتافهما.

في ضوء النهار، بدا وجه الحرطاني ممتقعاً كلّياً ومثيراً للشفقة، حتى إنّ لالا لم تستطع ردع نفسها عن الضحك. مسحت آثار الطين عن ثوبها الممزّق وعن قميص الحرطاني الطويل، ثم نزلا معاً إلى الهضبة الصخرية. كانت الشمس تسطع بقوّة فوق الحجارة الحادّة، والأرض بيضاء ووردية، تحت سماءٍ كانت على حافة الليل. مكتبة سُر مَن قرأ

الأمر شبيهٌ بتغطيس الرأس أولاً في الماء البارد، عندما نشعر بالحرّ الشديد، ثم نسبح لوقت طويل لتبريد الجسم كلّه. هكذا شرعا يجريان فوق هضبة الحجارة بأسرع ما يستطيعان، يقفزان فوق الصخور، إلى أن توقّفت لالا مقطوعة الأنفاس وقد انثنت على نفسها بسبب وخزٍ في جانبها. تابع الحرطاني القفز من صخرةٍ إلى صخرة مثل حيوان، ثم لاحظ أنّ لالا لم تعُد وراءه، فقام باستدارة كبيرة ليعود إليها. معاً، بقيا جالسين في الشمس فوق صخرة، يمسك أحدهما بيدَي الآخر بقوّة. كانت الشمس تميل نحو الأفق، وأمست السماء صفراء. من هنا وهناك، فوق التلال وفي مغاور الوادي، كان صفير الرعاة الحادّ يعلو ويرتدّ صداه.

تحبّ لالا النار. يوجد كلّ أنواع النيران هنا في المدينة. نيران الصباح عندما تطبخ النساء والفتيات الصغيرات الطعام في طناجر سوداء كبيرة، فيتسرّب الدخان على امتداد الأرض ممتزجاً بضباب الفجر، قبل أن تشرق الشمس فوق التلال الحمراء. ونيران الأعشاب والعيدان التي تشتعل وحدها لوقتٍ طويل شبه خامدة دون لهب. ونيران المواقد قرابة نهاية بعد الظهر، في نور الشمس الغاربة الجميل، وسط الانعكاسات النحاسية. يزحف دخّانها منخفضاً مثل ثعبانٍ طويل غامض يتمسّح بالبيوت ويطلق دوائر رمادية باتجاه البحر. وهناك النار التي يشعلونها تحت علب الطعام المحفوظ القديمة لتسخين القار ليسدّوا به الثقوب في السقوف والجدران.

الجميع هنا يحبّون النار، وبالأخصّ الأطفال والعجائز. في كلّ مرّة تُضرم فيها النار، يتحلّقون حولها، يُقْعون على كعابهم وينظرون إلى ألسنة اللهب المتراقصة نظراتٍ فارغة. أوأنهم، بين حينٍ وآخر، يلقون عيداناً صغيرة يابسة تتوهّج فجأةً وتفرقع، و حفناتٍ من القشّ تتلاشى مُحدِثةً دوّاماتٍ شبه زرقاء.

ذهبت لالا لتجلس على الرمال عند شاطئ البحر، هناك حيث أشعل نعمان الصيّاد ناره الكبيرة من الأغصان، يسخّن الزفت لتقليف قاربه. يفعل ذلك في أول المساء، عندما يكون الهواء لطيفاً وهادئاً، وزرقة السماء خفيفة وشفّافة، دون أيّ غيوم.

على شاطئ البحر، تجد دائماً أشجاراً هزيلة نوعاً ما، أحرقتها الشمس والملح معاً، تحمل أوراقاً من آلاف الإبر الصغيرة لونها رماديّ يميل للأزرق. عندما تمرّ لالا بالقرب منها، تقطف حفنةً من الإبر لنار نعمان الصيّاد، وتضع شيئاً منها في فمها لكي تمضغها على مهل أثناء سيرها. الأوراق الإبرية مالحة ولاذعة، لكنّ طعمها يمتزج برائحة الدخان فيصبح لذيذاً.

يُشعل نعمان ناره في أيّ مكان يجد فيه أغصاناً ميتة مُلقاةً فوق الرمال. يصنع كومةً من الأغصان، ويحشو الفراغات بعيدانٍ يابسة يذهب لإحضارها من الأرض البائرة، في الطرف الآخر من الكثبان. يضع أيضاً طحالب جافّة، ونباتات شوكٍ ميتة. يفعل ذلك حين تكون الشمس عالية ولا تزال في كبد السماء، والرمل يحترق كالنار، فيتصبّب العرق فوق جبهة الرجل العجوز ووجنتيه.

ثم يشعل النار بولّاعة الصُّوفان(*)، مراعياً وضع اللهب في الجانب الذي لا تهبّ فيه الرياح. يجيد نعمان إشعال النار ببراعة، ولالا تراقب حركاته كلّها بانتباه كي تتعلّم. يعرف انتقاء المكان المناسب، بحيث لا يكون مكشوفاً كلّياً، ولا محمياً في تجاويف الكثبان.

اشتعلت النار وانطفأت مرّتين أو ثلاثاً، لكنّ نعمان لم يكترث لذلك. كلّما خبا اللهب، كان يقلّب العيدان بيده، دون أن يخشى الاحتراق. هكذا هي النار، تحبّ من لا يخافها. وهكذا ارتفع اللهب مجدّداً، ليس عالياً في

(*) الصُّوفان: مادة إسفنجية تُستخرج من بعض الفطور التي تنمو على لحاء بعض الأشجار، ولها استخدامات كثيرة. كان يصنع منها قديماً ولّاعات، إذ يكفيها احتكاك بسيط وقليل من الهواء لظهور الشرارة وإشعال النار في الفتيل.

البداية، ظهر رأسه لامعاً بين الأغصان، ثم دفعةً واحدة، اضطرم في قاع الموقد، أضاء بنورٍ وهّاج وازداد أجيجه.

حين استعرَت النار، ثبّت نعمان الصيّاد فوقها حاملاً حديدياً يضع عليه وعاء الزفت الكبير. ثم جلس على الأرض وراح يراقب النار، يلقي فيها بين حينٍ وآخر عوداً يابساً سرعان ما تلتهمه. حينذاك، أتى الأولاد للجلوس أيضاً بعد أن شمّوا رائحة الدخان. جاؤوا من بعيد راكضين على طول الشاطئ وهم يطلقون الصيحات بعضهم ينادي بعضاً، يضحكون بصخب، ذلك لأنّ النار ساحرة، وتمنح الناس الرغبة في الركض والصياح والضحك. في ذلك الحين، علَتْ ألسنةُ اللهب وأصبحت مرئيّة، تتحرّك، تفرقع، ترقص، وتُرى داخل طيّاتها أشياء شتّى. أكثر ما تحبّ لالا هو الجمر في قاع النار، الجمر الحارّ المستعر، الذي تغطّيه ألسنة اللهب، وذاك اللون الحارق الذي لا اسم له، ويشبه لون الشمس.

كانت تتأمل الشرارات المتصاعدة على طول الدخان الرمادي أيضاً، تومض وتنطفئ ثم تختفي في السماء الزرقاء. في الليل تغدو الشرارات أجمل وأجمل، شبيهةً بسحبٍ من الشهب.

ذباب الرمل جاء أيضاً، جذبته رائحة الطحالب المحترقة، ورائحة الزفت الساخن، وهيّجته لوالب الدخّان. لم ينتبه نعمان إليها، فهو ينظر إلى النار فحسب. بين حينٍ وآخر، كان ينهض، يغطس عصاه في وعاء الزفت ليرى ما إن كان قد سخن كفايةً، ثم يحرّك السائل الكثيف وهو يرمش بعينيه بسبب دوّامات الدخان. كان قاربه على مسافة بضعة أمتار عند الشاطئ، مقلوباً رأساً على عقب، جاهزاً للتقليف. ثم مالت الشمس بسرعة، واقتربت من التلال القاحلة في الجانب الآخر من الكثبان. ازدادت

العتمة، فجلس الأولاد على الشاطئ متلاصقين بعضهم إلى جانب بعض، وخفتت أصوات ضحكاتهم قليلاً. نظرت لالا إلى نعمان، وحاولت أن ترى النور الصافي بلون الماء الملتمع في عينيه. كان نعمان يعرف نظرتها، فأشار لها بيده بحركةٍ ودّية، ثم قال على الفور، كأنّ هذا أكثر الأشياء طبيعية في العالم: «هل حكيت لك عن بَلابيلو من قبل؟». هزّت لالا رأسها نافيةً. كانت سعيدةً، لأنّ الوقت كان مناسباً جداً لسماع حكاية، هكذا على الشاطئ، وهي تشاهد النار التي تغلي الزفت في القدر، البحر شديد الزرقة، الهواء دافئ يطرد الدخان، الذباب والدبابير تطنّ، وليس بعيداً عنهم، دحرجة أمواج البحر، تصل إلى القارب القديم المقلوب فوق الرمال.

«آه، لم أحكِ لك قطّ حكاية بَلابيلو إذاً؟!».

وقف نعمان العجوز ليرى الزفت الذي كان يغلي بقوّة. حرّك عصاه على مهلٍ داخل القدر، لاحت عليه هيئة الرضا بما يراه. حينذاك، أعطى لالا قدراً قديماً مقبضه محروق: «حسناً، سوف تملئين هذا الوعاء بالزفت وتحضرينه لي إلى هناك، عندما أصبح بالقرب من القارب!».

لم ينتظر الجواب. ذهب وجلس على الشاطئ بالقرب من مركبه. كان قد جهّز كلّ أنواع الفراشي، صنعها من خرق القماش التي عقدها على أطراف الخشب.

«تعالَي!».

ملأت لالا الوعاء. كان الزفت يغلي وتتطاير منه فقاعات صغيرة لاذعة، وأخذ الدخان يخِزُ عينَيْها. لكنّها سارعت تحمل الوعاء المليء بالزفت أمامها مادّةً ذراعها. لحق بها الأولاد يتضاحكون، ثم جلسوا حول القارب.

«بَلابيلو، بَلابيلو...».

راح العجوز نعمان ينغّم اسم العندليب، كمن يحاول استذكار تفاصيل الحكاية. غمس العصا في الزفت الحارّ، وبدأ يدهن هيكل القارب، هناك حيث وضع سداداتٍ من نفايات القنّب أو الكتّان بين مفاصل الألواح الخشبية.

قال نعمان: «حدثت الحكاية منذ زمن طويل. كان هذا في زمان لم نعرفه، لا أنا ولا أبي ولا حتى جدّي، مع ذلك، نتذكّر تماماً ما الذي حدث. في ذلك الزمان، كان الناس غير ناس اليوم، ولم يكن أحدٌ يعرف الرومانيين بعد، ولا كلّ ما يأتي من البلاد الأخرى. ولهذا، كان الجنّ لا يزالون هنا في ذلك الزمان، لأن لا أحد كان قد طردهم حينذاك. وعليه، في ذلك الزمن، وفي إحدى مدن الشرق الكبرى، كان هناك أميرٌ متنفّذ، لم يكن لديه من الأولاد سوى بنتٍ واحدة اسمها «ليلى»، معناه الليل. كان الأمير يحبّ ابنته أكثر ما في الوجود، وكانت أجمل بنات المملكة، وأكثرهن رقّةً وحكمة، كما كانت موعودة بسعادة الأرض كلّها...».

أخذ الليل يخيّم ببطء على السماء، ويجعل زرقة البحر داكنةً قاتمة، وبدا زبد الأمواج أشدّ بياضاً. كان العجوز نعمان يغطّس، بانتظامٍ، فراشيه في وعاء الزفت ويدهن بها وهو يدحرجها على امتداد الشقوق بين الأخاديد المحشوّة بالكتّان، فيتغلغل هكذا السائل الحارق بين الثغرات ويقطر فوق رمل الشاطئ. كان الأولاد كلّهم ومعهم لالا، ينظرون إلى أيدي نعمان.

«وحدث شيءٌ فظيع في المملكة حينذاك» -تابع نعمان- «حدث جفافٌ عسير، نقمة من الله على المملكة كلّها. جفّت المياه في الآبار وفي الخزّانات، وكلّ شيء كان يموت عطشاً، الأشجار والنباتات أولاً، ثم قطعان الماشية والأغنام والماعز والإبل والطيور، وفي النهاية البشر، الذين

كانوا يموتون من الظمأ في الحقول وعلى جوانب الطرق. كان المشهد فظيعاً، لهذا ظلَّ الناس يتذكّرونه...».

جاء ذباب الشَّعْراء وبدأ يحطّ على شفاه الأولاد ويزنّ حول آذانهم. رائحة الزفت اللاذعة هي التي أسكرته، ودوّامات الأدخنة الثقيلة التي كانت تدور كالزوابع بين الكثبان. هناك دبابيرُ أيضاً، لكن لا أحد كان يبعدها، لأنّ العجوز نعمان حين يشرع بقصّ حكايته، كانت تصبح سحريةً هي أيضاً، كأنها من الجنّ.

«حزن أمير المملكة، واستدعى الحكماء للأخذ بمشورتهم، ولكن لا أحد منهم عرف ما العمل لإيقاف الجفاف. حينذاك، وصل رحّالةٌ غريب، مصريّ يمارس السحر. استدعاه الأمير أيضاً، وطلب منه أن يحلّ اللعنة عن المملكة. نظر المصريّ داخل بقعةٍ من الحبر، فاعتراه خوفٌ شديد، بدأ يرتجف وامتنع عن الكلام. "تكلّم! تكلّم!" كان الأمير يقول له، سأجعلك أغنى رجلٍ في هذه المملكة. لكنّ الغريب رفض الكلام باستمرار. ثم قال له وهو جاثٍ على ركبتيه: "مولاي، دعني أرحل، ولا تطلب مني الكشف عن هذا السرّ!"».

عندما توقّف نعمان عن الكلام ليغمس فرشاته في الوعاء، لم يتجرّأ الأولاد، ولا لالا، على التنفّس. كانوا يصغون إلى فرقعة النار وصوت الزفت الذي يغلي في القدر.

«وهكذا ثار غضب الأمير وقال للرجل: "تكلّمْ، وإلّا فالويل لك!". وانقضّ عليه الجلّادون وأخرجوا سيوفهم على الفور ليقطعوا رأسه. صرخ الغريب عند ذاك: "توقّفْ! سوف أقول لك سرّ اللعنة. ولكن اعلم أنك ملعون!"».

كان للعجوز نعمان طريقته الخاصة في نطق الكلمة ببطء، تقشعرّ لها أبدان الأولاد: «ملعون، ملعون من الله». توقّف برهةً ليمسح ما تبقّى من الزفت في الإناء. ثم مدّه نحو لالا دون أن يقول كلمة، وكان عليها أن تركض إلى النار لتملأه بالزفت المغليّ. لحسن الحظ، كان ينتظر عودتها لإكمال الحكاية.

«حينئذٍ، قال الرجل المصريّ للأمير: "ألم تعاقب في الماضي رجلاً لأنه سرق الذهب من أحد التجّار؟". "نعم، لقد فعلت" -قال الأمير- "لأنه كان سارقاً". "اعلمْ أنّ هذا الرجل كان بريئاً" -قال المصريّ حينئذٍ- "واتُّهم باطلاً، وقد لعنك، وهو الذي أرسل هذا الجفاف، لأنه حليف الأرواح الشريرة والشياطين"».

عندما خيّم المساء على شاطئ البحر، بينما كانوا يسمعون هكذا صوت نعمان العميق الخفيض، كأنّ الزمن لم يعُد له وجود، وعاد بهم إلى الوراء، إلى عصرٍ آخر طويل جدّاً وهانئ، كانت لالا تتمنّى ألّا تنتهي حكاية نعمان أبداً، حتى وإن دامت أياماً وليالِيَ، وغفَت هي والأولاد، وعندما يستيقظون، يكونون هنا، لا يزالون يصغون إلى صوت نعمان.

«"ما العمل لإيقاف هذه اللعنة؟" سأل الأمير، فنظر الرجل المصريّ في عينيه مباشرة: "عليك أن تعلم أنّ هناك وسيلةً وحيدة، وسوف أقولها لك، بما أنك طلبت مني أن أكشف السرّ. يجب أن تضحّي بابنتك الوحيدة، ابنتك التي تحبّها أكثر من أيّ شيء في العالم. اذهب وقدّمها طعاماً للوحوش في الغابة، وسوف يتوقّف الجفاف الذي يضرب بلادك". حينئذٍ، شرع الأمير يبكي ويصيح من الألم والغضب، ولكن بما أنه رجلٌ صالح، سمح للمصريّ بأن يرحل بحرّيّة. عندما علم أهل البلاد بالخبر، بدؤوا يبكون هم

أيضاً، لأنهم كانوا يحبّون ليلى ابنة ملكهم. ولكن كان لا بدّ من تقديم هذه التضحية، وقرّر الأمير أخذ ابنته إلى الغابة ليقدّمها للوحوش وتفترسها. غير أنه كان في البلاد شابٌّ يحبّ ليلى أكثر من الآخرين، وقرّر أن ينقذها. كان قد ورث من قريبه الساحر خاتماً يمنح من يملكه القدرة على التحوّل إلى حيوان، ولكن دون أن يسترجع شكله الأول، ويصبح خالداً. جاءت ليلة تقديم الأضحية، وذهب الأمير إلى الغابة تصحبه ليلى...».

كان الهواء قد أصبح لطيفاً ونقيّاً، وخطُّ الأفق لا نهاية له. نظرت لالا إلى أبعد ما استطاعت، كأنها تحوّلت إلى نورسٍ بحري، وصارت تطير إلى الأمام بعيداً فوق البحر.

«وصل الأمير إلى قلب الغابة، أنزل ابنته عن الجواد وأوثقها بشجرة، ثم رحل وهو يبكي من الحسرة، فقد بدأ يسمع أصوات الحيوانات المتوحّشة تقترب من الضحية...».

كان صوت الأمواج على الشاطئ يصل واضحاً للحظات، كأنّ البحر آتٍ. لكنّ ذلك كان صوت هبوب الريح فحسب، وهي تعانق ثنايا الكثبان وترفع زوابع رملية تمتزج بالدخان.

«في الغابة، كانت المسكينة ليلى الموثقة بالشجرة ترتجف من الخوف. نادت أباها لنجدتها، فهي لا تملك الشجاعة للموت هكذا، تنهشها الوحوش الضارية... كان ذئبٌ ضخم الجثّة قد بدأ يقترب منها، وشاهدت عينيه تقدحان كالنار في الليل. فجأةً، سُمع في الغابة صوت موسيقا، موسيقا في غاية الروعة والعذوبة، حتى إنّ الخوف غادر ليلى، وتوقّفت الحيوانات المفترسة كلّها لسماعها...».

كانت يدا نعمان العجوز تمسكان بالفراشي، واحدةً تلو الأخرى،

يمرّرها ويدحرجها على طول هيكل القارب. وكانت لالا والأولاد يتابعونها بأنظارهم كأنها تروي حكايةً هي الأخرى.

«صدحت الموسيقا السماوية في الغابة بأسرها، ولدى سماعها، ربضت الحيوانات كلّها على الأرض، وصارت وديعةً كالحملان، لأنّ الغناء الآتي من السماء كان يقلب كيانها ويبلبل أرواحها. ليلى أيضاً، كانت تصغي إلى الموسيقا بحبور. بعد قليل، انحلّت عُقَدُ وثاقها من تلقاء نفسها، وبدأت تمشي في الغابة، وأينما ذهبت، كان العازف فوقها، يتوارى بين أوراق الشجر. كانت الحيوانات المفترسة مستلقيةً على طول الطريق تلعق يدَي الأميرة، دون أن تسبّب لها أيّ أذيّة...».

كان الهواء قد غدا أكثر شفافيةً الآن، والضوء في غاية العذوبة، كأنهم كانوا في عالمٍ آخر.

«وهكذا عادت ليلى في الصباح إلى بيت أبيها، بعد أن سارت الليل بطوله، ورافقتها الموسيقا حتى أبواب القصر. عندما شاهدها الناس فرحوا كثيراً، فهم يحبّون الأميرة حبّاً جمّاً، ولم يُعِرِ أحدٌ منهم انتباهه للعصفور الصغير الذي كان يطير خفيةً من غصنٍ إلى غصن. وفي الصباح ذاته، بدأ المطر يهطل على الأرض...».

توقّف نعمان عن الدهن. أما لالا والأولاد، فكانوا يتطلّعون إلى وجهه النحاسيّ الأسمر الذي تبرق فيه عيناه الخضراوان، دون أن يطرحوا أيّ سؤال. ولم يتفوّه أيٌّ واحدٍ منهم بكلمة.

«وتحت المطر، كان العصفور بَلابيلو ينشد على الدوام، فهو الذي أنقذ حياة الأميرة التي يحب. وبما أنه لم يعد قادراً على استعادة شكله الأول، كان يأتي كلّ مساء ويحطّ على غصن شجرة بالقرب من نافذة ليلى، وينشد

لها أعذب ألحانه. ويقال إنّ الأميرة بعد موتها تحوّلت إلى عصفور هي الأخرى، وتمكّنت من الانضمام إلى بَلابيلو، والغناء معه إلى الأبد في الغابات والبساتين».

عندما انتهت الحكاية، لم ينطق نعمان كلمةً واحدة. تابع العناية بقاربه وهو يقلّب فراشي الزفت على طول الهيكل. كان النور قد بدأ ينحسر، لأنّ الشمس انزلقت إلى الجانب الآخر من الأفق. أمست السماء بلونٍ أصفر كثيف مائلٍ إلى الاخضرار، وبدت التلال كأنها مقتطعة من ورقة مطليّة بالزفت. كانت نار الجمر رفيعةً واهية، تكاد لا تُرى مقابل الضوء، مثل دخان سيجارة لا أكثر.

رحل الأولاد، بعضُهم وراء بعض، وبقيت لالا وحدها مع العجوز نعمان. أنهى عمله دون أن ينبس بكلمة، ثم رحل أيضاً وسار بتؤدةٍ على امتداد الشاطئ الطويل، يحمل فراشيه ووعاء الزفت، ولم يبقَ حينئذٍ سوى النار الخابية بالقرب من لالا. اجتاح الظلام عمق الفضاء بسرعة، وتحوّلت زرقة سماء النهار الكثيفة شيئاً فشيئاً إلى ليل. هدأ البحر في تلك اللحظة، دونما سبب. كانت الأمواج تتساقط متراخيةً فوق رمل الشاطئ، فيستطيل غطاء زبدها البنفسجي. بدأت أوّل الخفافيش مراوحتها فوق البحر بحثاً عن الحشرات، ومعها بعوضٌ وفراشات رمادية تائهة. في البعيد، سمعت لالا صرخة طائر السبد المكتومة. في مجمر النار، بضع جمراتٍ حمراء فقط لا تزال متوهّجة، دون لهب أو دخان، مثل حيوانات غريبة مختبئة تنبض تحت الرماد. عندما خبَت آخر الجمرات، بعد أن اشتدّ لمعانُها لبضع لحظات، مثل نجمٍ ينطفئ، نهضت لالا وغادرت المكان.

ثمّة آثارٌ في كلّ مكان تقريباً فوق تراب الدروب القديمة، ولالا تتسلّى في اتّباعها. في كثير من الأحيان، لا توصل إلى أيّ مكان، حين تكون آثار طيرٍ أو حشرة. وفي أحايينَ أُخَر، توصل إلى حفرة في الأرض، أو إلى باب منزل. الحرطاني هو الذي علّمها اقتفاء الآثار دون أن تضلّ طريقها بالانشغال بما حولها من أعشاب وأزهار، أو حصيات لامعة. عندما يقتفي الحرطاني أثراً ما، يصبح كالكلب الشمّام. تبرق عيناه، تتوسّع فتحتا منخريه، ويمتطّ جسده كلّه إلى الأمام. حتى إنه، بين حينٍ وآخر، يستلقي على الأرض ليستشعر الطريق على نحوٍ أفضل.

لالا تحبّ الدروب القريبة من الكثبان كثيراً، فهي تذكّرها بالأيام الأولى من وصولها إلى المدينة بعد أن ماتت أمّها من الحمّى. تتذكّر سفرها في الشاحنة المغطّاة، وأخت والدها، تلك التي تناديها: «عمّة» متلحّفةً بردائها الصوفيّ الرماديّ الواسع، ووجهها الذي غطّته لاتّقاء غبار الصحراء. دامت الرحلة عدّة أيام، كانت لالا خلالها تجلس في مؤخرة الشاحنة تحت الغطاء الخانق، بين الأكياس والحمولات المغبرّة. ثم في أحد الأيام، من خلال ثقبٍ في الغطاء، شاهدت البحر الأزرق الداكن على امتداد الشاطئ المحفوف بالزبد. راحت تبكي، غير مدركةٍ ما إذا كان ذلك من الفرح أو بسبب التعب.

كلّما مشت لالا في درب الشاطئ، كانت تتذكّر كيف رأت البحر

الأزرق اللامع وأمواجه الصامتة التي كانت تتدحرج مواربةً في البعيد على امتداد الشاطئ وهي داخل غبار الشاحنة. تتذكّر كلّ ما شاهدته بلمحةٍ واحدة خاطفة عبر شقّ غطاء الشاحنة، فتمتلئ عيناها بالدموع، لأنها تشعر أنّ نظرة أمّها تصل إليها، تغمرها وتجعلها ترتعش.

هذا ما تبحث عنه على طول طريق الكثبان. بقلبٍ خافق، كانت تمدّ جسمها قدر استطاعتها إلى الأمام، كما يفعل الحرطاني حين يقتفي أثراً ما. تبحث عن الأماكن التي جاءت إليها، بعد تلك الأيام كلّها، ومنذ زمنٍ طويل جداً، حتى إنها لم تعُد تتذكّر نفسها.

أحياناً كانت تنادي: «أمّي!». هكذا ببساطة، بعذوبةٍ فائقة، همساً. وأحياناً أخرى، تتحدّث إليها وحدها، توشوشها بصوتٍ خافت وهي تنظر إلى البحر الأزرق الباهر بين الكثبان. لا تعرف على وجه التحديد ما يجدر بها أن تقول، فقد مضى زمنٌ طويل، ونسيَت شكل أمّها بالتأكيد. ولعلّها نسيت صوتها أيضاً، والكلمات التي كانت تحبّ سماعها حينذاك.

«أين ذهبتِ يا أمّي؟ كم أودّ أن تأتي إليّ لرؤيتي! أريد ذلك بشدّة...».

جلست لالا على الرمال قبالةَ البحر، وراحت تتأمّل حركة الأمواج البطيئة. لكنّ الأمر لا يشبه أوّل مرّة شاهدت فيها البحر، حين كانت داخل غبار الشاحنة الخانق فوق الطُّرق الحمراء القادمة من الصحراء.

«أمّي، ألا تريدين المجيء لرؤيتي؟! أترين؟! أنا لم أنسَك يا أمّي!».

بحثت لالا في ذاكرتها عن أثرٍ للكلمات التي كانت أمّها تقولها في الماضي، أو تلك التي تغنّيها. ولكن كم كان من الصعب الوصول إليها! يجدر بها أن تغمض عينيها وتعود القهقرى إلى الوراء، إلى أبعد ما بوسعها، كمن يسقط في بئرٍ لا قرار لها.

فتحت عينيها مرّةً أخرى، فهي لم تعثر على شيء في ذاكرتها.

نهضت وسارت على الشاطئ وهي تتأمّل المياه التي تدفع الزبد فوق الرمال. كانت الشمس تحرق كتفيها وعنقها، والضوء يبهرها. كم تحبّ ذلك! وتحبّ الملح أيضاً، الملح الذي تضعه الرياح على شفتيها. شاهدت الأصداف البحرية المُلقاة على الرمال، وأصداف اللؤلؤ الوردية، والصفراء بلون القشّ، والقواقع القديمة المتآكلة والفارغة، والأشرطة الطويلة من الطحالب البحرية بألوانها: الخضراء الداكنة، والرمادية، والأرجوانية. حاذرت أن تطأ بقدمها قنديل بحر أو شفنيناً بحريّاً(*). يحدث، بين حينٍ وآخر، حركة اضطرابٍ وفوضى غريبين في الرمال عند تراجع المياه، هناك حيث عثرت على سمكة مفلطحة. سارت لالا بعيداً جداً على امتداد الساحل، مدفوعةً بصوت الموج. بين حينٍ وآخر، كانت تتوقّف وتبقى بلا حراك، تنظر إلى ظلّها الأسود المنساب من قدميها، أو إلى تلألؤ الزبد.

«أمّـــــــي!»، نادت مرّةً أخرى. «ألا تريدين المجيء لبرهة فقط؟! أريد أن أراك، فأنا وحيدة. عندما فارقتِ الحياة، وجاءت العمّة لتأخذني، لم أكن راغبة في الذهاب معها، لأنني عرفت أنني لن أتمكّن من رؤيتك مرّةً أخرى. تعالي، لحظةً واحدة فقط، تعالي!».

أغمضت لالا عينيها نصف إغماضة، فشاهدت في النور المرتعش فوق الرمل الأبيض سهولاً من الرمال في كلّ مكان، هناك في بلد «أمّي»، حول المنزل. حتى إنها أجفلت، إذ خُيِّل إليها أنها رأت الشجرة اليابسة لوهلة.

بدأ قلبها يخفق بقوّة، وشرعت تركض باتجاه الكثبان، هناك حيث

(*) الشفنين البحري: جنس سمك غضروفيّ مفلطح عريض.

تتوقّف رياح البحر. ارتمت على بطنها فوق الرمل الساخن، فمزّقت الأشواك الناعمة ثوبها قليلاً، وغرست إبرها الدقيقة في بطنها وفخذيها، لكنّها لم تحاول تفاديها. كانت تشعر بألمٍ واخز في جوف جسدها، ألمٍ ممضّ إلى حدّ الغثيان. غرست يديها في الرمال وانقطعت أنفاسها. تصلّبَ جسدُها وأصبح كقطعةٍ من الحطب. تمكّنت من فتح عينيها في النهاية، ببطءٍ شديد، كأنها سترى فعلاً خيال الشجرة اليابسة التي تنتظرها. ولكن لم يكن هناك شيء، السماء شاسعةٌ شديدة الزرقة، وصوت الأمواج مديدٌ وراء الكثبان.

«أمّي، يا أمّي!»، نادت من جديد وهي تئنّ.

بدأت ترى ذلك بوضوح الآن: حقلٌ واسع من الحجارة الحمراء، وتراب. وهناك أمام الشجرة اليابسة حقلٌ شاسع، يبدو ممتدّاً حتى تخوم الأرض. الحقل خالٍ، والفتاة الصغيرة تركض نحو الشجرة اليابسة فوق التراب. إنها صغيرة جداً، حتى إنها تاهت وسط الحقل بالقرب من الشجرة السوداء، لا تعرف إلى أين تذهب. صرخت حينئذٍ بكلّ قواها، لكنّ صوتها ارتدّ فوق الحجارة الحمراء، وتلاشى في ضوء الشمس. صرخت، لكنّ الصمت من حولها مرعب، صمتٌ يشدّ عليها ويوجعها. عند ذاك، سارت الفتاة التائهة إلى الأمام، سقطت، ثم عاودت النهوض، انخدشت قدماها الحافيتان بحوافّ الحجارة، وتكسَّر صوتُها بالشهقات، ولم تعُد قادرةً على التنفّس.

«أُمّي! أُمّي!»، هكذا كانت تنادي.

كانت تسمع صوتها بوضوح الآن، صوتها الممزّق، العاجز عن الخروج من حقل الحجارة والتراب، يرتدّ إليها ويختنق. لكنّ هذه

الكلمات بالذات، هي التي كانت تسمعها، في الجانب الآخر من الزمن وتسبّب لها الألم، فهي تعني أنّ أمّها لن تأتي.

أمام تلك الفتاة الصغيرة التائهة، وسط حقل الحجارة والتراب، ظهرت بغتةً شجرةٌ يابسة، كانت قد ماتت من العطش، أو من التقدّم في السنّ، أو لأنّ صاعقةً ضربتها. شجرةٌ ليست كبيرةً جداً، لكنّها غير عادية، فهي ملتوية في جميع الاتجاهات، تنتصب على أغصانها القديمة أشواكٌ كالحسَك، ولها جذعٌ أسود تشكّل من فروعٍ لولبية مجدولة، وجذورها سوداء طويلة تشابكت حول الصخور. سارت الفتاة الصغيرة باتجاه الشجرة ببطء، دونما درايةٍ منها، اقتربت من الجذع المحترق ولمسَته بيديها، فجمّدها الخوفُ كلّياً. في أعلى الشجرة اليابسة أفعى طويلة، فردت جسمها ونزلت. بينما كانت تنزلق على طول الأغصان ولا تنتهي، كانت حراشفها تصرّ على الخشب الميت وتصدر صوتاً معدنياً. نزلت الأفعى دون استعجال، وقرّبت جسمها الرمادي الأزرق من وجه الفتاة الصغيرة. راحت الطفلة تنظر إليها دون أن ترمش بعينيها أو تتحرّك، ودون أن تتنفّس تقريباً، ولم تتمكّن حنجرتها من إطلاق أيّ صرخة. فجأةً، توقّفت الأفعى ونظرت إليها. حينذاك، وثبت الفتاة إلى الوراء، وراحت تركض بكلّ ما أوتيت من قوّةٍ وحدها عبر حقل الحجارة، تركض كأنها ستعبر الأرض كلّها، بفمٍ جافّ وعينين أعماهما الضوء، وأنفاسٍ مسموعة. ركضت إلى أحد البيوت، إلى خيال «أمّي» التي ضمّتها إلى صدرها بقوّة وداعبت وجهها، استنشقت رائحة شعر «أمّي» الحنون، وسمعت كلماتها العذبة.

ولكن اليوم، لا أحد هنا، لا أحد في آخر السهل الرمليّ الأبيض، والسماء أكثر رحابةً وصفاء. جلست لالا في تجويف الكثيب، انطوت

على نفسها ودفنت رأسها بين ركبتيها. أحسّت بحرارة الشمس على عنقها، عند مفترق الشعر، وفوق كتفيها، واخترقت قماش ثوبها الخشن.

كانت تفكّر بالرجل الذي تسمّيه «السرّ»، والذي سبق أن صادفته على الهضبة الصخرية من جهة الصحراء. لعلّه أراد أن يقول لها شيئاً، يقول لها إنها ليست وحيدة، ويدلّها على الطريق الذي يوصلها إلى «أمّي». لعلّ نظرته، هي التي تحرق كتفيها وعنقها الآن.

لكنّها حين فتحت عينيها، لم ترَ أحداً على الشاطئ. تلاشى خوفها، تلاشت معه الشجرة اليابسة، والأفعى، وحقلُ التراب والحجارة الحمراء الواسع، كأنّ شيئاً لم يكن. عادت لالا إلى البحر. كان رائعاً، كما في اليوم الذي شاهدتْه فيه أوّلَ مرّة من خلال فتحة غطاء الشاحنة وبدأت تبكي حينئذٍ. كانت الشمس قد نقّت الهواء فوق البحر، ورأت فوق الأمواج شراراتٍ تتراقص، ولفائفَ كبيرةً من الزبد. كان الهواء دافئاً، محمّلاً بروائح الأعماق، من أعشابٍ بحريّة وأصداف وملح وزبد.

عادت لالا تسير الهُوينى على طول الشاطئ، فشعرت بنوعٍ من الثمالة في أعماقها. كأنّ ثمّة نظرةً كانت تصل إليها من البحر، من نور السماء ومن الشاطئ الأبيض. لا تعرف بالتحديد ماهيّتها، لكنّها تدرك أنّ هناك أحداً ما في كلّ مكان، ينظر إليها، ويضيء طريقها بنظرته. ذلك يقلقها بعض الشيء، ويمنحها الدفء في الوقت نفسه، مثل موجة تشعّ في داخلها، تبدأ من وسط جوفها وتصل إلى نهايات أطرافها.

توقّفت ونظرت حولها. لا أحد في الأرجاء، ولا أيّ طيفٍ لكائنٍ بشريّ. هناك الكثبان بحوافّها الحادّة فحسب، تتناثر عليها النباتات الشوكية، وهناك الأمواج التي تصل إلى الشاطئ، واحدةً تلو الأخرى. هل

كان البحر ينظر إليها هكذا باستمرار؟ هل هي نظرة أمواج المياه العميقة؟ أم نظرة كثبان الرمل والملح المبهرة؟ يقول نعمان الصيّاد إنّ البحر كالمرأة، لكنّه لم يفسّر قوله البتّة. كانت النظرة آتيةً من جميع الجهات في آنٍ معاً.

في تلك اللحظة بالذات، عبَر سربٌ كبير من النوارس وطيور الخطّاف على امتداد الساحل، وغطّى الشاطئ بالظلام، فتوقّفت لالا. بساقين مغروستين في الرمل الممتزج بالماء، ورأسٍ مقلوب نحو الخلف، راحت تتأمل عبور سرب طيور البحر.

مرّت الطيور ببطء، فازداد تيّار الرياح بمرورها دفئاً، بينما كانت تمشّط بأجنحتها الدقيقة الهواء. كانت تميل برؤوسها إلى الجانب قليلاً، ومناقيرها نصف المفتوحة تطلق أصواتَ أنينٍ غريب، وصريراً أغرب.

وسط سرب الطيور نورسٌ تعرفه لالا جيّداً، فهو أبيض كلّياً، ويخلو من أيّ لطخةٍ سوداء. عبرَ ببطء فوق لالا وهو يجدّف الهواء على مهل فاتحاً منقاره. لدى مروره هكذا، نظر إلى لالا وقد أمال رأسه لصغير نحو الشاطئ، فالتمعت عينُه المستديرة كقطرة ماء.

«من أنت؟ وإلى أين تذهب؟»، سألت لالا. نظر النورس الأبيض إليها، ولم يُجب. ذهب يلحق بالنوارس الأخرى، وطار لوقتٍ طويل على امتداد الشاطئ يبحث عن شيءٍ يأكله. تعتقد لالا أنّ النورس الأبيض يعرفها، لكنّه لا يجرؤ على المجيء إليها، لأنّ النوارس لم تُخلق لتعيش مع البشر.

في بعض المرّات، كان الصيّاد نعمان يقول إنّ الطيور البحرية أرواح الناس الذين قضوا في البحر أثناء العواصف، وتعتقد لالا أنّ النورس الأبيض روحُ صيّادٍ طويل القامة ونحيل، ذي بشرةٍ فاتحة، وشعرٍ بلون الضوء، تتلألأ عيناه كاللهب. قد يكون أمير البحر!

حينئذٍ، جلست لالا على الشاطئ بين الكثبان، وراحت تنظر إلى سرب النوارس المحلّق فوق الضفاف. إنها تطير بيُسر، دون أن تبذل الكثير من الجهد. تسند أجنحتها الطويلة المحدّبة إلى الهواء، وتميل برؤوسها إلى الجانب قليلاً. كانت تبحث عمّا تقتاته، ذلك لأنّ مكبّ نفايات المدينة لم يكن بعيداً، هناك حيث تصل الشاحنات. كانت تصيح باستمرار، مطلقةً أنينها الغريب الذي لا ينتهي، يتخلّله فجأةً، ودونما سبب، صرخاتٌ حادّة وزعيقٌ وضحكات.

غير أنّ النورس الأبيض، ذاك الشبيه بأمير البحر، كان يأتي، بين حينٍ وآخر، ويحلّق بالقرب من لالا، راسماً دوائر واسعة فوق الكثبان، كأنه يعرفها. عند ذاك، تبدأ لالا تلوّح له بذراعيها، تحاول أن تناديه، تبحث عن الأسماء كلّها على أمل العثور على اسمه الحقيقي، ذاك الذي سيعيد إليه ربما شكله الأوّليّ، ويُظهره بين الزبد، أمير بحرٍ بشعرٍ نورانيّ وعينين متّقدتين كاللهب.

نادت: «سليمان!»، «مؤمن!»، «دانييل!».

لكنّ النورس الأبيض استمرّ في التحويم في السماء باتجاه البحر، يلامس الأمواج بطرف جناحه، مثبّتاً نظرته القاسية على خيال لالا دون أن يجيب.

في بعض الأحيان، ولأنها تغتاظ منه، تركض وراء النوارس وهي تلوّح بذراعيها وتنادي أسماء لا على التعيين، لتثير حفيظة ذاك الذي تسمّيه أمير البحر: «أيّها الدجاج! يا عصافير الدوري! يا فراخ الحمام!»، أو حتى: «يا طيور الباز! أيتها النسور!»، وهي طيورٌ لا تحبّها النوارس. أما الطير الأبيض، الذي لا اسم له، فكان يتابع طيرانه لا مبالياً، متمهّلاً، ويبتعد على

طول الضفة محلّقاً داخل تيّار الهواء الشرقي، ومهما حاولت لالا الركض على رمال الضفاف القاسية، لا تتمكّن من اللحاق به.

رحل واندسّ بين الطيور الأخرى المحلّقة على امتداد الزبد، رحل، وعمّا قليل، لن تعود الطيور سوى نقاط تكاد لا تُرى، تختلط بزرقة السماء والبحر.

للماء جمالُه أيضاً. عندما يبدأ المطر في عزّ الصيف، وتنساب المياه فوق أسطح الصفيح والورق المزفّت، وتغنّي أغنيتها العذبة في الأواني الكبيرة تحت المزاريب. يأتي المطر ليلاً، وتسمع لالا صوت قصف الرعد يدوّي فوق الوادي، أو فوق البحر. عبر شقوق اللوائح، ترى النور الأبيض الرائع يسطع وينطفئ دون توقّف، ويجعل الأشياء تهتزّ داخل المنزل. العمّة لا تتحرّك في فراشها، وتظلّ نائمةً رأسها مدفونٌ تحت الغطاء لا تسمع صوت العاصفة. ولكن، في الطرف الآخر من الغرفة، الصبيّان مستيقظان، تسمعهما لالا يتحدّثان بصوتٍ خافت، ويضحكان دون إحداث جلبة. يجلسان في فراشهما، ويحاولان هما أيضاً، رؤية الخارج عبر شقوق الألواح.

نهضت لالا من فراشها ومشت نحو الباب دون أن تُحدث صوتاً، تريد أن ترى الرسوم التي يُحدثها البرق. لكنّ الرياح هبّت، وبدأت قطرات المياه الكبيرة تسقط على الأرض وتفرقع على السطح، فعادت لالا إلى النوم تحت أغطيتها، لأنها هكذا تحبّ سماع صوت المطر، تفتح عينيها على اتساعهما في الظلام، وتصغي إلى قطرات المياه تضرب الأرض وألواح الصفيح بقوّة، كأنها حجارة صغيرة تسقط من السماء.

بعد قليل، سمعت لالا تدفّق المياه في المزاريب وهي تضرب قاع براميل الكيروسين الفارغة. أحسّت بالسعادة، كأنّها هي بالذات من يشرب

هذه المياه. في البدء، حدثت قرقعةٌ معدنية، شيئاً فشيئاً، امتلأت البراميل وأصبح الصوت عميقاً أكثر. ثم بدأت المياه تجري من كلّ الجهات في آنٍ معاً، على الأرض، في الغدائر، في القدور القديمة المتروكة في الخارج. عندما يقرع مطر الصيف الأرض، يتصاعد غبارٌ جافّ في الهواء وتنبعث رائحةٌ غريبة للتراب المبلّل، مزيجٌ من القشّ والدخّان يطيب استنشاقه. هناك أولادٌ يركضون في الليل، يخلعون عنهم ثيابهم ويركضون عراةً تحت المطر على امتداد الأزقة، مطلقين الصيحات والضحكات. كانت لالا تودّ كثيراً أن تحذو حذوهم، لكنّها كبيرة السنّ الآن، والفتيات في مثل سنّها لا يستطِعن الذهاب عراةً كلّياً هكذا. ولذلك عادت للنوم ثانية وهي تصغي إلى قرع المطر فوق ألواح الصفيح، دون أن تكفّ عن التفكير في الينبوعين الرائعين المنبجسين من جهتَي السطح، اللذين سيملأان برميلَي الكيروسين بالمياه الصافية حتى يفيضا.

الشيء الرائع حين تهطل المياه هكذا من السماء لأيامٍ وليال، هو الذهاب إلى مركز الاستحمام لأخذ حمّام ساخن في الجانب الآخر من النهر في المدينة. قرّرت العمّة أخذ لالا إلى الحمّامات في نهاية بعد الظهر، عندما خفّت حدّة حرارة الشمس، وبدأت الغيوم الكبيرة تتكاثف في السماء.

كان اليوم مخصّصاً لحمّام النساء، والجميع يذهبون إلى الحمّام سالكين الطريق الضيّق الطويل المعاكس لاتجاه مجرى النهر. على مسافة ثلاثة كيلومترات أو أربعة صعوداً نحو النهر، هناك الجسر وطريق الشاحنات، ولكن قبل بلوغه، يوجد مخاضة تجتازها النساء.

سارت العمّة في المقدّمة مع زبيدة وابنة عمّها التي تدعى زورا، ونساء

غيرهن تعرفهنّ لالا بالشكل، لكنّها نسيت أساميهنّ. رفعن أثوابهن لاجتياز المخاضة، وهنّ يضحكن ويثرثرن بصوتٍ عالٍ. سارت لالا إلى الخلف قليلاً، لكنّها كانت سعيدة جداً، لأنها معفاةٌ من أعباء الأعمال المنزلية، ومن الذهاب لإحضار حطب النار في تلك الأوقات من بعد الظهر. فضلاً عن ذلك، إنها تحبّ الغيوم البيضاء الكبيرة المنخفضة جداً في السماء، ولون العشب الأخضر على ضفاف النهر. كانت مياه النهر مثلجةً وبلون التراب، تهتزّ بين ساقي لالا أثناء عبور المخاضة. عندما وصلت إلى القناة في وسط النهر، كان هناك درجةٌ منخفضة، سقطت لالا في المياه حتى مستوى بطنها وسارعت للخروج، فالتصق ثوبها ببطنها وفخذيها. في الضفة الأخرى من النهر، صبيانٌ كانوا يتلصّصون على النساء اللواتي رفعن أثوابهن لعبور النهر، راحت النساء يرمينهم بالحصى.

والحمّام عبارة عن عنبرٍ كبير مبنيّ من حجر القرميد بالقرب من النهر مباشرة. إلى هناك اصطحبت العمّة لالا عندما وصلت إلى المدينة أوّلَ مرّة، ولم تكن لالا قد رأت شيئاً كهذا. وهو مؤلّف من قاعة واحدة كبيرة فقط، تحتوي على مغاطس مياهٍ ساخنة، وأفران لتسخين الحجارة. يخصّص يومٌ للنساء، ويومٌ للرجال. لالا تحبّ هذه القاعة كثيراً، فهناك نورٌ وافر يدخل عبر النوافذ فوق الجدران تماماً، تحت سقف الصفيح المتموّج. والحمّام لا يفتح إلا في أيام الصيف، إذ إنّ المياه نادرة هنا، تصل من خزّان أُنشئ في مكانٍ مرتفع، تجري منه المياه على طول قنوات مفتوحة بالهواء الطلق حتى تصل إلى الحمّام، حيث تنزل كالشلّال في حوضٍ أسمنتيّ كبير يشبه المغسل. إلى هناك ستذهب العمّة ولالا للاستحمام لاحقاً، بعد حمّام الماء الساخن، سوف تسكبان المياه الباردة على جسديهما في طاساتٍ كبيرة وهما تطلقان الصيحات دون شكّ، لأنّ الماء البارد سيجعلهما ترتجفان.

شيء آخر تحبّه لالا أيضاً. إنه البخار الذي يملأ القاعة كلّها بالضباب، يشكّل ملاءات بيضاء تبلغ السقف، ويتسلّل عبر النوافذ التي يرتعش فيها الضوء. لدى الدخول إلى القاعة، يختنق المرء للوهلة الأولى بسبب البخار. ثم يخلع عنه ملابسه ويتركها مطويّةً فوق الكرسيّ في آخر العنبر. في البداية، كانت لالا تشعر بالخجل، ولم تكن ترغب في الخروج عاريةً كلّياً أمام بقية النساء، لأنها غير معتادة على الحمّام. كانت تظنّ أنهنّ ينظرْن إليها ويسخرْن منها، لأن لا أثداء لها وبشرتها شديدة البياض. لكنّ العمّة كانت توبّخها وتجبرها على خلع ملابسها كلّها، ثم على رفع شعرها الطويل إلى أعلى رأسها، وربطه بعقدةٍ من القماش. لكنّها الآن لم تعُد تبالي إن خلعت ملابسها. حتى إنها لا تعطي بالاً للأخريات. في البداية، كانت تجد ذلك فظيعاً، فهناك نساءٌ قبيحات جداً وطاعنات في السنّ، تغضّنت جلودهنّ مثل شجرة ميتة، وأخريات بدينات يملؤهنّ الشحم، تدلّت أثداءهن مثل قرب الماء، أو نساء مريضات شوّهت سيقانَهنّ القروحُ وعروق الدوالي. لكن لالا لم تعُد تنظر إليهن بالطريقة نفسها، فهي تشفق على النساء الدميمات أو المريضات ولم تعد تخاف منهنّ. فضلاً عن ذلك، فإنّ المياه رائعةٌ جدّاً وصافية، نقيّة وعذراء، ولا بدّ أن تداوي أولئك اللواتي يحتجْن إليها.

وهكذا عندما دخلت لالا إلى المغطس أوّل مرّة، بعد شهور الجفاف الطويلة، غمرت المياه جسدها كلّه، شدّت جلدها وساقيها وبطنها وصدرها بقوّة، حتى نَفَسُها، انقطع للحظة.

كانت المياه دافئة جداً ومؤلمة، تدفع الدماء إلى تحت الجلد وترسل موجاتٍ حارّة إلى داخل الجسم، كأنها تملك قوّة السماء والشمس. انزلقت لالا إلى عمق المغطس، إلى أن تجاوز الماء الحارّ ذقنها ولامس

شفاهها، ثم توقّف تحت منخريها تماماً. بقيت للحظةٍ طويلة هكذا، دون حراك، تنظر إلى سقف الصفيح المتموّج، والذي بدا تحت سحُب البخار كأنه يقترب منها.

ثم جاءت العمّة تحمل معها حفنةً من عشبة الصابونية ومسحوق التراب البركاني، وفركت جسم لالا لتزيل العرق والتراب عن ظهرها. استسلمت لالا لِيدَي العمّة الخبيرة بالفرك والتدليك بالصابون، ثم ذهبت إلى المغسل وغطست في الماء المنعش شبه البارد. تقلّصت مساماتها من المياه وصقلت جلدها، وشدّت أعصابها وعضلاتها. هنا شاركت لالا الحمّام مع بقية النساء، وهي تسمع صوت انسكاب المياه الآتية من الخزّان. هذه المياه بالذات، هي ما تحبّ، لأنها نقيّة مثل ينابيع الجبل، وتنزلق خفيفةً فوق جلدها النظيف مثلما تنزلق فوق صخرةٍ ملساء، تطفر في الضوء وتنبجس إلى آلاف القطرات. تحت نافورة المياه، كانت النساء يغسلن شعورهن السوداء الطويلة الثقيلة. حتى الأجساد القبيحة، تصبح جميلةً من خلال بريق المياه النقية، والتي من شدّة برودتها، كنّ يطلقن الصيحات والضحكات الرنّانة. سكبت العمّة ملء يديها الكبيرتين ماءً على وجه لالا، فبرقت أسنانها البيضاء الناصعة في وجهها النحاسي الأسمر. انزلقت قطرات الماء البرّاقة فوق ثدييها الداكنين، وعلى بطنها وفخذيها. هذا الماء الذي يجلو ويصقل الجلد ويجعل راحات الأيدي ناعمة. كان الجوّ بارداً، رغم البخار الذي يملأ العنبر.

غطّت العمّة لالا بمنشفة كبيرة، ولفّت نفسها بنوع من الشراشف عقدته أعلى صدرها. اتجهتا معاً إلى آخر العنبر، هناك حيث تركتا ملابسهما مطويّة فوق الكرسي. ثم جلستا، وبدأت العمّة تمشّط شعر لالا لوقتٍ طويل، خصلةً خصلة، تمسّدها جيّداً بأصابع يدها اليسرى لتنزع عنها الصئبان.

وهذا أمرٌ رائع أيضاً كالحلم، لأنّ لالا كانت تحدّق أمامها دون أن تفكّر في أيّ شيء، مسترخيةً من كثرة المياه، نعسةً من البخار المتصاعد ثقيلاً نحو النوافذ، التي يرتعش وراءها نور الشمس، مشوّشةً من أصوات النساء وضحكاتهن، من طرطشة المياه وخرخرة الأفران التي تشوي الحجارة. كانت تجلس هكذا على كرسيٍّ معدنيّ، تضع قدميها الحافيتين فوق أسمنت الأرض الباردة، ترتجف داخل منشفتها الكبيرة المبلّلة، ويدا العمّة الماهرتان تمشّطان شعرها دون كلل، تشدّه، تملّسه، بينما تسيل آخر قطرات الماء على خدّيها وعلى طول ظهرها.

ثم، بعد أن انتهى كلّ شيء وارتدتا ملابسهما، ذهبتا للجلوس خارجاً في دفء الشمس الغاربة. شربتا الشاي بالنعناع في أقداح مزيّنة برسوم ذهبية، دون أن تتبادلا الكلام تقريباً، كأنهما قطعتا معاً رحلة طويلة وأُتخمتا من مشاهدة الغرائب. كان طريق العودة إلى مدينة الصفيح والورق المقوّى في الضفة الأخرى من النهر طويلاً. حين وصلتا إلى البيت، كانت قد أمست زرقة الليل داكنة، وبدأت النجوم تلمع بين السحب.

هناك أيامٌ لا تشبه غيرها، كأيام الأعياد مثلاً، ومن أجل هذه الأيام يعيش الناس نوعاً ما، ينتظرون ويأملون. حين يقترب يوم العيد، لا يعود هناك حديثٌ سواه، في شوارع المدينة، في البيوت، بالقرب من نبع المياه. الناس قاطبةً، ينتظرون بنافد الصبر مجيء هذا اليوم بسرعة. أحياناً تستيقظ لالا في الصباح بقلبٍ خافق وخدرٍ غريب في أطرافها، لأنها تظنّ أنه اليوم الموعود. تنهض بأقصى سرعة، حتى دون أن تضيّع الوقت بتمرير أصابعها في شعرها، تخرج إلى الشارع وتركض في هواء الصباح البارد، في حين لا تكون الشمس قد أشرقت بعد، وكلّ شيء لا يزال رمادياً وهادئاً. وعندما ترى أن لا أحد يتحرّك في المدينة، باستثناء بعض العصافير، تدرك أنّ يوم العيد لم يحِن بعد، ولا يبقى أمامها سوى العودة إلى تحت أغطيتها، إلّا إذا قرّرت استغلال الفرصة للذهاب والجلوس عند الكثبان لرؤية أشعّة الشمس الأولى فوق رؤوس الأمواج.

ما يجعل الأيام طويلةً وبطيئة، ويثير الملل في أجسام الرجال والنساء، هو الصيام. لأنهم في الأيام التي تسبق العيد، يأكلون ما تيسّر من الطعام، قبل شروق الشمس وبعد المغيب فقط، ولا يشربون البتّة. لهذا، ومع مرور الوقت، يشعرون بفراغٍ كبير داخل أجسامهم، فراغٍ حارق يجعل الآذان تطنّ. لالا تحبّ الصيام كثيراً، لأنها حين لا تأكل ولا تشرب لساعات، ولأيام، تشعر كأنّ جوفها يغتسل. تبدو الساعات أطول وأكثر امتلاءً،

لأنّ الصائم يصبح يقظاً لأتفه الأشياء. يتوقّف الأولاد عن الذهاب إلى المدرسة، وتكفّ النساء عن الذهاب إلى العمل في الحقول، والشبّان لا يذهبون إلى المدينة. يبقى الجميع جالسين في ظلّ الأكواخ والأشجار، يتحدّثون قليلاً ويتأملون الظلال تتحرّك مع الشمس.

عندما يتوقّفون عن الطعام لأيام، تبدو لهم السماء أكثر نظافةً أيضاً، أشدّ زرقةً وجلاءً فوق الأرض البيضاء، والأصوات مدوّية طويلة كأنهم داخل كهف، والضوء أكثر نقاءً وروعة. الأيام نفسها تبدو أطول وهذا ما يصعب تفسيره، ولكن، منذ شروق الشمس حتى غروبها، يشعرون كأنّ شهراً بطوله قد مضى.

لالا تحبّ كثيراً الصيام هكذا، عندما تشتدّ حرارة الشمس ويجتاح الجفاف كلّ شيء. يترك الغبار الرمادي في فمها طعمَ حجارة، وتضطرّ بين حينٍ وآخر أن تمصّ عشبةً صغيرة بطعم الليمون، أو أوراق عشبة الشيبة الحرّيفة، ولكنّها تراعي أن تبصق اللعاب مباشرةً.

في أيام الصيام، تذهب لملاقاة الحرطاني في الهضاب الصخرية كلّ يوم. هو أيضاً يبقى دون طعام أو شراب طوال النهار، لكنّ ذلك لا يغيّر شيئاً من طبائعه، يبقى وجهُه على ما هو عليه بلونه المحروق، وعيناه تبرقان بقوّة في وجهه الأسمر، وعندما يبتسم، تلمع أسنانه. الفارق الوحيد، أنه يتلفّف كلّياً بردائه الخام كي لا يفقد ماء جسمه. يبقى هكذا دون حراك في الشمس، يقف على رجلٍ واحدة، والقدم الأخرى مسندةٌ إلى ربلة ساقه تحت الركبة، ينظر إلى البعيد باتجاه انعكاسات الهواء المتراقصة، ونحو قطيع الأغنام والماعز.

تجلس لالا بالقرب منه فوق حجرٍ مسطّح، تصغي إلى الأصوات

القادمة من جهات الجبل كلّها، إلى نداء الحشرات وصفير الرُّعاة وأصوات التصدّع التي تُحدثها الحرارة في الحجارة، وصوت عبور الرياح. لديها متّسع من الوقت، ففي زمن الصيام، لا حاجة لها إلى الذهاب وجلب الماء أو الحطب اليابس لنار المطبخ.

من المستحسن شعور المرء بهذا الجفاف كلّه خلال الصيام، مثل ألمٍ حادّ يتغلغل فيه من كلّ الجهات، مثل نظرةٍ محدّقةٍ فيه. في المساء، يظهر القمر بدراً كاملاً واسعاً عند أطراف تلال الصخور. حينذاك، تقدّم العمّة حساء الحمّص والخبز. يأكل الجميع بسرعة، حتى سليم زوج العمّة، ذاك الملقّب بالـ«سوسي»، يستعجل في الأكل دون أن يضع زيت الزيتون على لقمته كما اعتاد. لا أحد يتفوّه بكلمة، وتغيب القصص. تكون لالا راغبةً في الكلام، ولديها أشياء كثيرة تحكيها، بحماسة بعض الشيء، لكنّها تعرف أنّ ذلك ليس ممكناً، إذ لا يجوز تعكير الصمت في الصيام. عندما يصومون، يصومون عن الكلام أيضاً، وعن التفكير كلّياً. يسيرون بتمهّل كأنهم يجرجرون أقدامهم، لا يدلّون على الناس بالأصابع، ولا يصفّرون بأفواههم.

بين حينٍ وآخر، ينسى الأولاد أنّ الزمن زمن صوم، ويصعب عليهم ضبط أنفسهم طوال الوقت. لهذا تراهم يطلقون الضحكات، أو يندفعون راكضين عبر الأزقة ويثيرون سحب الغبار، فتنبح الكلاب في إثرهم. لكنّ النساء العجائز كنّ يوبّخْنَهم ويرمينهم بالحصى، فيتوقّفون عن الركض بعد لحظة، ربما لأنهم يفتقرون إلى القوّة بسبب الصوم.

دام الصيام طويلاً، حتى إنّ لالا لم تعد تذكُر تماماً كيف كانت الأمور قبل بدايته. ثم جاء يومٌ ذهبت فيه العمّة إلى الهضبة لشراء خروف، فعرف

الجميع أنّ اليوم الموعود بات قريباً. ذهبت بمفردها، فهي تقول إنّ سليم السوسي غير أهلٍ لشراء أيّ شيء جيّد مهما كان. سارت على الدرب الضيّق الذي يتعرّج باتجاه الهضب الصخرية، هناك حيث يعيش الرعاة. لالا والأولاد لحقوا بها من بعيد. حين وصلت إلى الهضاب، نظرت كي ترى ما إذا كان الحرطاني هناك، لكنّها تعرف جيّداً أنها تنظر عبثاً، فالراعي لا يحبّ الناس، ويرحل حين يأتي أهل المدينة لشراء الأغنام. أهل الحرطاني الذين تبنّوه، هم من يجزّون الخراف. كانوا قد غرسوا أغصاناً في الأرض لتشكيل حظيرة، وجلسوا ينتظرون في الظلّ.

ثمّة تجّارُ أغنامٍ ورعاةٌ آخرون أيضاً. كانت تطفو فوق الأرض الجافّة رائحةُ شحمٍ وبولٍ غريبة، وتُسمع صرخات الماشية الحبيسة الحادّة داخل حظائر الأغصان. جاء أناسٌ كثُر من المدينة، بل من المدينة الكبيرة نفسها أيضاً، تركوا سيّاراتهم عند مدخل المدينة، هناك حيث ينتهي الطريق الأسفلتي، وساروا على الدرب الترابي. أناسٌ من الشمال صُفر البشرة، رجالٌ بالبدلات الكاملة، فلّاحون من الجنوب، من سوس وفاس وموغادور(*)، كانوا يعلمون أنّ الكثير من الرعاة موجودون في الأنحاء، ولهم أقاربُ بينهم وأصدقاء، ويأملون في العثور على حيوانٍ سمين بسعرٍ بخس، أو تحقيق صفقة جيّدة. لهذا تراهم يقفون أمام الحظائر، يتناقشون، يشوّرون بأيديهم، وينحنون لمعاينة الخراف على نحوٍ أفضل.

اجتازت العمّة السوق دون عجلةٍ ودون أن تتوقّف. دارت بجولةٍ على الحظائر، ألقت نظرةً سريعة، لكنّها رأت أسعار الماشية على الفور. وبعد

(*) جزر موغادور: مجموعة من الجزر لصغيرة قبالة الساحل الغربي للمغرب، وأكبرها جزيرة موغادور.

أن جالت على الحظائر كلّها، كانت قد اختارت خروفها المطلوب دون شكّ. حينذاك، ذهبت لرؤية التاجر وسألته عن السعر. وبما أنها كانت تريد هذا الخروف بالذات وليس غيره، فهي لم تساوم تقريباً، أعطت المال للبائع في الحال.

كانت قد حرصت على إحضار حبلٍ معها، لفّه الراعي حول عنق الخروف. وبعد أن تمّت الصفقة، لم يبقَ أمامها سوى سوق الخروف إلى البيت. بكرُ أولاد العمّة: بركة، هو الذي كان له شرف سَوْق الخروف. خروفٌ ضخم وقويّ، صوفُه أصفر متّسخ تنبعث منه رائحة بول نفّاذة، لكنّ لالا شعرت بالشفقة عليه نوعاً ما رغم كلّ شيء، بجبينه الخافض وعينيه المرتعبتين، لأنّ الشابّ كان يشدّ على الحبل الخانق بكلّ قوّته. في ما بعد، ربطوا الخروف وراء منزل العمّة في حيّزٍ صغير من الصفائح القديمة جُهِّز خصّيصاً له، وصاروا يقدّمون له كلّ ما يرغب من الطعام والشراب في الأيامِ الباقية له من الحياة.

بعد ذلك، وفي أحد الأيام، استيقظت لالا وعرفت أنه يوم العيد. عرفت دون أن يقول لها أحد، عندما فتحت عينيها ورأت ضوء النهار ببساطة. وقفت للحظة في الشارع مع الأولاد الآخرين، وسرعان ما سرَت جلبةُ العيد في الهواء، وعلَتْ فوق بيوت الصفيح والورق المقوّى كزقزقة العصافير.

ركضت لالا فوق الأرض الباردة أسرع ما يمكنها، جرَت عبر الحقول، وعلى طول الدرب الضيّق الموصل إلى البحر. عندما وصلت إلى أعلى الكثبان، لفحَتها الرياح بغتةً بقوّة كبيرة جعلت فتحتَيْ أنفها تطبقان، وتقهقرت إلى الوراء. كان البحر داكناً ووحشياً، لكنّ السماء لا تزال بلونٍ

رماديّ خفيف ولطيف، حتى إنّ الخوف غادرها. خلعت ملابسها بسرعة، ودون تردّد، غطّست رأسها في المياه أولاً. غمرتها موجةٌ دافقة، لطمت جفنيها وطبلتي أذنيها، ودخلت إلى منخريها. ملأ الماء المالح فمها، وسال إلى داخل حنجرتها. غير أنّ لالا غير خائفة من البحر اليوم، وشربت الماء المالح جرعاتٍ كبيرة. خرجت من الموجة مترنّحة كالسكرانة وقد أعماها الملح. ثم عادت إليها لتسبح طويلاً بمحاذاة الشاطئ، تكشط ركبتاها الرمال حين يتراجع البحر، لتعود الموجة التي تكبر حولها وتحملها عالياً.

حينذاك، عبَر فوق رأسها النورس الأبيض الذي تحبّه كثيراً، وأطلق صيحةً صغيرة. راحت تشير له بيدها، وتنادي أسماء لا على التعيين لتجذبه إليها: «هيه! كالا! إيلّا! زمزار! حوريا! حبيب! شرارة! هائم!...».

عندما نادت الاسم الأخير، أحنى النورس رأسه ونظر إليها، وبدأ يرسم دوائرَ فوق رأس الصبية.

«هائم! هائم!»، نادت لالا مرّةً أخرى، وصارت على يقين الآن أنّ هذا هو اسم البحّار الذي تاه في البحر في ما مضى، لأنه يعني «التائه».

«هائم! هائم! تعالَ أرجوك!».

لكنّ النورس الأبيض حلّق راسماً دائرةً أخرى، ثم رحل في الهواء على طول الضفاف، حيث تجتمع النوارس الأخرى كلّ صباح، قبل أن تتابع طيرانها نحو مكبّ نفايات المدينة.

ارتجفت لالا قليلاً، فقد شعرت ببرودة البحر والرياح. لم تكن الشمس بعيدةً الآن، وها قد بدأ النور الوردي والأصفر يولد وراء التلال الصخرية حيث يعيش الحرطاني. كانت قطرات مياه البحر فوق جلدها تلمع بالنور، واقشعرّ شعر بدنها. هبّت الرياح قويّةً، وغطّت الرمال ثوبها الأزرق بكامله

تقريباً. لم تنتظر أن تجفّ، ارتدت ثيابها ورحلت، تجري تارةً وتمشي تارةً أخرى باتجاه المدينة.

كانت العمّة تجلس القرفصاء أمام بيتها تعِدّ فطائر العجين في القدر الكبير المليء بالزيت المغلي. ومن داخل الموقد الترابي، ينبعث نورٌ أحمر في العتمة التي لا تزال مخيّمةً فوق البيوت.

لعلّ هذه أجمل لحظات العيد عند لالا. كانت لا تزال ترتجف من برودة البحر، حين جلست أمام الموقد المشتعل وأكلت الفطائر المقرمشة، مستمتعةً بطعم العجينة اللذيذ وبمذاق مياه البحر اللاذع الباقي في عمق حنجرتها. رأت العمّة شعرها المبلّل، ولم تبالغ في تأنيبها، فاليوم عيد. جاء أولاد العمّة أيضاً، وجلسوا بالقرب من الموقد بأجفانهم المنتفخة من النوم، ثم وصل سليم السوسي. أكلوا دون أن يتفوّهوا بكلمة، غرفوا من طبقٍ كبير بلون العنبر مليء بالفطائر. كان زوج العمّة يأكل على مهل، يحرّك فكّيه كأنّه يجترّ، وبين حينٍ وآخر، يتوقّف عن الأكل كي يلحس قطرات الزيت المنسابة على طول يديه. مع ذلك، كان يتكلّم قليلاً ويقول أشياء لا أهمية لها، ولا أحد يسمعه.

في ذلك اليوم، هناك شيءٌ من رائحة الدماء، لأنه يوم نحر الخروف. يرافق هذا الحدث شعورٌ غريب، مثل حدثٍ قاسٍ ومؤلم، ذكرى كابوس يخفق معها قلب لالا. الرجال والنساء فرحون، الناس كلّهم فرحون، لأنّ الصيام انتهى وصار بإمكانهم أن يأكلوا دون توقّف حتى التخمة. لكنّ لالا لم تستطِع أن تفرح بسبب الخروف. يصعب شرح الأمر، كأنّ هناك رغبةً تنبع من داخل جسدها للفرار بسرعة. تراودها الفكرة في أيام الأعياد على وجه الخصوص. لعلّها كالحرطاني، ولعلّ هذه الأعياد ليست أعيادها.

ثم جاء الجزّار لذبح الخروف. أحياناً يأتي نعمان الصيّاد، لأنه يهوديّ ويستطيع ذبح الخروف دون أن يدنّسه، أو رجلٌ قادم من عيساوة البعيدة، بذراعيه المفتولين ووجهه الشرس. كانت لالا تكرهه. أما نعمان، فالأمر مختلف، فهو يفعل ذلك حين يطلبون منه فقط لتقديم خدمة، ولا يقبل أن يُدفَع له سوى قطعة من اللحم المشويّ. لكنّ الجزّار رجلٌ شرّير، ولا يذبح الخروف إلا إذا أعطوه المال. سحب الرجل الدابّة وهو يشدّ الحبل، فهربت لالا إلى البحر كي لا تسمع الصراخ الذي يقطع نياط القلب للخروف الذي كان يُجَرّ إلى ساحة ترابيّة مدكوكة، ليس بعيداً عن النبع، وكي لا ترى الدماء المنبجسة كالنوافير عندما يقطع الجزّار عنق الحيوان بساطوره الحادّ، ويملأ الدم الأسود الطسوت المطلية بالميناء وهو يبخر. لكنّ لالا لا تتأخر في الرجوع، فهناك في داخلها تلك الرغبة المحمومة، وهناك الجوع. عندما وصلت بالقرب من منزل العمّة، سمعت صوت فرقعة النار بوضوح، وشمّت رائحة اللحم المشويّ اللذيذة. لصنع أطيب شواء من لحم الضأن، لا تسمح العمّة لأحد بأن يساعدها، فهي تفضّل البقاء وحيدةً، تجلس القرفصاء أمام النار وتقلّب بنفسها السفّود وأطراف أسياخ الحديد التي شكّت فيها اللحوم. عندما نضجت الأفخاذ والأضلاع جيّداً، رفعتها عن النار، ووضعتها في طبق واسع من الفخار وُضع مباشرةً فوق الجمر. ثم نادت لالا، لأنه حان وقت تدخين اللحوم. هذه أيضاً أجمل اللحظات التي تحبّها لالا. جلست بالقرب من النار ليس بعيداً عن العمّة، تشاهد وجهها من خلال اللهب والدخان. بين حينٍ وآخر، كانت تنبعث دوّامات من الدخان الأسود، عندما تلقي العمّة في النار حفنةً من العشب الرطب أو الحطب الأخضر.

قلّما تتكلّم العمّة وهي تحضّر اللحم، للحظاتٍ فقط، ولالا تصغي إليها في الوقت نفسه مع فرقعة النار وصياح الأولاد اللاهين حولهما، وأصوات الرجال، وتستنشق الرائحة الساخنة القوية التي تشرّبها وجهُها وشعرها وثيابها. بسكّينٍ صغير، تقطع لالا اللحمَ شرائحَ رقيقةً، وتمدّها فوق حصيرة من العيدان الخضراء معلّقة فوق النار، حيث ينفصل الدخان عن ألسنة اللهب. وهذا أيضاً هو الوقت الذي تتحدّث فيه العمّة عن الزمن الماضي، عن الحياة في أرض الجنوب، في الجانب الآخر من الجبال، هناك حيث يبدأ رمل الصحراء وينابيع المياه الزرقاء كزرقة السماء.

«حدّثيني عن حوّا، من فضلك يا عمّة!»، تقول لالا من جديد.

وبما أنّ النهار طويل، ولا شيء تفعلانه سوى مراقبة رقائق اللحم التي تجفّ في دوّامات الأدخنة، وهما تحرّكانها قليلاً بين حينٍ وآخر بغُصَينٍ دقيق، أو تلحسان أصابعهما كي لا تحترق، لذلك تبدأ العمّة الكلام. بصوتٍ بطيء ومتردّد في البداية، كأنها تبذل جهداً لكي تستذكر، وهذا مناسب جداً مع حرارة الشمس التي تعلو على مهل في السماء الزرقاء، ترافقها طقطقة اللهب ورائحة اللحم والدخان.

«كانت لالا حوّا (هكذا تسمّيها العمّة) أكبر سنّاً مني، لكنني أذكر تماماً أوّل مرّة دخلَت فيها إلى البيت، عندما جاء أبوك معها. كانت قادمةً من الجنوب، من الصحراء الكبرى، وهناك تعرّف إليها، لأنّ قبيلتها من الجنوب، في الساقية الحمراء قرب مدينة السمارة المقدّسة، وكانت قبيلتها عائلة ماء العينين الجليل. لكنّ القبيلة كانت مجبرة على ترك أراضيها، لأنّ الجنود المسيحيين طردوهم من بيوتهم، الرجال والنساء والأولاد، وساروا لأيام وشهور في الصحراء. هذا ما روته لنا أمّك في وقتٍ لاحق. كنا فقراء

في ذلك الزمن، في سوس، غير أننا كنا سعداء معاً، لأنّ والدك كان يحبّ لالا حوّا حبّاً جمّاً. كانت تحبّ الضحك والغناء، وتعزف على القيثارة أيضاً، تجلس تحت الشمس أمام باب المنزل، وتبدأ غناء أغانيها...».

«ماذا كانت تغنّي يا عمّة؟».

«كانت تغنّي أغانيَ جنوبيةً، بعضها بلغة الشلوح، عن عساكة، وكلميم، وطانطان، ولكنّي لا أستطيع الغناء مثلها».

«لا بأس يا عمّة، غنّي لكي أسمع فقط!».

وهكذا تبدأ العمّة الغناء بصوتٍ خفيض، وسط صوت حسيس النار. فتحبس لالا أنفاسها لتسمع أغنية أمّها جيّداً.

«ذات يوم، آه ذات يومٍ، سيغدو الغرابُ أبيضَ، ويجفّ البحر. من زهرة الصبّار نأكل العسل، ومن أغصان الأكاسيا نصنع الهودج. ذات يوم، آه، ذات يوم، سيغيب السمّ من فمّ الثعبان، والموت من رصاص البنادق، في ذلك اليوم سأهجر حبيبي...».

تصغي لالا إلى الصوت الهامس داخل النار ولا ترى وجه العمّة، كأنّ صوت أمّها هو الذي يصل إلى مسامعها.

«ذات يوم، آه، ذات يوم، ستتوقّف الرياح عن الهبوب في الصحراء، وتحلو حبّات الرمل كالسكّر. تحت كلّ حجر أبيض سأعثر على نبع ماء. ذات يومٍ، آه، ذات يوم، سيغنّي لي النحل أغنية، في ذلك اليوم سأهجر حبيبي...».

لكنّ صوت العمّة تغيّر بعد قليل وأصبح قويّاً وأثيرياً، علا كصوت الناي، وصار يرنّ كأجراس النحاس. لم تعد تغنّي بصوتها الآن، إنه صوتٌ

جديد كلّياً، صوت امرأةٍ شابّة غريبة، تغنّي داخل سحابة ألسنة اللهب والدخان، تغنّي للالا، ولا لأحد غير لالا.

«ذات يومٍ، آه، ذات يوم، ستشرق الشمس في الليل، وتنسكب غدائر من نور القمر فوق الرمال، سوف تقترب السماء، وألمس النجوم. ذات يوم، آه، ذات يوم، سأرى ظلّي يرقص أمامي، في ذلك اليوم سأهجر حبيبي...».

كان الصوت البعيد ينزلق فوق لالا كما القشعريرة، يغمرها فتضطرب رؤيتها وهي تنظر إلى ألسنة اللهب التي تتراقص في نور الشمس. الصمت الذي جاء بعد الأغنية طويلٌ جداً، واستطاعت لالا سماع الموسيقا وإيقاع طبول العيد في البعيد. هي وحيدةٌ الآن، كأنّ العمّة لم تعُدْ هنا، تركتها مع الصوت الغريب الذي كان يغنّي لها الأغنية.

«ذات يوم، آه، ذات يوم، سأرى وجهك في مرآتي، وأسمع نغمة صوتك في أعماق البئر، وأعرف آثار خطاك على الرمال. ذات يوم، آه، ذات يوم، سأعرف يوم مماتي، في ذلك اليوم سأهجر حبيبي...».

أصبح الصوت خفيضاً ومكتوماً، أشبه بتنهيدة، ارتجف قليلاً في اللهب المرتعش، وضاع في دوّامات الدخان الأزرق.

«ذات يومٍ، آه، ذات يوم، ستظلم الشمس، وينشقّ قلب الأرض، والبحر سيغمر الصحراء. ذات يوم، آه، ذات يوم، لن تبصر عيناي النور، وسيعجز فمي عن نطق اسمك، ويتوقّف عذاب قلبي، في ذلك اليوم سأهجر حبيبي...».

خفت الصوت الغريب الهامس، وتلاشى في النار والدخان الأزرق. بقيت لالا طويلاً دون حراك، قبل أن تدرك أنّ الصوت لن يعود. كانت عيناها مغرورقتين بالدموع، وقلبها طافحاً بالألم دون أن تقول شيئاً، فيما

كانت العمّة تعاود تقطيع شرائح اللحم ووضعها فوق حصيرة العيدان وسط الدخان.

«حدّثيني المزيد عنها يا عمّة!».

«كانت لالا حوّا تعرف الكثير من الأغاني، وكان صوتها جميلاً مثلك، وتجيد الرقص والعزف على القيثارة والمزمار. في ما بعد، حين تعرّض والدك لذلك الحادث، تغيّرت كلياً، ولم تعُد للغناء أو للعزف على القيثارة البتّة. حتى بعد ولادتك، لم تعد تريد الغناء إلا لك عندما كنت تبكين ليلاً، لكي تهدهدك وتحملك على النوم...».

وصلت الدبابير، كانت قد جذبتها رائحةُ الشواء وجاءت بالمئات. راحت تطنّ حول الموقد وتحاول أن تحطّ فوق رقائق اللحم، لكنّ الدخان كان يبعدها ويخنقها، فتعبر النار مترنّحةً. بعضها وقع في الجمر واحترق بلهبٍ أصفر خاطف، وبعضها الآخر وقع صريعاً على الأرض نصف محترق. يا للحشرات المسكينة! جاءت لتحصل على حصّتها من اللحم، لكنّها لم تكن بارعةً في ذلك. الدخان اللاذع أسكرها وأثارها، لأنها لم تتمكّن من الحطّ فوق حصيرة العيدان. وهكذا اندفعت إلى الأمام مباشرة معميّةَ الأبصار وماتت، بكلّ غباء، كما تفعل فراشات الليل. رمت لها لالا قطعة لحم كي تهدّئ جوعها وتبعدها عن النار. لكنّ أحد الدبابير اصطدم بلالا، ولسعها في عنقها. صاحت لالا: «آي!»، نزعته عنها ورمته بعيداً وهي تتوجّع، ولكنْ تملؤها الشفقة، ففي أعماقها كانت تحبّ الدبابير.

لا تنتبه العمّة للدبابير. كانت تلوّح بخرقتها لكي تبعدها، وتتابع تقليب شرائح اللحم فوق الحصيرة مستأنفةً الكلام بصوتٍ مخنوق، كأنها تحكي عن حلمٍ موغل في القدم: «لم تكن تحبّ المكوث في البيت كثيراً.. كانت

تأخذك معها في أغلب الأوقات، تعلّقك بمنديل كبير على ظهرها وتذهب بعيداً.. بعيداً جداً.. لا أحد يعرف إلى أين. كانت تستقلّ الحافلة وتذهب إلى البحر، أو إلى القرى المجاورة. تذهب إلى الأسواق بالقرب من مناهل المياه، وترى هناك أناساً لا تعرفهم، تجلس فوق حجر وتنظر إليهم. ربما كانوا يظنّون أنها متسوّلة.. لكنّها لم تكن ترغب في العمل في المنزل، لأنّ عائلتي كانت قاسية معها، أما أنا فكنت أحبّها كثيراً، كأنها أختي».

«حدّثيني عن موتها أيضاً يا عمّة!».

«ليس من المستحسن الحديث عن الموت في يوم العيد!»، قالت العمّة.

«لا بأس يا عمّة! وإن يكُن، حدّثيني عن يوم مماتها!».

النار تفصل بين العمّة ولالا، ولا ترى إحداهما الأخرى على وجه التمام، كأنّ هناك نظرةً أخرى تلامس جوف جسديهما، في أكثر المواضع ألماً.

كانت دوّامات الدخان الرمادية والزرقاء تتراقص، تتبعثر وتتكاثف كالسحب، وفوق حصيرة العيدان الخضراء، أصبحت رقائق اللحم بلونٍ بنّيّ قاتم كالجلد القديم. ومن حول لالا، الشمس تميل إلى المغيب على مهل، والمدّ يتصاعد مع الرياح، وهناك غناء الجنادب، وصيحات الأولاد المهرولين في أزقة المدينة، وأصوات الرجال، والموسيقا. لكنّ لالا تكاد لا تسمعهم، فقد كانت مأخوذةً كلّياً بالصوت الهامس الذي يحكي عن موت أمّها منذ زمنٍ طويل.

«لا أحد كان يعرف ما سيحدث، لا أحد. ذات يوم، نامت لالا حوّا لأنها شعرت بالتعب الشديد، وكانت تشعر بالبرد في كامل جسمها. بقيت

على هذه الحال عدّة أيام دون طعام، لكنّها لم تكن تشتكي. عندما يسألها أحدهم: "كيف حالك؟"، كانت تجيب فقط: "لا شيء، لا شيء، أنا تعبة، هذا كلّ ما في الأمر". في ذلك الحين، أنا من كنت أعتني بك وأطعمك، لأنّ لالا حوّا لم تعُدْ قادرة على النهوض من فراشها...

ولكن لم يكن هناك طبيبٌ في القرية، والمستوصف بعيدٌ جداً. لا أحد كان يعرف ماذا يجدر بنا أن نفعل. ثم، ذات يوم، في اليوم السادس على ما أعتقد، نادتني لالا حوّا، وكان صوتها واهياً جداً، أشارت إليّ أن أدنو منها، وقالت لي فقط: "سوف أموت"، هذا كلّ ما قالته. كان صوتها غريباً، ووجهها بلونٍ رماديّ كلّياً، وعيناه تقدحان. تملّكني الخوف حينئذٍ، فخرجتُ من المنزل راكضة. أخذتك أبعد ما تمكّنت باتجاه الريف، إلى أن وصلت إلى تلّة. مكثت هناك النهار بطوله جالسةً تحت شجرة، بينما كنت تلعبين بالقرب مني. وحين عدت إلى البيت، كنت نائمة، لكنني سمعت أصوات بكاء أمي وأخواتي، والتقيت والدي أمام البيت، وقال لي إنّ لالا حوّا فارقت الحياة...».

كانت لالا تسمع بكلّ حواسّها، عيناها تحدّقان في ألسنة اللهب التي تفرقع متراقصة، أمام دوّامات الدخان المتصاعدة نحو السماء الزرقاء. كانت الدبابير مستمرّة في طيرانها الثمل، تعبر اللهب كالقذائف وتتساقط على الأرض محروقة الأجنحة، ولالا تصغي إلى صوت طنينها، الموسيقا الوحيدة الحقيقية في مدينة الصفيح والورق المقوّى.

تابعت العمّة: «لا أحد كان يتوقّع ما حدث، ولكن حين حدث، بكى الناس أجمعين. أما أنا فقد شعرت بالبرد كأنني سأفارق الحياة أيضاً. الجميع حزنوا على مصيرك، لأنك كنت صغيرة جداً لتعرفي بموتها. في

ما بعد، أنا التي أخذتُك، عندما مات أبي وكان عليّ المجيء إلى هنا إلى المدينة لأعيش مع السوسي».

بقي وقتٌ طويل قبل الانتهاء من تدخين قطع اللحم، لهذا استأنفت العمّة الكلام، ولكنّها لم تعُدْ للحديث عن لالا حوّا. تحدّثت عن الرجل الملقّب بـ«الأزرق»، الذي كان يجيد التحكّم بالرياح والمطر، ويجعل الأشياء كلّها تخضع له، حتى الحصى والأدغال. حكت عن كوخ من الأغصان والنخيل، كان بيته، وهو الوحيد وسط الصحراء الكبرى. قالت إنّ السماء فوق الرجل الأزرق كانت مأهولةً بكلّ أنواع الطيور، تنشد الأناشيد السماوية كي تشاركه الصلاة. ولكنّ أنقياء القلوب وحدهم كانوا قادرين على العثور على سكن الرجل الأزرق. الآخرون كانوا يتيهون في الصحراء.

«هل كان يستطيع التحدّث إلى الدبابير أيضاً؟»، سألت لالا.

«إلى الدبابير والنحل البرّي، لأنه كان سيّدهم جميعاً، ويعرف اللغة التي تجعلها تألفه. لكنّه كان يعرف أيضاً الغناء الذي يُرسل بواسطته سحب الدبابير والنحل والذباب نحو الأعداء، وكان بإمكانه تدمير مدينة بحالها لو أراد. لكنّه كان عادلاً، ولم يستخدم قواه إلا لفعل الخير».

حكت أيضاً عن الصحراء، الصحراء الكبرى التي تبدأ في جنوب گلميم(*)، شرقي تارودانت(**)، فوق وادي الدرعة. هناك رأتْ لالا النور أسفل جذع شجرة، كما تروي العمّة. في بلاد الصحراء الكبرى، السماء

(*) مدينة تقع في الجنوب الغربي من المغرب. واسمها يعني البحيرة، أُطلق عليها أيضاً اسم: بوّابة الصحراء.

(**) مدينة عريقة تقع في جنوب غرب المغرب، وسط وادي سوس. ومعنى الاسم: ذهب الأبناء.

فسيحة، والأفق لا حدود له، إذ لا شيء يحدّ البصر. الصحراء كالبحر، أمواجها الرياح فوق الرمل القاسي، والأعشاب اليابسة لمتدحرجة زبدها. فيها حجارةٌ مسطّحة، بقع أشنيات، رقائق ملح، وظلالٌ سوداء كالحفر العميقة في الأرض حين تقترب الشمس منها. تحدّثت العمّة مطوّلاً عن الصحراء. هي تحكي، وألسنة اللهب تخبو تدريجياً، فيغدو الدخان خفيفاً وشفّافاً، ويغطّي الجمرَ رويداً رويداً شيءٌ يشبه الغبار الفضّيّ المرتعش.

«... هناك، في الصحراء الكبرى، يمكن أن يسيرِ الناس لأيام ولا يصادفون منزلاً، ولا بئراً، لأنّ الصحراء كبيرة جداً، إلى حدّ لا يمكن لأحد أن يعرفها كلّها. يذهب الناس إلى الصحراء كالسفن في البحر، لا أحد يعرف متى سيعودون. أحياناً، تهبّ العواصف، ليست كتلك التي تحدث هنا، بل عواصفُ رهيبة، تقتلع الرياحُ الرمالَ وتلقيها باتجاه السماء، ويضيع الناس. يموتون غرقى في الرمال، يموتون تائهين كالسفن في العاصفة، تغمر الرمال أجسادهم. كلّ شيء مختلف في تلك البلاد، الشمس ليست كشمسنا، فهي تتّقد على نحوٍ أشدّ، وثمّة أناسٌ يعودون عُمياناً بوجوهٍ محروقة. والبرد في الليل، يُبكي الناس التائهين، يحطّم عظامهم. الرجال أنفسهم، ليسوا كالرجال هنا.. فهُم قساةٌ، يتربّصون بفريستهم كالثعالب، ويقتربون منها بصمت. وهم سود البشرة مثل الحرطاني، يرتدون ملابسَ زرقاء، ويلثمون وجوههم. إنهم ليسوا بشراً، إنهم جنّ، أولاد الشيطان، وهم على صلة معه، إنهم جنسٌ من المشعوذين...».

تذكّرت لالا حينئذٍ الرجل الأزرق من جديد، سيّد الصحراء، الرجل الذي كان يفجّر الماء تحت حجارة الصحراء. العمّة أيضاً، كانت تفكّر به:

«كان الرجل الأزرق كسائر رجال الصحراء. ثم نال بركة الله، فغادر

قبيلته وعائلته ليعيش وحيداً... لكنّه كان يعرف الأمور التي يعرفها أهلُ الصحراء، وأُنعِمَ عليه بالقدرة على شفاء المرضى بيديه. لالا حوّا أيضاً كان لديها تلك القدرة وتعرف تفسير الأحلام، وتعلم بالغيب، وتستطيع العثور على الأشياء المفقودة. عندما عرف الناس أنها من سلالة الأزرق، كانوا يأتون لاستشارتها، وكانت أحياناً تعطيهم ما يطلبون، وأحياناً أُخَر، لا تريد الإجابة...».

نظرت لالا إلى يديها، وحاولت أن تفهم ما فيهما. يداها كبيرتان وقويّتان كأيدي الصبيان، لكنّ جلدهما ناعم وأصابعها طويلة.

«هل أمتلك هذه القدرة أنا أيضاً؟».

بدأت العمّة تضحك. ثم نهضت وتمطّت.

«لا تفكّري في ذلك!» -قالت لها- «اللحم جاهز الآن، يجب أن نضعه في الطبق».

عندما ذهبت العمّة، سحبت لالا حصيرة العيدان، ومدّت الرقائق في الطبق الفخاريّ الواسع، وبدأت تقضم قطعةً من هنا، وقطعةً من هناك. منذ أن خبَت النار، عادت الدبابير بأعداد هائلة. كانت تطنّ بصوتٍ قويّ، ترقص حول يدَيْ لالا، وتعلق بشعرها. لكنّ لالا لا تخشاها، كانت تبعدها بلطف وترمي لها قطعة لحم مدخّن ثانية، فاليوم بالنسبة إليها هو يومٌ استثنائي أيضاً.

في ما بعد، ذهبت باتجاه البحر سالكةً الدرب الضيّق المؤدّي إلى الكثبان. لكنّها لم تصل إلى الماء، بقيت في الجانب الآخر من الكثبان بمنأى عن الرياح، وبحثت عن تجويفٍ في الرمال لكي تستلقي. عندما عثرت على ركن لا تكثر فيه الأشواك والنمل، استلقت على ظهرها،

ذراعاها على طول جسدها وعيناها مفتوحتان على السماء. كان هناك غيومٌ بيضاء كبيرة تنساب، وصوت البحر البطيء يكشط رمل الشاطئ، ما أعذب سماعَه دون رؤيته! وصيحات طيور النورس الفضّيّ وهي تنزلق في الريح، فيومض نور الشمس، وحفيف شجيرات الدغل اليابسة وأوراق الأكاسيا الصغيرة، وخشخشة إبر الصنوبر كصوت الماء. وجاءت أيضاً دبابيرُ تحوم حول يدَيْ لالا بعد أن شمّت رائحة اللحم.

حينئذٍ، حاولت لالا مجدّداً سماع صوت الغناء الغريب النائي، كأنه آتٍ من بلدٍ آخر، يعلو ويخفت صافياً، شبيهاً بصوت الينابيع، شبيهاً بنور الشمس. كانت السماء أمامها تظلم رويداً رويداً، لكنّ الليل يستغرق وقتاً طويلاً لكي يصل، فهذه نهاية الشتاء وبداية موسم النور. كان المغيب رماديّاً في البداية، ثم أصبح أحمر زاخراً بسُحبٍ كبيرة شبيهة برؤوس اللهب. ظلّت لالا مستلقية داخل جحرها الرملي بين الكثبان، دون أن تكفّ عن النظر إلى السماء والسحب. وكانت تسمع فعلاً، من داخل صوت البحر والرياح، في صيحات النوارس الحادّة، التي تبحث عن ملاذ لها في الليل، تسمع الصوت العذب الذي يردّد شكواه، صوتٌ واضح لكنّه متهدّج قليلاً، كأنه كان يعرف أنّ الموت سوف يأتي ويُخمده، لحنٌ نقيّ كالماء الذي نشربه ولا نرتوي منه بعد أيام القيظ اللاهبة. لحنٌ وُلد من السماء والسحب، يتردّد صداه في الرمال والكثبان، يصل إلى كلّ مكان ويرتعش، حتى في أوراق الشوك اليابس. كان يغنّي من أجل لالا، ولها فقط، يحيط بها ويغمرها بمياهه العذبة، يضع يده على شعرها، على جبينها، على شفاهها، ويبثّ لها حبّه، ينزل عليها ويمنحها بركته. حينذاك، استدارت لالا وخبّأت وجهها في الرمال، فقد شعرت أنّ شيئاً ما في

داخلها يتحلحل، يتحطّم، وسالت دموعها بصمت. لم يأتِ أحدٌ ليربّت على كتفيها ويقول لها: «لماذا تبكين يا لالا؟»، لكنّ الصوت الغريب دفع دموعاً ساخنة إلى مآقيها، وحرّك في أعماقها صوراً كانت ساكنة منذ سنين. جرت الدموع فوق الرمال وشكّلت بقعاً صغيرة تحت ذقنها، فعلق الرمل على خدّيها وشفتيها. ثم، بشكلٍ فجائي، كأنّ شيئاً لم يكن. صمت الصوت في عمق السماء. كان قد خيّم ليلٌ بديع، مخمليٌّ أزرق داكن، تلمع فيه النجوم بين سحبٍ تومض بلون فوسفوريّ. ارتجفت لالا كأنها تحت تأثير الحمّى. سارت على غير هدى على طول الكثبان، وسط وميض اليراعات المضيئة. ولأنها كانت تخاف الأفاعي، عادت إلى الدرب الضيّق، تتبع آثار قدميها، وذهبت على مهل إلى المدينة، حيث العيد لا يزال مستمراً هناك.

لالا تنتظر شيئاً ما، شيء لا تدرك ماهيّته على وجه التحديد، لكنّها تنتظر. الأيام طويلة في المدينة، أيام المطر، أيام الرياح، أيام الصيف. في بعض الأحيان، كانت تنتظر مجيء الأيام فحسب، ولكن حين تصل، تدرك أنها ليست الأيام الموعودة. إنها تنتظر، وهذا كلّ ما في الأمر. الناسُ سِمَتُهم الصبر، وقد يقضون أعمارهم كلّها بانتظار شيءٍ ما، ولا يحدث البتّة.

يجلس الرجال أغلب أوقاتهم على حجر تحت الشمس، يغطّون رؤوسهم بطرف العباءة، أو بمنشفة، وينظرون إلى الأمام. إلامَ ينظرون؟ إلى الأفق الترابي، أو إلى الطرقات التي تسير عليها الشاحنات الشبيهة بخنافس ضخمة من كلّ الألوان، أو إلى أخيلة الهضاب الحجرية، والسحب البيضاء السابحة في السماء؟ هذا ما ينظرون إليه. ولا رغبة لديهم في فعل أيّ شيءٍ آخر. النساء ينتظرن أيضاً، يغطّيهنّ السواد أمام مناهل المياه، يقِفْن دون كلام بأقدامٍ حافية تستند إلى الأرض.

حتى الأولاد يعرفون الانتظار. يجلسون أمام دار البقّال وينتظرون، هكذا دون لعبٍ ودون صياح. بين حينٍ وآخر، يقف أحدهم ويذهب ليستبدل بقروشه زجاجةَ مشروب فانتا، أو حفنةً من السكاكر بالنعناع. ينظر الآخرون إليه ولا يتفوّهون بأيّ كلمة.

ثمّة أيامٌ لا يعرفون فيها أين يذهبون، ولا ما سوف يحدث. الناس في

الشارع وعلى جانب الطريق يترقّبون، والأولاد بثيابهم الممزّقة ينتظرون وصول الحافلة الزرقاء، أو مرور الشاحنات الكبيرة التي تجلب الوقود والحطب والأسمنت. لالا تعرف بالضبط صوت الشاحنات. في بعض الأحيان، تذهب وتجلس مع بقية الأولاد فوق كوم الحجارة الجديدة عند مدخل المدينة. عندما تصل إحدى الشاحنات، يلتفت الأولاد كلّهم إلى البعيد ناحية آخر الطريق، هناك حيث يتراقص الهواء فوق الأسفلت وتبدو التلال كالأمواج. كانوا يسمعون صوت محرّك الشاحنة قبل ظهورها بزمنٍ طويل، صوت هديرٍ حادّ يشبه الصفير تقريباً، يقطعه بين حينٍ وآخر زمّورٌ يدوّي يتردّد صداه فوق جدران المنازل. ثم يشاهدون سحابة الغبار الصفراء، يمتزج معها دخان المحرّك الأزرق. تصل الشاحنة الحمراء بأقصى سرعتها على الطريق الأسفلتي. فوق حجرة القيادة مدخنة تُطلق الدخّان الأزرق. الشمس تلمع فوق الواجهة الزجاجية والواقية المعدنية. عجلات المقطورة تنهب الطريق الأسفلتي، وتسير متعرّجة بسبب الرياح قليلاً. وفي كلّ مرّة تنهش فيها من جانبَي الطريق، ترتفع نحو السماء سحابةٌ من الغبار. ثم تعبر أمام الأولاد وهي تطلق الزمامير بأعلى صوتها، فتهتزّ الأرض تحت عجلاتها السوداء الأربع عشرة، ويغطّيهم الغبار ورائحة الوقود المحروق اللاذعة مثل أنفاس حارّة.

يستمر الأولاد في الحديث عن الشاحنة الحمراء لوقتٍ طويل، يحكون قصصاً عنها وعن الصهاريج البيضاء والرافعات الصفراء.

هذا ما يفعلون حين ينتظرون. يذهبون غالباً إلى الطرق وجسور البحر لرؤية الناس الراحلين، أولئك الذين لا يبقون.

ثمّة أيامٌ أطول من غيرها، لأنّ فيها جوعاً. لالا تعرف تلك الأيام جيّداً،

حين لا يبقى مالٌ في المنزل ولا تجد العمّة عملاً في المدينة. حتى سليم السوسي زوج العمّة، لا يعود يعرف من أين يجلب المال، وكلُّ من في البيت يصبح كئيباً، حزيناً، أقرب إلى الشراسة. حينذاك، تبقى لالا خارج البيت طوال اليوم، تذهب أبعدَ ما تستطيع إلى الهضبة الصخرية حيث يعيش الرعيان، وتبحث عن الحرطاني.

والحال هكذا دائماً. حين تشعر برغبةٍ عارمة في رؤيته، يظهر في تجويف أحد الكثبان جالساً فوق حجر، يغطّي رأسه بلفاحٍ أبيض، يراقب الخراف والمِعاز، بوجهه الأسود ويديه الرشيقتين القويّتين كيدَيْ رجلٍ كهل. يتقاسم خبزه الأسمر وحبّات التمر مع لالا، ويعطي بضع كسرات للرُّعاة الذين يقتربون منه. لكنّه كان يفعل ذلك دون تبجّح، كأنْ لا أهمّية لما يعطيه.

تنظر لالا إليه بين حينٍ وآخر، فهي تحبّ وجهه جامد الإحساس، الذي يبدو جانبياً كالعُقاب، والنور الذي يشعّ في أعماق عينيه الداكنتين. الحرطاني أيضاً ينتظر شيئاً ما، لعلّه الوحيد الذي يعرف ماذا ينتظر. لكنّه لا يقول، فهو لا يجيد الكلام بلغة البشر. ولكن يمكن للمرء أن يتكهّن من نظرة عينيه ماذا ينتظر، عمّا يبحث. كأنّ جزءاً من ذاته بقي هناك حيث رأى النور، وراء التلال الصخرية والجبال المغطّاة بالثلوج، في الصحراء الفسيحة، ولا بدّ له أن يعثر على هذا الجزء من ذاته ذات يوم ليكتمل كلّياً.

تبقى لالا مع الراعي النهارَ بطوله، لكنّها لا تقترب منه كثيراً. تجلس على حجر ليس بعيداً عنه وتنظر أمامها، تنظر إلى الهواء الذي يتراقص ويتدحرج فوق الوادي الجافّ، إلى الضوء الأبيض الذي يثير الشرر، إلى حركة الخراف والماعز البطيئة وسط الحجارة البيضاء.

حين تكون الأيام أيام حزنٍ واضطراب، ليس لها سوى الحرطاني ليكون بجانبها، ودون أن يحتاج إلى الكلام. نظرةٌ واحدة تكفي كي يقدّم لها الخبز والتمر دون أن ينتظر شيئاً بالمقابل. بل إنه يفضّل أن يبقى على بعد خطوات، كما تفعل الخراف والماعز، التي لا يملكها أحدٌ على وجه التحديد.

طوال النهار، كانت لالا تصغي إلى صيحات الرعيان وأصوات صفيرهم التي تمزّق الصمت التامّ. حين تعود إلى مدينة الصفيح والورق المقوّى، تشعر بحرّيّةٍ أكبر، ولو أنّ العمّة كانت توبّخها لأنها لم تُحضر معها شيئاً يؤكل.

ذات يوم، اصطحبت العمّة لالا إلى دكان بيع السجّاد الكائن على الضفة الأخرى من النهر، في حيٍّ فقير من المدينة، داخل بيتٍ أبيض واسع زُوِّدت نوافذه الضيّقة بشريطٍ مشبّك. عندما دخلت لالا إلى الغرفة التي تُستخدم مشغلاً، سمعت صوت نول الحياكة. كان هناك عشرون نولاً تقريباً مصطفّة في الغرفة الكبرى، نولاً وراء الآخر في النور الخفيف الحليبي، حيث تومض ثلاثة مصابيح مستطيلة. أمام الأنوال فتياتٌ صغيرات جاثيات، أو جالسات على كراسي صغيرة لا مسند لها ولا ظهر. كنّ يعملن بسرعة، يدفعن المكّوك بين شبكة الخيطان، وهنّ ممسكاتٌ بمقصّاتٍ فولاذية صغيرة يقصصن بها الفتائل ويرصصن الصوف فوق المحبك. كانت أكبرهن سنّاً تبلغ الرابعة عشرة تقريباً، وأصغرهن لا تتجاوز الثامنة على الأغلب. كنّ يعملن دون كلام، حتى إنهن لم ينظرن إلى لالا حين دخلت إلى المشغل مع العمّة وبائعة السجّاد. البائعة اسمها زورا، امرأةٌ طويلة القامة ترتدي لباساً أسود، تحمل على الدوام بيديها البدينتين عصا

مرنة تضرب بها سيقان الفتيات الصغيرات وأكتافهن، من اللواتي يتقاعسن في العمل، أو أيّ فتاةٍ تتحدّث إلى جاراتها.

«هل سبق لها أن عملت؟»، سألت دون أن تلقي نظرةً واحدة على لالا. أجابت العمّة إنها علّمتها الحياكة في الماضي، فأومأت زورا برأسها. كانت تبدو شديدة الشحوب، ربما بسبب ثوبها الأسود، أو لأنها لا تخرج مطلقاً من مخزنها. سارت على مهل صوبَ نولٍ لا يشغله أحد، حيث تتدلّى سجّادةٌ كبيرة بلونٍ أحمر داكن بغرزاتٍ بيضاء.

«عليها أن تُنهي هذه»، قالت.

جلست لالا وبدأت العمل. خلال عدّة ساعات، راحت تعمل في الغرفة الكبيرة المعتمة وهي تكرّر بيديها حركاتٍ آليّة. في البداية، كانت مضطرّة للتوقّف، لأنّ أصابعها تعبت، لكنّها شعرت بنظرة المرأة الطويلة تقع عليها، فاستأنفت العمل على الفور. كانت تعرف أنّ المرأة الشاحبة لن تضربها بالعصا، لأنها أكبر سنّاً من بقيّة الفتيات العاملات. ولكن حين تلتقي نظراتهما، تشعر لالا بشيء أشبه بصدمة في أعماقها، ويلوح في عينيها بريقُ غضب. غير أنّ المرأة البدينة اللابسة السواد كانت تنتقم من الفتيات الأصغر سناً، أولئك الهزيلات والخائفات كالكلبات، بنات المتسوّلين، الفتيات المتروكات، اللواتي لا يملكن شروى نقير ويُقِمن طوال السنة في بيت زورا. بمجرّد تقاعسهن عن العمل، أو إذا تهامَسْن بضع كلماتٍ في ما بينهن، كانت المرأة البدينة الشاحبة تُسارع إليهنّ بخفّة مدهشة، وتسوط ظهورهن بعصاها. لكنّ الفتيات الصغيرات لا يبكين أبداً. لم يكن يُسمع سوى صفير عصاها التي تهوي والضربة المكتومة فوق ظهورهن. كزّت لالا على أسنانها وأحنت رأسها إلى الأرض، كي لا ترى ولا تسمع، لأنها

كانت ترغب في الصراخ وفي ضرب زورا أيضاً. لكنّها لم تتفوّه بكلمة، فقد كان عليها أن تُحضر المال إلى العمّة في البيت. انتقاماً منها، كانت تضع بعض العُقَد المواربة في السجادة الحمراء. مكتبة سُر مَن قرأ

غير أنّ لالا في اليوم التالي لم تعُد قادرةً على التحمّل. وحين بدأت المرأة الشاحبة البدينة بتوجيه الضربات بعصاها لمينا، فتاة في العاشرة من العمر، ضعيفة البنية وفائقة النحول، لأنها كسرت مكّوكها، وقفت لالا وقالت ببرود: «توقّفي عن ضربها!». نظرت زورا إلى لالا لبرهةٍ دون أن تفهم. بان على وجهها البدين الشاحب نظرة غباء، حتى إنّ لالا كرّرت قولها: «توقّفي عن ضربها!».

فجأةً تغيّرت سحنة زورا من شدّة الغضب. وجهت ضربةً قويّة بعصاها على وجه لالا، لكنّ العصا لم تُصِب سوى كتفها الأيسر، لأنها تمكّنت من تفادي الضربة.

«سترين الآن كيف سأضربك!»، صاحت زورا، وقد تلوّن وجهها. «أيتها المرأة الشرّيرة!».

التقطت لالا عصا زورا وكسرتها فوق ركبتها. حينذاك، تغيّر وجه المرأة البدينة من الخوف، وتراجعت وهي تبرطم: «اغربي عن وجهي! غادري فوراً! غادري!».

كانت لالا قد بدأت الركض عبر الصالة الكبيرة، وقفزت نحو الخارج إلى نور الشمس. جرت دون توقّف إلى أن وصلت إلى بيت العمّة. ما أجمل الحرّية! بوسعها أن ترى من جديد السحب المتسلّلة إلى الاتجاه المعاكس، الدبابير المنهمكة حول أكوام القمامة الصغيرة، السحالي، الحرباوات، الأعشاب المرتعشة في الهواء. جلست أمام البيت في ظلّ

حائط الألواح، وراحت تصغي بنهَمٍ إلى كلّ نأمة. عندما عادت العمّة عند المساء، قالت لها بكلّ بساطة: «لن أذهبَ للعمل عند زورا بعد الآن. أبداً!». نظرت إليها العمّة لحظةً، لكنّها لم تقُل شيئاً.

ومنذ ذاك اليوم بالتحديد، تغيّرت الأشياء على أرض الواقع بالنسبة للالا، هنا في المدينة. كأنها أصبحت فتاةً بالغة فجأةً، وصارت محطّ أنظار الناس. حتى أبناء العمّة، ما عادوا كالسابق، قُساةً وساخرين. أحياناً كانت تشعر بنوعٍ من الحزن على الزمن الذي كانت فيه صغيرةً فعلاً، وعلى وجه الخصوص، عندما وصلت إلى المدينة ولا أحد يعرف اسمها، وكان بوسعها الاختباء وراء شجيرة، أو داخل دلو، أن تكون كالظلّ، تروح وتغدو ولا أحد يراها أو يكلّمها.

العجوز نعمان والحرطاني، وحدهما لم يتغيّرا. نعمان الصيّاد مستمرّ في قصّ حكاياته الخيالية وهو يُصلح شباكه على الشاطئ، أو حين يأتي ليأكل فطائر الذرة عند العمّة. لم يعد يصطاد الكثير من الأسماك، لكنّ الناس يحبّونه كثيراً ويدعونه إلى بيوتهم دائماً. عيناه الباهتتان شفّافتان كالمياه، في وجهه خطوط كالخياطة، بسبب التجاعيد العميقة الشبيهة بندوب جراحٍ قديمة.

تصغي إليه العمّة وهو يتحدّث عن إسبانيا، عن مرسيليا، عن باريس، عن تلك المدن كلّها التي شاهدها ومشى فيها وعرف أسماء شوارعها وناسها. تطرح عليه أسئلة، تسأله ما إذا كان أخوه قادراً على مساعدتها، على إيجاد عملٍ هناك. يهزّ نعمان رأسه: «لِمَ لا؟» كان هذا جوابه عن كلّ سؤال، ويعدها بكتابة رسالة لأخيه. لكنّ الرحيل إلى هناك أمرٌ معقّد، يحتاج إلى المال والأوراق. تبقى العمّة ساهمةً في التفكير، تحدّق في

البعيد، تحلم بالمدن البيضاء، حيث الشوارع والبيوت والسيّارات كثيرة. ربما هذا ما كانت تنتظره.

لا تفكّر لالا في الأمر كثيراً، فالأمر سيّان عندها. تنظر إلى عينَيْ نعمان، كأنها عرفت تلك البحار والبلاد والبيوت كلّها بطريقةٍ ما.

والحرطاني أيضاً لا يفكّر في الأمر، فهو كالطفل دائماً، مع أنه طويل القامة وقويّ البنية مثل أيّ رجلٍ بالغ. جسمه نحيلٌ ممشوق، ووجهه نقيّ وأملسُ كقطعة من خشب الأبنوس. ربما لأنه لم يكن يعرف التحدّث بلغة بقيّة البشر. يجلس على الدوام فوق صخرةٍ ويحدّق في البعيد، بثوبه الخيش والقماشة البيضاء المُنزَلة على وجهه. من حوله رعاةٌ سودٌ برّيّون مثله تماماً، يلبسون الأسمال، يثبون من صخرة إلى صخرة وهم يصفّرون. لالا تعشق المجيء إلى هذا المكان المليء بالنور الساطع، هنا، حيث الزمن لا يمرّ. هنا، حيث لا يمكن للمرء أن يكبر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

دخل الرجل إلى بيت العمّة ذات صباحٍ في بداية الصيف. رجلٌ من المدينة يرتدي بدلةً رمادية بلمعانٍ أخضر، وحذاءً من الجلد الأسود يلمع كالمرايا. جاء يحمل معه الهدايا للعمّة ولأبنائها. مرآة كهربائية مدمجة داخل إطار بلاستيكي أبيض، جهاز مذياع لا يزيد حجمه عن حجم علبة الكبريت، أقلام حبر بأغطية مذهّبة، كيس مليء بالسكّر والمعلّبات الغذائية. عندما دخل إلى البيت، صادف لالا عند الباب، لكنّه لمحها سريعاً. وضع الهدايا كلّها على الأرض، وطلبت منه العمّة الجلوس. بحث بعينيه عن كرسيّ، لكنّه لم يجد سوى الوسائد وصندوق الخشب الخاص بلالا حوّا، الذي كانت قد جلبته العمّة من الجنوب مع لالا. وهكذا جلس الرجل على الصندوق، بعد أن مسحه قليلاً براحة يده. وانتظر أن يُقدّم إليه الشاي والحلويات.

عندما علمت لالا أنّ الرجل جاء لطلب يدها للزواج، خافت كثيراً. أحسّت بشيء يشبه الدوار داخل رأسها، وبدأ قلبها يخفق بقوّة. من أخبرها ليس العمّة، إنما بركة، ابن العمة البكر: «قرّرت أمّنا أن تزوّجك منه، لأنه ثريّ جداً».

«ولكن، أنا لا أريد الزواج!»، صاحت لالا.

«لا يحقّ لك الكلام، عليك إطاعة عمّتك!»، قال بركة.

«أبداً! أبداً!»، صاحت لالا وذهبت، عيناها تفيضان بدموع الغضب.

حين عادت إلى بيت العمّة، كان الرجل صاحب البدلة الرمادية ذات اللمعان الأخضر قد رحل، لكنّ الهدايا كانت هناك، بل كان ابن العمّة الصغير يستمع إلى الموسيقا وهو يسند المذياع الترانزيستور إلى أذنه. عندما دخلت لالا، نظر إليها بمكر.

تحدّثت لالا إلى العمّة بقسوة: «لماذا احتفظت بهدايا هذا الرجل؟! لن أتزوّجه!».

قال ابن العمّة هازئاً: «ربما تريد أن تتزوّج الحرطاني!».

«اخرج من هنا!»، قالت العمّة. فخرج الصبيّ ومعه المذياع.

«لا تستطيعين إجباري على الزواج من هذا الرجل!»، قالت لالا.

«سيكون زوجاً صالحاً لك» -قالت العمّة- «إنه ليس في ريعان الشباب، لكنّه ثريّ، ولديه منزل كبير في المدينة، ويعرف الكثير من الناس المتنفّذين. عليك أن تتزوّجيه!».

«أنا لا أريد الزواج أبداً!»

بقيت العمّة صامتةً لبرهة طويلة. عندما بدأت الكلام من جديد، أصبح صوتها أكثر رقّةً، لكنّ لالا بقيت محترسة.

«ربّيتك كابنتي، وأنا أحبّك، وأنت اليوم تريدين أن تجلبي لي العار!».

نظرت لالا إلى عمّتها بغضب، فقد اكتشفت لأوّل مرّة أيّ كاذبةٍ في داخلها. «لا يهمّني» -قالت لها- «لا أريد أن أتزوّج هذا الرجل. ولا أريد هداياه السخيفة!».

أشارت إلى المرآة الكهربائية المنتصبة فوق قاعدتها، وقد وُضعت على الأرض المدكوكة مباشرة: «حتى أنّ لا كهرباء لديك!».

ثم، دون سابق إنذار، طفح بها الكيل. فخرجت من بيت العمّة وسارعت باتجاه البحر. لكنّها هذه المرّة لم تركض في الدرب، بل مشَت على مهل. فاليوم ليس كبقيّة الأيام. بدت لها الأشياء مستهلَكةً وأكثر قتامةً لكثرة ما شاهدتها.

«يجب أن أرحل»، قالت لالا بصوتٍ عالٍ تحدّث نفسها. لكنّها فكّرت على الفور بأنها لا تعرف إلى أين تذهب على وجه التحديد. عبرت إلى الطرف الآخر من الكثبان، وسارت على امتداد الشاطئ الطويل تبحث عن العجوز نعمان. تمنّت لو كان هناك، يجلس كعادته فوق جذع تينةٍ كهلة يُصلح شباكه. سوف تسأله شتّى أنواع الأسئلة بخصوص تلك المدن في إسبانيا ذات الأسماء العجيبة: الجزيرة، مالقة، غرناطة، طرويل، سرقسطة، وعن تلك المرافئ التي تبحر منها السفن الكبيرة الشبيهة بالمدن، والطرقات التي ترحل فيها السيّارات نحو الشمال، والقطارات المغادرة، والطائرات... كانت ترغب في سماعه يتحدّث لساعاتٍ عن الجبال المكسوّة بالثلوج، والأنفاق، والأنهار العريضة كالبحار، والسهول التي تغطّيها السنابل، والغابات الشاسعة، وعلى وجه الخصوص، عن تلك المدن العطرة، حيث القصور البيضاء، والكنائس، والنوافير، والمخازن المتوهّجة بالأنوار. باريس، مرسيليا، وتلك الشوارع كلّها، والمنازل العالية، التي لا تسمح برؤية السماء إلا قليلاً، والحدائق، والفنادق، ومفارق الطرق، حيث يمكن أن تلتقي بأناسٍ قادمين من أصقاع الأرض كلّها.

غير أنّ لالا لم تعثر على الصيّاد العجوز. كان هناك النورسُ الأبيض فحسب، يطير على مهلٍ بوجه الريح، يقوم بانعطافاتٍ فوق رأسها، فتصيح لالا: «هيـــــــــه! هيـــــــــه! أيّها الأمير!».

عبَر الطير الأبيض عدّة مرّاتٍ فوق رأسها، ثم رحل بسرعةٍ يحمله الهواء ناحيةَ النهر. أما لالا فقد بقيت طويلاً على الشاطئ، تصغي إلى صوت الرياح والبحر، ولا شيء آخر.

في الأيام التالية، لم يؤتَ على ذكر شيء في بيت العمّة، والرجل ذو البدلة الرمادية ذات اللمعان لم يعُد. كان جهاز الراديو الصغير قد تعطّل، وعلب الطعام المحفوظ التُهمت كلّها. وحدها المرآة الكهربائية المصنوعة من البلاستيك بقيت في المكان الذي وُضعت فيه، فوق الأرض المدكوكة بالقرب من الباب.

خلال تلك الليالي، لم تنَمْ لالا بهناء، وكانت تجفل من أقلّ صوت. تتذكّر تلك القصص التي تُروى عن فتيات خُطِفْن بالقوّة أثناء الليل، لأنهن لا يرغبن في الزواج. في كلّ صباح، وقبل شروق الشمس، كانت تخرج قبل الجميع كي تغتسل وتذهب لجلب الماء من المنهل. وبهذه الطريقة، كانت تستطيع مراقبة مدخل المدينة.

ثمّ جاءت رياح البلاء التي هبّت على البلاد أياماً عديدة متوالية. ورياح البلاء هذه رياحٌ غريبة، تصل إلى هنا مرّةً أو مرّتين في العام في نهاية الشتاء أو في الخريف. وأغرب ما في الأمر، أن لا أحد يشعر بها في البداية، فهي لا تهبّ بقوّة، وأحياناً تتوقّف كلّياً، وينسون أمرَها. ليست باردةً كرياح العواصف في قلب الشتاء عندما ترتفع أمواج البحر الهوجاء، ولا حارقةً جافّة كالرياح الآتية من الصحراء، والتي تضيء داخل البيوت بنورٍ أحمر وتجعل حبّات الرمال تصرّ فوق سطوح الصفيح والورق المقوّى. كلّا، إنّ رياح البلاء رياحٌ لطيفة جدّاً، تعصف دوّامات وتنطلق في بضع هبّات، ثم تثقل فوق سطوح المنازل وفوق مناكب الناس وصدورهم.

حين تصل إلى هنا، يغدو الهواء أكثرَ سخونةً وثقلاً، ويصبح اللون الرمادي سيّد المكان.

حينما تصل هذه الرياح البطيئة اللطيفة، يقع الناس فريسةَ المرض ويموتون. لهذا السبب يسمّونها رياح البلاء.

عندما بدأت رياح البلاء تهبّ على المدينة في تلك السنة، عرفتها لالا على الفور. شاهدت سحب الغبار الرمادية وهي تتقدّم فوق السهل وتعكّر البحر ومصبّ النهر. في ذلك الوقت، وعلى الرغم من الحرارة، لم يكن الناس يخرجون إلا متدثّرين بعباءاتهم. اختفت الدبابير واختبأت الكلاب داخل حفر عند أسفل جدران البيوت، وطمرت أنوفها في التراب. شعرت لالا بالحزن لأنها كانت تفكّر بأولئك الذين ستأخذهم الرياح معها. ولهذا حين سمعت بمرض العجوز نعمان، انقبض قلبها وتوقّفت أنفاسها لبرهة. لم تكن قد شعرت بمثل هذا الشعور من قبل، وكان عليها أن تجلس كي لا تسقط على الأرض.

ثمّ مشت وركضت حتى منزل الصيّاد. كانت تظن أنها ستجد بالقرب منه أناساً يساعدونه ويعتنون به، لكنّ نعمان كان وحيداً، مستلقياً فوق حصيرته القشّ، يسند رأسه إلى ذراعه. كان يرتجف بقوّة إلى درجة جعلت أسنانه تصطكّ، ولم يتمكّن من النهوض على مرفقيه عندما دخلت لالا إلى منزله. ابتسم قليلاً وازداد بريق عينيه حين عرف لالا. كانت عيناه لا تزالان بلون البحر، لكنّ وجهه النحيل صار بلونٍ أبيض ضارب إلى الرمادي يبعث على الخوف.

جلست لالا بقربه وراحت تتحدّث إليه بصوتٍ يميل للخُفوت. عادةً، هو يروي الحكايات وهي تصغي، ولكن اليوم، كلّ شيء مختلف. تحدّثه

لالا عن أيّ شيء لتهدّئ مخاوفه وتحاول منح الدفء للرجل العجوز. تحكي له ما رواه هو نفسه في الماضي عن تلك الرحلات إلى مدن إسبانيا وفرنسا. تحدّثه عنها، كأنها هي من شاهدت تلك المدن وسافرت في تلك الرحلات الكبرى. تحدّثه عن شوارع الجزيرة، والأزقّة الضيّقة المتعرّجة بالقرب من الميناء، هناك حيث للهواء رائحة السمك، ثم عن محطة القطار وأرصفتها المغطّاة بالبلاط الأزرق، وعن جسور السكك الحديدية الكبرى المحاذية للوهاد والأنهار. تحكي له عن شوارع قادس، والحدائق بأزهارها متعدّدة الألوان، عن أشجار النخيل الباسقة المصطفّة أمام القصور البيضاء، عن الشوارع كلّها، التي تروح فيها الحشود وتجيء، عن السيّارات السوداء والحافلات في انعكاس مرايا الأبنية العالية الشبيهة بجروف المرمر. تحكي عن شوارع المدن كلّها كأنها سارت فيها، عن إشبيلية وقرطبة وغرناطة والمعدن(*) وطليطلة وآرنخويث(**)، وعن المدينة الكبرى التي يمكن أن يضيع فيها المرء لأيّام، مدريد مقصد الناس من أصقاع الأرض كلّها.

كان العجوز نعمان يصغي إلى لالا ولا يقول شيئاً أو يتحرّك، لكنّ عينيه الفاتحتين كانتا تلمعان بقوّة، ولالا تعرف جيّداً أنه يحبّ سماع تلك القصص كثيراً. عندما توقّفت عن الكلام، سمعت ارتعاش جسد الرجل العجوز وصفير أنفاسه، ولهذا سارعت تستأنف الكلام كي لا تسمع تلك الأصوات الرهيبة.

راحت بعد ذلك تتحدّث عن مدينة مرسيليا الفرنسية. عن المرفأ والأرصفة الشاسعة، حيث ترسو السفن من بلاد العالم كلّها. حمولاتٌ

(*) المعدن: مدينة في إسبانيا، اشتهرت بتعدين الزئبق.
(**) آرنخويث: مدينة في وسط إسبانيا، تقع عند ملتقى النهرين: تاجا وخارما.

كبيرة كالقلاع، رافعات شاهقة، صوارٍ أعلى من الأشجار، سفن ركّابٍ ناصعة البياض بآلاف النوافذ لها أسماء مدن غريبة: أوديسّة، ريغا، بيرغن، ليماسول. في شوارع مرسيليا الناس مستعجلون يغذّون السير، يحتشدون أمام المقاهي والمطاعم ودور السينما، السيّارات السوداء تسير في جادّات لا نهاية لها، القطارات تحلّق فوق البيوت على الجسور المعلّقة، الطائرات تُقلع وتدور ببطء في السماء الرمادية فوق المباني والأراضي البور. وعند منتصف النهار، تقرع الكنائس أجراسها، فيرتدّ صدى موسيقاها على امتداد الشوارع والميادين وفي أعماق الأنفاق تحت الأرض. في الليل، تضاء المدينة، أنوارُ المنارات تمسح البحر بريشتها المضيئة، وتبرق أضواء السيّارات. الأزقّة الضيّقة هادئة، واللصوص المسلّحون بالمديات الأميركية يترقّبون المارّة المتأخّرين عند زوايا الأبواب. أحياناً تحدث مشاجراتٌ عنيفة في الأراضي الخالية، أو فوق أرصفة المرفأ في ظلّ الحمولات الهاجعة.

تحدّثت لالا لوقتٍ طويل، وكان صوتها فائق العذوبة، حتى إنّ العجوز نعمان غفا. وعندما نام، توقّف جسده عن الارتعاش وانتظمت أنفاسُه أكثر. عند ذاك، استطاعت الخروج من بيت الصيّاد، فتألّمت عيناها من الضوء في الخارج.

أناسٌ كثر كانوا يتألمون من رياح البلاء. الفقراء، والأطفال الصغار. عندما مرّت أمام بيوتهم، سمعت أنينهم، وأصوات نواح النساء وبكاء الأطفال، فعرفت أنّ هناك من سيموت أيضاً. كانت حزينة، وتمنّت لو أنها بعيدة، في الجانب الآخر من البحر، في تلك المدن التي اختلقتها من أجل العجوز نعمان.

لكنّ الرجل صاحب البدلة الرمادية ذات اللمعان الأخضر عاد. لم يكن يعرف بالتأكيد أنّ رياح البلاء تهبّ على مدينة الصفيح والورق المقوّى. على كلّ حال، الأمر سيّان عنده، لأنّ رياح البلاء لا تصيب أناساً مثله، فهو مُعفَى من البليّة ومن ذلك كلّه.

عاد إلى منزل العمّة وصادف لالا أمام الباب. عندما رأته، خافت وأطلقت صرخةً خافتة، لأنها كانت على يقين بأنه سيعود، وكانت تتوجّس من تلك اللحظة. نظر إليها الرجل بهيئةٍ غريبة. كانت نظرته حادّةً وقاسية، مثل نظرة الناس القياديين، وبشرة وجهه بيضاء وجافّة، وطيف لحيته فوق ذقنه ووجنتيه بلونٍ أزرق. جاء يحمل معه المزيد من أكياس الهدايا. تنحّت عن طريقه حين مرَّ أمامها، ونظرت إلى الرُّزَم. أخطأ الرجل فهم نظرتها، فتقدّم نحوها خطوةً كي يقدّم لها الهدايا. غير أنّ لالا وثبت بأقصى استطاعتها، وراحت تركض دون أن تلتفت، إلى أن أحسّت تحت قدميها برمال الدرب المؤدّي إلى الهضاب الصخرية.

لم تكن لالا تعرف أين ينتهي الدرب. بعينين ممتلئتين بالدموع وقلبٍ منقبض، مشَت بأقصى سرعتها. هنا تشتدّ حرارة الشمس دوماً، كأنّ المكان أقرب إلى السماء. لكنّ الهواء الثقيل لا يهبّ على الهضاب القرميدية والطباشيرية. الحجارة قاسيةٌ بارزة، حادّة كالرماح، الشجيرات سوداء تغطّيها الأشواك، يعلق عليها هنا وهناك كُتلٌ من صوف الخراف المشعّثة. أغصان العشب نفسها، قاطعة كالسكاكين. مشت لالا طويلاً فوق الهضاب. بعضها شاهقٌ وشديد الانحدار، جروفه كالأسوار، وبعضها الآخر صغيرٌ مثل كومٍ من الحصى لا أكثر، كأنّ الأطفال صنعوه.

في كلّ مرّة تصل فيها لالا إلى هذه البقاع، تشعر أنها لم تعُد تنتمي إلى

العالم نفسه، كأنّ الزمان والمكان يصبحان أكبر، كأنّ نور السماء المستعر يدخل إلى رئتيها ويزيدهما اتساعاً، وجسدها بكامله يصبح شبيهاً بجسدٍ عملاق سوف يحيا لزمنٍ طويل وعلى مهلٍ شديد.

دونما استعجال، سارت لالا صعوداً على طول مسار مجرى الماء الجافّ، نحو الهضبة الصخرية الكبرى، هناك حيث يقطن ذاك الذي تدعوه «السرّ».

لم تكن تدرك تماماً لماذا تذهب في هذا الاتجاه، كأنّ هناك اثنتين لالا، واحدة دون بصيرة أعماها الخوف والغضب تهرب من ريح البلاء، وواحدة ثانية، فطِنة تسيّر ساقيها باتجاه مكان السرّ. وهكذا ارتقت الهضبة الصخرية برأسٍ فارغ دون أن تفهم. عثرت أقدامها العارية على الآثار القديمة، التي لم تتمكّن من محوها لا الرياحُ ولا الشمس.

صعدَت الهضبةَ الصخرية بتمهُّل. كانت الشمس تحرق وجهها وكتفيها، تلسع ساقيها ويديها. لكنّها تكاد لا تشعر بها. إنه النور المحرّر، يمحو الذاكرة ويعيدها نقيّةً مثل حجرٍ أبيض. النور الذي يغسل ريح البلاء، ويحرق الأمراض واللعنات.

سارت لالا شبه مغمضة العينين بسبب انعكاس الضوء، التصق ثوبها ببطنها وصدرها وظهرها بسبب التعرّق. لعلّ هذا الكمّ من النور لم يكن له مثيلٌ على وجه الأرض. لم تشعر لالا بمثل هذا العطش في حياتها، كأنها آتيةٌ من وادي الظلمات، حيث يخيّم الموت والظلام على الدوام. الهواء هنا ساكنٌ، يرتعش ويهتزّ في مكانه، وخُيِّل إليها أنها تسمع صوت أمواج الضوء، لحناً عجيباً شبيهاً بطنين النحل.

حين وصلت إلى الهضبة الشاسعة الخالية، هبَّ الهواء عليها مجدّداً،

فبدأتِ تترنّح. هواءٌ باردٌ وقاسٍ لا يتوقّف، أمسك بها وراحت ترتجف في ثيابها المتعرّقة. كان النور مبهراً قوياً، يسطع في الريح فينشر نجوماً فوق رؤوس الصخور. هنا لا عشبٌ ولا شجرٌ ولا ماء، هنا نورٌ ورياحٌ فحسب منذ قرون. لا يوجد دروب ولا آثار بشر. مشت لالا على غير هدى وسط الهضبة الصخرية، حيث لا حياة سوى للعقارب والحريش. إنه مكانٌ لا يرتاده أحد، ولا حتى رعيان الصحراء، وإذا ما جنحت إحدى الماشية إليها، كان الرعيان يقفزون ويصفّرون وهم يقذفونها بالحصى لتعود إلى الوراء.

مشت لالا على مهل، عيناها شبه مغمضتين، تدوس الصخر الحارق بأطراف قدميها العاريتين، كأنها في عالمٍ آخر قريبٍ من الشمس. سارت متوازنةً بشكلٍ غير مستقر، موشكةً على السقوط. تقدّمت في مشيتها، لكنّ القلب منها غائب، أو بالأحرى، كلّ كيانها يتقدّم أمامها، بنظرتها وحواسّها المترصّدة، وحده جسدها كان متأخراً عنها، ولا يزال متردّداً فوق حوافّ الصخور القاطعة.

انتظرت نافدة الصبر ذاك الذي لا بدّ له أن يأتي الآن. إنها تعرف ذلك، يجب أن يحضر. منذ بدأت تركض هرباً من الرجل صاحب البدلة الرمادية، ومن احتضار العجوز نعمان، عرفت أنّ أحداً ينتظرها فوق الهضبة الصخرية، هناك حيث لا وجود للبشر. إنه محارب الصحراء الملثّم بالأزرق، الذي لا تعرف عنه سوى نظرته الحادّة كالنصل. نظر إليها من أعلى الهضاب الصخرية، وجاءت نظرته حتى وصلت إليها، لامستها وجذبتها إلى هنا مباشرةً، دون لفٍّ أو دوران.

الآن، ها هي ذي ساكنةٌ وسط الهضبة الصخرية الشاسعة. لا شيء من

حولها، هذا الركام من الحصى فحسب، وهذا الغبار من النور، والهواء البارد القاسي، وتلك السماء الساطعة الخالية من السُّحب والبخار.

بقيت لالا دون حراك، تقف فوق حجرٍ كبير محدودب قليلاً، حجرٍ قاسٍ وجافّ، لم تقوَ أيُّ مياه على صقله. يلسعها نور الشمس، يرتعش فوق جبينها، فوق صدرها، في بطنها. النور الذي هو بالأساس نظرة.

المحارب الأزرق سيأتي الآن حتماً، لا يمكن أن يتأخّر أكثر. ظنّت لالا أنها سمعت وطء قدميه فوق التراب، فخفق قلبها بقوّة. غلّفتها دوّامات النور الأبيض، دارت ألسنتها حول ساقيها، امتزجت بشعرها، فأحسّت بلسانٍ خشن من اللهب يحرق شفاهها وأجفانها. جرت الدموع المالحة فوق خدّيها، دخلت إلى فمها. سال العرق المالح تحت إبطيها قطرةً قطرة، وخز أضلاعها، انسال جداولَ على طول رقبتها، وبين لوحَيْ كتفَيها. لا بدّ لمحارب الصحراء الأزرق أن يصل الآن، وينظر إليها نظرته الحارقة كنور الشمس.

لكنّ لالا بقيت وحيدةً وسط الهضبة الخالية، تقف فوق حجرها المائل قليلاً. تلسعها الرياح الباردة، الرياح الرهيبة التي لا تحبّ البشر، تهبّ كي تسحجها وتحوّلها إلى غبار. الرياح التي تهبّ هنا لا تحبّ سوى العقارب والحريش والسحالي والأفاعي، وفي أسوأ الأحوال، الثعالب ذات الفراء الناريّ. لكنّ لالا غير خائفةٍ منها، لأنها تعرف أنّ بين الصخور أو في السماء، في مكانٍ ما، توجد نظرة الرجل الأزرق، ذاك الذي تسمّيه: «السرّ»، لأنه مختبئ. هو من سيأتي حتماً، وتنفذ نظرته إلى أعماقها مباشرةً وتمنحها القوّة لتجابه الرجل صاحب البدلة، وموت نعمان القريب. ستحوّلها إلى طير، وتطلقها في عنان الفضاء. ربما ستتمكّن حينئذٍ من

الانضمام إلى النورس الأبيض الكبير الأمير، ذاك الذي يطير فوق البحر ولا يتعب.

حين وصلت النظرة إليها، أحسّت بدُوارٍ رهيب في رأسها، كأنّ موجةً من النور اجتاحته. نظرة «السرّ» أشدّ سطوعاً من النار، بريقها أزرقُ وحارقٌ في الوقت نفسه، مثل بريق النجوم.

انقطعت أنفاس لالا للحظات، وتوسّعت عيناها. جثَت على التراب، أغمضت عينيها وقلبت رأسها إلى الخلف، إذ إنّ هذا النور أثقل عليها بقوّة، نفذ إلى داخلها وجعلها ثقيلةً كالصخرة.

جاء مرّةً أخرى دون أيّ صوت، ينزلق فوق الحجارة الحادّة بلباس محاربي الصحراء القدامى، عباءة صوفية بيضاء واسعة، ولثام أزرق كالليل يغطّي وجهه. نظرت لالا إليه بكلّ قواها وهو يدنو في حلمها، فرأت يديه المخضّبتين بالنِّيلة، والنور المتدفّق من نظرته الداكنة. إنه لا يتكلّم، لا يتكلّم البتّة. يجيد بنظرته الكلام، لأنه يعيش في عالمٍ لا حاجة فيه إلى كلام البشر. حول عباءته البيضاء الواسعة، دوّاماتٌ واسعة من النور الذهبي، كأنّ الرياح كانت ترفع سحباً من الرمال. لكنّ لالا لم تسمع إلا ضربات قلبها، الذي يخفق على أشدّ من مهله، بعيداً جدّاً.

لا تحتاج لالا إلى الكلام. لا تحتاج إلى طرح الأسئلة، ولا حتى إلى التفكير. بعينيها المغمضتين وهي جاثية فوق الرمال، شعرت بنظرة الرجل الأزرق تقع عليها، نفذت الحرارة إلى جسدها وانتشرت في أطرافها، وهذا ما كان رائعاً. حرارة النظرة تدخل إلى كلّ حناياها، تطرد الألم، الحمّى، الدم المتخثّر، كلّ ما يسبب عائقاً أو وجعاً.

السرّ لا يتحرّك. إنه واقفٌ الآن أمامها، أمواج النور تلتفّ وتنزلق حول

عباءته. ماذا يفعل؟ لالا لم تعد خائفة، شعرت بالحرارة تتعاظم في داخلها، كما لو أنها تعبر من وجهها فتضيء جسدَها كلّه.

رأت ما بداخل نظرة الرجل الأزرق. من حولها وإلى ما لا نهاية، الصحراء تتوهّج وتتموّج، حُزمٌ من الشرر، أمواجُ كثبانٍ تتحرّك ببطء نحو المجهول، مدنٌ، حاضراتٌ كبرى بيضاء فيها أبراجٌ رفيعة كجذوع النخيل، قصورٌ حمراء مزيّنة بالأشجار الخضراء، بالنباتات المتسلّقة، بالأزهار العملاقة، بحيراتٌ كبيرة لونها أزرق كالسماء، ماؤها نقيّ قراح لا مثيل له في أيّ مكانٍ على وجه الأرض. كانت لالا في حلم، تحلم وهي مغمضة العينين، رأسها مقلوبٌ إلى الخلف تحت نور الشمس، وذراعاها فوق ركبتيها تشدّان بقوّة. حلمٌ آتٍ من عالم آخر، كان موجوداً هنا فوق الهضبة الصخرية قبلها بزمنٍ طويل، تدخل إليه الآن كما لو أنها نائمة، ويمدّ شاطئه أمامها.

إلى أين يؤدّي الطريق؟ لا تعرف لالا إلى أين. على غير هدى، تحملها رياح الصحراء عند الهبوب، تحرق شفاهها وأجفانها، ساطعةً وقاسية تارةً، باردةً ولطيفة تارةً أخرى. تلك الرياح التي تُبيد البشر وتدحرج الصخور في قعر الجروف، تصل إلى ما لا نهاية، إلى ما وراء الأفق، إلى أبعد من السماء، تصل إلى مجموعات النجوم الثابتة، إلى درب التبّانة، إلى الشمس.

حملتها الرياح إلى دروبٍ لا حدود لها، فوق الهضبة الصخرية الشاسعة، حيث النور يعصف زوابعَ. الصحراء تفرد حقولها القاحلة بلون الرمال، تتناثر فيها الهياكل، مغضّنةً كالجلد الميّت. نظرة الرجل الأزرق هنا في كلّ مكان، في أبعد مكان في الصحراء، ولالا ترى النور من خلال نظرته الآن. أحسّت فوق جلدها بحرارة النظرة، بالريح، بالجفاف، بطعم

الملح في شفتيها. رأت أشكال الكثبان كأنها حيواناتٌ عملاقة هاجعة، وسفوح الحمادة السوداء العالية، ومدينة التراب الأحمر الجافّ الكبيرة. بلادٌ لا بشر فيها ولا مدن، لا شيء يعيق النظرة، لا شيء يعكّر المنظر، هناك حجارةٌ ورمالٌ ورياحٌ فحسب. لكنّ لالا شعرت بالسعادة لأنها عرفت تفاصيل المنظر كلّه، كلّ شجرةٍ يابسة في الوادي الكبير. كأنها مشت هنا في ما مضى، بقدميها العاريتين تحرقهما الأرض، عيناها تحدّقان في الأفق، في الهواء المتراقص. حينذاك، تسارعت خفقاتُ قلبها وازدادت قوّةً، ورأت أمامها العلامات، الآثارَ المفقودة، العيدان المتكسّرة، الأدغال المرتعشة في الريح. وانتظرت. كانت تعرف أنها ستصل عمّا قريب، الأمر وشيكٌ الآن. نظرةُ الرجل الأزرق دليلُها، عبر الصدوع والردم على امتداد المجرى الجافّ. ثم سمعت على نحوٍ مفاجئ تلك الأغنية الغريبة غير الواضحة، بصوتٍ أخنّ يرتجف في البعيد كأنه يخرج من الرمال ذاتها، يمتزج بوقع النور وبهسيس الرياح المستمر فوق الحجارة. اختلجت الأغنية داخل لالا فعرفتها على الفور. إنها أغنية لالا حوّا، تلك التي كانت تغنّيها العمّة وتقول كلماتها: «ذات يوم، آه ذات يوم، سيغدو الغرابُ أبيضَ، ويجفّ البحر. من زهرة الصبّار نأكل العسل، ومن أغصان الأكاسيا نصنع الهودج...». لم تعد لالا تفهم الكلمات، لأنّ هناك من يغنّيها بصوتٍ من زمن سحيق بلغة الشلوح، لكنّ الأغنية كانت تدخل إلى قلبها مباشرةً، وامتلأت عيناها بالدموع، مع أنها أبقت أجفانها مطبقة بكلّ قواها.

استمرّ اللحن لمدة طويلة. وأخذ يهدهدها طويلاً حتى أضحى للحصى فوق رمال الصحراء ظلالٌ مستطيلة. حينئذٍ لمحت لالا المدينة الحمراء أيضاً في آخر الوادي الكبير الشاسع. مدينة ليست كتلك المدن التي تعرفها

في الحقيقة، فيها شوارعُ وبيوتٌ، بل مدينةٌ من الطين، قوّضها الزمن وأبلَتها الرياح، شبيهةٌ بأعشاش مستعمرات النمل أو الدبابير. النور فوق المدينة الحمراء رائع، يشكّل قبّةً دافئة، صافيةً ونقيّة في سماء الفجر الأبديّ. تتكوّم المنازل عند فوهة البئر، وثمّة أشجار أكاسيا بيضاء ثابتة شبيهة بالتماثيل. لكنّ أكثر ما لفت انتباه لالا هو ضريحٌ أبيضُ بسيط كقشرة البيضة يركن فوق الأرض الحمراء. من هناك كان يأتي نور النظرة على ما يبدو، وعرفت لالا أنّ مرقد الرجل الأزرق هناك.

شيءٌ مخيف ورائع الجمال في الوقت نفسه يصل إلى لالا. كأنّ في أعماقها شيئاً يتمزّق ويتحطّم، ويسمح بدخول الموت، بدخول الغريب. تتأجّج نار الصحراء في داخلها، تنتشر في عروقها، تمتزج بأحشائها. نظرة السرّ رهيبةٌ وموجعة، فهي الألم الآتي من الصحراء، هي الجوع والخوف والموت يتدفّق كالأمواج. كان النورُ الذهبي الرائع، والمدينة الحمراء، والضريح الأبيض الأثيريّ الذي ينبعث منه نورٌ يفوق الطبيعة، تحمل، في حناياها، الفاجعةَ والخوف والتخلّي. إنها نظرةُ أسىً طويلة، لأنّ الأرض جاحدةٌ والسماء تخلّت عن البشر.

بقيت لالا ساكنة، متهالكةً على نفسها، ركبتاها فوق الحصى، الشمس تحرق كتفيها وعنقها. لم تفتح عينيها وانسابت الدموعُ كالأخاديد في التراب الأحمر العالق على خدّيها.

وعندما رفعت رأسها وفتحت عينيها، كانت الرؤية مشوّشة، وبذلت جهداً لتستطيع الرؤية بوضوح. ظهرت الخيالات الحادة للتلال، ثم الامتداد الصحراوي للهضبة، حيث لا عشب، ولا شجر. بل الضوء والرياح فحسب.

عندئذٍ عادت للسير مترنّحة، تنزل على مهلها الدرب المؤدّي إلى الوادي باتجاه البحر، إلى مدينة الصفيح والورق المقوّى. الظلال طويلةٌ الآن، الشمس قريبةٌ من الأفق. أحسّت لالا بأنّ وجهها تورّم من حروق الصحراء، وظنّت أن لا أحد سوف يعرفها الآن وقد أصبحت شبه الحرطاني.

عندما وصلت إلى الأسفل بالقرب من مصبّ النهر، كان قد خيّم الليل على المدينة. بدت مصابيح الكهرباء نقاطاً صفراء، والشاحنات التي تسير على الطريق العام توجّه، ببلاهة، أمامها أشعّةَ مصابيحها البيضاء.

راحت لالا تركض تارةً، وتسير على أقلّ من مهلها تارةً أخرى، كأنها تنوي التوقّف لتدور على عقبيها وتتابع الهرب. كان هناك أجهزةُ مذياعٍ تبثّ موسيقا متنوّعة في الليل. النار في المواقد خبَت من تلقاء ذاتها. في بيوت الصفيح المتخلخلة، كانت النساء والأطفال قد التحفوا بأغطيتهم بسبب رطوبة الليل. بين حينٍ وآخر، كان الهواء يدحرج علبة تنكٍ فارغة، أو يضرب قطعة صفيح. الكلاب مختبئة. فوق المدينة، الليل عامرٌ بالنجوم.

سارت لالا في الأزقّة دون أن تُحْدث صوتاً، وفكّرت أن لا أحد يحتاج إليها هنا، وكلّ شيء رائع من دونها، كأنها قد رحلت منذ سنين، كأنها لم تكن هنا قطّ.

بدلاً من الذهاب إلى بيت العمّة، اتجهت نحو الطرف الآخر من المدينة، هناك حيث يعيش نعمان. بدأت ترتجف، فقد كان هواء الليلْ بارداً، واصطكّت ركبتاها، فهي لم تأكل شيئاً منذ عشيّة الأمس. كان نهار لالا طويلاً، هناك في الأعلى فوق الهضبة الصخرية، وشعرت كأنها غادرت منذ أيام، وأشهر ربما. كأنها بصعوبةٍ تتعرّف على شوارع المدينة

وأكواخ الألواح وأصوات أجهزة المذياع وبكاء الأطفال ورائحة البول والغبار. فكّرت لوهلةٍ أنها ربما مرّت في الحقيقة شهورٌ هناك على الهضبة الصخرية، وبدت لها تلك الشهور يوماً واحداً طويلاً. تذكّرت حينئذٍ العجوزَ نعمان، فانقبض قلبها. وعلى الرغم من ضعفها، راحت تركض في شوارع المدينة الخالية. سمعتْها الكلابُ تجري، فبدأت تزمجر وتنبح قليلاً. عندما وصلت أمام منزل نعمان، كان قلبها يخفق بشدّة وتكاد لا تستطيع التنفّس. كان الباب موارباً ولا يوجد نور.

العجوز نعمان نائمٌ فوق حصيرته كما تركته. كان لا يزال يتنفّس ببطءٍ شديد، يطلق الصفير وعيناه مفتوحتان على اتساعهما في العتمة. انحنت لالا فوق وجهه، لكنّه لم يعرفها. كان فمُه منشغلاً بمحاولة أخذ الأنفاس، حتى إنه لم يعد قادراً على الابتسام.

«نعمان.. نعمان!»، همست لالا.

العجوز نعمان خائر القوى. كانت قد أصابته رياح البلاء بالحمّى، تلك التي ترخي بثقلها فوق الجسد والرأس وتمنع المرء من تناول الطعام. لعلَّ تلك الرياح ستودي به. انحنت لالا فوق وجه الصيّاد قلِقةً، وقالت له: «لن ترحلَ الآن؟ ليس الآن، ليس بعد!».

كانت تتمنّى بكلّ جوارحها أن تسمع نعمان يكلّمها، يحكي لها مرّةً أخرى حكاية الطير الأبيض الذي كان أمير البحر، أو حكاية الحجر الذي أعطاه الملاك جبريل للبشر، وأصبح أسود بسبب ذنوبهم. لكنّ العجوز نعمان لم يعد بمقدوره قصّ الحكايا، فلم يعد لديه ما يكفي من القوّة إلّا ليرفع صدره، ليتنفّس، كأنّ ثقلاً هائلاً يجثم على صدره. كان العرق الفاسد والبول يُغرق جسده النحيل الذي بدا محطّماً على الأرض.

كانت لالا متعبة جداً، ولم يعد بوسعها أن تحكي المزيد من الحكايات، والاستمرار في وصف ما يوجد هناك، في الجانب الآخر من البحر، تلك المدن كلّها في إسبانيا وفرنسا.

ولهذا جلست بالقرب من العجوز نعمان، وراحت تنظر إلى نور الليل عبر الباب الموارب. كانت تصغي إلى صفير أنفاسه، تسمع صوت الرياح الخبيثة في الخارج وهي تدحرج علب الأغذية المعدنية الفارغة وتضرب الصفيح. ثم غفَت هكذا، بينما كانت جالسةً تسند رأسها إلى ركبتيها. بين حينٍ وآخر، كان تنفّس العجوز المخنوق يوقظها، فتسأله: «أنت هنا؟ أنت لا تزال هنا؟!».

لكنّه لم يكن يجيب ولا ينام، يميل بوجهه الرمادي نحو الباب، وعيناه البرّاقتان تبدوان لا تريان شيئاً الآن، كأنهما كانتا تلمحان ما في الوراء.

حاولت لالا أن تقاوم النعاس، فقد كانت تخشى ما سيحدث إذا غفَت. كما يحدث للصيّادين التائهين بعيداً في البحر ولا يرون شيئاً، تقذفهم الأمواج، وهم عالقون في دوّامات العاصفة، ولا يجدر بهم النوم أبداً، وإلا سيأخذهم البحر، يرميهم في أعماقه ويبتلعهم. أرادت أن تقاوم، لكنّ جفنَيها أطبقا رغماً عنها، وشعرت أنها سقطت إلى الوراء. سبحت طويلاً، دون أن تعرف إلى أين هي ذاهبة، تحملها أنفاس العجوز نعمان البطيئة.

ثم، قبل أن ينبلج الفجر، استيقظت مجفلةً. نظرت إلى الرجل العجوز الممدّد على الأرض بوجهه الرائق المائل على ذراعه، ولم يعُد يصدر عنه أيُّ صوت الآن، فقد توقّف عن التنفّس. في الخارج، توقّفت الرياح وزال الخطر. كلّ شيء هادئ، كأنّ الموت لم يكن هنا قطّ، ولا في أيّ مكان.

عندما قرّرت لالا الرحيل، لم تخبر أحداً. كانت قد قرّرت الرحيل، لأنّ الرجل صاحب البدلة الرمادية-الخضراء عاد مراراً إلى منزل العمّة، وفي كلّ مرّة، كان ينظر إلى لالا بعينيه البرّاقتين والقاسيتين كالحصى الأسود، يجلس على صندوق لالا حوّا ويشرب كأساً من الشاي بالنعناع. لم تكن لالا تخشاه، لكنّها تعرف أنها إذا لم ترحل، فسوف يقودها بالقوّة إلى منزله كي يتزوّجها، فهو رجلٌ ثريّ ومقتدِر، ولا يحبّ أن يُرفض له طلب.

وهكذا رحلت هذا الصباح قبل شروق الشمس. حتى إنها لم تنظر إلى هيكل العمّة النائمة مدثّرة تحت غطائها في آخر البيت. أخذت معها فقط خرقة قماشٍ زرقاء، وضعت فيها خبزاً بائتاً، وبضع حبّاتٍ من التمر، وسواراً ذهبياً كان لأمّها.

خرجت دون صوت، حتى دون أن توقظ أيّ كلب. مشت حافية القدمين على الأرض الباردة بين صفوف البيوت الهاجعة. السماء أمامها غبشةٌ قليلاً، لأنّ النهار قريب. كان الضباب القادم من البحر قد شكّل غيمةً كبيرة رقيقة تطفو فوق النهر، أحنت ذراعَيها مثلَ طيرٍ عملاق بجناحين رماديّين.

للوهلة الأولى، أرادت لالا أن تذهب إلى بيت نعمان الصيّاد كي تراه للمرّة الأخيرة، فهو الشخص الوحيد الذي حزنَت على فقدانه. لكنّها خافت أن تتأخر، وابتعدَت عن المدينة عبر درب الماعز باتجاه الهضبة

الصخرية. حين بدأت تتسلّق الصخور، شعرت بالهواء البارد يخترقها. هنا أيضاً، لا يوجد أحد. الرعاة لا يزالون نياماً في أكواخ الأغصان بالقرب من الزرائب، لأوّل مرّةٍ تدخل لالا إلى منطقة الهضاب ولا تسمع صفيرهم الحادّ. خافت قليلاً، كأنّ الرياح قد حوّلت الأرض كلّها إلى صحراء. لكنّ نور الشمس كان يظهر شيئاً فشيئاً، في الجانب الآخر من الهضاب، بقعةً حمراء وصفراء تمتزج بلون الليل الرمادي. سُرّت لالا برؤيتها، وظنّت أنها ذاهبة إلى هناك بعد قليل، إلى المكان الذي يسلّط فيه النور الأوّل بقعةً كبيرة في السماء والأرض.

تزاحمت الأفكار في رأس لالا قليلاً بينما كانت تسير فوق الصخور، فهي تعرف أنها لن تعود إلى المدينة البتّة، ولن ترى بعد الآن كلّ ما كانت تحبّه، السهل الواسع القاحل، الشاطئ الأبيض الطويل، الذي تتعاقب عليه الأمواج موجةً وراء موجة. شعرت بالحزن حين فكّرت بالكثبان الساكنة، حيث اعتادت الجلوس لمشاهدة السحب السابحة في السماء. لن ترى بعد الآن الطيرَ الأبيض أميرَ البحر، ولا خيال العجوز نعمان جالساً في ظلّ التينة بالقرب من قاربه المقلوب. أبطأت الخُطا قليلاً، فقد تملّكتها رغبةٌ في النظر إلى الوراء للحظة. ولكنّ التلال الصامتة والحجارة الحادّة كانت أمامها، حيث بدأ النور يتلألأ، والدغل الشائك يرتعش بقطرات ندى الليل، وكذلك الذبيبات الخفيفة المستسلمة لهبّات الرياح.

وهكذا سارت دون أن تلتفت، تشدّ إلى صدرها صرّة الخبز والتمر. وعندما وصلت إلى نهاية الدرب، أدركت أنه لم يعُد هناك أناسٌ في الأنحاء. الحجارة حادّة تبرز من الأرض، وكان لا بدّ لها من القفز من صخرةٍ إلى صخرة وهي ترتقي أعلى الهضبة. هنا ينتظرها الحرطاني، لكنّها

لم ترَه بعد. لعلّه يختبئ داخل مغارةٍ من جهة الجرف، في المكان الذي يستطيع أن يراقب منه الوادي كلّه حتى البحر. أو ربما يكون قريباً جدّاً، غاطساً حتى العنق داخل حفرةٍ من الحجر كالثعبان.

إنه كالكلاب البرّيّة، دائم الترصُّد ومستعدٌّ للقفز والفرار. لعلّه لم يعد راغباً في الرحيل اليوم؟ لكنّ لالا قالت له البارحة إنها قادمة، وأشارت إلى السهل البعيد، إلى قالب الطباشير الهائل الذي يبدو كأنه يسند السماء، هناك حيث تبدأ الصحراء. ازداد بريقُ عينيه حينئذٍ، فهو من تراوده الفكرة دائماً منذ كان صغيراً، ولم يكفّ عن التفكير فيها لحظةً واحدة. والأمر واضحٌ للعيان من الطريقة التي ينظر فيها إلى الأفق، محدّقاً بعينيه مادّاً وجهه. والحرطاني لا يجلس البتّةَ، يبقى واقفاً على عقبَيه كمَن يتأهّب للقفز. هو الذي دلَّ لالا على طريق الصحراء، طريق التِّيه، ذاك الذي لا يعود منه أحدٌ البتّةَ، هناك حيث السماء في غاية النقاء والجمال.

كانت الشمس قد أشرقت، وظهرت أمامها مثل قرصٍ ناريٍّ كبير يبهر الأبصار، يرتفع ببطء وهو ينتفخ فوق فوضى الحجارة. لم تبدُ بمثل هذا الجمال من قبل. رغم الألم والدموع المنبجسة من عينيها والجارية على خدّيها، نظرت لالا إليها مواجهةً دون أن يرفّ لها جفن، كما يفعل أمراء البحر، على حدّ قول العجوز نعمان. تغلغل النور إلى أعماقها، ولامس كلّ ما هو خفيّ داخل جسدها، لا سيّما قلبها.

الآن، لم يعُد هناك أيّ آثار تتبعها، وكان عليها أن تعثر على طريقها بين الصخور. راحت تقفز من حجرٍ إلى حجر فوق المجرى الجافّ، وتلتفّ حول جدران الجروف. أعمَت الشمس المتصاعدة بصرها، وصارت تتقدّم في مشيتها على غير هدىً تقريباً، وهي محنيّةٌ إلى الأمام كي لا تقع.

عبرتِ التلال، واحداً تلو الآخر، ثم سارت وسط حقلٍ واسع من الحجارة. لا أحد هنا، على مدّ النظر، لم تكن ترى سوى سهول الحجارة الجافّة وبعضَ خُصلٍ من نبات الفربيون والصبّار. إنها الشمس، هي التي أقفرت الأرض، أحرقتها وأيبستها، ولم يبقَ سوى الحجارة البيضاء وتلك الدُّغَل. لم تعد لالا تنظر إلى الشمس مباشرةً الآن، إنها مرتفعةٌ جدّاً في السماء، وسوف تحرق حدقتَيها بلحظةٍ خاطفة. السماء متوهّجة، زرقاء، تشتعل مثل لسان لهبٍ جبّار، وعلى لالا أن تضيّق عينيها جداً كي ترى أمامها. كلّما ارتفعت الشمس في السماء، كانت الأشياء على الأرض تزداد حجماً وتتشرّب بالنور. الصوت منقطعٌ هنا، لكنّ المرء يظنّ أنه يسمع بين حينٍ وآخر الحصى يتمدّد ويطقطق.

سارت لزمنٍ طويل. كم من الوقت؟ ساعاتٍ لا شكّ، دون أن تعرف إلى أين هي ذاهبة. كانت تسير بكلّ بساطة في الاتجاه المعاكس لظلّها، نحو الطرف الآخر للأفق. هناك جبالٌ حمراء عالية تبدو معلّقةً في السماء، قرى، وربما نهرٌ، بحيراتُ مياهٍ بلون السماء.

فجأةً، ودون أن تعرف من أين جاء، كان الحرطاني يقف أمامها ساكناً، بثوبه الخيش المعتاد، يغطّي رأسه منديلٌ أبيضُ كبير. حين دنت منه لالا، كان وجهه الأسود يشعّ بابتسامة.

«آه، حرطاني! حرطاني!».

عانقته وتعرّفت على رائحة عرقه في ثيابه المغبرّة. هو أيضاً جلب معه القليل من الخبز والتمور في خرقة مبلّلة معلّقة في حزامه.

فتحت لالا صرّتها، اقتسمت القليل من الخبز معه. أكَلا بسرعة دون أن يجلسا، فقد كانا جائعين جدّاً. ثم نظر الراعي الشابّ حوله. كانت عيناه

تتقصّيان نقاط المنظر كلّه، أشبه بطيرٍ جارح لا يرفّ له جفنٌ البتّة. أشار لها إلى نقطة في البعيد عند الأفق، من جهة الجبال الحمراء. وضع راحة يده تحت شفتيه، ليقول لها إنّ في المكان ماء.

تابعا المسير-يتقدّمها الحرطاني، يقفز بخفّة فوق الصخور. حاولت لالا وضع قدميها مكان آثار قدميه. طوال الوقت، كان خيال الصبيّ الرهيف والخفيف أمامها يبدو كأنه يرقص فوق الحجارة البيضاء، تراه كالشعلة، كالطّيف، تسير قدماها تلقائياً على إيقاع الحرطاني.

اشتدّت الشمس، بدأت تلسع رأس لالا وكتفيها، وتُوجع جسدها من الداخل. كأنّ النور الذي دخل إلى أحشائها في الصباح قد بدأ يحرقها ويفيض، فأحسّت بموجاتٍ موجعة طويلة تصعد على طول ساقيها وذراعيها، وتستقرّ في جوف رأسها. نورٌ حارق، جافّ، مغبرّ. ما من نقطة عرقٍ واحدة تسيل على جسد لالا، ثوبها الأزرق يحكّ بطنها وفخذَيها مُحدِثاً حفيفاً كهربائياً. جفّت الدموع في مآقيها، وشكّلَت قشرةُ الملح في زاويتَيْ جفنَيها حُبيباتٍ كريستالية حادّة كحبّات الرمل. أصبح فمها قاسياً وجافاً. مرّرت أطراف أصابعها فوق شفاهها، وظنّت أنّ فمها أصبح كأفواه الجمال، وسوف يكون بمستطاعها عمّا قريب أن تأكل الصبّار ونباتات الشوك دون أن تشعر بشيء.

أما الحرطاني، فقد تابع قفزه من صخرة إلى صخرة دون التفاتة. يبتعد خياله الأبيض الخفيف أكثر فأكثر، شبيهاً بحيوانٍ هارب لا يتوقّف. أرادت لالا اللحاق به، لكنّ قواها خارت. تعثّرت وهي تسير على غير هدى فوق فوضى الحجارة وأنظارها مثبّتة أمامها. كانت قدماها المسحوجتان تنزفان، وبعد أن سقطت مراراً، جرحت ركبتَيها. لكنّها لم تكن تشعر

بالألم كثيراً، كانت تشعر بانعكاس الضوء الرهيب فقط من كلّ حدبٍ وصوب، كأنّ أفواجاً من الحيوانات تتقافز حولها فوق الحجارة: كلابٌ برّيّة، خيول، جرذان، مِعازٌ تثب ببهلوانات عجيبة. هناك أيضاً طيورٌ بيضاء كبيرة: أبو منجل، صقر الجديان، لقلق، تخفق بأجنحتها البرّاقة العملاقة، كأنها تحاول الطيران وتبدأ رقصةً لا تنتهي. أحسّت لالا بهواء أجنحتها على شعرها، ولمحت ارتعاش ريشها الخفيّ في الهواء الكثيف. أدارت رأسها ونظرت إلى الوراء كي ترى تلك الطيور والحيوانات كلّها، حتى تلك الأسود التي لمحَتها بطرف عينها. لكنّها حين نظرت إليها، تلاشت على الفور واختفت كالسراب، كي تعود وتتشكّل مجدداً وراءها.

ثم صار الحرطاني مرئيّاً بصعوبة، خياله الرشيق يرقص فوق الحصى الأبيض كظلٍّ منفصل عن الأرض. توقّفت لالا عن محاولة تتبّع خُطاه، كما لم تعُد ترى سلسلة الجبال الحمراء المعلّقة في السماء، في الطرف الآخر من السهل. لعلّها لم تعُد تتقدّم في المسير؟ كانت قدماها الحافيتان تتعثّران بالحصى، تنسلخان، تعلقان في الحفر. كأنّ الطريق وراءها ينهار دون توقّف، وينساب بين رجلَيها كمياه نهر. ما كان يعبُر بالأخصّ هو النور، ينسكب فوق السهل الشاسع الخالي، يعبر مع الرياح ويمسح المكان. للنور صوتُ الماء، ولالا تسمع خريرَه وليس بوسعها الارتواء. النور آتٍ من قلب السماء، يحترق فوق الأرض في الجبس، في صخر الميكا. بين حينٍ وآخر، وسط غبارٍ بلون المُغْرَة، وبين الحصى الأبيض، كانت ترى حجراً ناريّاً بلون الجمر، حادّاً كالناب. تسير لالا وهي تثبّت نظرها على بريق الحجر، كأنه يمنحها القوّة، أو كأنه علامة تركها لها «السرّ» كي يدلّها على الطريق الذي ستسير فيه. أو إلى البعيد أيضاً، ترى رقاقةً من حجر الميكا شبيهةً بالذهب، تبدو بانعكاساتها كعشٍّ للحشرات،

ويُخيَّل للالا أنها تسمع طنين أجنحتها. ولكن أحياناً، فوق الأرض الترابية، تعثر بالمصادفة على حصاةٍ كروية، جافة ورمادية مثل حصاةٍ بسيطة من حصى البحار، فتنظر لالا إليها بكلّ قواها، تأخذها داخل يدها وتشدّ عليها كي تنجو. الحصاة حارقة، مخطّطة بعروقٍ بيضاء ترسم طريقاً في وسطها، يتشعّب عنها طرقٌ رفيعة أخرى كشعر طفل. حين قبضت لالا على الحصاة، سارت إلى الأمام مباشرةً. كانت الشمس قد مالت إلى المغيب، إلى الطرف الآخر من السهل الأبيض. هبّت ريحُ المساء لبرهةٍ حاملةً معها زوابعَ من الغبار أخفَت الجبلَ الأحمر الكبير عند سفوح السماء.

«حرطاني! حَـــرَ طاااانــــــي!» صاحت لالا وسقطت على ركبتيها فوق الحصى، بعد أن خارت ساقاها وفقدتا القدرة على السير. كانت السماء فوقها خاوية، أكثرَ اتّساعاً، وأشدَّ وحشةً، ولا صوت فيها على الإطلاق.

كان كلّ شيء جليّاً وصافياً، وبوسع لالا رؤية أصغر حصاة، أصغر شجيرة، حتى حدود الأفق. لا شيء كان يتحرّك. تمنّت فعلاً أن ترى الدبابير، إنها تحبّ ذلك، تراها وهي تحبك عُقَداً غير مرئية في الهواء حول شعر الأولاد، أن ترى طيراً، حتى وإن كان غراباً، أو نسراً. ولكن لا شيء على الإطلاق، لا أحد هنا، ظلّها الأسود فقط، يستطيل وراءها مثل حفرةٍ في الأرض ناصعة البياض.

عند ذاك، استلقَتْ على الأرض، وظنّت أنها ستموت بعد قليل، فقد فارقتها قوّةُ جسدِها كلّها، وحسبَت أنّ نار الضوء سوف تحرق رئتيها وقلبها. شيئاً فشيئاً، تضاءل الضوء وغبشت السماء، ولكن، لعلّ الوهن في داخلها هو الذي أطفأ الشمس.

فجأةً، ظهر الحرطاني. كان يقف أمامها على ساقٍ واحدة متوازناً مثل

طير. جاء إليها وانحنى. تكمّشت لالا بثوبه الخشن وراحت تشدّ القماش بكلّ قواها لا تريد أن تتركه، وكادت أن توقع الصبيّ. ركع إلى جانبها. كان وجهه قاتماً، لكنّ عينيه تبرقان بقوّة، تفيضان بانفعالٍ شديد. لمس وجه لالا، جبينها، عينيها. مرّر أصابعه فوق شفاهها المتشقّقة. أشار إلى مكانٍ في السهل الحجري مِن جهة الشمس الغاربة، هناك حيث تُرى شجرةٌ بالقرب من صخرة. الماء، هل هو قريب؟ هل هو بعيد؟ الهواء نقيّ جداً، بحيث يستحيل معرفة ذلك. بذلت لالا جهدها كي تنهض، لكنّ جسدها لم يطاوعها.

«حرطاني، لم أعد أستطيع...» -همست لالا، وهي منطوية على نفسها وتشير إلى ساقيها المسحوجتين- «اذهب! اتركني، اذهب!».

حار الحرطاني، وهو لا يزال جاثياً بالقرب منها. هل سيذهب يا تُرى؟ نظرت إليه لالا دون أن تقول شيئاً. كانت تريد أن تنام، أن تختفي عن الوجود. لكنّ الحرطاني أزلق ذراعيه حول جسمها ورفعها ببطء. شعرت لالا بعضلات ساقيه ترتجف تحت ثقلها، وأحاطت عنقه بذراعيها، حاولت أن تجمع وزنها إلى وزن الحرطاني.

مشى الحرطاني فوق الحصى، قفز بسرعة كأنه لا يحملها. ركض بساقيه الطويلتين المهتزّتين، اجتاز الوهاد، عبَر فوق الصدوع. أوقفَت الشمسُ ورياح الغبار زوابعَها فوق سهل الحجارة، ولكن كان لا يزال هناك حركةٌ خفيفة قادمة من الأفق الأحمر وترمي بشررٍ فوق حجر الصوان. كأنّ قمعاً هائلاً من النور أمامهما، هناك، حيث الشمس تهوي باتجاه الأرض. كانت لالا تصغي إلى قلب الحرطاني يخفق بقوّة في شرايين عنقه، وتسمع أنفاسه اللاهثة.

وصلا قبل الليل أمام الصخرة والشجرة، حيث عين الماء. وهي حفرةٌ بسيطة بين الحصى، فيها مياهٌ رماديّة. وضع الحرطاني لالا برفق على ضفّة المياه، وقدّم لها لتشرب في جوف يده. كان الماء بارداً، لاذعاً قليلاً. ثم انحنى الراعي مجدّداً، وضع رأسه قرب الماء، وشرب طويلاً.

انتظرا الليل، فهو يأتي بسرعة كبيرة هنا، مثل ستارةٍ تُسدَل، دون دخان ودون غيوم ودون استعراض، نور الشمس فحسب، تُطفئه الجبال.

استلقت لالا على الأرض لصق الحرطاني دون حراك، ساقاها منهكتان ممزّقتان، قشرة الدم المتخثّر تحت قدميها شبيهةٌ بالنعل الأسود. في بعض اللحظات، كان الألم يصعد من قدميها، يعبر ساقيها على طول عظامها وعضلاتها، ويصل إلى أعلى فخذيها. كانت تئنّ قليلاً، تكزّ على أسنانها كي لا تصرخ، تشدّ يديها على ذراعي الفتى اليافع. أما هو فلم يكن ينظر إليها، كان ينظر أمامه إلى الأفق، إلى جهة الجبال السوداء، أو لعلّه ينظر إلى سماء الليل الواسعة. أصبح وجهه أشدَّ سواداً بسبب الظلمة. هل كان يفكّر في شيء؟ كانت لالا تودّ أن تصل إلى سريرته كي تعرف ماذا يريد، وإلى أين هو ذاهب... راحت تتحدّث، من أجلها أكثر ممّا هو من أجله. كان الحرطاني يصغي إليها بالطريقة التي تصغي فيها الكلاب، تنتصب آذانها وتتابع نطق كلّ مقطعٍ صوتيّ.

حكت له عن الرجل ذي البدلة الرمادية–الخضراء، عن عينيه القاسيتين والسوداوين كقطع المعدن، ثم عن الليلة التي أمضَتها بالقرب من نعمان، عندما كانت رياح البلاء تهبّ على المدينة.

«الآن وقد اخترتك زوجاً لي، لا أحد بمقدوره أن يختطفني، أو أن يأخذني بالقوّة إلى أمام القاضي كي يتزوّجني.. الآن، سوف نعيش معاً

ونُرزَق بطفل، ولا أحد يريد الزواج مني، هل تفهمني يا حرطاني؟! حتى وإن أمسكوا بنا، سأقول إنك زوجي، وإننا سنرزق بطفل، ولن يستطيعوا منع ذلك. حينئذٍ، سوف يتركوننا أحراراً، وسيكون بمقدورنا الرحيل للعيش في بلاد الجنوب، بعيداً جداً في الصحراء!».

لم تعُد لالا تشعر بالتعب ولا بالألم، كانت منتشيةً بشعور هذه الحرّيّة فحسب، وسط حقل الحجارة في صمت الليل. عانقت جسد الراعي الشاب بقوّة، حتى امتزجت روائحهما وأنفاسهما. بكلّ رقّة، نفذ الصبيّ إليها وجامعها، فسمعت ضربات قلبه المتسارعة على صدرها.

أدارت لالا وجهها باتجاه مركز السماء، ونظرت بكلّ قواها. لفّهما الليل البارد البديع، وضمّهما إلى زرقته الداكنة. لم ترَ لالا في حياتها ليلةً بمثل هذا الجمال. في المدينة، أو على ضفاف البحر، هناك دائماً شيءٌ ما يقف حاجزاً أمام الليل، رطوبةٌ، أو غبار. هناك دائماً غلالةٌ معتّمة، لأنّ البشر في الجوار مع نيرانهم وطعامهم وأنفاسهم. ولكن هنا، كلّ شيءٍ نقيّ. الحرطاني الآن ينام بالقرب منها، وشعورٌ رائع بالدُّوَار يعبرهما ويوسّع أحداقهما.

كان وجه الحرطاني مشدوداً، كأنّ جلد جبينه وخدّيه قُدَّ من حجرٍ مصقول. شيئاً فشيئاً، عمَرَت السماء بالنجوم فوقهما، بآلاف النجوم. كانت تتلألأ ببريقٍ أبيض، تنبض، تُظهر وجهيهما المخفيّين، وكان الفارّان اليافعان ينظران إليها دون أن يتنفّسا تقريباً، يفتحان أعينهما على اتساعها. شعرا فوق وجهيهما بارتسام الكواكب كلّها، كأن لا وجود لها سوى من خلال نظرتهما، كأنهما كانا يعبّان من نور الليل الحنون. ما عادا يفكّران في أيّ شيء، لا في طريق الصحراء، ولا في آلام الغد، ولا في الأيام الأخرى،

ما عادا يشعران بجراحهما، ولا بالجوع أو بالعطش، ولا بأيّ شيءٍ أرضيّ، حتى إنهما نسيا حروق الشمس التي سوّدت وجهيهما وجسديهما، والتهمت داخل أعينهما.

كان نور النجوم ينهمر عليهما كالمطر، دون صوت، لا يهيّج غباراً ولا يثير رياحاً. كان يضيء حقل الحجارة، وبالقرب من فوهة البئر، أمسَت الشجرةُ اليابسة خفيفةً وهزيلةً كالدخان. لم تعُد الأرض مسطّحةً، استطالت كمقدّمة قارب، وها هي ذي تنزلق متهاديةً منسابة، تسير على مهلٍ وسط النجوم الرائعة، بينما كان الولدان، يعانق أحدهما الآخر، ويمارسان الحبّ بكلّ خفّة.

وفي كلّ لحظة، كان يظهر نجمٌ جديد، صغير يكاد لا يُرى في الظلام، تتشابك خيوط أنواره الخفيّة مع غيرها. غاباتٌ من الأنوار: رمادية، حمراء، بيضاء، تمتزج بزرقة الليل الداكنة وتتجمّد كفقاعات.

في ما بعد، وبينما كان الحرطاني غافياً بهناء، ووجهه على صدرها، كانت لالا تتابع الإشارات كلّها، ومضات الأنوار كلّها، كلّ ما يخفق أو يرتعش، أو يبقى ساكناً كالعيون. وفي الأعالي أيضاً، فوقها تماماً، دربُ التبّانة العظيم، الطريق الذي رسمه دمُ حَمَلِ جبريل، حسب رواية العجوز نعمان.

راحت تعبّ من النور الشاحب الآتي من مجموعات النجوم، وخُيِّل إليها فجأةً أنها قريبة جداً، كما في الأغنية التي كانت تغنّيها لالا حوّا، يكفي أن تمدّ يدها كي تأخذ من النور الجميل البرّاق، لكنّها لم تتحرّك. يدها الملقاة على عنق الحرطاني تسمع الدم الخافق في شرايينه، ومرور أنفاسه الهادئة. كان الليل قد أطفأ حرارة الشمس وجفافها، ونور المجرّات هدّأ

العطش والجوع والخوف، وفوقَ جلدها كالقطرات علامةَ كلّ نجمٍ من نجوم السماء.

ما عاد الطفلان يريان الأرض الآن، كان أحدُهما يعانق الآخر ويسافران في قلب السماء.

كان كلّ يوم يضيف القليل من الأراضي التي اجتازوها. انقسمت القافلة إلى ثلاث قوافل، تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة ساعتين أو ثلاث ساعاتٍ من المسير. قافلة الأغظف في اليسار بالقرب من سفوح هوا، تتجه نحو سيدي الحاج، وقافلة سعدبو، الابن الثاني للشيخ الأكبر، في أقصى اليمين، تسير عكس اتجاه المجرى الجافّ لنهر جانغ ساكوم، في مركز وادي الساقية الحمراء. في الوسط، وإلى الوراء قليلاً، كان ماء العينين يسير مع محاربيه فوق جمالهم، تليه قافلةُ الرجال والنساء والأولاد، الذين كانوا يدفعون الماشية أمامهم وهم يتبعون سحابة الغبار الأحمر الهائلة المتصاعدة نحو السماء.

في كلّ يوم، كانوا يسيرون في قلب الوادي الشاسع، والشمس تسير فوقهم في الاتجاه المعاكس. إنها نهاية الشتاء، والأمطار لم تُطرِّ الأرض حتى الآن. كان قاع الساقية الحمراء مشقّقاً وقاسياً مثل جلدٍ شائخ. حتى لونه الأحمر، كان يحرق العيون وجلد الوجوه.

في الصباح، وحتى قبل شروق الشمس، كان يُدوّي نداء الدعوة إلى أول صلاة، تليه جلبة المواشي، ثم عبق دخان المواقد في الوادي. في البعيد، أصواتُ جنود الأغظف يبسملون، تردّ عليها أصوات رجال سعدبو. لكنّ الرجال الزرق أتباع الشيخ الأكبر كانوا يصلّون بصمت. عندما تتصاعد أول سحابة غبار أحمر في الهواء، كان الرجال يحثّون الماشية على المسير. كلُّ واحدٍ يحمل حِملَه، ويستأنفون السير فوق أرض لا تزال رماديةً وباردة.

شيئاً فشيئاً، كان النور ينبثق عند الأفق فوق هضاب الحمادة. ينظر الرجال إلى قرص الشمس الساطع الذي ينير قاع الوادي، يضيّقون أعينهم وينحنون قليلاً، كأنهم يريدون مقاومة الألم من وطأة النور المنصبّ على جباههم ومناكبهم.

أحياناً، كان جنود الأغظف وسعدبو يقتربون كثيراً إلى درجة سماع صوت حوافر الخيول وهمهمة الإبل. حينذاك، كانت تتلاقى سحبُ الغبار الثلاث في السماء وتكاد تحجب الشمس.

وإذا ما أصبحت الشمس في السمْت، وهبّت الرياح لتكنس المساحات وترفع أسواراً من الغبار الأحمر والرمال؛ كان الرجال يوقفون القطعان في أنصاف دوائر ويحتمون وراء الجِمال المُقعِية، أو لصق الشجيرات الشوكية. فتبدو الأرض حينذاك شاسعةً كالسماء، خاليةً مثلها وتبهر الأبصار.

وراء جنود الشيخ الأكبر، كان نور يمشي حاملاً زوّادته داخل منديلٍ كبير عقده حول صدره. في كلّ يوم، من الفجر حتى مغيب الشمس، يسير متّبعاً آثار الخيول والرجال، دون أن يعرف إلى أين هو ذاهب، ودون أن يرى أباه أو أمّه أو أخواته. كان يلتقيهم في المساء أحياناً، حين يشعل المرتحلون عيدان النار لصنع الشاي وحساء الجريش. لم يكن يتحدّث إلى أحد، ولا أحد يتحدّث إليه. كأنّ التعب والجفاف أحرقا الكلمات في حلقه.

عندما جاء الليل، ونامت المواشي في حُفرها التي صنعتها داخل التراب، تمكّن نور من مشاهدة الوادي الشاسع المقفر حوله. وحين ابتعد قليلاً عن الخيام، وبقي واقفاً فوق السهل الجافّ، شعر بأنه كبيرٌ مثل شجرة. بدا الوادي لا حدود له، سهلاً من الحجارة والرمال الحمراء لا ينتهي، لم يتبدّل منذ بداية الأزمان. بين مسافةٍ ومسافة، هناك حيث

ترخي رطوبة الوادي بقعاً داكنة غير واضحة المعالم، أخيلة أشجار أكاسيا صغيرة متفحّمة، دغل أشواك، كتل عصاريات مشعّثة، أشجار نخيل قزمة. تبدّت الأرض في ظلمة الليل بلونٍ معدنيّ. تجمّد نور ووقف دون حراك، انتظر أن يحلّ الظلام ويملأ الوادي على مهل، كأنّ الظلام مياهٌ لا تُدرَك باللمس.

في وقتٍ لاحق، وصلت جموعٌ أخرى من البدو وانضمّت إلى جنود ماء العينين. كانوا قد تفاوضوا مع شيوخ القبائل وسألوهم أين يذهبون، ثم سلكوا الطريق نفسه. أصبح العدد بضعة آلاف الآن، يسيرون في الوادي باتجاه آبار الهَوسا، والفَونات، ويورف.

لم يعُد نور يدرك منذ متى بدأت الرحلة. لعلّها لم تدُم سوى يومٍ واحد لا نهاية له، يمضي هكذا، بينما ترتفع الشمس في السماء اللاهبة وتعود للنزول، ولعلّ غيمة الغبار كانت تلتفّ على نفسها وتتدحرج كالموجة. كان رجال أبناء ماء العينين بعيداً في الأمام، لا شكّ أنهم بلغوا قاع الساقية الحمراء الآن، وراء ضريح سيدي محمد مبارك، حيث ينفتح وادي مِسوار الخيالي على هضبة الحمادة. لعلّ خيولهم تتسلّق منحدرات الهضاب الصخرية، ويرون وراءهم وادي الساقية الحمراء الفسيح ينفتح، تعصف فيه زوابعُ سُحبِ مُغرةٍ حمراء من مرور رجال ماء العينين وجيوشه.

كان الرجال والنساء في الرتل الأخير يبطئون الخُطا. بين حينٍ وآخر، يتوقّف نور وينتظر قافلة أمّه وأخواته، يجلس على الحجارة الحارقة، يجمع أطراف عباءته، يطويها فوق رأسه، وينظر إلى الحشود السائرة على الطريق بتمهّل. كان المحاربون الراجلون يمشون منحنين إلى الأمام، وقد سحقتهم الأحمال فوق أكتافهم. منهم من يعكّز على

بندقيته الطويلة أو على رمحه. اسودّت وجوههم، ومع حفيف خطاهم فوق الرمال، كان نور يسمع صوت الألم في أنفاسهم.

في الخلف يأتي الأولاد والرعاة، الذين كانوا يلحقون قطيع الماعز والخراف، ويدفعونه أمامهم وهُم يرمون الحصى، تغطّيهم زوابع الرمال كالضباب الأحمر. كان نور ينظر إلى الأخيلة الغريبة منفوشة الشعر، التي تبدو كأنها ترقص داخل الغبار. النساء بمحاذاة الجمال المجلّلة، بعضهن يحملن أطفالهن داخل عباءاتهن، يسِرْن على مهلٍ بأقدامٍ حافية فوق الأرض الحارقة. كان نور يسمع جليّاً رنينَ عقودهنّ الذهبية والنحاسية، والخلاخل حول كواحلهن. يمشين وهنّ يرنّمن أغنيةً حزينة لا تنتهي، تروح وتجيء كصوت الريح.

ولكن في الخلف تماماً، يأتي أولئك الذين فقدوا القدرة على الاحتمال: العجائز، الأطفال، الجرحى، النساء صغيرات السنّ اللواتي فقدن أزواجهن ولم يعُد يساعدهن أحدٌ في إيجاد الطعام والشراب. كانوا كثراً، يتناثرون على طول الطريق في وادي الساقية، استمرّ وصولهم لساعاتٍ بعد عبور جنود الشيخ. إلى هؤلاء كان نور ينظر بعين الشفقة.

بينما هو واقف على جانب الطريق، كان يراهم يسيرون ببطء، بصعوبةٍ يرفعون أرجلهم التي أثقلها التعب. وجوهٌ رمادية هزيلة، عيونٌ تبرق من الحمّى، شفاهٌ نازفة، فوق أياديهم وصدورهم آثارُ جروحٍ امتزج فيها الدمُ المتخثّر بالغبار الذهبي. تسوطهم الشمس كما تسوط حجارةَ الطريق الحمراء، ضرباتٍ حقيقية يتلقّونها. النساء دون أحذية، احترقت أقدامهن الحافية من الرمال وتآكلت من الملح. ولكن أشدَّ ما كان يؤلم فيهم ويولّد ضيق النفس والشفقة، هو صمتُهم. لا أحد منهم كان يتكلّم أو يغنّي. لا أحد منهم كان يبكي أو يئنّ. جميعهم: النساء، الرجال، الأطفال

بأقدامهم المضرّجة بالدماء، كانوا يسيرون كالمهزومين دون أن يصدر عنهم أيُّ صوت، ولا ينطقون بكلمة. كان يمكن سماع وطء أقدامهم في الرمال، ولهاث أنفاسهم القصيرة. ثم يبتعدون على مهل، تتأرجح أحمالهم عند أسفل ظهورهم، أشبه بحشراتٍ غريبة عجيبة خرجت بعد العاصفة.

كان نور يظلّ واقفاً على جانب الطريق، يضع حمله عند قدميه. بين حينٍ وآخر، عندما يسير باتجاهه جنديٌّ جريح أو امرأةٌ عجوز، كان يحاول التحدّث إليهم، يدنو منهم ويقول: «السلام عليكم، السلام عليكم! يبدو عليك التعب كثيراً، هل تريدني أن أساعدك في حمل أحمالك؟». لكنّهم كانوا يظلّون صامتين ولا ينظرون إليه، وجوههم قاسية كحجارة الوادي، واجمة من الألم والضوء.

وصلت زمرةٌ من رجال الصحراء، محاربون من شنقيط تمزّقت عباءاتهم الزرقاء السماوية، سيقانهم وأقدامهم مضمّدة بخِرَقٍ ملطّخة بالدماء. لم يكن هؤلاء الرجال يحملون شيئاً، ولا حتى كيس أرزّ أو قربة ماء. لم يكن معهم سوى بنادقهم ورماحهم، يسيرون بمشقّة كالعجائز والأطفال.

كان أحدهم ضريراً، يمسك بأذيال عباءات الآخرين، يترنّح فوق حجارة الطريق، يتعثّر بجذور الدغل الشائكة. عندما وصل بمحاذاة نور وسمع صوت الفتى الذي يحيّيهم، أفلت عباءة رفيقه، توقّف وسأل: «هل وصلنا؟».

تابع الآخرون طريقهم، حتى دون أن يلتفتوا. كان لمحارب الصحراء وجهٌ لا يزال فتياً، لكنّ التعب أنهكه، ويعصب عينيه المحترقتين بخرقةٍ قذرة.

قدّم له نور القليل من الماء ليشرب، ورفع أحماله فوق كتفيه، ثمّ وضع يد المحارب على عباءته. «تعال، أنا سأقودك الآن!». استأنفا السير على الطريق نحو سحابة الغبار الأحمر، باتجاه آخر الوادي.

لم يكن الرجل يتكلّم. تشبّثت يده بكتف نور بقوّة حتى أوجعه. في المساء، عندما توقّفوا عند بئر يورف، كان الصبيّ منهوك القوى. وصلوا الآن إلى سفوح الجروف الحمراء، حيث تبدأ نجود هوا البركانية السوداء، والوادي المتجه نحو الشمال.

تجمّعت القوافل كلّها هنا، قوافل الأغظف وسعدبو ورجال الشيخ الأكبر الزرق. في نور الغسق، كان نور يرى آلاف الرجال جالسين على الأرض الجافة، حول فوهة البئر السوداء. همد الغبار الأحمر شيئاً فشيئاً، وعلَت أدخنةُ المواقد في السماء.

بعد أن ارتاح نور، جمع حملَه، دون أن يربطه حول صدره. أمسك يد المحارب الأعمى، وسارا نحو البئر.

شرب الجميع، الرجال والنساء في شرق البئر، والماشية في الغرب. كان الماء عكراً، ممزوجاً بوحل الضفاف الأحمر، لكنّه كان الأعذب على الإطلاق في أعين الرجال، والسماء خاليةٌ من الغيوم تلمع على سطح الماء الأسود، كما يلمع المعدن المصقول.

انحنى نور فوق الماء، وشرب جرعاتٍ طويلة دون أن يأخذ نفساً. جثا الضرير على حافة البئر أيضاً وراح يعبّ هو الظامئ، حتى دون أن يستعين بتجويف يده. عندما ارتوى، جلس على حافة البئر، يتصبّب الماء من لحيته في وجهه الأسمر.

ثم قفلا راجعين نحو الحشود. كانت هذه أوامر الشيخ، إذ لا يجوز أن يبقى أحدٌ بالقرب من الماء منعاً من تعكيرها.

كان الليل ينزل بسرعة من جهة الحمادة، والظلام يتغلغل إلى عمق الوادي، تاركاً رؤوس الحجارة الحمراء فقط في لهب الشمس.

بحث نور قليلاً عن والده ووالدته ولم يرَهما. ربما عاودا الرحيل باتجاه بداية الطريق الشمالي مع جنود الأغظف. اختار مكاناً لقضاء الليل بالقرب من القطعان. وضع حمله، وتقاسم كسرةً من خبز الدُّخن وبعض حبّات التمر مع المحارب الأعمى. أكل الرجل بسرعة، ثم تمدّد على الأرض، واضعاً يديه تحت رأسه. حينئذٍ، تحدّث معه نور ليسأله من يكون. فروى الرجل متمهّلاً بصوته المبحوح قليلاً من كثرة الاقتتال، كلّ ما حدث هناك في البعيد. في شنقيط، بالقرب من بحيرة شنقيط المالحة الكبرى، كيف هاجم الجنود المسيحيون القوافل، وأحرقوا القرى، وأخذوا الأطفال إلى المخيّمات. عندما جاء الجنود المسيحيون من الغرب، من سواحل البحر، أو حين وصل من الجنوب محاربون باللباس الأبيض فوق الجمال، وكذلك رجالٌ سودٌ من النيجر، اضطرّ أهل الصحراء للهروب نحو الشمال. كان قد أصيب في إحدى المعارك بطلقة بندقية وفقد بصره، ولهذا أخذه رفاقه إلى الشمال، إلى مدينة السمارة المقدّسة، لأنهم كانوا يقولون إنّ الشيخ الأكبر يستطيع شفاء الجروح التي يسبّبها المسيحيون، ولديه القدرة على إعادة البصر. أثناء حديثه، كانت الدموع تسيل من أجفانه المطبقة، فقد كان يفكّر في كلّ ما فقده الآن.

«هل تعرف أين نحن الآن؟»، كان هذا سؤاله الدائم لنور، كمن يخشى أن يُترك وحيداً هنا في وسط الصحراء. «هل تعرف أين نحن؟ هل لا نزال بعيدين عن المكان الذي نستطيع أن نتوقّف فيه؟».

«لا» -كان نور يقول- «قريباً سوف نصل إلى الأراضي التي وعدنا

بها الشيخ، هناك لن ينقصنا شيء، هناك سنكون في مملكةٍ من ممالك الله».

لكنّه في أعماق قلبه لم يكن يعرف شيئاً، ويظنّ أنهم لن يصلوا البتّة إلى تلك البلاد، حتى وإن اجتازوا الصحراء، والجبال، وحتى البحر، أو إلى المكان الذي تولد فيه الشمس عند الأفق.

استأنف المحارب الضرير الكلام، ولم يعُد يتحدّث عن الحرب بعدئذٍ. حكى بصوتٍ شبه مسموع عن طفولته في شنقيط، عن طريق الملح برفقة أبيه وإخوته. حكى عن التعليم في مسجد شنقيط، وعن رحلات القوافل العظيمة إلى رحاب الصحراء نحو أدرار(*)، إلى أماكن أكثر بعداً في جهة الشرق، نحو جبال «الهانك»، إلى بئر عبد الملك، هناك حيث الضريح العجائبي. كان يتحدّث عن ذلك برقّة كأنه يغنّي، بينما كان ممدّداً على الأرض، والليل يغمر وجهه وعينيه المحترقتين برطوبة العتمة.

استلقى نور إلى جانبه. تغطّى بعباءته الصوفية، وأسند رأسه إلى صرّة أغراضه. بدأ يغفو مفتوح العينين وهو ينظر إلى السماء ويصغي إلى صوت الرجل الذي يحكي لنفسه فقط.

كانت ليالي الصحراء باردة، لكنّ نور لا يزال يشعر بالحرقة في لسانه وفي شفتيه، كأنّ قِطعاً محمّاة بالنار وُضعت على أجفانه. كانت الرياح تمرّ فوق الصخور، تعصف فوق الكثبان، فيرتجف الرجال من الحمّى داخل أسمالهم. وفي مكانٍ ما وسط هؤلاء المحاربين النيام، كان الشيخ صاحب العباءة البيضاء ينظر إلى الليل ولا ينام، كما كان يفعل منذ أشهر. كانت أنظاره متّجهة صوب خليط النجوم التي تغمر الأرض بضيائها

(*) أدرار: مدينة صحراوية تقع على بعد 1400 كم جنوب غرب العاصمة الجزائر.

المنتشر. في بعض الأوقات، كان يقف ويسير بين الرجال النيام، ثم يعود ليجلس في مكانه، ويشرب الشاي، على مهل، وهو يصغي إلى فرقعة الحطب في الموقد.

على هذا النحو مضت الأيام، لاهبةً وفظيعة، بينما كانت جموع البشر والماشية تسير عكس اتجاه الوادي، نحو الشمال. يتبعون طريق تندوف عبر هضبة الحمادة القاحلة. كان أبناء ماء العينين، ومعهم أقوى الرجال بنيةً، يمتطون الدوابّ للاستطلاع في الوديان الضيّقة لجبال أوركزيز. لكنّه كان طريقاً شاقاً جدّاً على النساء والأطفال، لذلك اختار الشيخ سلوك طريق الشرق.

في مؤخرة القافلة، كان نور يسير ويدُ المحارب الأعمى تشدّ على كتفه. في كلّ يوم، يغدو حمل الطعام أخفّ، وكان يعلم جيّداً أنه لن يكون هناك ما يكفي من الطعام لنهاية الرحلة.

كانوا الآن يسيرون فوق الهضبة الصخرية العظيمة، قريباً جداً من السماء. أحياناً يجتازون صدوعاً كبيرة كالجروح السوداء في الصخر الأبيض، وردم حجارة صغيرة شبيهة بالسكاكين أحياناً أُخَر، أما المحارب الضرير فكان يشدّ بقوّة على كتف نور وذراعه خوفاً من السقوط.

اهترأت نعال الرجال المصنوعة من جلد الماعز، وضمّد الكثير منهم أقدامهم بمِزَقٍ من ملابسهم لإيقاف الدم النازف. أما النساء، فكُنّ يسِرن حافياتٍ، فهن معتاداتٌ منذ طفولتهن، ولكن أحياناً، كانت تغرز حصاة حادّة في لحمهن، فيتأوّهْنَ أثناء المسير.

لم يكن المحارب الضرير يتكلّم أثناء النهار بتاتاً. كان يخفي وجهه الحزين بعباءته الزرقاء، ويغطّي عينيه بعصابة كقلنسوة الصقر. يمشي دون تذمّر، ومذ بدأ نور يقوده، لم يعُد خائفاً من الضياع. في المساء فقط،

عندما كان رجال الأغظف أمامهم في مقدّمة الوادي يصيحون بأصواتهم المنغّمة معلنين إشارة التوقّف، كان المحارب الضرير يسأل، بالقلق نفسه دائماً: «هل نحن في المكان المقصود؟ هل وصلنا؟ قل لي، هل وصلنا إلى المكان الذي سنبقى فيه بشكلٍ نهائي؟!».

كان نور ينظر حوله ولا يرى إلا مساحاتٍ لا نهاية لها من الحجارة والتراب، الأرض لا تزال هي ذاتها تحت السماء. كان ينزع عنه حمله ويقول ببساطة: «لا، ليس هنا».

وهكذا ككلّ مساء، كان المحارب الضرير يشرب جرعاتٍ قليلة من قربة الماء، يأكل شيئاً من الخبز وبضع حبّاتٍ من التمر، ثم يتمدّد على الأرض ويتابع الحديث عن أخبار بلاده، عن مدينة شنقيط الكبرى المقدّسة، بالقرب من بحيرة شِنشان. يتحدّث عن الواحة، حيث المياه خضراء وأشجار النخيل عملاقة تثمر حبّات بلحٍ حلوة كالعسل، والظلال تحفل بغناء العصافير وضحكات الصبايا الذاهبات لنهل المياه في الجرار. يروي ذلك بصوتٍ منغّم قليلاً، كمن يهوّد لنفسه لتهدئة آلامه. في بعض الأحيان، كان رفاقه يأتون ويجلسون بجواره، يتقاسمون الخبز والتمر مع نور، أو يحضرون شاي عشبة الشيح. كانوا يصغون إلى حديث المحارب الضرير المنفرد الطويل، ثم يتحدّثون هم أيضاً عن أرضهم، وعن آبار الجنوب، وأطار، وأوجفت، وتامشكط، وعن مدينة ولاتة الكبرى(*). يتحدّثون بلغةٍ غريبةٍ وعذبة كلغة الصلاة، وجوههم النحيلة بلون المعدن. وعندما تميل الشمس نحو الأفق، وتصبح النجود الصحراوية المقفرة ساطعةً بفعل الضوء، كانوا يجثون لتأدية الصلاة وجباههم في التراب. كان نور يساعد المحارب الضرير على السجود

(*) مدن في موريتانيا.

باتجاه الشرق، ثم يستلقي مدثّراً بعباءته، ويصغي إلى همهمة الرجال إلى أن يغفو.

هكذا عبروا سلسلة جبال أوركزيز وهم سائرون فوق الصدوع ومجاري المياه الجافة. كانت القافلة تمتدّ على طول النجد، من طرف الأفق حتى طرفه الآخر. في كلّ يوم، كانت ترتفع سحابة الغبار الأحمر نحو السماء وتميل مع الهواء. تمشي قطعان الماعز والخراف والإبل في الوسط وتُعمي أبصار الرجال من غبارها. في البعيد وراءهم، الشيوخ والنساء المريضات والأولاد المهملون والمحاربون الجرحى يسيرون تحت الشمس القاسية الجارحة برؤوسٍ محنيّة وأرجلٍ واهنة، مخلّفين وراءهم قطرات دماء أحياناً.

أوّلَ مرة شاهد فيها نور شخصاً يسقط على جانب الطريق دون أيّ صرخة، أراد أن يتوقّف، لكنّ المحاربين الزرق وأولئك الذين يسيرون معه، دفعوه إلى الأمام دون أن يقولوا شيئاً، لأنه لم يعد بالمستطاع مساعدته. لم يعُد نور للتوقّف بعد ذلك. أحياناً كان يرى في التراب شكلَ جسمٍ آدميّ، الساقان مثنيّتان، الذراعان كذلك الأمر كأنه نائم، لرجلٍ عجوز أو امرأة مريضة أوقفَهما التعبُ والمرض هنا على جانب الطريق، كأنّ مطرقةً ضربت رأسيهما من الخلف، بعد أن جفَّ الجسم. حين تهبّ الرياح، كانت تلقي فوق الجثامين حفناتٍ من الرمال وتغطّيها على الفور، دون الحاجة إلى حفر قبر.

كان نور يفكّر بتلك المرأة العجوز التي قدّمت له الشاي، هناك في مخيّم السمارة. لعلّها سقطت هي أيضاً ذات يومٍ بضربة شمس وغطّتها رمال الصحراء. لكنّه لم يُطِل التفكيرَ فيها، كأنّ في كلّ خطوة يخطوها، يموت شخص ويمحو ذكرياته، كأنّ عبور الصحراء لا بدّ أن يقوّض كلّ شيء ويحرق كلّ شيء في ذاكرته، ويجعله صبيّاً آخر. كانت يد المحارب

الضرير تدفعه إلى الأمام، عندما يبطئ التعب ساقيه. لعلّه لو لا هذه اليد المتكئة على كتفه، كان سيسقط هو أيضاً مثنيَّ الساقين والذراعين على جانب الطريق.

تظهر جبالٌ جديدة عند الأفق دائماً، ونجود الحصى والرمال تبدو كالبحر لا نهاية لها. في كلّ مساء، كان المحارب الضرير يسأل نور عندما يسمع صيحات التوقّف: «هل المكان هنا؟ هل وصلنا؟!»، ثم يسأله: «قل لي، ماذا ترى؟». لكنّ نور يجيب بإيجاز: «لا، ليس هنا. ليس هناك سوى الصحراء. علينا السير إلى البعيد».

كان اليأس قد غلب الرجال. حتى محاربو الصحراء، الرجال الزرق أتباع ماء العينين الذين لا يُقهَرون، تعبوا وصارت نظراتهم خجلةً مثل رجال فقدوا إيمانهم.

كانوا يبقون جالسين في مجموعات صغيرة، البنادق ممدودة بين أياديهم دون كلام. عندما كان نور يذهب لرؤية أبيه وأمه لطلب الماء، كان صمتهما أكثر ما يخيفه. بدا الأمر كأنّ وعيد الموت بلغ الناس، ولم تعد لديهم القوّة كي يحبّوا بعضهم بعضاً.

أغلب الناس في القافلة، النساء، الأطفال، كانوا يخرّون على الأرض منهَكين، ينتظرون أن تنطفئ الشمس عند الأفق. حتى إنهم ما عادوا يملكون القوّة من أجل الصلاة، رغم دعوات شيوخ ماء العينين التي كانت تدوّي فوق النجد. كان نور يتمدّد على الأرض، يسند رأسه على حمولته شبه الفارغة، وينظر إلى سماء لا قرار لها تغيّر ألوانها، يصغي إلى صوت المحارب الضرير وهو يدندن.

كان يشعر أحياناً أنّ ذلك كلّه حلم، حلمٌ مُريع لا ينتهي، يراه وهو مفتوح العينين، يأخذه على امتداد دروب النجوم، فوق الأرض الملساء

القاسية كحجرٍ مصقول. تصبح الأوجاع حينئذٍ رماحاً مسلّطة، يسير ولا يدرك ما الذي يمزّقه. كمن يخرج من نفسه تاركاً جسده فوق الأرض المحروقة، جسداً بلا حراك فوق صحراء الحجارة والرمال، مثل بقعةٍ، مثل كومٍ من الملابس القديمة المرمية، وتذهب روحُه لتغامر في السماء الجليدية وسط النجوم، يطوف بلمح البصر الفضاءَ كلّه، فضاء لن تكفيه حياةٌ بأكملها ليتعرّف إليه. كان يرى حينئذٍ مثل سرابٍ منبثق، مدناً رائعة، قصورُها من الحجارة البيضاء، أبراجاً، قباباً، حدائق كبيرة تجري فيها المياه النقية، أشجاراً محمّلة بالفاكهة، مصاطب أزهار، مناهل ماءٍ تجتمع عندها الصبايا بضحكاتهنّ الرقيقة. كان يرى ذلك بوضوح، ينزلق إلى الماء البارد، يشرب سلسبيلاً، يتذوّق من الثمار كلّها، يستنشق العطور. لكنّ أجمل ما يحدث له، هو ذلك اللحن الذي يسمعه حين يغادر جسده. لم يكن قد سمع مثله في حياته، صوت امرأة شابّة تغنّي بلغة الشلوح، أغنيةً رقيقة تتحرّك في الهواء، تعيد وتكرّر طوال الوقت الكلام نفسه هكذا:

«ذات يوم، آه ذات يوم، سيغدو الغرابُ أبيضَ، ويجفّ البحر. من زهرة الصبّار نأكل العسل، ومن أغصان الأكاسيا نصنع الهودج. ذات يوم، آه، ذات يوم، سيغيب السمّ من فمّ الثعبان، والموت من رصاص البنادق، في ذلك اليوم سأهجر حبيبي...».

من أين كان يأتي هذا الصوت، واضحاً وجليّاً وفائق الحلاوة؟ كان نور يشعر بروحه تنزلق إلى مكانٍ بعيد، أبعد من هذه الأرض، أبعد من هذه السماء، إلى بلادٍ سُحبُها سوداء محمّلة المطر، أنهارُها عميقةٌ واسعة، مياهها دفّاقة لا تتوقّف.

«ذات يوم، آه، ذات يوم، ستتوقّف الرياح عن الهبوب في الصحراء، وتحلو حبّات الرمل كالسكّر. تحت كلّ حجر أبيض سأعثر على نبع ماء.

ذات يومٍ، آه، ذات يوم، سيغنّي لي النحل أغنية، في ذلك اليوم سأهجر حبيبي...».

هناك تهدر أصواتُ عاصفةٍ مخيفة، ويسود البردُ والموت.

«ذات يومٍ، آه، ذات يوم، ستشرق الشمس في الليل، وتنسكب غدائر من نور القمر فوق الرمال، سوف تقترب السماء، وألمس النجوم. ذات يوم، آه، ذات يوم، سأرى ظلّي يرقص أمامي، في ذلك اليوم سأهجر حبيبي...».

من هناك جاء النظام الجديد، ذاك الذي طرد الرجال الزرق من الصحراء وزرع الخوف في كلّ الأرجاء.

«ذات يومٍ، آه، ذات يوم، ستظلم الشمس، وينشقّ قلب الأرض، والبحر سيغمر الصحراء. ذات يوم، آه، ذات يوم، لن تبصر عيناي النور، وسيعجز فمي عن نطق اسمك، ويتوقّف عذاب قلبي، في ذلك اليوم سأهجر حبيبي...».

كان الصوت الغريب يبتعد هامساً، وعاد نور يسمع أغنية المحارب الضرير البطيئة الحزينة. كان يتحدّث وحده، ملتفتاً إلى سماء ليس بوسعه أن يراها.

وهكذا، ذات مساءٍ، وصلت قافلة ماء العينين إلى أطراف «الدرعة»، في الجانب الآخر من الجبال. هناك، وبينما كانوا ينزلون باتجاه الغرب، لمحوا أدخنة خيام جنود الأغظف وسعدبو. عندما التقى الرجال، عاد الأمل بعد اليأس. جاء والد نور لملاقاته، وساعده في رفع حمله.

«أين نحن الآن؟ هل وصلنا إلى المكان المقصود؟» سأل المحارب الضرير.

شرح له نور أنهم اجتازوا الصحراء، وليسوا بعيدين عن مقصدهم.

في تلك الليلة، كان هناك شيءٌ شبيه بالاحتفال. لأوّل مرّة منذ زمنٍ طويل، سُمعَ صوتُ القيثارة والطبلات، ولحنُ المزامير المحبّب.

كان الليلُ في الوادي أكثر دفئاً، وهناك عشب للمواشي. تناول نور خبز الدُّخن والتمر مع أبيه وأمه، وأكل المحاربُ الضرير حصّته أيضاً. حدّثهم عن الطريق الذي سلكوه من الساقية الحمراء حتى ضريح سيدي محمد الكنتي. في ما بعد، ترافقوا الطريق معاً، يقودون معهم المحارب الأعمى في حقول الدغل، حتى مجرى نهر الدرعة الجافّ.

كان هناك أعدادٌ غفيرة من الرجال والماشية، فقد انضم إلى رجال قافلة الشيخ الأكبر وقطعانهم: بدو الدرعة، بدو آبار تاسوف، رجال المسيّد، وتكارت، والغابة، وسيدي إبراهيم الأعتامي، كلّ أولئك الذين دفعهم البؤس والخوف من الفرنسيين إلى الهرب من المناطق الساحلية، وعلموا أنّ الشيخ الأكبر ماء العينين في طريقه إلى الجهاد لطرد الغرباء عن أرض المؤمنين.

في تلك الفترة، غابت الحفر التي حفرها الموت في صفوف الرجال والنساء. تبيّن أنّ غالبية الرجال جرحى أو مرضى، وأنّ الأطفال الصغار كانوا يموتون ببطء في أحضان أمهاتهم، بعد أن أحرقتهم الحمّى والتجفاف.

فوق مجرى النهر الأسود الجاف، لم يكن هناك سوى تلك الهياكل السائرة على مهل، وقطعان الماعز والخراف، وأولئك الرجال فوق جمالهم وخيولهم، يسيرون على غير هدى نحو قدرهم.

لأيامٍ وأيام، ساروا عكس اتجاه وادي الدرعة الكبير، فوق سهلٍ قسَتْ رمالُه وتشقّقت كالتراب المشويّ في الفرن، داخل مجرى النهر

الأسود، حيث كانت شمس الظهيرة حين تبلغ السمت تحرق كألسنة النيران. في الطرف الآخر من الوادي، كان رجال الأغظف وسعدبو قد أطلقوا خيولهم على امتداد مجرى ضيّق، وعبر الطريق الذي فتحوه، دخل الرجال والنساء والقطعان. أصبح الآن محاربو ماء العينين في مؤخّرة الركب فوق جمالهم، وكان نور يسير معهم يقود المحارب الضرير. كانت غالبية جنود ماء العينين يسيرون حفاة الأقدام، يتكئون على بنادقهم ورماحهم لتسلّق الوهاد.

في المساء ذاته، بلغت القافلة بئراً عميقة، تلك التي تسمّى عين راترة، عند سفوح الجبال، ليس بعيداً عن عين تركز. ككلّ مساء، كان نور يذهب لإحضار الماء للمحارب الضرير، يتوضّأان ثم يصلّيان. وبعدها، يقضي نور ليلته غير بعيد عن جنود الشيخ. لم يكن ماء العينين ينصب خيمة. كان ينام في العراء كأهل الصحراء، يتدثّر بعباءته البيضاء بكلّ بساطة وهو جالس القرفصاء على بساط سرجه. كان الليل ينزل سريعاً بسبب قرب الجبال العالية. الرجال يرتجفون من البرد. المحارب الضرير لم يعد يدندن بالقرب من نور. ربما لم يكن يجرؤ بسبب وجود الشيخ، أو أنه كان متعباً جدّاً فلا يستطيع الكلام.

بعد أن تناول ماء العينين عشاءه مع المحاربين، أرسل بعض الطعام والشاي إلى نور ورفيقه. الشاي بشكلٍ خاص منحهما القوّة، وفكّر نور أنه لم يسبق أن شرب أطيب منه. كان مفعول الطعام وماء البئر البارد كمفعول النور داخل جسديهما، فقد أعاد إليهما قواهما. كان نور يأكل الخبز وهو ينظر إلى خيال الرجل العجوز الجالس المتدثّر بعباءته البيضاء الواسعة.

بين حينٍ وآخر، كان يأتي إلى الشيخ أناسٌ لطلب البركة. كان يستقبلهم ويُجلسهم إلى جانبه، يقدّم لهم جزءاً من خبزه ويتحدّث إليهم.

ثم يذهبون بعد أن يقبّلوا طرف عباءته. رجالٌ من الدرعة، رعاةٌ بأسمال بالية، نساءٌ باللباس الأزرق يحملن أطفالهن الملفوفين داخل أثوابهن. جميعهم كانوا يطلبون رؤية الشيخ كي يمنحهم شيئاً من القوّة، بريقاً من الأمل، كي يخفّف أوجاع جراح أجسادهم.

في وقتٍ لاحق من الليل، استيقظ نور مجفلاً ووجد المحارب الضرير منحنياً فوقه. كان ضوء النجوم قد جعل وجهه المفعم بالألم لامعاً على نحوٍ غامض. وحين تراجع نور كأنه مرتعب، قال الرجل بصوتٍ منخفض: «هل سيعيد إليّ بصري؟ هل سأتمكّن من أن أرى من جديد؟!».

«لا أدري»، قال نور.

تنهّد المحارب وارتمى على الأرض ورأسه في التراب.

نظر نور حوله. لم يكن هناك أيّ حركةٍ أو أيّ صوتٍ في قاع الوادي وعند سفوح الجبال. الناس نيامٌ في كلّ مكان، يلفّون الأغطية عليهم درءاً للبرد. وحده ماء العينين كان يجلس فوق حصير سرجه، كأنّ التعب لم يُخلَق له. كان ساكناً، عيناه تحدّقان في المنظر الليلي.

حينئذٍ، استلقى نور على جانبه، أسند خدّه على ذراعه وراح يطيل النظر في الرجل الذي كان يصلّي، كأنه رحل مرّةً أخرى في حلمٍ طويل لا ينتهي، حلمٍ أكبر منه يأخذه إلى عالمٍ آخر.

في كلّ يوم، وعند شروق الشمس، يقف الرجال على أرجلهم. يأخذون أحمالهم دون كلام، والنساء يلفُفن الأطفال الصغار إلى ظهورهن. الماشية تقف أيضاً، تضرب الأرض بحوافرها فتنطلق أول الأغبرة في الهواء، ذلك لأنّ أمر الشيخ العجوز وصل إليهم، أمره الذي يعلو مع حرارة الشمس والرياح السكرى.

راحوا يغذّون السير نحو الشمال عبر جبال تايسا الانكسارية، على امتداد دروب لاهبة كسفوح البركان.

أحياناً في المساء، وعندما يدركون إحدى الآبار، كان يسارع للقائهم رجالٌ ونساء من قلب الصحراء بلباسهم الأزرق، يأتون إليهم بالهدايا من تُمورٍ ولبنٍ رائب وخبز الدُّخن. كان الشيخ الأكبر ماء العينين يمنحهم بركته، لأنهم أحضروا أطفالهم الصغار الذين يعانون أمراضاً في البطون أو في العيون. يمسحهم بقليل من التراب الممزوج بلعابه، ويضع يديه على جباههم، ثم ترحل النسوة ويعُدْن إلى الصحراء الحمراء كما أتَيْن. أحياناً، كان يأتي رجالٌ أيضاً، يحملون بنادقهم ورماحهم لينضمّوا إلى الجنود. فلّاحون قساة الوجوه، بشعرٍ أشقر أو أحمر، وعيون خضراء غريبة اللون.

وصلت القافلة إلى واحة نخيل «تايدالت» في الجانب الآخر من الجبال، هناك حيث يبدأ نهر نون وطريق گلميم. ظنّ نور أنهم سيتمكّنون من الاستراحة وإرواء ظمئهم، لكنّ البستان كان صغيراً أكله الجفاف ورياح الصحراء. كانت الكثبان الرمادية الكبيرة قد التهمت الواحة، وأضحت المياه بلون الطين. لم يبقَ في بستان النخيل أحدٌ تقريباً، باستثناء بضعة مسنّين أضناهم الجوع. لذلك رحل جيش ماء العينين في اليوم الموالي، على امتداد النهر الجاف نحو گلميم.

قبل الوصول إلى المدينة، ذهبت جيوش أبناء ماء العينين أولاً. عادوا بعد يومين يحملون الأخبار السيّئة. كان الجنود المسيحيّون قد توقّفوا في مدينة سيدي إفني(*)، ويتجهون نحو الشمال هم أيضاً. مع ذلك، أراد الأغظف الذهاب إلى گلميم لمحاربة الفرنسيين والإسبان،

(*) سيدي إفني: مدينة في المغرب تقع على ساحل المحيط الأطلسي.

لكنّ الشيخ أشار إلى الرجال في خيام السهل وسأله ببساطة: «أهؤلاء هم جنودك؟»، طأطأ الأغظف رأسه حينئذٍ، وأعطى الشيخ الأكبر الأمر بالابتعاد عن گلميم، والاتجاه نحو آيت بوخا، ثم السير عبر الجبال حتى طريق بويزكارن في الشرق.

خلال أسابيع، وعلى الرغم من التعب، تابع الرجال والنساء طريقهم عبر الجبال الحمراء، على امتداد مجاري الأنهار التي جفّت مياهها. الرجالُ الزرق، النساء، الرُّعاة، القطعان، الجِمالُ المحمّلة، الخيّالة، تسلّلوا رغماً عنهم بين كتل الصخور للعثور على معبر فوق ركام الحجارة. وهكذا وصلوا إلى مدينة سيدي أحمد أو موسى(*) المقدّسة، ضريح القدّيس حامي البهلوانات والمشعوذين. استقرّت القافلة في أرجاء الوادي القاحل كلّه، لكنّ الشيخ وأبناءه وحدهم، ومعهم رجال الغظفية، أقاموا في حرم الضريح، بينما كان الرجال الأشراف يأتون لتقديم الولاء لهم. مكتبة سُر مَن قرأ

في ذاك المساء، جرت صلاة جماعية تحت نجوم السماء. تجمّع الرجال والنساء والأطفال حول الضريح المقدّس بالقرب من النيران المشتعلة. لم يقطع الصمت سوى فرقعة الأغصان اليابسة، وكان نور يرى خيال الشيخ النحيل ساجداً على الأرض، يتلو آيات الذكر بصوته الخفيض. لكنّ صلاة هذه الليلة كانت دون صيحات ودون موسيقا، ذلك لأنّ الموت قريبٌ جداً، والتعب أنهك الحناجر. كان هناك ذاك الصوت العذب والواهي كالدخان فقط، ينشد في الصمت. نظر نور حوله، فرأى آلاف الرجال بعباءاتهم الصوفية يجلسون على الأرض،

(*) سيدي أحمد أو موسى: قرية أمازيغية مغربية على اسم الولي، تقع وسط غربي إقليم تزنيت، على الساحل الأطلسي.

تضيئهم النار من وقتٍ إلى آخر، ساكنين دون حراكٍ وصامتين. كانت هذه أعمق الصلوات وأشدّها حزناً يسمعها نور في حياته. لا أحد كان يتحرّك، باستثناء امرأة تُرضع طفلها كي ينام، أو عجوز يسعل بين حينٍ وآخر. في الوادي المحاط بالجروف العالية، لم يكن هناك نسمةٌ واحدة، والنيران ترفع لظاها نحو الأعلى بقوّة. كان الليل جميلاً وجليدياً، مليئاً بالنجوم. ثم بزغ ضوء القمر عند الأفق فوق الجروف السوداء، وبدأ القرص الفضيّ مكتمل الاستدارة يتابع صعوده ساعةً بعد ساعة نحو السمت.

صلّى الشيخ طوال الليل، بينما كانت النيران تخبو واحدةً بعد الأخرى. استسلم الرجال المنهكون للنوم في أماكنهم. لم يبتعد نور سوى مرّةٍ واحدة أو مرّتين للتبوّل وراء الدغل في آخر الوادي. لم يجد للنوم سبيلاً، كأنّ الحمّى كانت تشعل جسده. بالقرب منه، كان أبوه وأمه وأخواته غافين مدثّرين بعباءاتهم، وكان المحارب الضرير نائماً هو أيضاً، رأسه فوق التراب البارد.

بقي نور يراقب الرجل العجوز الجالس بالقرب من الضريح الأبيض، ينشد بصوتٍ خافت في صمت الليل، كمن يهدهد طفلاً.

عندما طلع النهار، استأنفت القافلة الرحيل برفقة رجال من آيت أو موسى، ورجال من الجبال جاؤوا من إيليغ، وتفرميت، وإد أو گوگمار، وإفران، وتيغمي، كلّ من أراد الانضمام إلى ماء العينين في حربه في سبيل مملكة الله.

بقيت أيامٌ كثيرة لعبور الجبال المقفرة، على طول الوهاد ومجاري الأنهار الجافة. في كلّ يوم، كانت تعود الشمس الحارقة والعطش، السماء البيضاء الباهرة، الصخور شديدة الحمرة، الغبار الذي يخنق

الماشية والبشر. لم يعد نور يتذكّر كيف كانت الأرض زمن الاستقرار في مكانٍ ثابت. لم يعُد يتذكّر الآبار، عندما كانت النساءُ يذهبْنَ ليملأن الجِرار بالماء وهنّ يثرثرن كالعصافير. لم يعُد يتذكّر أغنية الرعيان الذين يتركون قطعانهم تشرد، ولا ألعاب الطفولة في رمال الكثبان. كأنه كان يمشي منذ الأزل، يرى بلا انقطاع تلالاً متشابهة، وهاداً، صخوراً حمراء. كانت تمرّ لحظاتٌ يشعر فيها برغبة قوية في الجلوس على جانب الطريق، ليشاهد عبور القافلة الطويلة، وأخيلة الرجال والجمال السوداء في الهواء المرتعش، كأنهم سرابٌ آخذ في الاضمحلال، لكنّ يد المحارب الضرير لم تترك كتفه، وكانت تدفعه إلى الأمام وتجبره على السير.

عند مشارف إحدى القرى، توقّفوا. تناقلوا اسم القرية من رجلٍ إلى رجل، وصار كالأغنية على كلّ الشفاه: «تيغمي، أنزي، أسّاكا، أسرسيف...». بدؤوا السير بمحاذاة نهرٍ حقيقي، يجري فيه خيطٌ من الماء، ضفافه عامرة بأشجار الأكاسيا والأرگان(*)، ثم ساروا في سهل رمليّ شاسع، أبيَض كالملح، نور الشمس فيه يعمي الأبصار.

ذات مساء، بينما كانت القافلة تحطّ الرحال لقضاء الليل، وصل من الشمال فوجٌ من المحاربين برفقة رجلٍ يركب الخيل ويلبس عباءةً بيضاء واسعة. كان هذا الشيخ الكبير الحُسين، الذي جاء لمؤازرة المحاربين وتوزيع الطعام على المسافرين. أدرك الرجال حينئذٍ أنّ رحلتهم شارفت على النهاية، لأنهم وصلوا إلى وادي نهر سوس الكبير، حيث الماء والمرعى للدوابّ، وأراضٍ للرجال كلّهم.

عندما انتشر الخبر بين المسافرين، أحسّ نور بشعور الفراغ والموت

(*) شجرة نادرة للغاية، تنمو بكثرة في جنوب المغرب، وتشتهر بزيتها الذي هو أندر أنواع الزيوت في العالم لكثرة فوائده.

من جديد، كما شعر قبل مغادرة السمارة. كان الناس يروحون ويجيئون راكضين داخل الغبار، يطلقون الصيحات، ينادون بعضهم لبعض: «لقد وصلنا! لقد وصلنا!». كان المحارب الضرير يشدّ بقوّة على كتف نور ويصيح هو أيضاً: «لقد وصلنا!».

لكنّهم لم يصلوا إلى وادي النهر الكبير إلا في غداة اليوم التالي، أمام مدينة تارودانت. ساروا لساعاتٍ عكس اتجاه النهر، يمشون فوق مسارب المياه الخفيفة فوق الحصى الأحمر. على الرغم من وجود المياه في النهر، إلا أنّ الضفاف كانت جافّة وعارية، والأرض صلبةٌ شوَتها الشمسُ والريح.

كان نور يمشي فوق حصى النهر، يجرّ المحارب الضرير. وعلى الرغم من لظى الشمس، كانت المياه باردة، ونبتت بعض الشجيرات الهزيلة وسط النهر، فوق جزرٍ حصوية صغيرة. وكان هناك جذوع أشجارٍ بيضاء كبيرة أيضاً حملتها الفيضانات من الجبل.

نسي نور شعورَ الموت. كان سعيداً لأنه ظنّ أنها نهاية الرحلة هو أيضاً، وأنّ هذه هي الأرض التي وعد بها ماء العينين قبل أن يرحلوا عن السمارة.

كان الهواء الساخن محمّلاً بالروائح، لأنّ الوقت بداية الربيع. كان نور يستنشق هذه الروائح لأول مرة. فوق السواقي حشراتٌ تتراقص، دبابيرُ، ذبابٌ صغير. مضى زمنٌ طويل لم يرَ فيه حيوانات، لهذا كان مسروراً جداً برؤية هذا الذباب وتلك الدبابير. حتى عندما لسعته ذبابة الخيل فجأةً من فوق ملابسه، لم يغضب، واكتفى بإبعادها بيده.

هناك في الجانب الآخر من نهر سوس على الجبل الأحمر، تتكئ تلك المدينة الكبيرة ببيوتها الطينية، تنتصب مثل رؤيا سماوية، خيالية،

كأنها معلّقة بنور الشمس بانتظار رجال الصحراء لتقدِّم لهم الملاذ. لم يرَ نور في حياته مدينةً بهذا الجمال. كانت جدران الحجارة الحمراء العالية تخلو من النوافذ، تتوهّج في نور الشمس الغاربة. تطفو فوق المدينة هالةٌ من الغبار كحبوب الطلع، وتلفّها بسحابتها الساحرة.

توقّف المسافرون في الوادي، في مكانٍ أخفض من المدينة، وراحوا ينظرون إليها طويلاً، بحبٍّ وخوف في الوقت نفسه. الآن، ولأول مرة منذ بداية ترحالهم، شعروا كم كانوا منهكين، ثيابهم ممزّقة، أقدامهم ملفوفة بالخرق الدامية، شفاههم وأجفانهم أحرقتها شمس الصحراء. جلسوا فوق حصى النهر، وبعضهم نصب الخيام، أو بنى مأوى من الأغصان والأوراق. حين شعر ماء العينين بتخوّف الجموع هو أيضاً، توقّف مع أبنائه ومحاربيه عند ضفة النهر.

بدؤوا ينصبون خيام رؤساء القبائل الكبيرة، ويُنزلون الأحمال عن الجِمال. هبط الليل فوق أسوار المدينة، انطفأت السماء، وأمسَت الأرضُ الحمراء داكنةً. وحدها قمم الأطلس العالية، قمّة تيشكا، وقمّة تينورگات، التي يغطّيها الجليد، كانت لا تزال تلمع تحت الشمس، بينما كان الليل يجتاح الوادي. علا نداء صلاة العِشاء في المدينة، صوتٌ يدوّي على نحوٍ غريب كأنه نحيب. سجد المسافرون فوق الحصى هم أيضاً، وبدؤوا الصلاة دون أن يرفعوا أصواتهم، يرافقهم خريرُ الماء الجاري الخافت.

في الصباح، انبهر نور. كان قد نام بلا انقطاع ولم يشعر بالحصى الصغيرة التي ترضّ أضلاعه، ولا ببرودة النهر ورطوبته. عندما استيقظ، شاهد الضباب النازل ببطء على طول الوادي، كأنّ ضوء النهار كان يدفعه أمامه. في مجرى النهر، وسط الرجال النائمين، كانت النساء قد

بدأن التحرّك لنهل المياه، أو لجمع بعض العيدان من أجل النار. وكان الأولاد يبحثون عن القشريات تحت الحجارة المسطّحة.

لكنّ نور تعجّب لدى رؤية المدينة. في هواء الفجر النقي عند سفح الجبال، كانت مدينة تارودانت تُبرز قلعتها. بدَت أسوارها الحجرية الحمراء، بشرفاتها وأبراجها، واضحةً جليّة كأنها نُحتت في صخر الجبل نفسه. كان الضباب الأبيض يعبر أحياناً بين مجرى النهر والمدينة ويُخفيها عن الأنظار تقريباً، فتبدو القلعة كأنها تطفو فوق الوادي، مثل سفينة من الطين والحجارة تنساب متمهّلةً أمام جزر الجبال المكلّلة بالثلوج.

كان نور يتأمل المنظر ولا يستطيع أن يشيح عنه بصره. فالأسوار الشاهقة الخالية من النوافذ خلبت لبّه. شيءٌ غامض ومخيف في تلك الأسوار، كأنّ من يعيش هناك ليسوا بشراً، إنما أرواح خارقة للطبيعة. شيئاً فشيئاً، كان النور يظهر في السماء، ورديّاً في البداية، ثم بلون العنبر، وعلى هذا النحو إلى أن سطع اللون الأزرق في السماء كلّها. كانت فرقعة النور مسموعةً فوق الأسوار الطينية، وفوق السطوح وبساتين البرتقال وواحات النخيل. في الأماكن المنخفضة، كانت الأراضي الجدباء التي تتخلّلها السواقي، بلونٍ أحمرَ يقارب البنفسجيّ.

وقف نور بين رجال الصحراء على الضفة ساكناً دون حراكٍ وسط الصمت، ينظر إلى المدينة الساحرة وهي تستيقظ. ارتفعت الأدخنة الخفيفة في الهواء، وسُمعت جلبة الحياة المألوفة. ضحكات الأطفال، غناء امرأة شابّة، أصواتٌ بدَت كأنها غير واقعية.

في نظر قوم الصحراء الواقفين بلا حراك في مجرى النهر، كانت هذه الأدخنة وهذه الجلبة خيالية، كأنهم في حلمٍ داخل هذه المدينة المحصّنة عند خاصرة الجبل، وتلك الحقول، وواحات النخيل وبساتين البرتقال.

ثم ارتفعت الشمس في السماء وبدأت تشوي حصى النهر. كانت تصل إلى خيام البدو رائحةٌ غريبة، وصعُب على نور التعرّف عليها. ليست رائحة أيام الهروب والخوف اللاذعة والباردة، تلك الرائحة التي كان يستنشقها منذ زمنٍ طويل وهو يعبر الصحراء. إنها رائحة مسكٍ وزيت، نفّاذةً ومُسكِرة، رائحة المواقد التي يشتعل فيها حطب الأَرْز، رائحة الكزبرة والفلفل والبصل.

وقف نور يستنشق تلك الرائحة ولا يجرؤ على التحرّك خوفاً من أن يفقدها، والمحارب الضرير أيضاً أحسّ بتلك السعادة. الرجال كلّهم كانوا يقفون دون حراك وقد اتسعت أعينهم، يتطلعون دون أن يرفّ لهم جفنٌ إلى حدّ الشعور بالألم، إلى سور المدينة الأحمر الشاهق. بقلوبٍ واجفة، كانوا ينظرون إلى المدينة، القريبة جداً والبعيدة في آنٍ واحد، المدينة التي ربما ستفتح لهم أبوابها. كانت ضفاف النهر الحصوية من حولهم ترتعش في حرارة النهار، وهم دون حراكٍ ينظرون إلى المدينة الساحرة. ثم، لأنّ الشمس كانت ترتفع في السماء الزرقاء، بدؤوا يغطّون رؤوسهم بأرفال عباءاتهم واحداً بعد الآخر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الحياة عند العبيد

كانت لالا مستندةً إلى درابزين السفينة، وبدأت تتراءى لها رقعة الأرض الصغيرة عند الأفق كأنها جزيرة. على الرغم من التعب، كانت تنظر إلى اليابسة بكلّ قواها، تحاول تمييز البيوت والشوارع، وحتى أخيلة الناس ربما. بالقرب منها، كان المسافرون مجتمعين عند الدرابزين أيضاً، يصيحون، يلوّحون، يتكلّمون محتدّين، بعضهم ينادي بعضاً بجميع اللغات، من طرف الجسر الخلفي إلى طرفه الآخر. كانوا ينتظرون هذه اللحظة منذ زمنٍ طويل! أطفالٌ ومراهقون كثُر، يحمل كلّ واحدٍ منهم الرقعةَ نفسها معلّقةً على ملابسه، عليها اسمه وتاريخ ميلاده، اسم الشخص الذي ينتظره في مرسيليا وعنوانه. في أسفل الرقعة، توقيع وختم وصليب أحمر صغير داخل دائرةٍ سوداء. لم تكن لالا تحبّ الصليب الأحمر الصغير، فقد كانت تشعر أنه يحرق جلدها من خلال القميص، ويترك أثره شيئاً فشيئاً على صدرها.

عصفت هبّاتُ هواءٍ بارد فوق الجسر، وراح صفيح السفينة يرتجّ بسبب الأمواج الثقيلة. شعرت لالا بألمٍ في معدتها، إذ إنّ الأولاد خلال الليل، عوضاً عن النوم، كانوا يتبادلون علب الحليب المكثّف التي وزّعتها مفوّضية الصليب الأحمر قبل الإبحار. كما أنها، بسبب النقص في عدد الكراسي الطويلة، اضطرّت للنوم على الأرض، في حرارة عنبر السفينة المقرف ورائحة المازوت والشحم، تهزّها ارتجاجات المحرّك. كانت

أول النوارس تحلّق فوق مؤخرة السفينة الآن، تصيح وتصأى، كأنها غضبت حين رأت وصول السفينة. لم تكن تشبه أمراء البحر بتاتاً، فهي بلون رمادي متّسخ، ومناقيرها صفراء، وعيونها تلمع بشراسة.

لم ترَ لالا الفجر. كانت قد غفَت على غطاء العنبر مُسندةً رأسها إلى قطعة كرتون، بعد أن أنهكها التعب. عندما استيقظت، كان الجميع قد سبقوها إلى جسر السفينة، يحدّقون في شريط اليابسة. لم يبقَ في عنبر السفينة إلا امرأةٌ شديدة الشحوب، تحمل بين ذراعيها طفلاً رضيعاً هزيلاً. كان الطفل مريضاً يئنّ بصوتٍ واهن بعد أن تقيّأ على الأرض. عندما اقتربت لالا كي تسأل عن حاله، نظرت إليها المرأة بعينين خاويتين ولم تردّ.

أصبحت اليابسة قريبةً جداً الآن، طافيةً فوق البحر الأخضر تتكدّس فوقها القاذورات. بدأ المطر يهطل فوق الجسر، ولكن لم يحتمِ منه أحد. كان الماء البارد يسري فوق شعر الأولاد المجعّد، وتقف قطرات المطر أسفل أنوفهم. بملابسهم الفقيرة: قمصان رقيقة، سراويل من القماش الأزرق أو تنانير رمادية، ومنهم من ارتدى ثوب الخام التقليدي الواسع. في أقدامهم العارية أحذيةٌ جلدية سوداء واسعة جداً. أما الرجال فقد كانوا يرتدون ستراتٍ قديمة بالية وسراويلَ بادية القصر وقلنسواتٍ صوفية. راحت لالا تنظر إلى الرجال والنساء والأطفال حولها. بدوا تُعساء وخائفين، انتفخت وجوههم وشحبت من التعب، اقشعرّ شعرُ أبدانهم فوق أذرعهم وسيقانهم من البرد. امتزجت رائحة البحر برائحة التعب والخوف، وفي البعيد هناك فوق البحر الأخضر، بدَت الأرضُ كأنّها بقعةٌ حزينة ومتعبة هي أيضاً. كانت السماء غائمة، والغيوم تغطّي أعلى التلال، عبثاً حاولت لالا النظر، لكنّها لم ترَ المدينة البيضاء التي كان نعمان يتحدّث عنها، لم ترَ

القصور، ولا أبراج الكنائس. لم ترَ سوى أرصفة لا نهاية لها بلون الحجارة والأسمنت، أرصفة تُفضي إلى غيرها من الأرصفة. تهادت السفينة التي تحمل المسافرين على مهل في مياه الحوض السوداء. كان فوق الرصيف رجالٌ يقفون ويشاهدون عبور السفينة بغير اكتراث. مع ذلك، بدأ الأولاد يصيحون بأصوات تصمّ الآذان، ويلوّحون بأياديهم، ولكن لا أحد كان يردّ عليهم. استمرّ المطر في الهطول، ناعماً وبارداً. نظرت لالا إلى مياه الحوض، كانت سوداء وقذرة، تطفو عليها النفايات، حتى النوارس لم تكن ترغب فيها.

ربما ليس هناك مدينة؟ راحت لالا تنظر إلى الأرصفة المبلّلة وأشكال سفن الشحن المتوقّفة والرافعات، وفي البعيد قليلاً، المباني البيضاء الطويلة، التي تشكّل جداراً في آخر الميناء. شيئاً فشيئاً، بدأ يخفّ هرج الأطفال على متن سفينة الصليب الأحمر الدولي. بين فينة وأخرى، تُسمع بعض الصيحات، لكنّها لا تدوم. ثمّ بدأ المفوّضون ومعهم الفتيات المرافقات يمشون فوق سطح السفينة، يصيحون بأوامر لا أحد يفهمها. نجحوا في تجميع الأولاد، وبدؤوا نداء الأسماء، لكنّ أصواتهم كانت تضيع في جلبة الجمهرة. «...ماكيل...»، «...سيفار...»، «...كو دي كي...»، «...هامال...»، «...لاغور...».

كان ذلك دون جدوى، إذ لم يردّ أحد. ثم بدأ الكلام يخرج من مكبّر الصوت، كأنه ينبح فوق رؤوس المسافرين، وسرى نوعٌ من الهلع. بعضهم ركض إلى الأمام، وآخرون حاولوا ارتقاء السلالم نحو الجسر العلوي، حيث كان رجال الشرطة يدفعونهم إلى الوراء. في النهاية، هدأ الجميع، لأنّ السفينة كانت قد رسَت وأطفأت محرّكاتها. في رصيف الميناء، كان هناك

قاعةٌ أسمنتية كبيرة قبيحة نوافذها مضاءة. انحنى الأولاد والنساء والرجال فوق درابزين السفينة، علّهم يرون وجهاً مألوفاً بين الناس السائرين هناك في الجهة الأخرى من الغرفة الأسمنتية، والذين بدَوا أكبر من الحشرات بقليل.

بدأت عملية الإنزال، وهذا يعني أنهم سيبقون فوق سطح سفينة الصليب الأحمر الدولية لساعات، بانتظار أن تُعطى أيُّ إشارة. مع مرور الوقت، كان التوتّر يزداد بين الأولاد المجتمعين عند الجسر. بدأ الأطفال الصغار يبكون بأنينٍ متواصل يصمّ الآذان لا يساعد في تحسين الأمور. النساء يطلقن الصيحات، وأحياناً الرجال. جلست لالا فوق كوم من الحبال بالقرب من حقيبتها، بمنأى عن حاجز جسر الضبّاط، وراحت تنتظر وهي تراقب النوارس الرمادية المحلّقة في السماء المكفهرّة.

أخيراً، جاءت لحظة النزول من السفينة. كان المسافرون قد تعبوا جداً من الانتظار، حتى إنهم استغرقوا لحظةً طويلة قبل أن يتحرّكوا. لحقت لالا بالحشد حتى وصلت إلى الغرفة الأسمنتية الكبيرة. كان هناك ثلاثة من عناصر الشرطة، وتراجمة يطرحون الأسئلة على الواصلين. بالنسبة للأولاد، تمّت الإجراءات بشكلٍ سريع، لأنّ الشرطي كان يكتفي بقراءة ما كُتب على اللصيقة، ويعيد نسخه في سجلّاته. عندما انتهى، نظر الرجل إلى لالا وسألها: «هل تنوين العمل في فرنسا؟».

«نعم»، قالت لالا.

«أيّ نوع من الأعمال؟».

«لا أعرف».

«مستخدمة منزل»، قال الشرطي وكتب في ورقته.

حملت لالا حقيبتها، وراحت تنتظر مع الآخرين في الغرفة الكبيرة ذات الجدران الرمادية، التي يسطع فيها نورٌ كهربائي. القاعة خاليةٌ من مقاعد للجلوس، وعلى الرغم من البرد والمطر في الخارج، كانت الحرارة خانقةً في الصالة. كان الأطفال الصغار قد غفوا في أحضان أمهاتهم، أو ناموا على الأرض فوق ملابسهم، والأولاد الأكبر سنّاً بدؤوا يتململون. شعرت لالا بالعطش، جفّت حنجرتها، واتّقدت عيناها من الحمّى. كانت متعبة جدّاً، إلى حدٍّ منعها من التفكير في أيّ شيء. كانت تنتظر متّكئةً على الجدار، تقف على أول ساق، ثم على الأخرى. في الطرف الآخر من القاعة، وأمام حاجز رجال الشرطة، كانت المرأة الشاحبة ذات النظرة الفارغة تقف أمام مكتب التفتيش، تحمل طفلها الهزيل بين ذراعيها بهيئة مذعورة ولا تقول شيئاً. تحدّث الشرطي إليها طويلاً، وعرض الأوراق على ترجمان الصليب الأحمر الدوليّ. ثمة خللٌ ما. كان الشرطي يطرح أسئلة يكرّرها المترجم على مسامع المرأة الشابة، لكنّها كانت تنظر إليهما وتبدو كأنها لا تفهم شيئاً. لم يسمحا لها بالعبور. نظرت لالا إلى الأم اليافعة الشاحبة التي تشدّ رضيعها إلى صدرها بقوّة، حتى إنها أيقظته قليلاً وبدأ البكاء، ثم هدأ حالما أخرجت ثديها بحركةٍ سريعة وأعطته إياه وبدأ يرضع. بدا الشرطي حائراً. التفت وراح يبحث بعينيه حوله. التقت نظرته بنظرة لالا التي كانت تقترب. أشار إليها الشرطي أن تأتي.

«هل تتكلّمين لغتها؟».

«لا أعرف»، قالت لالا. تكلّمت لالا بضع كلمات بلهجة الشلوح، ونظرت إليها المرأة برهةً، ثم أجابتها.

«قولي لها إنّ أوراقها غير نظامية، التصريح بالطفل غير موجود».

حاولت ترجمة الجملة، وظنّت أنّ المرأة لم تفهم، لكنّها انهارت فجأة وبدأت تبكي. قال الشرطي بضع كلمات أيضاً، وحاول مترجم الصليب الأحمر الدولي رفع المرأة وأخذها إلى آخر القاعة، حيث يوجد كرسيّان أو ثلاثة من الجلد الصناعي.

حزنت لالا، فقد أدركت أنه ينبغي للمرأة ركوب السفينة العائدة مع طفلها المريض. لكنّها كانت تعبة جداً هي أيضاً فلم تستطع أن تفكّر أكثر بالأمر، وعادت للاستناد إلى الجدار بالقرب من حقيبتها. في أعلى الجدار، هناك في آخر القاعة، ساعةٌ كُتبت أرقامها فوق لويحاتٍ صغيرة. عند كلّ دقيقة، كانت اللويحة تدور مُحْدثةً فرقعة. في ما بعد، توقّف الناس عن الكلام. كانوا ينتظرون، جلوساً على الأرض، أو وقوفاً عند الجدار، بأنظارٍ محدّقة ووجوه مشدودة، كأنّ بابَ آخرِ القاعة، عند كلّ دقّة، سيُفتَح ويُسمَح لهم بالرحيل.

أخيراً، بعد وقت طويل، فقد الجميع خلاله كلّ أمل، اجتاز موظّفو الصليب الأحمر الدولي القاعة الكبرى، فتحوا باب الطرف الآخر وبدؤوا النداء على الأولاد. بدأت جلبة الأصوات من جديد، وتجمهر الناس عند باب الخروج. كانت لالا مع حقيبتها الكرتونية بيدها، تمدّ عنقها فوق الآخرين وتنتظر أن ينادوا اسمها بنافد الصبر، حتى إنّ ساقيها بدأتا ترتجفان. عندما نطق موظّف الصليب الأحمر اسمها، فعل ذلك كالنباح، ولم تفهم لالا. فكرّر النداء بالصياح: «حوّا! حوّا بنت حوّا!».

ركضت لالا تؤرجح حقيبتها في طرف ذراعها، واجتازت الحشد. توقّفت أمام الباب، ريثما يتحقّق الرجل من لصيقتها، ثم قُذِفَتْ إلى الخارج كأنّ أحداً دفعها في ظهرها. كان هناك الكثير من الضياء في الخارج، بعد

تلك الساعات التي قضتها في القاعة الرمادية الكبيرة، حتى إنها تعثّرت وأحسّت بالدوار. مشت بين صفوف الرجال والنساء دون أن تراهم، مشَت إلى الأمام على غير هدى، إلى أن أحسَّت بأحدٍ يمسكها من ذراعها ويضمّها إليه ويقبّلها. أخذتها العمّة إلى بوّابة الخروج من أرصفة المرفأ باتجاه المدينة.

كانت العمّة تسكن وحدها في إحدى شقق المدينة القديمة بالقرب من الميناء، في الطابق الأخير من بناءٍ متداعٍ. والشقّة تقتصر على غرفة فيها أريكة، وغرفة أخرى معتمة فيها سريرٌ قابلٌ للطيّ، ومطبخ. تطلّ غرف الشقّة على فناءٍ داخليّ، لكنّ السماء كانت مرئيّةً فوق سطوح القرميد. بل منذ الصباح حتى الظهيرة، كانت الشمس تدخل من نافذتَي الغرفة التي تضمّ الأريكة. قالت العمّة للالا إنها كانت محظوظة جداً بالعثور على هذه الشقّة، ومحظوظة أكثر بالعثور على عمل طبّاخة في مطعم المستشفى. عندما وصلت إلى مرسيليا منذ عدّة أشهر، سكنت بدايةً في شقّة مفروشة في الضاحية مع خمس نساء داخل غرفة واحدة، وكانت الشرطة تأتي كلّ صباح بسبب مشاجرات الشارع هناك. حتى إنّ رجلين تضاربا بالسكاكين واضطرّت العمّة للهروب وترك حقيبتها، لأنها خافت أن تأخذها الشرطة ثم يرحّلونها.

بدت العمّة مسرورةً جداً بلقاء لالا بعد هذا الزمن الطويل. لم تسألها عمّا حدث عندما هربت إلى الصحراء مع الحرطاني ونُقلت إلى مستشفى المدينة، لأنها أوشكت أن تموت من العطش والحمّى. أما بالنسبة للحرطاني، فقد أكمل طريقه وحيداً إلى الجنوب باتجاه القوافل، لأنّ هذا ما كان عليه أن يفعله طوال حياته. لقد هرمت العمّة خلال بضعة أشهر.

أصبح وجهها نحيلاً ومتعباً، وبشرتها رمادية، وأحاطت بعينيها دوائرُ سمراء داكنة. في المساء، بعد أن تعود من عملها، وبينما تأكل البسكويت وتشرب الشاي بالنعناع، كانت تحدّثها عن رحلتها بالسيّارة عبر إسبانيا مع غيرها من النساء اللواتي كنّ ذاهبات للبحث عن عمل. خلال أيامٍ عديدة، سارت بهنّ السيّارة على الطرقات وعبرت مدناً فيها جبالٌ وأنهار. وفي أحد الأيام، أشار السائق إلى مدينةٍ فيها الكثير من البيوت القرميدية المتشابهة كلّها وسطوحها سوداء. وقال لهنّ: «ها قد وصلنا!». نزلت العمّة مع الأخريات، وبما أنهن كنّ قد دفعن الأجرة مقدّماً، أخذن حوائجهن وشرعن يمشين في شوارع المدينة. ولكن، عندما أعطت العمّة المغلّف الذي كُتب عليه اسم شقيق نعمان وعنوانه، بدأ الناس يهزؤون، وقالوا لها إنها ليست في مرسيليا، إنما في باريس. وهكذا كان لا بدّ لها من ركوب القطار والسفر من جديد الليلَ بطوله قبل أن تصل.

عندما سمعت لالا هذه القصة، أضحكتها كثيراً، إذ راحت تتخيّل نساء السيّارة يمشين في شوارع باريس ظنّاً منهن أنهن في مرسيليا.

كانت هذه المدينة كبيرةً جدّاً بالفعل، ولم يخطر في بال لالا يوماً أنّ هناك هذا العدد الغفير من الناس يعيشون في مكانٍ واحد. منذ وصولها، وهي تشغل أيامها في السير عبر المدينة، من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب. لم تكن تعرف أسماء الشوارع، ولا أين تسير. تمشي تارةً بمحاذاة أرصفة المرفأ، وهي تنظر إلى أخيلة سفن البضائع، وتارةً أخرى تذهب صعوداً في الجادّات الكبرى باتجاه مركز المدينة، أو أنها تمشي في متاهة أزقّة المدينة القديمة. ترتقي السلالم، تذهب من ساحة إلى ساحة، من كنيسة إلى كنيسة، إلى أن تصل إلى الساحة الكبرى التي

تُرى منها القلعة الحصينة فوق البحر. وقد تذهب للجلوس أحياناً على مقاعد الحدائق، تنظر إلى الحمائم تمشي في الممرّات المعفّرة بالغبار. هناك الكثيرُ من الشوارع، الكثير من المنازل، والمخازن، والنوافذ، والسيّارات، وهذا ما كان يجعل رأس لالا يدور، إضافةً إلى أنّ الضجيج ورائحة احتراق الوقود كانا يُسكرانها ويسبّبان لها الصداع. لم تكن لالا تتحدّث إلى الناس. تجلس أحياناً على سلالم الكنائس، مختبئةً كلّياً داخل معطفها الصوفي الكستنائي، وتشاهد المارّة وهم يعبرون. ثمّة رجالٌ كانوا ينظرون إليها، ثم يتوقّفون عند ناصية الشارع ويتظاهرون بتدخين سيجارة وهم يراقبونها. لكنّ لالا كانت تجيد الاختفاء بسرعةٍ مذهلة، فقد تعلّمت ذلك من الحرطاني. كانت تجتاز شارعين أو ثلاثة، تدخل مخزناً، أو تتسلّل بين السيّارات المتوقّفة، ولا أحد يمكنه أن يتبعها.

كانت العمّة ترغب في أن تعمل لالا معها في المستشفى، لكنّ لالا يافعة جداً، ولم تكن قد بلغت سنّ الرشد. فضلاً عن ذلك، كان من الصعب جداً العثور على عمل.

بعد أيامٍ من وصولها، ذهبت لرؤية شقيق العجوز نعمان الذي يُدعى عسّاف، لكنّ الناس ينادونه هنا جوزيف. كان يملك بقالية في شارع شابوليه، ليس بعيداً عن مركز الشرطة. بدا مسروراً برؤية لالا، قبّلها وهو يتحدّث عن شقيقه، لكنّ لالا ارتابت به على الفور. لم يكن يشبه نعمان في أيّ شيء، فهو قصير القامة، أصلع تقريباً، عيناه ماكرتان جاحظتان بلونٍ رماديّ مخضرّ، ابتسامته لا تنمّ عن حسن النوايا. عندما علم أنّ لالا تبحث عن عمل، برقت عيناه وبدا عليه التوتّر. قال للالا إنه يحتاج إلى فتاةٍ يافعة تساعده في إدارة البقالية تحديداً. ترتّب، تنظّف، وربما تهتمّ بالصندوق.

بينما كان يقول ذلك، كان ينظر طوال الوقت إلى بطن لالا وثدييها بعينيه الخبيثتين المبلّلتين، فقالت له حينذاك إنها ستعود في اليوم التالي، ورحلت على الفور. وحين لم تعُد، جاء بنفسه إلى بيت العمّة ذات مساء. لكنّ لالا خرجت ما إن رأته، وقامت بنزهة طويلة في أزقّة المدينة القديمة، تحاول أن تكون غير مرئيّة مثل ظلّ، إلى أن تأكّدت من عودة البقّال إلى بيته.

يا لها من بلاد غريبة، هذه المدينة بناسها كلّهم! فهم لا ينتبهون إلى وجودك إذا لم تُظهر نفسك. تعلّمت لالا أن تتسلّل بصمت على طول الجدران، وعلى السلالم. صارت تعرف الأماكن كلّها التي تستطيع أن تَرى منها دون أن تُرى، المخابئ وراء الأشجار، في مواقف السيّارات المزدحمة، في زوايا البوّابات، في الأراضي الخلاء. حتى حين تكون وسط الجادّات الطويلة المستقيمة، حيث سيل الناس والسيّارات لا ينقطع، الصاعد والنازل، كانت تعرف كيف تكون غير مرئية. في البداية، كانت لا تزال آثار شمس الصحراء الحارقة باديةً عليها، وكان شعرها الطويل الأسود المقصّب يتلألأ بنور الشمس. كان الناس ينظرون إليها حينئذٍ بدهشة، كأنها قادمةٌ من كوكبٍ آخر. لكنّ الشهور مرّت وتغيّرت لالا الآن. قصّت شعرها وأصبح قصيراً وباهتاً، رمادياً تقريباً. في ظلمة الأزقّة، وفي برد شقّة العمّة الرطبة، بهتَت بشرةُ لالا أيضاً، أصبحت رماديةً شاحبة. إضافةً إلى ذاك المعطف الكستنائي، الذي عثرت عليه عند تاجر يهوديّ للألبسة العتيقة بالقرب من الكاتدرائية. كان يصل إلى حدّ كاحليها تقريباً، أكمامه طويلة جداً، وكتفاه مهدّلان، وفوق ذلك فهو مصنوع من نوع من السجّاد الصوفيّ، عتيق ولامع بفعل الزمن، وأصبح داكناً كالجدار بلون أوراقٍ قديمة. عندما كانت لالا ترتدي معطفها هذا، كانت تشعر أنها أصبحت غير مرئيّة بالفعل.

ثم تعلّمت أسماء الشوارع من الإصغاء لأحاديث الناس. أسماء غريبة، غريبة جداً، حتى إنها كانت تكرّرها بصوتٍ خافت بينها وبين نفسها وهي تسير بين البيوت: «لاماجور، لاتوريت، بلاس دولانش، رو دوبوتي-بوي، بلاس ڤيڤو، بلاس سادي-كارنو، لاتاراسك، أمباس ديه موييت، رو دوشوڤال، كور بيلزونس».

هناك شوارعُ كثيرةٌ، وأسماء كثيرة! في كلّ يوم، كانت لالا تخرج قبل أن تستيقظ عمّتها، تضع قطعة خبز بائت في جيب معطفها الكستنائي وتبدأ السير، تدور في حلقات حول حيّ «بانيه» في البداية، إلى أن تصل إلى البحر عبر شارع السجن، بينما تكون الشمس قد بدأت تضيء جدران مبنى البلدية. تجلس للحظة، تراقب السيّارات العابرة، إنما ليس لوقتٍ طويل، لأنّ رجال الشرطة قد يأتون ويسألونها ماذا تفعل هنا.

ثم تتابع نحو الشمال، تذهب صعوداً في الجادّات الكبرى الصاخبة، «لاكانبيير»، بولڤار «دوغوميه»، بولڤار «آتين». هناك أناسٌ من أصقاع الدنيا كلّها، يتحدّثون شتّى اللغات، أناسٌ شديدو السواد عيونهم ضيّقة، يرتدون أثواباً بيضاء طويلة ونعالاً بلاستيكية. وأناسٌ من الشمال، بشعرٍ فاتح وعيون باهتة، جنودٌ، بحّارة، وكذلك رجالُ أعمالٍ بدينون يمشون بسرعة، ويحملون حقائب سوداء صغيرة غريبة الشكل.

هنا أيضاً، تحبّ لالا أن تجلس، في زاوية أحد الأبواب لتراقب أولئك الناس كلّهم، الرائحين والغادين، السائرين والراكضين. حين يكون هناك أناسٌ كُثر، لا أحد ينتبه إليها. ربما يظنّون أنها مثلهم، تنتظر أحداً ما أو شيئاً ما، أو لعلّهم يظنّون أنها متسوّلة.

في الأحياء الآهلة بالسكّان فقراءُ كُثر، تراقبهم لالا بشكلٍ خاصّ. ترى

نساءً بأسمالٍ بالية، شاحباتٍ رغم الشمس، يحملن بين أياديهن أطفالاً في سنٍّ صغيرة. ترى رجالاً عجائز يرتدون معاطف مرقّعة، سكارى بعيونٍ زائغة، مشرّدين، غرباء جائعين يحملون حقائبَ كرتونيّة وأكياسَ مؤونةٍ فارغة. ترى أطفالاً وحيدين، وجوههم قذرة وشعورهم مشعّثة، يرتدون ملابس واسعة جدّاً على أجسادهم النحيلة، يمشون مسرعين كأنهم ذاهبون إلى مكانٍ ما، نظراتهم تائهة وخبيثة كالكلاب الضالّة. من مخبئها وراء السيّارات المتوقّفة، أو في ظلّ إحدى بوّابات العربات، كانت لالا ترى هؤلاء الناس كلّهم بهيئتهم التائهة، يسيرون كأنهم شبه نيام. تلمع عيناها الداكنتان على نحوٍ غريب وهي تراقبهم، لعلّ شيئاً من نور الصحراء يصل إليهم في تلك اللحظة، لكنّهم قلّما يشعرون به ولا يعرفون مصدره. ربما يشعرون بقشعريرة خاطفة، ثم يرحلون بسرعة ويتيهون في الحشد الغريب.

في بعض الأيام، كانت تذهب بعيداً، تسير لوقتٍ طويل عبر الشوارع إلى أن تشعر بالألم في ساقيها وتضطرّ للجلوس على طرف الرصيف لكي ترتاح. تذهب باتجاه الشرق على امتداد الجادّة الطويلة التي تحفّها الأشجار وتعبرها سيّاراتٌ وشاحنات كثيرة، ثم إلى التلال، وإلى آخر الوهاد. وهي أحياءٌ فيها أراضٍ بورٌ ومبانٍ عالية كالجروف، بيضاء كلّياً نوافذها متماثلة متناهية في الصغر. وإلى البعيد قليلاً، ڤيلّات تحيط بها أشجار الغار والبرتقال، داخل كلّ واحدةٍ منها كلبٌ شرس يركض على طول السور وينبح بكلّ قواه. هناك الكثير من القطط الضالّة أيضاً، هزيلةً، منفوشة الوبر، تبيت في أعالي الأسوار وتحت السيّارات المركونة.

سارت لالا على غير هدى، كما تأخذها الشوارع. اجتازت الأحياء البعيدة التي تتلوّى فيها أقنيةٌ مليئة بالبعوض، دخلت إلى مقبرة كبيرة

كالمدينة، فيها صفوف حجارةٍ رمادية وصُلبانٌ صدئة. صعدت إلى أعلى التلال، بعيداً جداً بحيث تمكّنت من رؤية البحر، وبدا مثل بقعة زرقاء متّسخة بين مكعّبات المباني. كان يطفو فوق المدينة ضبابٌ غريب، سحابةٌ رمادية كبيرة تحجب الضوء، لونها ورديّ وأصفر. مالت الشمس إلى الغروب وشعرت لالا بالتعب والنعاس يجتاحان جسمها. نظرت إلى المدينة المتلألئة في البعيد، سمعَت هدير محرّكاتها، قطاراتِها فوق السكك وهي تدخل في حفر الأنفاق المظلمة. لم تكن خائفة، مع ذلك، هناك شعورٌ بالدوار في داخلها كأنه رياح. هل هذه هي «الشرقي»، رياح الصحراء التي وصلت إلى هنا بعد أن عبرت البحر كلّه واجتازت الجبال والمدن والطرقات؟ من الصعب معرفة ذلك. الكثير من القوى هنا، الكثير من الصخب والحركة، ولعلّ الرياح تاهت في الشوارع، على السلالم وفي الساحات.

رأت لالا طائرةً ترتفع ببطء نحو السماء الباهتة وهي تُحدث صوتاً كالرعد. دارت فوق المدينة، مرّت أمام الشمس التي أطفأتها لجزءٍ من الثانية، وذهبت باتجاه البحر، وصارت تصغر شيئاً فشيئاً. نظرت لالا إليها بكلّ قواها، إلى أن أصبحت نقطةً تكاد تكون غير مرئيّة لا أكثر. لعلّها ذاهبةٌ لتحلّق فوق الصحراء، هناك فوق مساحات الرمال والحجارة، هناك حيث يمشي الحرطاني؟

عندئذٍ، تحرّكت لالا هي أيضاً. بساقين مرتخيتين، عاودت النزول باتجاه المدينة.

ثمّة شيءٌ آخر تحبّ لالا فعله. كانت تذهب للجلوس فوق درجات السلالم الكبيرة أمام محطة القطار وتراقب المسافرين الصاعدين

والنازلين. هؤلاء الذين يصلون مقطوعي الأنفاس بعيونٍ متعبة وشعرٍ مشعّث، ينزلون السلالم وهم يتعثّرون من الضوء في الخارج. وأولئك الذين يمشون مستعجلين خوفاً من أن يفوتهم القطار. يصعدون درجات السلّم اثنتين اثنتين، ترتطم حقائبهم وأكياسهم بأرجلهم، أنظارهم مثبّتة أمامهم باتجاه مدخل المحطة، يتعثّرون في الدرجات الأخيرة، وبعضهم ينادي بعضاً خوفاً من الضياع.

كانت لالا تحبّ البقاء بالقرب من محطة القطار، لأنها تشعر أنّ المدينة الكبيرة لم تنتهِ بعدُ، كأنّ هناك فتحةً كبيرة يدخل الناس من خلالها ويخرجون باستمرار. لطالما فكّرت في الرحيل، تصعد إلى أحد القطارات المتجهة شمالاً، إلى تلك البلاد ذات الأسماء الجذّابة والمخيفة بعض الشيء: «إيرون»، «بوردو»، «أمستردام»، «ليون»، «ديجون»، «باريس»، «كاليه»... حين يكون معها القليل من المال، كانت تدخل إلى المحطة وتشتري من المشرب زجاجة كوكا كولا وبطاقة رصيف. تدخل إلى البهو الكبير المخصّص للمسافرين وتذهب للتسكّع في كلّ الأرصفة، أمام القطارات الواصلة للتوّ، أو تلك التي تتأهّب للرحيل. حتى إنها في بعض الأحيان، كانت تصعد إلى إحدى العربات وتجلس لبرهة في مقعد المولسكين(*) الأخضر. يصل الناس، بعضهم وراء بعض، يجلسون في المقصورة، ويسألونها أحياناً: «هل المكان خالٍ؟»، فتومئ برأسها قليلاً. وعندما يعلن مكبّر الصوت انطلاق القطار، كانت تنزل من العربة بسرعة، وتقفز إلى الرصيف.

المحطّة أيضاً هي من الأماكن التي يمكن أن ترى منها دون أن تُرى،

(*) المولسكين: نسيج قطنيّ متين، ناعمٌ ومنقّط بحبيبات.

لأنّ فيها الكثير من الحركة والاستعجال، بحيث لا يمكن أن تلفت انتباه أيٍّ كان. في المحطة أناسٌ من كلّ الأنواع: خبثاء، عنيفون احمرّت وجوههم من شدّة الغضب يصيحون بأصوات تصمّ الآذان. وهناك أناسٌ حزانى جداً وشديدو الفقر أيضاً، كهولٌ تائهون يبحثون بخوف عن رصيف قطارهم المغادر، نساءٌ مع غفير أطفالهن يجرجرن أرجلهن مع أحمالهن على طول العربات شديدة الارتفاع. وهناك أولئك الذين أوصلهم الفقر إلى هنا، السود النازلون من السفن في طريقهم إلى البلاد الباردة، يرتدون القمصان المبرقشة بالألوان مع حقائب عبارة عن كيسٍ شاطئيّ فقط لا غير، والسُّمر من شمال إفريقيا تغطّيهم ملابسهم القديمة، يعتمرون قلنسوة الجبال أو قبّعة بِواقية أذنَين، والأتراك، والإسبان، واليونانيون، والجميع يبدون قلقين ومتعَبين، هائمين على وجوههم فوق الأرصفة في الرياح، يتصادمون في غمرة المسافرين اللامبالين والجنود الساخرين.

كانت لالا تراقبهم شبه مختبئةٍ بين كابينة الهاتف ولوحة الإعلانات. تتوارى تماماً في الظلّ، تحمي وجهها النحاسي بياقة معطفها. ولكن، بين حينٍ وآخر، كان قلبها يخفق بسرعة وترمي عيناها بريقَ نورٍ كانعكاس الشمس فوق حجر الصحراء. ترى أولئك الراحلين إلى مُدنٍ أخرى، إلى الجوع والبرد والبؤس، أولئك الذاهبين للمذلّة والعيش بمفردهم. كانوا يمرّون وقد انحنوا قليلاً، بعيونٍ خاوية وثيابٍ أبلَتها الليالي من النوم على الأرض، كأنهم جنودٌ مهزومون.

يرحلون إلى مدنٍ سوداء، إلى السماء الغائمة، إلى الأدخنة، إلى البرد والمرض الذي يمزّق الصدور. يرحلون إلى مدنٍ في الأراضي الموحلة الكائنة في مكانٍ أوطأ من الطرقات السريعة، إلى غرفهم المحفورة في

الأرض كأنها قبور، المحاطة بالأسوار العالية والشِّباك المعدنية. لعلّ أولئك الرجال والنساء العابرين كالأشباح، يجرجرون أولادهم وأمتعتهم الثقيلة لن يعودوا أبداً. لعلّهم سيموتون في تلك البلاد التي لا يعرفونها، بعيداً عن قراهم، بعيداً عن عائلاتهم. يرحلون إلى بلاد غريبة، سوف تسرق منهم حياتهم، تطحنهم وتلتهمهم. بقيت لالا ساكنة في ركنها المظلم، وزاغ بصرُها بينما كانت تفكّر هكذا. كم كانت ترغب في الرحيل! كم كانت ترغب في السير عبر شوارع المدينة إلى أن تصل إلى مكانٍ يخلو من البيوت والحدائق، يخلو من الطرقات والضفاف، فيه دربٌ فحسب، كما في الماضي، دربٌ يضيق تدريجياً إلى أن يصل إلى الصحراء!

نزل الليل فوق المدينة، أُضيئت الأنوار في الشوارع وحول المحطّة وفوق الأبراج الحديدية. والتمعت مصابيحُ طولانية كبيرة حمراء وبيضاء وخضراء فوق واجهات المقاهي ودور السينما. مشت لالا في الشوارع المظلمة دون أن تُحدث صوتاً، متسلّلةً بمحاذاة الجدران. حين يأتي الليل، وقلّما يظهر الرجال تحت أنوار الشارع، تصبح وجوهُهم مخيفةً، تلمع عيونهم بقسوة، ويدوّي وقع خطواتهم في الممرّات وتحت بوّابات مداخل العربات. كانت لالا تسير مسرعةً الآن، كأنها تحاول الهروب. في إحدى اللحظات، تبعها رجُل، حاول التقرّب منها وإمساكها من ذراعها، فاختبأت وراء سيّارة واختفت. ثم تابعت التسلّل كالظلّ، دارت في أزقّة المدينة القديمة إلى أن وصلت إلى حيّ «بانيه» حيث تقيم العمّة. ارتقت السلالم دون أن تشعل المصابيح كي لا يراها أحدٌ أين دخلت. طرقت الباب طرقاتٍ خفيفةً، وعندما سمعت صوت عمّتها، قالت اسمها وشعرت بالارتياح.

هكذا هي يوميّات لالا، هنا في مدينة مرسيليا الكبيرة على امتداد تلك الشوارع، مع أولئك الرجال والنساء كلّهم الذين لن تعرفهم أبداً.

في الفترة الأولى بعد وصولها بقليل، دُهشت لالا من كثرة المتسوّلين. لكنّها اعتادت في ما بعد، ولا يمكن إلّا أن تراهم شأنها شأن غالبية سكّان المدينة، الذين يحيدون قليلاً كي لا يسيروا عليهم، وأحياناً يقفزون فوقهم إذا كانوا مستعجلين.

تعرّفت لالا إلى راديكس المتسوّل بينما كانت تمشي في الجادّات الكبرى بالقرب من المحطّة. في أحد الأيام، خرجت باكراً من حيّ «بانيه»، وكان الجوّ لا يزال مظلماً لأنّ الفصل شتاء. لم يكن هناك الكثير من الناس في الأزقّة وعلى سلالم المدينة القديمة، وكان الشارع العريض تحت مستشفى «أوتيل ديو» لا يزال خالياً، باستثناء بعض الشاحنات التي تسير ومصابيحها مضاءة، وبعض الرجال والنساء فوق درّاجاتهم الآلية، مدثّرين بستراتهم الدافئة.

هناك رأت راديكس. كان يجلس في زاوية باب محتمياً قدر استطاعته من الرياح ورذاذ المطر. بدا كأنه يعاني من البرد، وعندما وصلت بمحاذاته، نظر إليها نظرةً غريبة، لا تشبه مطلقاً نظرة الشبّان حين يرون فتاة. نظر إليها دون أن يخفض عينيه، كأنهما عينا حيوان. لم يكن بالإمكان معرفة ما يجول في خاطره.

وقفت لالا أمامه وسألته: «ماذا تفعل هنا؟ ألا تشعر بالبرد؟!».

هزّ الصبي رأسه دون أن يبتسم. ثم مدَّ يده: «أعطِني شيئاً».

لم يكن مع لالا سوى كسرة خبز وبرتقالة أحضرَتها معها للغداء، فأعطتها للصبي. خطف البرتقالة بسرعة دون أن يشكرها، وبدأ يأكلها.

هكذا تعرّفت إليه لالا. صارت تراه دائماً في ما بعد، في الشوارع بالقرب من المحطة، أو على السلّم الكبير حين يسمح الطقس. يبقى جالساً لساعات، ينظر أمامه مباشرة دون أن يلقيَ بالاً للناس. لكنّه كان يحبّ لالا كثيراً، ربما بسبب البرتقالة. قال لها إنّ اسمه راديكس، بل كتب اسمه على الأرض بعودٍ صغير، لكنّه فوجئ حين قالت له لالا إنها لا تعرف القراءة.

كان له شعرٌ أسودُ سبِلٌ جميل وبشرةٌ سمراء. عيناه خضراوان، وله طيف شاربٍ صغير فوق شفتيه. ابتسامته على وجه الخصوص جميلةٌ أحياناً، حين يظهر بريقُ أسنانه الأمامية ناصعة البياض. كان يلبس قرطاً صغيراً في أذنه اليسرى، ويدّعي أنه من الذهب. لكنّ لباسه كان شديد الفقر، سروالٌ عتيق مبقّع وممزّق، كنزاتٌ صوفية قديمة بعضها فوق بعض، سترة رجالية واسعة جداً عليه، وفي قدميه العاريتين ينتعل حذاءً من الجلد الأسود.

كانت لالا تحبّ جدّاً أن تصادفه في الشارع، إذ لا يكون هو ذاته بتاتاً في كلّ مرّة. فهناك أيامٌ تكون فيها عيناه حزينةً وغائمة، كأنه ضائعٌ داخل حلم، ولا أحد يستطيع إخراجه منه. وفي أيام أخرى، يكون مرحاً وعيناه تلمعان، يروي شتّى أنواع القصص السخيفة التي يخترعها تباعاً. ويبدأ الضحك طويلاً دون صوت، ولا يبقى أمام لالا سوى الضحك معه.

كانت لالا تودّ كثيراً أن يزورها راديكس في بيت العمّة، لكنّها لم تكن تجرؤ، فهو غجريّ، وهذا لن يعجب العمّة بالتأكيد. أما هو فلم يكن يسكن في حيّ «بانيه» ولا حتى في الجوار. كان يعيش بعيداً جداً، في مكانٍ يقع

في الغرب بالقرب من سكّة الحديد، هناك حيث تكثر الأراضي الخلاء وصهاريج البنزين والمداخن المشتعلة ليل نهار. هو الذي أخبرها بذلك، لكنّه لم يكن يطيل الحديث عن بيته، ولا عن عائلته. يقول فقط إنه يعيش بعيداً جداً، بحيث لا يستطيع المجيء كلّ يوم، وحين يأتي، ينام غالباً في الخارج عوضاً عن العودة إلى بيته. والأمر سيّان عنده، فهو يعرف مخابئ جيّدة لا يشعر فيها بالبرد، ولا بالرياح، ولا يستطيع أيُّ كائنٍ العثور عليه فيها.

على سبيل المثال، هناك تحت الأدراج في المباني التي هدمتها مصلحة الجمارك. هناك حفرةٌ بحجم طفل، يتسلّل عبرها إلى الداخل ويسدّ المدخل بقطعة من الورق المقوّى. أو في كبائن معدّات الورش، أو تحت غطاء الشاحنات الصغيرة. كان راديكس يعرف تلك الأمور كلّها.

في معظم الأوقات، يمكن العثور عليه بالقرب من المحطّة. حين يكون الطقس جميلاً والشمس دافئة، كان يجلس فوق درجات السلّم الكبير، فتأتي لالا للجلوس بقربه. معاً كانا يراقبان المارّة. في بعض الأحيان، يلمح أحد الأشخاص، ويقول للالا: «انظري ماذا سيحدث!»، ثم يذهب باتجاه المسافر الخارج من المحطة المبهور قليلاً من الضوء، ويطلب منه قطعةً نقدية. وبما أنّ ابتسامته جذّابة وهناك شيء من الحزن في عينيه، كان المسافر يتوقّف، يبحث في جيوبه. من كان يعطي راديكس على الأغلب هم شبّان متأنّقون في العقد الثالث من العمر، ولا يحملون الكثير من الحقائب. أما مع النساء، فقد كان الأمر أكثر تعقيداً، فهنّ يطرحن الأسئلة وراديكس لا يحبّ ذلك. وحين يرى امرأة شابّة يبدو عليها الثراء، كان يدفع بلالا ويقول لها: «هيّا، اذهبي واطلبي منها!». لكنّ لالا لم تكن

تجرؤ على طلب المال، فهي خجولة قليلاً. مع ذلك، كان هناك أوقاتٌ ترغب فيها أن يكون معها القليل من المال لشراء قطعة حلوى، أو للذهاب إلى السينما.

«هذه آخر سنة أعمل فيها هكذا» -قال راديكس- «العام القادم أنا راحل. سوف أذهب للعمل في باريس».

سألته لالا عن السبب.

«في العام القادم، سأكون كبيراً في السن، الناس لا يعطون شيئاً حين تكونين بالغة، يقولون لك: ليس عليك سوى العمل!».

نظر إلى لالا برهةً، ثم سألها ما إذا كانت تعمل، فهزّت رأسها بالنفي.

دلّها راديكس على شخصٍ كان يعبر بالقرب من الحافلة: «هذا أيضاً يعمل معي، عند المعلّم نفسه».

كان الشابّ الأسود شديد النحول، ويبدو كالظلّ. يتجه إلى المسافرين ويحاول حمل حقائبهم، لكنّه لا يبدو فالحاً في مسعاه جيّداً. هزّ راديكس كتفيه وقال: «ليس بارعاً في عمله. اسمه باكي، لا أعرف ما معناه، لكنّه يُضحك السود الآخرين حين يقولون اسمه. إنه لا يجلب الكثير من المال للمعلّم».

وحين رأى أنّ لالا كانت تنظر إليه دَهِشة، أضاف: «آه، أنت لا تعرفين، المعلّم غجري مثلي، اسمه لينو، والمكان الذي نعيش فيه كلّنا نسمّيه الفندق. إنه منزلٌ كبير مليء بالأولاد، وجميعهم يعملون لصالح لينو».

كان يعرف غجر المدينة كلّهم بأسمائهم. يعرف أين يسكنون، مع من يعملون، حتى أولئك المشرّدين الذين يعيشون وحيدين. الأولاد الذين يعملون كعائلة مع إخوتهم وأخواتهم، والذين يسرقون من المخازن

الكبرى والسوبّر ماركت. صغار السن يتعلّمون الترقّب أو يُلهون الباعة، ويفعلون ذلك أحياناً على التناوب. هناك النساء خصوصاً، الغجريات اللواتي يرتدين الفساتين المزهّرة الطويلة، ويخفين وجوههن بغلالة سوداء لا يظهر منها سوى عيونهن البرّاقة كعيون الطيور. والرجال العجائز والنساء، الذين يتشبّثون بسترات البرجوازيين وتنانير النساء وهم يغمغمون التعازيم، ولا يتركونهم إلا بعد أن يأخذوا منهم قطعةً نقدية.

كانت لالا تشعر بانقباضٍ في قلبها حين تراهم، أو حين تلتقي امرأةً قبيحة صغيرة السنّ، طفلها الرضيع متعلّقٌ بثديها تتسوّل عند زاوية الشارع في الجادّة الكبيرة. لم تكن تعرف معنى الخوف، فهناك عند الحرطاني، لا شيء سوى الأفاعي والعقارب، وفي أسوأ الحالات، تحرُّكات الظلال في الليل، ولكن هنا، يوجد الخوف من الفراغ، من الشقاء، من الجوع، الخوف الذي لا اسم له ويبدو أنه ينبجس من الكُوى الموارِبة المُفضية إلى الطوابق النتنة المخيفة تحت الأرض، خوفٌ يبدو منبعثاً من الأفنية المظلمة، يدخل إلى الغرف الباردة كالقبور، أو أنه يجول في تلك الشوارع العريضة كالرياح الخبيثة، حيث يمشي الناس دون توقّف، يمشون ويمشون، يرحلون، يتدافعون، هكذا إلى ما لا نهاية، ليلَ نهار، لشهورٍ، لسنوات، في صخب نعال أحذيتهم الخفيفة، ويصعد في الهواء الثقيل هديرُ كلامهم ومحرّكاتهم، ومعه همهمتُهم ولهاثُهم.

أحياناً تبدأ الدنيا تلفّ حول لالا بحيث تحتاج إلى الجلوس على الفور، فتبحث عن نقطةٍ ما ترتكز عليها. يصبح وجهها المعدني رمادياً، تنطفئ عيناها، وتسقط على مهل، كأنها تسقط في قاع بئرٍ واسعة، ولا أمل لها في التمسّك بشيء.

«ما بك يا آنسة؟ يا آنسة؟! هل أنت بخير؟ هل أنت على ما يرام؟!».

كان الصوت يصيح من مكانٍ ما، بعيداً جداً عن مسامعها، وشمّت رائحة الثوم في الأنفاس قبل أن تستعيد النظر. كانت منهارةَ القوى تقريباً، تستند إلى أسفل الجدار، وهناك رجلٌ يمسك يدها وينحني فوقها.

«نعم، أنا أفضل، أنا أفضل الآن...».

تمكّنت من الكلام ببطءٍ شديد، أو لعلّها فكّرت بهذه الكلمات فقط.

ساعدها الرجل على السير، وأخذها إلى شرفة أحد المقاهي. ابتعد الناس الذين تجمّعوا، لكنّ لالا سمعت رغم ذلك صوت امرأة تقول بوضوح: «إنها حامل بكلّ بساطة».

أجلسها الرجل إلى طاولة، وبقي منحنياً فوقها. كان قصير القامة، بديناً، وجهه مجدور، له شاربٌ، وأصلعُ تقريباً.

«ستشربين شيئاً ما، وهذا سيريحك».

«أنا جائعة»، قالت لالا. كانت غير مبالية بشيء، ربما ظنّت أنها ستموت.

«أنا جائعة»، ردّدت ببطء.

أما الرجل، فقد جزع وبدأ يغمغم. نهض وجرى إلى منضدة المطعم، وعاد سريعاً يحمل سندويشاً وسلّة من الخبز المحلّى. لم تعد لالا تصغي إليه، راحت تأكل بسرعة، السندويش أولاً، ثم قطع الخبز المحلّى كلّها، واحدةً تلو الأخرى. كان الرجل ينظر إليها وهي تأكل، ولا يزال وجهه الطافح مضطرباً من الانفعال. راح يتحدّث رشقاً، ثم يتوقّف عن الكلام خوفاً من أن يُتعب لالا.

«عندما رأيتك تسقطين هكذا أمامي، تأثّرت كثيراً! هذه أول مرّة يحدث

لك ذلك؟ أقصد، كان ذلك فظيعاً بوجود هذا العدد من الناس كلّهم، هناك في الجادّة، أولئك الذين كانوا وراءك أوشكوا أن يدوسوك، ولم يتوقّفوا مع ذلك. اسمي... اسمي بول، بول إستيف. وأنت؟ هل تتحدّثين الفرنسية؟ أنت لست من هنا، صحيح؟ هل أكلت كفاية؟ هل تريدين أن أذهب وأحضر لك سندويشاً آخر؟».

كانت تنبعث من أنفاسه رائحة الثوم والتبغ والنبيذ بقوّة، لكنّ لالا كانت سعيدة لوجوده هنا، وتراه لطيفاً بعينيه اللامعتين قليلاً. وحين لاحظ ذلك، استأنف الكلام كما كان يفعل، يحكي في شتى الأمور، يسأل ويجيب.

«لستِ جائعة الآن؟ سوف تشربين قليلاً. كونياك؟ لا، يجب أن يكون الشراب سكّرياً، وهو مستحسَنٌ حين يكون المرء متوعّكاً، كوكا كولا أو عصير فاكهة؟ هل أزعجك كثيراً؟ أتعلمين، إنها أول مرة أرى فيها أحداً يُغمى عليه أمامي، هكذا يقع على الأرض، وهذا ما صدمني حقيقةً. أنا أعمل موظّفاً في شركة "بي. تي". نعم، لست معتاداً. ولكن أقصد أنك ربما يجدر بك استشارة طبيب، هل تريدين أن أتصل بأحدٍ ما؟».

كان قد نهض، لكنّ لالا هزّت رأسها نافية، فعاد إلى الجلوس. بعد ذلك، شربت قليلاً من الشاي الساخن، فزال تعبُها. عادَ لون وجهها نحاسياً أسمر، والتمع النور في عينيها. ثم وقفت ورافقها الرجل حتى الشارع.

«هل أنت.. أنت متأكّدة من أنك ستكونين على ما يرام الآن؟ هل تستطيعين السير؟».

«نعم، نعم، شكراً!»، قالت لالا.

قبل أن تذهب، كتب بول اسمه وعنوانه على قصاصة ورق.

«في حال احتجتِ إلى شيء...».

شدَّ على يد لالا. كان يتجاوزها بالطول قليلاً. وكانت عيناه الزرقاوان لا تزالان مشوّشتين برطوبة الانفعال.

«إلى اللقاء»، قالت لالا. ومشت بأسرع ما يمكن، دون أن تلتفت.

هناك كلابٌ في كلّ مكان تقريباً، لكنّها ليست كالمتسوّلين، فهي تفضّل العيش في حيّ «بانيه» بين ساحة لينش وشارع «روفوج». كانت لالا تراها أثناء عبورها وتأخذ حذرها. منفوشة الوبر، هزيلة، ولا تشبه كلاب المدينة البرّيّة، التي كانت تسرق الدجاج والخِراف في الماضي، فهذه أكبر وأقوى، وثمّة شيءٌ خطير وكئيب في مظهرها. تذهب لتقتات من جميع أكوام القمامة، تقرط العظام القديمة ورؤوس الأسماك والفضلات التي يرميها الجزّارون. ثمّة كلبٌ تعرفه لالا جيّداً، فهو يبقى في المكان نفسه دائماً عند أسفل السلالم، من جهة الشارع المؤدّي إلى الكنيسة الكبيرة المخطّطة(*). كلبٌ أسود كلّياً، يحيط بعنقه طوقٌ من الوبر الأبيض ينزل حتى صدره. اسمه ديب أو هيب، لا تعرف تماماً، ولكن في الحقيقة، اسمُه لا يهمّ، فهو ليس ملكَ أحد. كانت لالا قد سمعت صبياً يناديه هكذا في الشارع. عندما يرى لالا، يبدو سعيداً بعض الشيء، فهو يحرّك ذيله لكن دون أن يقترب منها، ولا يترك أحداً يقترب منه. بكلّ بساطة، كانت لالا تقول له بضع كلمات وتسأله عن حاله أثناء عبورها، ولكن دون أن تتوقّف، وإذا كان معها شيء يُؤكل، فإنها ترمي له قطعةً صغيرة.

(*) إشارة إلى كاتدرائية سانت ماري ماجور. وهي أحدُ أهمّ رموز مدينة مرسيليا، استمر بناؤها 40 عاماً (1852–1893) بُنيت على الطراز البيزنطي وتضاهي مساحتها كنيسة القدّيس بطرس في روما. تتميّز بصفوف حجارتها الأفقية، التي يتناوب فيها الأبيض والرصاصي فتبدو مخطّطة.

هنا في حيّ «بانيه»، الناس كلّهم يعرفون بعضهم بعضاً نوعاً ما. ليس كما في باقي المدينة، حيث تجد سيولاً من الرجال والنساء تجري في الجادّات، وتُحدث ضجيجاً قوياً من هدير محرّكاتها ووقع أحذيتها. هنا في «بانيه»، الشوارع قصيرة، تلتفّ وتنفذ إلى شوارعَ أخرى، وإلى أزقّةٍ أخرى، إلى معابر، إلى سلالم، وهي أشبه ما تكون بعمارة كبيرة فيها ممرّات وغرف متداخلة بعضها ببعض. مع ذلك، باستثناء الكلب الأسود ديب، أو هيب، وبضعة أولاد لا تعرف أسماءهم، يبدو أنّ غالبية الناس لا يرونها. كانت لالا تتسلّل دون أن تُحدث صوتاً، تذهب من شارع إلى شارع، تتبع مسار الشمس والضوء.

لعلّ الناس يخافون هنا؟ ممَّ يخافون؟ يصعب قول ذلك، كأنهم يشعرون بأنهم مراقَبون، ويجدر بهم الانتباه إلى حركاتهم كلّها، وإلى أقوالهم كلّها. ولكن لا أحد يراقبهم في الحقيقة. هل لأنهم يتحدّثون لغاتٍ شتّى؟ هناك أناسٌ من إفريقيا الشمالية، من المغرب العربي، مغاربة، جزائريون، تونسيون، موريتانيون، وكذلك من إفريقيا، السنغاليون، الماليّون، الداهوميون(*)، ثم هناك اليهود القادمون من كلّ مكان، لكنّهم لا يتحدّثون تماماً لغة بلادهم. هناك البرتغاليون، الإسبان، الإيطاليون، وأناسٌ غرباء أيضاً لا يشبهون الآخرين، وكذلك يوغسلافيون، وأتراكٌ، وأرمن، وليتوانيون. لم تكن لالا تعي معنى هذه الأسماء كلّها، ولكن هكذا كانوا يُدعَون هنا، والعمّة تعرف تلك الأسماء كلّها. وهناك الغجر على وجه الخصوص، كأولئك الذين يقطنون في المنزل المجاور، أعدادهم غفيرة إلى حدّ أنك لا يمكن أن تعرف ما إذا كنت قد رأيتهم من قبل، أو

(*) الداهوميون: سكّان جمهورية بنين الحالية، الواقعة في غرب إفريقيا.

أنهم وصلوا حديثاً. وهم لا يحبّون العرب ولا الإسبان ولا اليوغسلافيين. إنهم لا يحبّون أحداً، فهم غير معتادين على العيش في مكانٍ مثل حيّ «بانيه»، ولهذا تراهم مستعدّين للاقتتال دوماً، حتى الصبية الصغار والنساء اللواتي، على حدّ قول العمّة، يحملن شفرة حلاقة داخل أفواههن. في بعض الأحيان، كانوا يستيقظون ليلاً على صخب مشاجرة في الأزقّة. تنزل لالا إلى الشارع، فترى على نور مصباح الشارع الشاحب رجلاً ممدّداً على الأرض يمسك مديةً مغروسة في صدره. في اليوم التالي، يكون هناك آثارُ دماءٍ طويلة سالت على الأرض، فيأتي الذباب ويحوم حولها.

أحياناً كانت تصل زمرةٌ من رجال الشرطة أيضاً، يوقفون سيّارتهم الكبيرة أسفل السلم، ويتجهون إلى المنازل، لا سيما تلك التي يعيش فيها العرب والغجر. رجال بالبزّة الرسمية والقبّعة، لكنّهم ليسوا الأخطر، إنما أولئك الذين يلبسون كسائر الناس، بزّة رمادية وبلوزة بياقةٍ عالية. يقرعون الأبواب بقوّةٍ كبيرة، ويجب أن يُفتح لهم على الفور. يدخلون إلى الشقق دون أن يقولوا شيئاً، ويتحقّقون من القاطنين فيها. في بيت العمّة، ذهب الشرطي وجلس على ديوان الجلد الذي تستخدمه لالا سريراً لها، وظنّت أنه سيُحدث فيه ثقباً وتشعر بأثره في المساء حين تخلد إلى النوم، هنا حيث جلس الرجل البدين.

«الاسم؟ الكنية؟ اسم القبيلة؟ تصريح الإقامة؟ إذن العمل؟ اسم ربّ العمل؟ رقم الضمان الاجتماعي؟ عقد الإيجار؟ وصل الدفع؟».

حتى إنه لم ينظر إلى الأوراق التي أعطته إياها العمّة، واحدةً بعد الأخرى.

كان يجلس على الأريكة، يدخّن سيجارة الغولواز سئماً. لكنّه نظر

إلى لالا التي كانت تقف متأهّبة أمام باب الغرفة. فقال للعمّة: «هل هي ابنتك؟».

«لا، إنها ابنة أخي»، قالت العمّة.

أخذ الأوراق كلّها وبدأ يدقّق.

«أين أهلها؟».

«لقد ماتوا».

«آه!»، قال الشرطي. نظر إلى الأوراق كمَن يفكّر.

«هل تعمل؟».

«لا، ليس بعدُ، سيّدي»، قالت. -تقول: «سيّدي» حين تكون خائفة-.

«لكنّها سوف تعمل هنا؟».

«نعم سيّدي، إذا وجدت عملاً. ليس من السهل العثور على عمل لفتاة شابّة».

«هي في السابعة عشرة؟».

«نعم سيّدي».

«يجب أخذ الحذر، هناك مخاطرُ كبيرة هنا بالنسبة لفتاةٍ صغيرة بعمر السابعة عشرة».

لم تقل العمّة شيئاً. ظنّ الشرطيّ أنها لم تفهم، فشدّد على كلامه. راح يتحدّث ببطء، وهو يقول كلّ كلمة على حدة، وعيناه تلمعان كأنّ الأمر صار يعنيه أكثر الآن.

«حاذِري أن ينتهي المطاف بابنتك في شارع بوا دو لافارين، هيه؟! هناك الكثير من الفتيات الآن مثلها، أتفهمين؟!».

«نعم سيّدي»، قالت العمّة دون أن تجرؤ على تكرار القول إنّ لالا ليست ابنتها.

لكنّ الشرطي أحسّ بوقع نظرة لالا القاسية عليه، وهذا ما جعله يضطرب. توقّف عن الكلام لبضع لحظات، وأصبح الصمت لا يُحتمل. حينئذٍ، انفجر الشرطيّ البدين، واستأنف بصوتٍ غاضب وقد ضاقت عيناه من شدّة السخط: «نعم أفهم، نعم، تقولين ذلك، ثم يأتي يومٌ تصبح فيه ابنتك على الرصيف، عاهرة بعشرة فرنكات لأيّ عابر سبيل، ولهذا، لا يجوز أن تأتي بعد ذلك تبكين، وتقولين: لم أكن أعلم.. لأنني حذّرتك!».

كان يصرخ تقريباً، وانتفخت شرايين صدغيه. بقيت العمّة ساكنة، مشلولة الحركة، لكنّ لالا لم تكن تخاف الرجل البدين. نظرَت إليه بقسوة، مشَت نحوه وقالت له: «اخرج من هنا!».

نظر إليها الشرطي مذهولاً كأنها شتمَته. هل سيفتح فمه وينهض ليصفع لالا؟ لكنّ نظرة لالا كانت قاسية كالمعدن، وصعُب عليه تحمّلها، عند ذاك، وقف الشرطيّ بعصبية، وأصبح في الخارج بلمح البصر، ونزل السلالم مسرعاً. سمعت لالا صوت صفق الباب المؤدّي إلى الشارع. كان قد رحل.

جلست العمّة على الأريكة وبدأت تبكي ووجهها بين يديها. اقتربت لالا منها، أحاطت بكتفيها وقبّلت وجنتها كي تواسيها.

«ربما يجدُر بي الرحيل من هنا!» -قالت برقّة، كأنها تتحدّث إلى طفلٍ صغير- «إذا رحلت سيكون ذلك أفضل».

«لا، لا!»، قالت العمّة، وصارت تبكي أكثر.

في الليل، عندما نام كلّ شيء حولها ولم يبقَ سوى صوت الرياح

على تنك السطوح، والماء الذي يقطر من مكانٍ ما في أحد مجاري المياه، بقيت لالا مستلقيةً فوق الأريكة وعيناها مفتوحتان على الظلام. كانت تفكّر ببيت المدينة، هناك عندما كانت تهبّ الرياح في الليل. تمنّت لو أنها تستطيع أن تدفع الباب وتصبح في الخارج مباشرةً، كما في الماضي عندما كان يلفّها الليل العميق بآلاف النجوم وتشعر بصقيع الأرض الصلبة تحت قدميها العاريتين. تسمع فرقعة البرد وصيحات طيور السُّبد ونئيم البومة ونباح الكلاب البرّيّة. تمنّت أن تمشي هكذا ببساطة في الليل، حتى تصل إلى الهضاب الصخرية يرافقها شدوُ الجنادب، أو على طول درب الكثبان تقودها أنفاسُ البحر.

بكلّ ما أوتيت من قوّة راحت تسبر الظلام، كأنّ نظرها كان قادراً على فتح السماء من جديد واستبعاث الوجوه الغائبة، وخطوط أَسقُف الصفيح والورق المقطرن، وجدران الألواح والورق المقوّى، وأخيلة التلال، والناس كلّهم: العجوز نعمان، فتيات عين الماء، السوسي، أولاد العمّة، وعلى الأخصّ الحرطاني كما كان، ساكن الحركة في حرارة الصحراء يقف على ساقٍ واحدة، جسده ورأسه مغطّيان، دون أيّ كلمة، دون أيّ إشارة غضب أو تعب، جامداً أمامها، حين جاء رجال الصليب الأحمر لأخذها. تمنّت أن ترى أيضاً الرجل الذي تسمّيه السرّ، ذاك الذي كانت تصل نظرته من البعيد لتحضنها وتنفذ إليها مثل نور الشمس.

ولكن، هل بوسعهم الوصول إلى هنا من الجانب الآخر للبحر، من الجانب الآخر لكلّ شيء؟ هل بوسعهم أن يجدوا طريقهم وسط تلك الدروب كلّها، ويعثروا على الباب، وسط تلك الأبواب كلّها؟ بقي الظلام غبشاً والفراغ كبيراً، كبيراً جداً في الغرفة، بحيث صار يدور ويحفر دوّامة

مدوّخة أمام لالا، أمسكت بها وراحت تسحبها إليها. تشبّثت بكلّ قواها بالأريكة، قاومت، تصلّب جسدها وكاد أن يتحطّم. كانت تريد أن تصرخ، أن تنادي، كي تكسر الصمت وتنزع الليل الثقيل. لكنّ حنجرتها المخنوقة لم تسمح لأيّ صوتٍ بالخروج، ولم تتمكّن من التنفّس إلا بشقّ النفس. خلال دقائق، ساعات ربما، كانت تقاوم، جسدها كلّه تحت وطأة هذا التشنّج. أخيراً، وعلى نحوٍ فجائيّ، عندما ظهر أوّلُ نورٍ من ضياء الفجر في فناء المبنى، شعرت لالا بأنّ الدوّامة قد تلاشت وابتعدت. عاد جسدها وهبط فوق الأريكة رخواً لا شكل له. فكّرت في الطفل الذي تحمله في داخلها، ولأوّل مرّة، شعرت بالقلق لأنها أساءت لشخصٍ يخصّها. وضعت يديها الاثنتين على جانبي بطنها إلى أن صارت الحرارة عميقة. وبكت طويلاً دون أيّ صوت، بنشيجٍ هادئ كأنها تتنفّس.

إنهم سجناء حيّ «بانيه». ربما لا يدركون ذلك حقيقةً، ويظنّون أنّ بوسعهم الرحيل ذات يوم إلى مكانٍ آخر، إلى قراهم في الجبال ووديان الطين، ويلتقون أولئك الذين تركوهم، الأهل، الأولاد، الأصدقاء. لكنّ هذا مستحيل. فالشوارع الضيّقة بجدرانها القديمة التي تقشّرت، والشقق المعتمة، والغرف الرطبة الباردة، التي يُثقل هواؤها الرمادي على الصدور، والمشاغل الخانقة، حيث تعمل الفتيات أمام آلاتٍ لصنع السراويل والفساتين، وقاعات المستشفيات، والورش، والشوارع التي يضجّ فيها صخب المثاقب الكهربائية، كلّ شيء يمسك بهم، يحاصرهم، يجعلهم سجناء ولا يستطيعون التحرّر.

ثم وجدت لالا عملاً. أصبحت عاملة تنظيفات في فندق سانت بلانش، الكائن عند مدخل المدينة القديمة من جهة الشمال، ليس بعيداً جدّاً عن الجادّة التي التقت فيها راديكس أوّل مرّة. في كلّ يوم، تذهب في الصباح الباكر قبل أن تفتح المخازن. تتلفّف بمعطفها الكستنائي جيّداً لاتّقاء البرد، وتعبر المدينة القديمة كلّها. تسير على طول الأزقّة المظلمة، ترتقي السلالم، حيث لا شيء سوى المياه القذرة، تسيل عبر الدرجات. لا تصادف الكثير من الناس في الخارج، بضعة كلابٍ فقط منفوشة الوبر، تبحث عن بقايا الطعام بين أكوام القمامة. تحتفظ لالا في جيبها بقطعة خبزٍ بائتة، فهم لا يطعمونها شيئاً في الفندق، أحياناً تتقاسمها مع الكلب العجوز الأسود، ذاك الذي تسمّيه ديب، أو هيب.

بمجرّد وصولها، كان صاحب الفندق يعطيها دلواً ومكنسة بفرشاة لكي تنظّف السلالم شديدة القذارة، حتى إنّ لالا كانت ترى في ذلك عناءً ضائعاً. لم يكن المالك كبير السن، لكنّ وجهه يبقى شاحباً وعيناه منتفختين كأنه لا ينام كفاية. أما فندق سانت بلانش فهو كناية عن منزل بثلاثة طوابق شبه متهالك، يحتلّ طابقَه الأرضي مخزنُ مكتب الدفن. في المرّة الأولى التي دخلت فيها لالا إلى هناك، خافت وأرادت الهروب على الفور لشدّة ما كان قذراً وبارداً وكريه الرائحة. لكنّها اعتادت عليه بعد ذلك. كما في شقّة العمّة، أو كما في حيّ «بانيه»، إنها مسألة اعتياد. يجب أن تغلق فمها فحسب، وتتنفّس ببطء أنفاساً بطيئة، كي لا تسمح أن تتسرّب إلى داخل جسدها رائحة الفقر والمرض والموت التي تسود هنا، في السلالم، في الممرّات، في تلك الزوايا التي تعشّش فيها العناكب والصراصير.

صاحب الفندق يونانيّ أو تركيّ، إنها لا تعرف على وجه التحديد. بعد أن يعطيها الدلو والمكنسة، يعود للنوم في غرفته في الطابق الأوّل، هناك حيث الباب الزجاجيّ، كي يتمكّن من مراقبة الداخلين والخارجين، وهو في سريره. لا يقيم في الفندق سوى أناسٍ بغيضين وفقراء. رجالٌ فقط، عمّال ورشات من شمال إفريقيا، سودٌ من جزر الأنتيل، وإسبان أيضاً، لا عائلات لهم ولا منازل، يقيمون هنا بانتظار العثور على الأفضل. لكنّهم اعتادوا المكان ومكثوا فيه، وفي أغلب الحالات، كانوا يعودون إلى بلادهم دون أن يعثروا على الأفضل، إذ إنّ البيوت غالية الثمن ولا أحد يريدهم في المدينة. ولذلك، كانوا يقيمون في فندق سانت بلانش، شخصان أو ثلاثة في غرفة واحدة دون أن يتعارفوا. في مطلع كلّ صباح، قبل الذهاب إلى العمل، يقرعون باب المالك الزجاجي ويدفعون له مسبقاً أجرة مبيت الليلة التالية.

عندما تنتهي من فرك درجات السلّم القذرة والمشمّع الأرضي الملتصق بالممرّات بمكنسة الفرشاة، تنظّف لالا المراحيض وغرفة الحمّام الوحيدة بفرشاة المكنسة، مع أنّ طبقة الأوساخ قاسيةٌ هناك كشعر الفرشاة، ولا تُفلح بتاتاً في نزعها. في ما بعد، تنظّف الغرف، تفرغ صحون السجائر وتكنس الفتات والغبار. يعطيها صاحب الفندق المفتاح العامّ، وتنتقل من غرفةٍ إلى غرفة. حين يخرج الجميع من الفندق، تنظّف لالا الغرف بسرعة، لأنّ الرجال الذين يعيشون فيها فقراء جدّاً، وعملياً لا يملكون أشياء خاصة بهم. هناك فقط حقائبُ كرتونية، أكياسُ بلاستيك تحتوي على الغسيل الوسخ، وقطعة صابون صغيرة في ورقة جرائد. أحياناً يكون هناك صورٌ داخل محفظة على المنضدة. كانت لالا تنظر لبرهةٍ إلى تلك الوجوه غير الواضحة الملامح فوق الورقة اللامعة، وجوه رقيقة شبه ممحيّة لأطفالٍ ونساء، كأنها وراء الضباب. ثمّة رسائلُ أيضاً، تكون أحياناً داخل مغلّفات كبيرة، أو حتى مفاتيح، محافظ نقود فارغة، تذكاراتٌ مشتراة من الأسواق الشعبية الواقعة بالقرب من الميناء القديم، ألعاب بلاستيكية للأولاد الذين تراهم في الصور المبهمة. كانت لالا تنظر إلى تلك الأشياء كلّها للحظةٍ طويلة، تمسك بيديها المبلّلتين تلك الأغراض، تنظر إلى تلك الكنوز المرهونة بالظروف، كأنها تحلم نصف حلم، كأنها ستنجح في الدخول إلى عوالم الصور المشوّشة، وتعثر على صدى الأصوات والضحكات وتلمح إشراقة البسمات. ثم يتلاشى كلّ شيء دفعةً واحدة، وتتابع كنسَ الغرف والتخلّص من بقايا الأطعمة السريعة للرجال، وتعيد تلك الأغراض والصور الحزينة الرمادية التي لا تعرف أصحابها إلى أماكنها بعد أن عكّرت وحدتها للحظة. أحياناً، فوق سريرٍ مكشوف، كانت لالا تجد

مجلّةً مليئة بالصور الفاحشة، لنساءٍ عاريات بأفخاذٍ متباعدة، وأثداء بدينة متدلّية كحبّات البرتقال الضخمة، نساء بشفاهٍ مخضّبة بالأحمر الفاقع، وعيون مظلّلة بالأزرق والأخضر، وشعر أشقر أو أحمر. تكون صفحات المجلّة مجعّدة، تلاصقت من المني، الصور وسخة ومهترئة، كأنها كانت مرميّةً في الشوارع تحت الأقدام. تنظر لالا إلى المجلّة لبرهةٍ طويلة أيضاً، فيبدأ قلبها بالخفقان بسرعة من الاضطراب والقرف، ثم تضع المجلّة فوق السرير المرتّب، بعد أن تملّس الصفحات وتعيد الغلاف إلى مكانه، كأنّ هذه المجلّة تذكارٌ ثمين هي أيضاً.

طوال الوقت، حين تعمل على السلالم أو في الغرف، لا ترى لالا أحداً. لم تكن تعرف وجوه الرجال المقيمين في الفندق، وهم أنفسهم حين يذهبون إلى أعمالهم في الصباح، يستعجلون الخُطا، يمرّون من أمامها ولا يرونها. كما أنّ لالا كانت تتعمّد ارتداء ملابس تصبح فيها غير مرئيّة. تحت معطفها الكستنائيّ، ترتدي ثوباً رمادياً من أثواب العمّة يصل حتى كاحليها تقريباً. تعقد منديلاً كبيراً حول رأسها، وتنتعل في قدميها صندلاً من الكاوتشوك الأسود. في ممرّات الفندق المعتمة، وفوق المشمّع الذي كان بلون النبيذ العكر، وأمام الأبواب الملطّخة، هي طيفٌ يكاد لا يُرى، رماديّ وأسود، شبيهٌ بكومٍ من الخِرق. الوحيدان اللذان كانا يعرفانها هنا، هما مالك الفندق، والحارس الليلي الذي يبقى حتى الصباح، وهو رجلٌ جزائريّ طويلٌ وشديد النحول، له وجهٌ قاسي الملامح وعينان خضراوان جميلتان، كعينَيْ نعمان الصيّاد. هو الوحيد الذي كان يسلّم على لالا بالفرنسيّة، ويقول لها بضع كلماتٍ لطيفة، بما أنه كان يتحدّث دائماً بطريقةٍ متكلّفة جدّاً بصوته الخفيض، كانت لالا تردّ عليه بابتسامة. لعلّه الوحيد

أيضاً هنا، الذي لاحظ أنّ لالا فتاةٌ شابّة، والوحيد الذي شاهد تحت خيال أسمالها سُمرةَ وجهها الجميل بلون النحاس وعينيها المفعمتين بالنور. بالنسبة للآخرين، كأنْ لا وجود لها.

حين تنتهي لالا من عملها في فندق سانت بلانش، تكون الشمس لا تزال عاليةً في السماء. وهكذا تنزل إلى الشارع الكبير باتجاه البحر. في ذلك الوقت، لا تفكّر في أيّ شيء، كأنها نسيت كلّ شيء. في الشارع الواسع، الحشود على الأرصفة مستعجلةٌ كالعادة، ودائماً نحو المجهول. رجالٌ بنظّارات عاكسة يسيرون مسرعين بخطواتهم الواسعة، فقراء ببدلات قديمة يلمع قماشها، يذهبون في الاتجاه المعاكس، عيونهم ترصد كالثعالب. زمرٌ من الفتيات بعمر الصبا بملابسَ ضيّقة تلتصق بأجسادهن، يتسكّعن ويطرقن كعوبهن هكذا: كْراب-كْراب-كْراب. أما السيّارات، الدرّاجات النارية، الدرّاجات الهوائية، الشاحنات، الحافلات، فجميعها تسير بأقصى سرعة باتجاه البحر، أو صعوداً باتجاه المدينة، وتحمل رجالاً ونساءً وجوههم متشابهة. تمشي لالا على الرصيف وترى ذلك كلّه: هذه الحركة، هذه الأشكال، بريق الأضواء، تنفذ إليها وتعصف كالزوبعة. كانت جائعةً ومنهَكة الجسم من العمل في الفندق، مع ذلك، أرادت السير أكثر كي ترى المزيد من النور، كي تطرد الظلام القابع في أعماقها. كانت رياح الشتاء الجليدية تهبّ عاصفةً على طول الجادّة، تثير الغبار وترفع أوراق الصحف القديمة. أغمضت لالا عينيها نصف إغماضة، وسارت محنيّةً إلى الأمام قليلاً، كما كانت تفعل في ما مضى في الصحراء، نحو مصدر النور، هناك في آخر الجادّة.

حين وصلت إلى الميناء، أحسّت بنوع من النشوة في داخلها، فترنّحت

على حافة الرصيف. هنا الهواء يدوّم بحرّيّة، يطرد مياه الميناء أمامه، يصفق معدّات السفن. النور قادمٌ من البعيد البعيد، من وراء الأفق، من الجنوب تحديداً، ولالا تسير على امتداد الرصيف نحو البحر. أصوات الناس والمحرّكات تصخب حولها، لكنّها لا تعيرها اهتماماً. تركض تارةً، وتمشي تارةً أخرى. تذهب باتجاه الكنيسة الكبرى المخطّطة، ثم إلى مكان أبعد، إلى المناطق المهجورة في أرصفة الميناء، هناك حيث الرياح تحمل معها غبار الأسمنت.

فجأةً خيّم الصمت كأنها وصلت إلى الصحراء فعلاً. كانت تمتدّ أمامها مساحاتٌ بيضاء يلمع فيها نور الشمس بقوّة. مشت لالا على مهلٍ بمحاذاة سفن الشحن الضخمة، تحت الروافع المعدنية وبين صفوف الحاويات الحمراء. ما من أناسٍ هنا، ولا محرّكات سيّارات، لا شيء سوى الحجارة البيضاء والأسمنت ومياه الأحواض الداكنة. اختارت لها حينئذٍ مكاناً بين صفّين من الحمولات المُغطّاة بلونٍ أزرق، وجلست بمنأى عن الرياح كي تأكل الخبز والجبن وهي تتأمل مياه الميناء. أحياناً كانت تمرّ طيورٌ بحرية كبيرة تطلق أصواتاً حادّة، فتذكّر لالا بملاذها بين الكثبان وبالنورس الأبيض أمير البحر. تقاسمت خبزها مع النوارس، وجاءت بعض الحمائم أيضاً. هنا كلّ شيء هادئ، لا يمكن لأحد أن يعثر عليها. بالتأكيد كان يصل بين حينٍ وآخر صيّادٌ يحمل قصبة، يسير على طول الرصيف باحثاً عن مكانٍ مناسب لاصطياد سمك السرغوس، يلقي نظرةً عَجْلى على لالا ثم يذهب إلى آخر الميناء. أو صبيّ يسير ويداه في جيبيه، يلعب وحيداً برَكْلِ علبة طعام محفوظ صدئة.

شعرت لالا بالشمس تنفذ إليها، تملؤها شيئاً فشيئاً وتطرد السواد

والحزن كلّه من أعماقها. لم تعد تفكّر بمنزل العمّة، ولا بالأقنية السوداء التي تقطر فيها مياه الغسيل. لم تعُد تفكّر بفندق سانت بلانش، ولا حتى بتلك الطرقات والجادّات والشوارع الواسعة كلّها، حيث الناس يسيرون بهدير لا يتوقّف. تحوّلت إلى جزءٍ من الصخر، تغطّيها الأشنيات والطحالب، ساكنةً دون أفكار، تتمدّد بفعل حرارة الشمس، تغفو لهنيهات وهي مستندةٌ إلى الغطاء الأزرق وركبتاها تحت ذقنها، تحلم أنها تتسلّل إلى إحدى السفن فوق البحر الرائق، وتصل بها إلى الطرف الآخر من العالم.

كانت سفن الشحن تنساب ببطء فوق الأحواض السوداء، ثم تتجه إلى بوّابة الميناء باحثةً عن البحر. وكانت لالا تلهو باللحاق بها وهي تركض على امتداد الأرصفة، إلى أبعد نقطة تستطيع الوصول إليها. لم تكن تعرف قراءة أسمائها، لكنّها كانت تنظر إلى أعلامها، إلى بقع الصدأ فوق هياكلها، وإلى روافعها هائلة الحجم المعقوفة والشبيهة بهوائيّ التلفاز، وإلى مداخنها التي رُسم عليها إما نجومٌ، أو صلبانٌ، أو مربّعات، أو شمس. كان القارب المرشد يتهادى أمام سفن الشحن كأنه حشرة، وحين تصل السفن إلى المياه العميقة، كانت تطلق نفيرها مرّةً أو مرّتين، هكذا كي تقول وداعاً.

مياه المرفأ جميلة أيضاً. كانت لالا تجلس دائماً مسندةً ظهرها إلى وتد ربط الحبال، وتدلّي ساقيها فوق المياه. تتأمّل بقع النفط الملوّنة بألوان قوس قزح، تتشكّل وتتبدّد كالغيوم، وأشياء غريبة تطفو على السطح: زجاجات بيرة، قشور برتقال، أكياس بلاستيكية، قطع خشبٍ وحبال، وترى شيئاً يشبه الرغوة البنّيّة لا تعرف مصدره، ينسلّ كخيوط اللعاب على طول الأرصفة. حين تعبر السفينة، كانت تحدث طبطبة، تمخر وتصطدم بالرصيف وهي تبتعد في مسارها. تهبّ بين حينٍ وآخر رياحٌ قويّة جداً،

فتتغضّن مياه الأحواض وترتعش، وتشوّش بذلك انعكاسات صور السفن المحمّلة فوق سطح الماء.

في بعض أيام الشتاء المُشمِسة، كان راديكس الغجري يأتي للقاء لالا.

كان يمشي على مهلٍ على طول الأرصفة، لكنّ لالا عرفته من بعيد، فخرجت من مخبئها بين الأغطية وصفّرت من بين أصابعها، كما كان يفعل الرعاة في بلاد الحرطاني. وصل الصبيّ راكضاً وجلس بالقرب منها على حافة الرصيف. بقيا لحظةً ينظران إلى المرفأ دون أن يتبادلا الكلام.

ثم أشار الصبي للالا إلى شيء لم تلاحظه من قبل. فوق سطح المياه الأسود، فقاعاتٌ صغيرة صامتة تُحدث أمواجاً صغيرة. نظرت لالا إلى الهواء بدايةً ظانّةً أنها حبّات مطر، لكنّ السماء كانت صافية. حينئذٍ أدركت أنها فقاعاتٌ آتية من الأعماق وتنفجر عند وصولها إلى سطح الماء. معاً، راحا يتسلّيان بمنظر انفجار الفقاعات.

«هناك! هناك!... أيضاً هناك.. وهناك!».

«هناك، انظري!».

«وهناك...».

من أين كانت تأتي تلك الفقاعات؟ قال راديكس إنها أسماكٌ تتنفّس، لكنّ لالا تعتقد أنها نباتات على الأغلب، وفكّرت بتلك الأعشاب الغامضة التي تتحرّك ببطء في مياه الميناء العميقة.

بعد ذلك، أخرج راديكس علبة ثقاب لكي يدخّن كما يقول. ولكن في الواقع، ليس التدخين ما يستهويه، إنما إشعال أعواد الثقاب. حين يكون معه القليل من المال، يذهب إلى كشك بيع الدخان ويشتري علبة ثقاب كبيرة، عليها صورةٌ لغجريّةٍ راقصة. ثم يذهب للجلوس في مكانٍ آمن

ويبدأ بشحط الأعواد، واحداً تلو الآخر، يستمتع بمشاهدة الرأس الصغير الأحمر وهو يتوهّج مُحدِثاً فرقعةً خفيفة كالصاروخ، ثم باللهب البرتقالي المتراقص في طرف العود الخشبي، محمياً في تجويف يديه.

في المرفأ رياحٌ كثيرة. اضطرّت لالا لرفع أذيال معطفها لتصنع شيئاً يشبه الخيمة، وأحسّت بحرارة الفوسفور اللاذعة تخِز منخريها. في كلّ مرّة يشعل فيها راديكس عود ثقاب، كانا يضحكان كثيراً ويحاولان إمساك طرف العود الخشبي كلٌّ بدوره. علّم راديكس لالا كيف تحرق عود الثقاب كاملاً، يلحس أطراف أصابعه ويمسك بالطرف المحترق. عندما أمسكت لالا عود الثقاب المتفحّم والذي لا يزال أحمر، حدث أزيزٌ خفيف وأحرق سبّابتها وإبهامها، لكنّه لم يؤلمها. كانت تنظر إلى اللهب الذي يلتهم العود كلّه، والفحم يتلوّى كأنّ الحياة دبّت فيه.

ثم تشاركا هما الاثنان تدخين سيجارة، بينما كانا مستندين إلى غطاء البضائع الأزرق، وأنظارهما شاردة في مياه الميناء الداكنة، وفي السماء الملوّثة بغبار الأسمنت.

«كم تبلغين من العمر؟» سألها راديكس.

«أنا في السابعة عشرة، ولكن سأبلغ الثامنة عشرة قريباً».

«أنا سأبلغ الرابعة عشرة في الشهر المقبل».

فكّر قليلاً وهو يعقد حاجبيه.

«هل سبق أن نمتِ مع رجل؟».

«لا.. في الحقيقة، نعم، لماذا؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

كان راديكس منشغل البال جداً، حتى إنه نسي أن يعطي السيجارة للالا، وراح يسحب نفساً بعد نفس دون أن يبتلع الدخان.

«أما أنا فلم أفعل ذلك»، قال.

«لم تفعل ماذا؟».

«لم أَنَمْ مع امرأة».

«أنت يافعٌ جداً».

«هذا ليس صحيحاً!» -قال راديكس. توتّر وتلعثم قليلاً- «هذا ليس صحيحاً! أصدقائي كلّهم فعلوها، بل هناك من لديه امرأتُه الخاصّة. إنهم يسخرون مني ويقولون إنني شاذّ لأن لا صديقة لديّ».

فكّر قليلاً وهو يدخّن اللفافة: «ولكنني لا أعبأ بما يقولون. أظنّ أنّ مضاجعة امرأة هكذا ليست أمراً مستحَبّاً، بهدف المكر والمسخرة فقط. الأمر شبيه بالسجائر. أتعلمين؟ أنا لا أدخّن البتّة أمام الآخرين هناك في الفندق. يظنّون أنني لم أدخّن قطّ، وهذا ما يضحكهم أيضاً لأنهم لا يعلمون. أما أنا فلا يهمّني، أفضّل ألّا يعلموا».

ثم أعطى السيجارة للالا. كان قد استهلكها كلّها تقريباً. أخذت لالا منها نفساً واحداً، ثم سحقتها على أرض الرصيف.

«هل تعلم أنني سأُرزق بطفل؟».

لم تعرف السبب الذي دفعها لقول ذلك لراديكس.

أما هو، فقد نظر إليها لحظةً طويلة دون أن يجيب. وبان شيءٌ من الحزن في عينيه، لكنّه سرعان ما تبدّد.

«هذا جميل» -قال بجدّيّة- «هذا جيّد، أنا سعيد حقّاً!».

كان سعيداً جداً، بحيث لم يكن قادراً على البقاء جالساً. وقف، ثم سار أمام المياه وعاد إلى لالا.

«هل ستأتين لزيارتي هناك، في مسكني؟».

«إذا كنت ترغب»، قالت لالا.

«تعلمين، المكان بعيد، يجب أن نركب الحافلة، ثم نسير طويلاً باتجاه الخزّانات. عندما ترغبين، سنذهب معاً، لأنك قد تتوهين».

ثم ذهب راكضاً. كانت الشمس قد مالت إلى المغيب، وأضحت قريبة من خطّ المباني العالية التي تُرى في الطرف الآخر من الرصيف. سفن الشحن لا تزال راسية، كأنها جروفٌ صخرية صدئة، وطيور النوارس تعبُر أمامها ببطءٍ وترقص فوق الصواري.

تمرّ أيامٌ تسمع فيها لالا أصوات الخوف. لا تعرف بالتحديد ماهيّتها، أشبه بضرباتٍ ثقيلة فوق ألواح الصفيح، أو بهمسٍ خفيف، لا يأتي عبر الأذنين، إنما من باطن قدميها، ويدوّي داخل جسمها. لعلّها أصوات الوحدة، والجوع أيضاً، الجوع للرقّة، للنور، للأغاني، الجوع لكلّ شيء.

بمجرّد اجتياز عتبة فندق سانت بلانش بعد الانتهاء من عملها، شعرت لالا بسقوط نور السماء الساطع عليها، فتعثّرت. أقحمت رأسها قدر استطاعتها في ياقة معطفها الكستنائيّ، وغطّت شعرها حتى الحاجبين بمنديل العمّة الرمادي، لكنّ بياض السماء كان يدوّخها أكثر، وكذلك الشوارع الخالية. شعورٌ أشبه بالغثيان، يصعد من جوفها، يصل إلى حنجرتها ويملأ فمها بالمرارة. جلست لالا على الفور، في مكانٍ لا على التعيين، دون أن تحاول فهم الأمر، دون أن تعبأ بالناس الذين ينظرون إليها، لأنها تخاف أن يُغمى عليها مرّةً أخرى. كانت تقاوم بكلّ قواها، تحاول تهدئة ضربات قلبها وتقلّصات أحشائها. وضعت يديها الاثنتين على بطنها كي تنفذ حرارة راحتيها الدافئتين إلى ثوبها وتدخل إليها وتصل إلى الطفل. هكذا كانت تعالج نفسها في الماضي، حين تنتابها الآلام الفظيعة في أسفل بطنها، كحيوان يقضمها من الداخل. ثم راحت تتأرجح قليلاً، من الأمام إلى الوراء على هذا النحو وهي تجلس على حافة الرصيف بالقرب من السيّارات المركونة.

كان الناس يمرّون من أمامها ولا يتوقّفون، يتباطؤون قليلاً كأنهم يريدون الاقتراب منها، ولكن حين ترفع رأسها، كانوا يرون الألم الشديد في عينيها فيتراجعون على الفور، لأنّ ذلك يخيفهم.

بعد قليلٍ، خفَّ الألم تحت يدَيْ لالا، وتمكّنت من التنفّس من جديد بحرّيّة أكثر. على الرغم من الهواء البارد، بلّلها العرق والتصق ثوبها بظهرها. لعلّ ذلك صوت الخوف، الصوت الذي لا تسمعه بآذانها، تسمعه بأقدامها وبكامل جسدها، فتبدو المدينة خاليةً.

صعدت لالا باتجاه المدينة القديمة، ارتقت درجات السلّم المتكسّرة، حيث كانت تتسرّب مياه مزرابٍ رائحتُها كريهة. عند وصولها إلى أعلى السلّم، انعطفت إلى اليسار، ثم سارت في شارع بون جيزو. فوق الجدران المبقّعة كجلد مريضٍ مجذوم، علاماتٌ خُطّت بالطباشير، حروفٌ ورسوم غير مفهومة شبه ممحيّة. على الأرض، بقعٌ حمراء كالدم يحوم حولها الذباب. راح اللون الأحمر يلفّ ويدور داخل رأس لالا ويصفر كصفّارة الإنذار، صفيراً حفر ثقباً وأفرغ ذهنها.

على مهلٍ، وبجهدٍ جهيد، مشَت فوق أوّل بقعة، ثم الثانية، ثم الثالثة. كانت تمتزج بالبقع الحمراء أشياءُ بيضاء غريبة: غضاريف، عظامٌ مطحونة، جلد. اشتدّ دوّي الصفّارة داخل رأسها وحاولت أن تجري على طول الشارع النازل، لكنّ الحجارة كانت مبلّلة وزلقة، لا سيما أنها كانت تنتعل حذاءً من الكاوتشوك.

في شارع دوتيمون، كان هناك المزيد من الإشارات المكتوبة على الجدران القديمة، كلمات، ولعلّها أسماء؟ رسم امرأةٍ عارية بثديين شبيهين بالعينين، ذكّر لالا بالمجلّة الإباحية المفتوحة فوق السرير غير المرتّب في

غرفة الفندق. وإلى البعيد قليلاً، قضيب ذكر هائل الحجم مرسوم بالطباشير فوق بابٍ قديم، مثل قناعٍ قبيح.

تابعت لالا مسيرها وهي تتنفّس بمشقّة. كان العرق لا يزال يتصبّب فوق جبينها وعلى طول ظهرها، يبلّل خاصرتيها ويخِز تحت إبطيها. لا أحد في الشوارع في مثل هذه الساعة، بعض الكلاب منفوشة الوبر لا غير، تقضم العظام وهي تهمهم. النوافذ على مستوى الطريق مغلقة بشِباكٍ حديدية وقضبان. وإلى الأعلى، مصاريعُ النوافذ مفتوحة، والمنازل تبدو مهجورة. تنبعث برودة الموت من المنافذ والأقبية والنوافذ السوداء كأنفاس الموت، تزفر على امتداد الشوارع وتملأ الزوايا العفنة في أسفل الجدران. أين تذهب لالا؟ تابعت سيرها، ثم انعطفت مرّةً أخرى إلى اليمين، باتجاه جدار البيت القديم. ينتاب لالا دائماً شيءٌ من الخوف حين ترى تلك النوافذ العريضة المزوّدة بالقضبان، إذ يُخيّل إليها أنّ وراءها سجناً مات فيه أناسٌ في الماضي. بل يقال إنّ أنين السجناء يُسمع في الليل وراء القضبان. نزلت على طول شارع بيستول الذي لا يزال خالياً، واجتازت كنيسة الإحسان كي تتأمّل عبر بوّابة الحجر الرمادية القبّةَ الوردية العجيبة التي تحبّها كثيراً. في بعض الأيام، كانت تجلس على عتبة أحد البيوت، وتمكث هناك لوقتٍ طويل تتأمّل القبّة الشبيهة بغيمة، وتنسى كلّ شيء، إلى أن تأتي امرأةٌ وتسألها ماذا تفعل هناك، وتجبرها على الذهاب.

ولكن اليوم، حتى القبّة الوردية كانت تخيفها، كأنّ هناك خطراً يهدّدها وراء نوافذها الضيّقة، أو كأنها قبر. دون أيّ التفاتة، نزلت بسرعة باتجاه البحر، وسارت على امتداد الشوارع الهادئة. كان الغسيل يصطفق بفعل هبوب الهواء: ملاءاتٌ بيضاء منسّلة الحواشي، ملابسُ أطفال، ملابس

رجال، ملابس داخلية نسائية زرقاء ووردية. لم ترغب لالا في النظر إليها، لأنها تظهر أجساداً غير مرئية، سيقاناً، أذرعاً، صدوراً، كأنها جثثٌ مقطوعة الرأس. سارت على طول شارع روديا. هنا النوافذ منخفضة مغطّاة بأقفاص حديدية ومقفلة بالقضبان، وراءها الرجال والأطفال سجناء أيضاً. لبرهةٍ، سمعت لالا أطراف حديث، أصوات أوانٍ في مطبخ، بل سمعت خنين موسيقا، وفكّرت بأولئك العالقين في تلك الغرف المظلمة والباردة كلّهم مع الصراصير والفئران، أولئك الذين لن يروا النور، ولن يستنشقوا الهواء.

وراء تلك النافذة التي اسودَّ زجاجها وتصدّع، امرأةٌ بدينة مُقعَدة تعيش وحيدةً مع قطّين هزيلَين، تتحدّث دائماً عن حديقتها وورودها وأشجارها، وعن شجرة الليمون الكبيرة التي تعطي أجمل الثمار في العالم، هي التي لا تملك سوى غرفةٍ حقيرة باردة ومظلمة وهرّين أعميين. وهناك بيت إبراهيم، الجندي الوهراني(*) القديم، الذي حارب ضد الألمان والأتراك والصرب، في أماكن يردّد أسماءها دون كلل، حين تطلب منه لالا ذلك: تسالونيكي، ڤارنا، بجالا. ولكن، ألن يموت هو أيضاً داخل فخّ المنزل المجذوم، حيث يمكن أن يسقط عند كلّ درجة من درجات السلّم المظلم والزلق، والجدران تضغط فوق صدره الهزيل مثل معطفٍ ثقيل مبلّل؟ وهناك المرأة الإسبانية أيضاً، والدة الأولاد الستّة الذين ينامون جميعهم في الغرفة ذات النافذة الضيّقة نفسها، ويسرحون في حيّ «بانيه» بملابس بالية، شاحبين وجائعين على الدوام. وفي ذاك المنزل الذي تجري فيه سحليّة، بجدرانه التي تبدو مبلّلة بعرقٍ فاسد، زوجان مريضان يسعلان

(*) فرقة مشاة من الجيش الفرنسي، تأسّست في مدينة وهران الجزائرية وتضمّ العناصر الإفريقية كلّها.

بقوّة، إلى درجة تُجفل لالا أحياناً في الليل كأنها تسمعهما عبر الجدران كلّها. والثنائي الغريب، الرجل الإيطاليّ وامرأته اليونانية، يسكر كلّ مساء، وكلّ مساء، يضربها على رأسها لكماتٍ قويّة، هكذا ببساطة، حتى دون أن يكون غاضباً، فقط لأنها أمامه تنظر إليه بعينيها الدامعتين في وجهها المنتفخ من التعب. لالا تكره هذا الرجل، حين تفكّر فيه تكزّ على أسنانها، لكنّها تخاف أيضاً من هذا السُّكْر الهادئ واليائس، ومن خنوع تلك المرأة، لأنّ هذا ما كانت تراه فوق كلّ حجر، وفي كلّ بقعة من بقع الشوارع البغيضة في هذه المدينة، وفي كلّ إشارة كُتبت على جدران حيّ بانيه.

الجوع، الخوف، صقيع الفقر، في كلّ مكان، مثل ملابسَ قديمةٍ بالية ورطبة، مثل وجوهٍ متعبة فقدت نضارتها.

شارع بانيه، شارع بولو، طريق بوسنو المختصر، الجدران المجذومة نفسها، أعالي المباني يلامسها ضوءٌ بارد، وعند أسفل جدرانها تتأسّن المياه الخضراء وتتعفّن أكوام القمامة. لا دبابير هنا، ولا ذباب يتقافز حرّاً في الهواء المشبع بالغبار المتطاير. لا يوجد سوى بشرٍ وجرذان وصراصير، كلّ ما يعيش في الحفر، دون ضوء ودون هواء ودون سماء.

تلفّ لالا في الشوارع مثل كلبٍ أسود ازبأرّ وبرُه لا يجد له مكاناً. جلست لبرهةٍ فوق درجات السلالم، بالقرب من جدار نبتت وراءه شجرةُ المدينة الوحيدة، تينةٌ عتيقة رائحتها عابقة. تذكّرت لبرهةٍ الشجرةَ التي كانت تحبّها هناك، حين كان العجوز نعمان يذهب لإصلاح شباكه وهو يروي الحكايا. ولكنّها لا تستطيع البقاء في مكانٍ واحد لوقتٍ طويل، شأنها شأن الكلاب الكهلة المُنهَكة. عاودت السير عبر المتاهة المظلمة، بينما كان نور السماء يميل إلى الزوال شيئاً فشيئاً. ثم جلست قليلاً على مقعد في ساحة

حديقة الأطفال الصغيرة. هناك أيامٌ تحبّ فيها لالا المكوث هنا لمشاهدة الصغار وهم يتعثّرون في مشيتهم في الساحة، بسيقانهم الرخوة وأياديهم المتباعدة. ولكن الآن، لا شيء سوى الظلام، وامرأةٌ سوداء عجوز بثوبٍ واسع مبرقش فوق أحد المقاعد. ذهبت لالا وجلست بالقرب منها، وحاولت التحدّث إليها.

«هل تسكنين هنا؟». «من أين أنت قادمة؟ من أيّ بلد أنت؟».

نظرت إليها المرأة دون أن تفهم شيئاً، ثم خافت، وغطّت وجهها بطرف ثوبها المبرقش.

في آخر الساحة جدارٌ تعرفه لالا جيّداً. تعرف كلّ بقعة في القشرة الأسمنتية، كلّ تشقّق، كلّ مسربٍ صدئ. وفي أعلى الجدار تحديداً، أنابيب المداخن السوداء والمزاريب. تحت السقف نوافذُ صغيرةٌ ليس لها مصاريع، وزجاجها قذر. تحت نافذة غرفة العجوز إيدا، غسيلٌ ينسدل فوق حبل، تصلّب بفعل المطر والغبار. وتحته نافذةُ الغجر. غالبيّةُ زجاج النوافذ محطّم، وبعض هذه النوافذ لا زجاج له على الإطلاق، لم تعُد أكثر من ثقوبٍ سوداء مفتوحة كمحاجر العيون.

نظرت لالا بإمعانٍ إلى تلك الثقوب المظلمة، فشعرت من جديد بحضور الموت البارد والمرعب، وأصابتها قشعريرة. فوق هذه الساحة فراغٌ كبير، إعصارٌ من الفراغ والموت يولد من هذه النوافذ ويجول بين جدران المنازل. كانت الخلاسيّة العجوز إلى جانبها في المقعد ساكنة، لا تتحرّك ولا تتنفّس. لا ترى لالا منها سوى ذراعها النحيلة بعروقها الظاهرة كالحبال، ويدها ذات الأصابع الطويلة المدبوغة بالحنّاء، تمسك بهدب ثوبها فوق وجهها من جهة لالا.

لعلّ هناك فخّاً أيضاً؟ أرادت لالا النهوض والرحيل بسرعة، لكنّها شعرت بأنها مسمّرة إلى المقعد البلاستيكي كأنها داخل حلم. هبط الليل شيئاً فشيئاً على المدينة وغمر الظلام الساحة، أغرق الزوايا والشقوق، دخل عبر نوافذ الزجاج المحطّم. أصبح الطقس بارداً، وبدأت لالا تشدّ عليها معطفها الكستنائي وترفع ياقته حتى عينيها. لكنّ البرد تسلّل عبر نعلَيْ صندل الكاوتشوك إلى ساقيها، إلى ردفيها، إلى أسفل ظهرها. أغمضت عينيها كي تقاوم، كي لا ترى الفراغ الذي يدوّم فوق الساحة حول ألعاب الأطفال المتروكة، وتحت أعين النوافذ العمياء.

حين فتحت عينيها، لم يكن هناك أحد. كانت العجوز الخلاسيّة صاحبة الرداء المبرقش قد رحلت دون أن تلاحظ لالا. وعلى نحوٍ غريب، كانت الأرض والسماء أقلّ ظلمةً، كأنّ الليل قد تراجع.

عادت لالا للسير على طول الأزقّة الهادئة. نزلت السلالم، هناك حيث تكسّرت الأرض بفعل الحفّارات الآلية. كان البرد يمسح الشارع، ويصفق صفيح أكواخ المعدّات.

عندما خرجت من الأزقّة إلى البحر، رأت أنّ النهار لم ينتهِ بعد. كانت تعلو بين أبراج الكاتدرائية بقعةٌ مضيئة كبيرة. عبرت الشارع العريض جرياً دون أن تنظر إلى السيّارات المنطلقة، التي كانت تُطلق لها الأبواق وأضواء المصابيح. اقتربت على مهل من ساحة الكنيسة المرتفعة، ارتقت السلّم وعبرت بين الأعمدة. تذكّرَت المرّة الأولى التي جاءت فيها إلى الكاتدرائية، كيف شعرت بالخوف الشديد، لأنّ الكاتدرائية كالجرف الصخري، كبيرةٌ جداً ومهجورة. في ما بعد، دلّها راديكس المتسوّل أين كان يقضي لياليه في الصيف حين يكون هواء البحر رطباً كالأنفاس.

وكذلك على المكان الذي يرى منه سفن الشحن وهي تدخل المرفأ ليلاً بأنوارها الحمراء والخضراء. وعلى المكان الذي يستطيع أن يشاهد منه القمر والنجوم، بين أعمدة فناء الكاتدرائية.

ولكن هذا المساء، لا أحد هنا. الحجر الأبيض والأخضر باردٌ كالثلج، ثقيلٌ كالصمت، يعكّره صوتُ احتكاك عجلات السيّارات في البعيد فقط، وصرير الخفافيش المحلّقة تحت القبّة. الحمائم نائمة منذ الآن، تجثم فوق كلّ الأفاريز تقريباً، يتراصّ بعضها إلى بعض.

جلست لالا لبرهةٍ على درجات السلّم في حماية الدرابزين الحجريّ. راحت تتأمّل البلاط الملطّخ بذرق الطيور البحرية، والأرض المغبرّة أمام الفناء. كان الهواء يهبّ قوياً، ويصفر بين قضبان الحديد. العزلة كبيرةٌ هنا، كأنها في سفينة وسط البحر، مؤلمة، تشدّ على حنجرتها وصدغيها، تجعل الأصوات تدوّي على نحوٍ غريب، والأنوار تومض في البعيد، هناك على طول الشوارع.

في وقتٍ لاحق، عندما حلَّ الليل، عادت لالا إلى قلب المدينة في الأعلى. اجتازت ساحة لينش، التي يتزاحم فيها الرجال حول أبواب البارات، سلكت طلعة «أكّول»، مستندةً بيدها إلى درابزين الحديد الثنائي المصقول، الذي كانت تحبّه كثيراً. ولكن حتى هنا، لم يتبدّد خوفها. كأنّ وراءها أحدُ تلك الكلاب الكبيرة المشعّثة الوبر ذات النظرة الجائعة، والتي تجول على طول قنوات المياه بحثاً عن قطعة عظم تقرطها. إنه الجوع، الجوع دون شكّ، الذي يقرض جوفها، ويحفر فراغاً في رأسها. لكنّه جوعٌ لكلّ شيء، لكلّ ما حُرمت منه ولا تستطيع الوصول إليه. مضى زمنٌ طويل لم يْشبع فيه الناس جوعهم، لم يحظوا بالراحة، ولا بالسعادة، ولا بالحبّ.

في غرف أقبيتهم الباردة يطفو بخار الخوف. في الشوارع المظلمة تجري الجرذان، تسيل المياه الآسنة، تتكدّس الأوساخ، ويتراكم الشرّ.

بينما كانت تتقدّم في مسيرها على طول الشوارع الضيّقة: شارع الملجأ، شارع الطواحين، شارع بيل إيكويل، شارع مونبريون، رأت لالا النفايات بأنواعها، كأنّ البحر لفظها: علب كونسروة صدئة، أوراق قديمة، شظايا عظام، حبّات برتقال ذابلة، خضار، خرق من القماش، قناني محطّمة، دواليب كاوتشوك، سدادات، طيور نافقة منزوعة الجناحين، صراصير مسحوقة، تراب، ذرور، عفن. إنها علامات العزلة والإهمال، كأنّ البشر هربوا من هذه المدينة، من هذا العالم، وتركوه عرضةً للمرض والموت والنسيان. كأنه لم يبقَ في هذا العالم سوى قلّةٍ من الناس، البؤساء الذين يتابعون حياتهم في تلك المنازل المتداعية، في تلك الشقق السكنية الشبيهة بالقبور منذ الآن، بينما كان الخواء يدخل عبر النوافذ المفتوحة كالأفواه، وبرد الليل يخنق الصدور ويحجب الرؤية عن عيون العجائز والأطفال.

تابعت لالا طريقها عبر الأنقاض، مشَت فوق أكوام الجصّ المتساقطة، لا تعرف أين تذهب. عاودت المرور في الشارع نفسه عدّة مرات حول أسوار مستشفى «أوتيل ديو» المرتفعة. هل كانت العمّة هنا في المطبخ الكبير ذي النوافذ القذرة تحت الأرض، تمرّر مكنستها الإسفنجية فوق البلاط الأسود العصيّ على التنظيف بأيّ وسيلة؟ لا تريد لالا أن تعود إلى بيت العمّة بعد الآن. راحت تلفّ على طول الشوارع المظلمة، وقد بدأ مطرٌ خفيف ينهمر من السماء، بعد أن توقّف الهواء. أناسٌ يعبرون وأطيافٌ سوداء تبدو تائهةً هي أيضاً. تتنحّى لالا لتسمح لهم بالمرور، تتوارى داخل فتحات الأبواب، تختبئ وراء السيّارات المركونة. وحين يخلو الشارع من

جديد، تخرج وتتابع سيرها دون صوت، متعبةً تترنّح من النعاس. لكنّها لا تريد النوم، أين يمكن لها أن تركن، أن تنسى نفسها؟ المدينة خطرة جداً، والخوف لا يسمح للفتيات الفقيرات بأن ينعمن بالنوم مثل أولاد الأثرياء.

أصواتٌ كثيرة في صمت الليل، أصوات الجوع، أصوات الخوف والوحدة. جلبة أصوات المشرّدين السكارى في الملاجئ، ضجيج المقاهي العربية التي لا تتوقّف فيها الموسيقا الرتيبة، ضحكات الحشّاشين البطيئة. وهناك صوت الرجل المجنون الرهيب، الذي يضرب زوجته لكماتٍ قويّة كلّ مساء، وصوت زوجته الحادّ تصرخ في البداية، ثم تنشج وتنوح. تسمع لالا تلك الأصوات كلّها، الآن بشكلٍ واضح، تتردّد دون توقّف. ثمّة صوتٌ كان يلاحقها بشكلٍ خاص حيثما تذهب، يدخل إلى رأسها، وإلى داخل بطنها، يعيد الألم نفسه دوماً: صوت طفلٍ يسعل في الليل، في مكانٍ ما في البيت المجاور. هل هو ابن المرأة التونسية البدينة شديدة الشحوب ذات العينين الخضراوين البلهاوين قليلاً؟ أم هو طفلٌ آخر يسعل في أحد المنازل على مسافة عدّة شوارع، فيردّ عليه طفلٌ آخر في مكانٍ ما، في علّيّةٍ ما سقفُها مثقوب، أو طفلٌ آخر لا يستطيع النوم في مضجعه البارد كالصقيع، وآخرون غيره أيضاً. كأنّ هناك عشرات الأطفال، مئات الأطفال المرضى يسعلون في الليل، يطلقون الصوت الأجشّ نفسه الذي يمزّق حناجرهم وقصبات رئاتهم. توقّفت لالا عند أحد الأبواب وأوصدت أذنيها براحتَيْ يديها بكلّ قوّتها كي لا تسمع سعال الأطفال كالنباح في الليل البارد، من بيتٍ إلى بيت.

في الشارع إلى البعيد قليلاً منعطفٌ يطلّ كالشرفة على تقاطعات الجادّات الكبرى، يشبه مصبّ نهرٍ واسع من الأنوار الوامضة التي تبهر

الأبصار. هكذا نزلت لالا التلّ عن طريق السلالم الطويلة، ودخلت عبر ممرّ لوريت إلى الفناء الكبير الذي اسودّت جدرانه من الدخان والبؤس، على وقع أصوات أجهزة المذياع والبشر. توقّفت لبرهة والتفتت إلى النوافذ، كأنّ شخصاً ما سوف يظهر. لكن لم يكن هناك سوى صوت المذياع يقول شيئاً ما، يكرّر العبارة نفسها ببطء: «عند سماع هذا اللحن، تدخل الآلهة إلى المسرح!». لكنّ لالا لم تكن تفهم معنى العبارة. كان صوت المذياع يطغى على سعال الأطفال وصوت الرجال السكارى والمرأة الباكية. ثم ظهر معبرٌ مظلمٌ آخر كأنه ممرّ، ومنه يمكن النفاذ إلى الشارع العريض.

بلحظةٍ واحدة، غادر الخوفُ والحزن لالا. هنا فوق الأرصفة الناس مستعجلون، العيون تبرق، الأيادي تتحرّك بسرعة، الأقدام تضرب الأرض الأسمنتية، الأرداف تهتزّ، الملابس تحتكّ وتتكهرب. فوق الطريق المعبّد تعبر سيّاراتٌ، شاحنات، درّاجات مصابيحُها مضاءة. والأنوار فوق الواجهات تُضاء وتُطفأ طوال الوقت. انساقت لالا مع حركة الناس ولم تعد تفكّر بنفسها، يسكنها الخواء كأن لا وجود لها فعلياً. لهذا كانت تعود دوماً إلى الجادّات الكبرى، كي تتوه في سيلها ويتلاعب بها التيّار.

ثمّة أضواءٌ كثيرة، نظرت لالا إليها وهي تتقدّم في خطّ سيرها المستقيم. أضواء زرقاء، حمراء، برتقالية، بنفسجية، أضواء ثابتة، أضواء متحرّكة، وأخرى ترقص فوق الساحة مثل لهب أعواد الثقاب. تذكّرت لبرهةٍ السماءَ المرصّعة بالنجوم، في قلب ليالي الصحراء، حين كانت تتمدّد فوق الرمل القاسي بالقرب من الحرطاني، يتنفّسان على مهلٍ كأنهما جسدٌ واحد. ولكن صعُب عليها التفكير. كان عليها أن تتابع السير، السير مع الآخرين كأنها تعرف إلى أين كانت ذاهبة. لكنّ مشوارها لا نهاية له،

فما من مخابئ في تجاويف الكثبان هنا. عليها أن تسير كي لا تسقط، كي لا يدوسها الآخرون.

اتجهت نزولاً إلى آخر الجادّة الواسعة، ثم سارت بالاتجاه المعاكس في جادّةٍ أخرى، ثم في واحدةٍ أخرى. المزيد من الأضواء، المزيد من ضجيج الناس وهدير السيّارات. عاودَها الخوفُ والقلق فجأةً، كأنّ أصواتَ العجلات والخطوات كلّها كانت ترسم دوائرَ مركزيةً كبيرة على حوافّ قمعٍ عملاق.

ها هي ذي تراهم من جديد. إنهم هنا في كلّ مكان، يجلسون مستندين إلى الجدران السوداء، يتكدّسون على الأرض، وسط البراز والقاذورات: متسوّلون، عجائزُ عميان يمدّون أياديهم، نساءٌ يافعات تشقّقت شفاههن، يتعلّق بأثدائهن المترهّلة طفلٌ رضيع، فتياتٌ صغيرات بأسمالٍ بالية ووجوه تغطّيها القشور، يتكمّشْن بملابس المارّة، عجائزُ بلون السخام شعورهنّ ملبّدة. كلّ أولئك الذين لفظهم الجوعُ والبرد خارج جحورهم، ودفعتهم الأمواج كالنفايات. إنهم هنا وسط المدينة المستهترة، داخل ضجيج المحرّكات والأصوات المدوّخ، بلّلهم المطر، نفشت شعورَهم الرياح، وبدَوا أكثر قباحةً وبؤساً تحت أنوار المصابيح الكهربائية الشاحبة. كانوا ينظرون إلى العابرين بعيونٍ زائغة، أنظارهم المبلّلة والحزينة تُشيح وتعود إليك باستمرار مثل عيون الكلاب. سارت لالا على مهل أمام المتسوّلين، نظرت إليهم وقلبها يُعتصر، وها هو ذا الفراغ الرهيب يعود ويحفر دوّامةً هنا، أمام تلك الأجساد المهملة. سارت ببطء، إلى أن تعلّقت بمعطفها إحدى المتسوّلات، أرادت أن تشدّها إليها. تخبّطت لالا، وفكّت الأصابع التي تشبّثت بقماش معطفها بقوّة. نظرت بشفقةٍ وهلع إلى وجه المرأة

الذي لا يزال فتياً. كانت وجنتاها منتفختين من تأثير الكحول، تملؤهما البقع الحمراء من البرد، أما عيناها الزرقاوان الضريرتان، فقد كانتا شبه شفّافتين، ولم يعد حجم البؤبؤ فيهما أكبر من رأس الدبوس.

«تعالي! تعالي إلى هنا!»، تقول لها المتشرّدة وتكرّر، بينما تحاول لالا أن تتملّص من أصابعها وأظافرها المقصّفة. ثم انتابها خوفٌ عظيم، فاقتلعت معطفها من يديّ المتشرّدة وركضت هاربة، بينما كان المتسوّلون الآخرون يضحكون ساخرين. انتصبت المرأة عن الرصيف قليلاً وسط أكداس أسمالها، وبدأت تطلق الشتائم بصوتٍ عالٍ.

بقلبٍ خافق، راحت لالا تركض على طول الشارع. اصطدمت بالمتنزّهين، بالداخلين والخارجين من المقاهي ودور السينما، برجال باللباس الرسمي خرجوا لتوّهم من العشاء، تلمع وجوههم بالعرق من الجهد الذي قاسوه في سبيل أن يأكلوا كثيراً ويشربوا أكثر، شبّانٌ يفوح منهم شذى العطور، ثنائيات، رجال من السلك العسكري في نزهة، غرباءٌ بشرتُهم سوداء وشعرهم مجعّد، يقولون لها كلماتٍ لا تفهمها، أو يحاولون الإمساك بها وهم يضحكون بصخب.

داخل المقاهي موسيقا تضرب دون توقّف، موسيقا صاخبة، وحشيّة، تدوّي بصمتٍ داخل الأرض، تهتزّ داخل الجسم، في البطن، في غشاء الطبلة. الموسيقا نفسها تخرج من المقاهي والبارات دائماً، تصطدم بأضواء النيون الحمراء والخضراء والبرتقالية، بالجدران، بالطاولات، بوجوه النساء المتبرّجة بالألوان.

كم من الوقت مضى ولالا تسير داخل هذه المتاهات؟ وسط تلك الموسيقا؟ لم تعد تعرف. ساعاتٍ ربما، لياليَ بطولها، لياليَ لا يتخلّلها

أيّ نهار! فكّرَت بالهضبة الصخرية الشاسعة في الليل، بالنجود التي كانت حجارتها قاطعةً كالنصل، بدروب الأرانب البرّيّة والأفاعي الرقطاء تحت القمر، ونظرت حولها كمن ينتظر أن يظهر الحرطاني بعباءته الصوفية الخشنة وعينيه البرّاقتين في وجهه الأسود الداكن، وحركاته المديدة البطيئة كمشية الظباء. ولكن لا شيء هنا سوى هذه الجادّة، ثم تلك الجادّة الأخرى، وتلك المفارق المليئة بالوجوه، بالعيون، بالأفواه، لا شيء سوى تلك الأصوات الصاخبة، وذاك الكلام، وهذا الهمس. أصوات المحرّكات والأبواق والأضواء المؤلمة. لا يمكن للمرء رؤية السماء هنا، ثمّة غطاءُ وسادةٍ أبيض يحجبها عن الأرض. كيف يمكن للحرطاني أن يأتي إلى هنا؟ وكذلك محارب الصحراء الأزرق، «السرّ»، كما كانت تدعوه في الماضي؟ لن يتمكّنا من رؤيتها من خلال هذا الستار الأبيض الذي يفصل المدينة عن السماء. لن يتعرّفا عليها وسط هذا الكمّ من الوجوه وهذا العدد من الأجساد، مع تلك السيّارات كلّها والشاحنات والدرّاجات النارية الصغيرة. بل إنهما لن يسمعا صوتها، هنا في ضجيج تلك الأصوات كلّها التي تتحدّث بجميع اللغات، وفي صخب الموسيقا المدوّية التي تهزّ الأرض. ولهذا، لم تعُد لالا تبحث عنهما أو تتحدّث إليهما، كأنهما غابا للأبد، كأنهما ميّتان بالنسبة إليها.

لا يزال المتسوّلون هنا في ليل المدينة. توقّف المطر، لكنّ الليلة مؤرّقة طويلة ولم تصل إلى منتصفها بعد. ندر الناس الآن، لم يكن هناك سوى هؤلاء الذين يدخلون إلى المقاهي والبارات، وأولئك الذين يخرجون منها، لكنّهم يهرعون إلى سيّاراتهم وينطلقون بأقصى سرعة. انعطفت لالا يميناً إلى الشارع الضيّق المنحدر صعوداً وسارت متخفّيةً وراء السيّارات

المركونة. كان على الرصيف المقابل بضعةُ رجالٍ ساكنين، لا يتحرّكون ولا يتكلّمون، ينظرون إلى أعلى الشارع، إلى بابٍ صغير أخضر لمدخل مبنىً قذِر، كان مواربا ًعلى ممرٍّ مضاء.

توقّفت لالا هي أيضاً وراحت تنظر خِفيةً من وراء إحدى السيّارات. عصفت رياح الخوف الكبير في الشارع وبدأ قلبها يخفق بسرعة. كان المبنى ينتصب كحصنٍ متّسخ، شبابيكه الخارجية لا مصاريع لها ونوافذه مسدودة بورق الجرائد. بعضها كان مضاءً بنورٍ شاحبٍ قاسٍ، وبعضها الآخر ضوءُه خفيفٌ بلونٍ غريب يشبه الدم. بدا المبنى كماردٍ واقفٍ بلا حراك له عشراتُ العيون، مرّةً تنظر ومرّةً تنام، ماردٌ تملؤه قوّةٌ شرّيرة سوف تلتهم الرجال الصغار المنتظرين في الشارع. شعرت لالا بوهنٍ شديد، وكان لا بدّ لها أن تستند إلى هيكل السيّارة، بينما كان جسدها كلّه يرتجف.

هبّت رياح الشرّ في الشارع. تلك الرياح التي تخلق الفراغ والخوف والفقر والجوع فوق المدينة. كانت ترسل زوابعَها إلى الساحات، وتثقل كالصمت في الغرف الموحشة، حيث يختنق الأطفال والعجائز. لالا تكرهها، كما تكره هؤلاء المرَدة الذين يسيطرون على المدينة بعيونهم المفتوحة، لا عمل لهم سوى التهام الرجال والنساء وطحنهم في أجوافها.

في ما بعد، فُتح باب المبنى الأخضر الصغير كلّياً، وظهرت على الرصيف مقابل لالا امرأةٌ وقفت دون حراك. كان الرجال الواقفون ينظرون إليها ويدخّنون. المرأة قصيرة القامة، شبه قزمة، ممتلئة الجسم، لها رأسٌ كبير فوق كتفيها ولا عنق لها. وجهُها طفوليّ وفمها منمنمٌ كحبّة الكرز، وعيناها سوادوان فاحمتان ملطّختان بدائرتين خضراوين. أكثر ما يُدهش فيها بعد قامتها القصيرة هو شعرها، فقد كان قصيراً ومقصّباً حلقاتٍ بلونٍ

أحمرَ نحاسيّ، يلمع على نحوٍ غريب في ضوء الممرّ وراءها ويبدو كهالةٍ من اللهب فوق رأسها الشبيه بالدمية البدينة، وبدت كأنها ظهورٌ عجائبيّ.

نظرت لالا إلى شعر المرأة القصيرة مذهولةً دون حراك، ودون أن تتنفّس تقريباً. كان الهواء البارد يهبّ قويّاً حولها، لكنّ المرأة الصغيرة بقيت واقفة أمام مدخل المبنى، بشعرها الوهّاج فوق رأسها. كانت ترتدي تنّورةً سوداء قصيرة جدّاً تُظهر فخذَيها الممتلئين البيضاوين، وشيئاً بنفسجياً يشبه القميص مكشوف العنق والصدر. في قدميها حذاءٌ نسائيّ لامع بكعبٍ رفيع عالٍ جدّاً. بسبب البرد، مشَت بضعَ خطوات في المكان، فدوّى صوتُ كعب حذائها في الزقاق الخالي.

ثم اقترب منها بضعةُ رجال وهم يدخّنون السجائر. كان أغلبهم من العرب، لهم شعرٌ شديد السواد وبشرةٌ رمادية لم ترها لالا من قبل، كأنهم يعيشون تحت الأرض ولا يخرجون إلا ليلاً. تلوح على وجوههم أمارات الشراسة والعَند، صامتون، أفواههم مطبقة، نظراتهم قاسية. لكنّ المرأة الصغيرة ذات الشعر الناريّ لم تكن تنظر إليهم. أشعلت سيجارةً هي الأخرى، وراحت تدخّن بسرعة وهي تدور في مكانها. حين أدارت ظهرها، بدت حدباء.

هناك في أعلى الشارع امرأةٌ أخرى تمشي هي أيضاً. كانت هذه نقيض الأخرى، طويلة القامة، قوية البنية، متقدّمة في السن، مغضّنة من التعب وقلّة النوم. ترتدي معطفاً مطرياً طويلاً من المشمّع الأزرق، وشعرها الأسود شعّثته الرياح.

نزلت الشارع على مهلٍ وهي تطقطق بحذائها ذي الكعب العالي. وصلت بمحاذاة المرأة القزمة، وتوقّفت مثلها أمام الباب. اقترب منها

الرجالُ العرب، تحدّثوا إليها، لكنّ لالا لم تسمع ما يقولون. واحداً تلو الآخر، ابتعدوا وتوقّفوا على مسافةٍ منها، وعيونهم تحدّق بالمرأتين المدخّنتين. هبّت الرياح على طول الزقاق، فالتصقت ملابس المرأتين بجسديهما وتطاير شعرهما.

يا لكمّ الكراهية واليأس في هذا الزقاق، الذي يبدو منحدراً بلا نهاية نحو درجات الجحيم، لا يلامس القاع ولا يتوقّف البتّة! هناك الكثير من الجوع، من الرغبات المكبوتة، من العنف. على حافة الرصيف، يقف الرجال الصامتون دون حراك كأنهم جنودٌ من رصاص، عيونهم تحدّق في بطنَي المرأتين، في أثدائهما، في تكوّر أردافهما، في لحم صدريهما الأبيض، في سيقانهما العارية. ربما لم يعُد هناك حبٌّ، ولا شفقة، ولا رقّةٌ في أيّ مكان. هل الستارة البيضاء التي تفصل الأرض عن السماء هي التي خنقت الرجال، أوقفت خفقان قلوبهم، أماتت الذكريات والأمنيات القديمة كلّها، والجمال كلّه؟

شعرت لالا بدوارٍ مستمرّ كالفراغ يدخل إليها، كأنّ الرياح العاصفة في الزقاق تدوّم مثل زوبعة طويلة. هل ستقتلع معها أسقف المنازل القذرة، وتخلع الأبواب والنوافذ، وتهدم الجدران العفنة، وتقلب السيّارات كلّها إلى كدسٍ من الحديد؟ لا بدّ أن يحدث ذلك، فهناك الكثير من الكراهية، الكثير من الألم... لكنّ المبنى العملاق القذر بقي صامداً يسحق الرجال بعلوّه. إنه واحدٌ من المَرَدة، يقف بعينيه الداميتين، الوحشيتين، يلتهم الرجال والنساء. في جوفه تُقلب النساء اليافعات فوق فُرشٍ قديمة مبقّعة، يمتطيهن رجالٌ صامتون تشتعل قضبانهم كالجمر للحظات، ثم يرتدون ملابسهم ويرحلون، يتركون على حافة المنضدة سجائرهم، التي لم يتسنَّ لهم الوقت لإطفائها. في جوف المارد الشرِه نساءٌ عجائز يرزحن تحت

رجال يسحقونهنّ بثقلهم ويدنّسون جلودهنّ الباهتة. حينئذٍ، يولد في أحشاء تلك النساء كلّهنّ خواءٌ كثيف وجليديّ، يتسرّب منهن ويعصف على طول الأزقّة كالرياح، مُطلِقاً زوابعه إلى ما لا نهاية.

فجأةً، لم تعد لالا تحتمل الانتظار. أرادت أن تصرخ، أن تبكي، ولكنّ ذلك كان مستحيلاً. كان الخواء والخوف قد أوصدا حنجرتها بقوّة، وبصعوبة كانت تتنفّس. جرَت بكلّ ما أوتيت من قوّة على طول الزقاق، فدوّت أصوات خطواتها في الصمت. التفت الرجال ورأوها تهرب. علا صوت القزمة وقالت شيئاً، كان أحد الرجال يمسكها من عنقها ويدفعها إلى داخل المبنى. تعكّر الصمت لوهلة، أغلق عليهما وخنقهما. بعض الرجال رموا سجائرهم في قناة الماء واتجهوا إلى الشارع الرئيسي وهم ينزلقون كالظلال. وصل آخرون وتوقّفوا على حافة الرصيف، وراحوا ينظرون إلى المرأة الطويلة ذات الشعر الأسود التي تقف أمام باب المبنى.

بالقرب من محطة القطار متسوّلون كثر نائمون، كانوا يُقحمون رؤوسهم داخل أسمالهم البالية، أو يلفّون أنفسهم بالكراتين أمام الأبواب. في البعيد، مبنى المحطة مضاءٌ بمصابيحه البيضاء الكبيرة كالنجوم.

في زاوية أحد الأبواب، وفي ظلّ إطار الباب الحجري داخل بقعةٍ مظلمة رطبة كبيرة، استلقت لالا على الأرض. أقحمت رأسها وأطرافها قدر استطاعتها داخل معطفها الكستنائي الواسع، كما تفعل السلحفاة تماماً. كان الحجر بارداً وقاسياً، وصوت احتكاك عجلات السيّارات المبلّلة يصيبها بالارتعاش. مع ذلك، شاهدت السماء تنقشع كما كان يحدث في الماضي فوق الهضبة الصخرية، وعندما أغمضت عينيها، استطاعت من خلال حواف الستارة التي انشقّت، أن ترى مجدّداً ليل الصحراء.

تسكن لالا في فندق سانت بلانش. لها غرفةٌ صغيرة جداً، حيّز معتم تحت السقف تتقاسمه مع المكنسة والدلاء والأشياء القديمة المنسيّة منذ سنين. فيها مصباحٌ كهربائي، منضدة، وسريرٌ قديم بسيور. عندما سألت المالك ما إذا كان بمقدورها الإقامة هنا، وافق بكلّ بساطة دون أن يطرح أسئلة. لم يعلّق بشيء، قال لها إنها تستطيع النوم هنا لأنّ السرير لا يُستعمل. قال أيضاً إنه سيحسم من أجرها كلفة المصباح الكهربائي والماء، هذا كلّ شيء. ثم عاد إلى قراءة صحيفته وهو مستلقٍ فوق سريره. لهذا السبب كان المالك رجلاً صالحاً في نظر لالا، حتى وإن كان قذراً لا يحلق لحيته، لكنّه لا يطرح الأسئلة. والأمر سيّان عنده في كلّ شيء.

أما مع العمّة، فقد كان الأمر مختلفاً. عندما أخبرتها أنها لن تقيم في بيتها بعد الآن، تجهّم وجهها وقالت أشياء بغيضة، لأنها ظنّت أنّ لالا ذاهبة للعيش مع رجل. لكنّها في ما بعد وافقت رغم ذلك، فهذا يلائمها في كلّ الأحوال، إذ إنّ أبناءها كانوا قادمين بعد حين، ولن يكون هناك متّسعٌ للجميع.

في ما بعد، صارت لالا تعرف معظم النزلاء في سانت بلانش. جميعهم فقراء مُعدَمون قادمون من بلاد الجوع، التي غابت فيها كلّ أسباب العيش تقريباً. كانت وجوههم قاسية، حتى صغار السن منهم، ولا يستطيعون الكلام لوقتٍ طويل. في الطابق الذي تقيم فيه لا يوجد أحد، فهو طابق

الجمالونات الذي تعيش فيه الفئران. ولكن تحته مباشرةً، غرفة يقيم فيها ثلاثة إخوةٍ سود مزاجهم مرِحٌ دائماً، لا يعرفون الخبث ولا الكآبة، ولالا تحبّ سماع ضحكهم وغناءهم بعد ظهر أيام السبت والأحد. لا تعرف أسماءهم، ولا عملهم في المدينة، تلتقيهم في الممرّ حين تذهب إلى المرحاض، أو أثناء نزولها في الصباح الباكر لفرك درجات السلّم. لكنّها حين تذهب لتنظيف غرفتهم يكونون غائبين. لم يكن لديهم شيء تقريباً، بضعُ علبٍ من الكرتون فقط مليئة بالملابس، وغيتار.

إلى جانب غرفة الشباب السود، غرفتان يشغلهما عمّال ورشٍ من شمال إفريقيا، لا يبقون لوقتٍ طويل البتّة. كانوا لطفاء إنما قليلو الكلام، ولالا كذلك، لم تكن تتحدّث إليهم كثيراً. لا شيء في غرفهم، لأنهم يضعون ملابسهم كلّها داخل الحقائب، والحقائب تحت الأسرّة. كانوا يخافون من السرقة.

أما الشخص الذي تحبّه لالا كثيراً، فهو شابٌّ إفريقيّ أسود يقيم مع أخيه في الغرفة الصغيرة بالطابق الثاني، في آخر الممرّ تماماً. وهي أجمل الغرف، لأنها تطلّ على جزءٍ من الفناء تعلو فيه شجرة. لم تكن لالا تعرف اسم الأخ الأكبر، لكنّها تعرف أنّ الصغير اسمه دانييل. وهو داكن البشرة وشعره مجعّد جدّاً، بحيث كان يعلق فيه شيءٌ ما دائماً، نثرات قشّ، ريش، بقايا عشب. رأسه كامل الاستدارة، عنقه طويل يتجاوز الحدّ. وهو فضلاً عن ذلك، طويل القامة، ذراعاه طويلتان، ساقاه ممشوقتان، وله مشيةٌ مضحكة يبدو كأنه يرقص. كان دائم المرح، ويضحك طوال الوقت حين يتحدّث إلى لالا، وهي لا تفهم تماماً ماذا يقول، فقد كانت لهجته غريبة كمن يغنّي. ولكن لم يكن لذلك أيُّ أهمّية، فهو يشوّر بيديه الطويلتين إيماءاتٍ

مضحكة جدّاً، ويعمل بفمه الكبير المليء بالأسنان الناصعة البياض كلّ أنواع التكشيرات. كان المفضّل عند لالا، بسبب وجهه الأملس وضحكته، لأنه يشبه الطفل نوعاً ما. كان يعمل في المستشفى مع أخيه، وأيام السبت والأحد، يذهب كي يلعب كرة القدم، شغفه الكبير. لديه إعلاناتٌ وصورٌ في كامل أنحاء غرفته، مثبّتة بمسامير مبسّطة على الجدران، على الباب، داخل الخزانة. في كلّ مرّة يرى فيها لالا، كان يسألها متى ستذهب لمشاهدته في الملعب.

في عصر يومٍ من أيام الأحد، ذهبت لالا إلى الملعب. جلست في أعلى المدرّجات تحديداً وشاهدت دانييل. بدا بقعةً سوداء صغيرة فوق عشب أرض الملعب الخضراء، وهكذا استطاعت التعرّف عليه. كان يلعب قلب هجوم يمين مع اللاعبين الذين يقودون الهجوم. لكنّ لالا لم تقُل له قطّ إنها ذهبت لمشاهدته، ربّما كي يستمر في دعوتها للمجيء، بضحكته التي تدوّي عالياً في ممرّات الفندق.

وهناك أيضاً رجلٌ كهلٌ يعيش في غرفةٍ صغيرة جدّاً، في الطرف الآخر من الممرّ. لا يتحدّث إلى أحد البتّة، ولا أحد يعرف بالتحديد من أين أتى. رجلٌ عجوز تآكل وجهه بفعل مرضٍ رهيب، وبقي دون أنف ودون فم، له فتحتان مكان المنخرين، وندبة مكان الشفتين. لكنّ عينيه جميلتان ونظرته عميقة وحزينة، مهذّب ولطيف دوماً، لهذا السبب، لالا تحبّه كثيراً. يعيش في فقرٍ مدقع داخل هذه الغرفة، دون طعام تقريباً. لكنّه يخرج في ساعةٍ مبكّرة من الصباح فقط، وذلك لالتقاط ثمار الفاكهة المتساقطة في السوق، والتنزّه قليلاً تحت أشعة الشمس. لالا لا تعرف اسمه، لكنّها تحبّه كثيراً، فهو يشبه العجوز نعمان قليلاً، له يدان قويتان وماهرتان مثله، يدان

لوّحتهما الشمس وممتلئتان بالخبرة. حين تنظر إلى يديه، يُخيّل إليها أنها ترى المكان المتأجّج حرارةً، وسهول الرمال والحجارة، والشجيرات اليابسة، والأنهار الجافّة. لكنّه لم يكن يحدّثها عن وطنه البتّة، ولا عن نفسه، كان يتكتّم على ذلك في أعماقه. كان يقول لها بضع كلماتٍ فقط حين يصادفها في الممرّ، عن الطقس السائد في الخارج فحسب، والأخبار التي سمعها في المذياع. لعلّه الوحيد في الفندق الذي كان يعرف سرّ لالا، فقد سألها مرّتين، وهو ينظر إليها بعينيه العميقتين، ما إذا كان العمل صعباً عليها. لم يقُل أكثر من ذلك، لكنّ لالا تظنّ أنه يعرف بأنها تحمل طفلاً في أحشائها، بل إنها خافت أن يخبر العجوز مالك الفندق، لأنه لن يعود راغباً في الاحتفاظ بها في الفندق. لكنّ الرجل العجوز لم يُفشِ سرّها لأحد. نهار الاثنين، يدفع مسبقاً أجرة أسبوع إقامته، ولا أحد يعرف من أين يأتيه المال. لالا الوحيدة التي تعرف أنه شديد الفقر، إذ لم يكن لديه شيء يأكله سوى الفاكهة الذابلة المتساقطة في أرض السوق. لهذا، حين يكون معها القليل من المال، كانت تشتري تفاحةً أو تفاحتين شهيّتين، وبرتقالاً، ثم تضعهم فوق الكرسي الوحيد في الغرفة الصغيرة أثناء التنظيف. لم يكن الرجل العجوز يقول لها كلمة شكرٍ واحدة بتاتاً، لكنّها كانت ترى السعادة في عينيه حين يصادفها.

أما المستأجرون الآخرون، فقد كانت لالا تعرفهم دون أن تتعرّف إليهم. وهم النزلاء الذين لا يبقون في الفندق: عرب، برتغاليون، إيطاليون، يأتون للمبيت فقط. وهناك من يبقى، لكنّها لا تحبّهم. ومنهم رجلان عربيّان في الطابق الأول يبدو عليهما الشراسة، يشربان الكحول حتى يحترقا. وذلك الرجل الذي يقرأ المجلّات الفاحشة ويترك صور النساء العاريات

ملقاةً فوق ملاءات سريره المبعثرة لكي تلتقطها لالا وتتفرّج عليها. وهو يوغسلافي يدعى غريغوري. ذات يومٍ، دخلت إلى غرفته وكان هناك. أمسكها من ذراعها، وأراد أن يقلبها على السرير، لكنّها بدأت تصرخ فانتابه الخوف. لم تعد لالا تضع قدمها في غرفته ما دام هو هناك.

لكنّهم جميعاً غير موجودين في الحقيقة، باستثناء الرجل صاحب الوجه المتآكل. غير موجودين، لأنهم لا يتركون أثراً بعد مرورهم، كأنهم ظلالٌ وأشباحٌ فحسب. وعندما سيرحلون ذات يوم، كأنهم لم يأتوا إلى هنا البتّة. سيبقى سرير السيور نفسه، الكرسي المخلّع، المشمّع الأرضيّ المبقّع، الجدران المتّسخة التي تقشّر طلاؤها، المصباح الكهربائي العاري في طرف السلك الذي وسّخه الذباب بالونيم. كلُّ شيء يبقى على حاله.

يوجد هنا على وجه الخصوص النور الداخل عبر زجاج النافذة المتسخ، نورٌ رماديّ من الفناء الداخلي، وانعكاسات الشمس الشاحبة، والأصوات: أجهزة المذياع، محرّكات السيّارات في الشارع الكبير، شجار الرجال، خرير الصنابير، صوت طارد المياه في المراحيض، صرير السلالم، الرياح التي تهزّ الصفيح والمزاريب.

تصغي لالا إلى تلك الأصوات كلّها وهي مستلقيةٌ في سريرها تتأمّل بقعة ضوء المصباح الأصفر. لا يمكن للناس أن يكون لهم وجودٌ هنا، حتى الأولاد أو أيّ كائنٍ حيّ. تصغي إلى أصوات الليل كأنها داخل مغارة، كأنها هي نفسها لم يعُد لها وجودٌ فعليّاً. في بطنها شيءٌ ما يختلج ويخفق الآن، كأنه جسمٌ غريب.

تتكوّر على نفسها، تلصق ركبتيها بذقنها، تحاول أن تصغي لمن يتحرّك في أحشائها، لمن بدأت تدبّ فيه الحياة. ينتابها الخوف من جديد، ذاك

الخوف الذي يدفعها للهروب على طول الشوارع، ويجعلها تقفز كالكرة من زاوية إلى أخرى. ولكن في الوقت نفسه، ثمة موجةٌ غريبة من السعادة والدفء والنور تبدو قادمةً من البعيد السحيق، من وراء البحار والمدن، وتوحّدها بجمال الصحراء. لذلك، وككلّ مساء، كانت لالا تغمض عينيها وتتنفّس بعمق. شيئاً فشيئاً، يتلاشى نور الغرفة الرماديّ ويظهر الليل الجميل. ليلٌ عامرٌ بالنجوم، بارد، صامت، موحش، يخيّم على الأرض التي لا حدود لها، على امتداد الكثبان الساكنة. الحرطاني بثوب الخيش بالقرب منها، وجهه النحاسيّ الداكن يلمع بنور النجوم. تصل إليها نظرته وتعثر عليها هنا في هذه الغرفة الضيّقة، في كنف نور المصباح الكهربائي الشاحب. تتحرّك نظرة الحرطاني في داخلها، في بطنها، وتوقظ الحياة. مضى زمنٌ طويل على غيابه، زمنٌ طويل على رحيلها من الضفة الأخرى للبحر، كأنها طُردت، لكنّ نظرة الراعي الفتيّ قويّة جدّاً، وتشعر بها تتحرّك في أحشائها فعلاً. في تلك اللحظات، يختفي سكّان هذه المدينة، رجال الشرطة والناس والشوارع ونزلاء الفندق، جميعهم يختفون، ومعهم مدينتهم ومنازلهم وشوارعهم وسيّاراتهم وشاحناتهم، ولا يبقى سوى الصحراء الشاسعة ولالا مع الحرطاني، يستلقي الاثنان ويتدثّران بعباءة الخيش الواسعة، يلفّهما الليل الأسود ونجومه الملايين، يتعانقان بقوّةٍ واحداً لصقَ الآخر، فلا يشعران بالبرد الذي يجتاح الأرض.

***

حين يموت أحدُهم في حيّ بانيه، فإنّ مكتب الدفن في الطابق الأرضي من الفندق يتكفّل بكلّ شيء. في البداية، كانت لالا تظنّ أنّ المكتب لأحد أقرباء صاحب الفندق، لكن تبيّن أنه لتاجرٍ شأنُه شأن الآخرين، كما أنها

كانت تعتقد أنّ الناس يأتون إلى الفندق ويموتون فيه، ثم يُرسلون إلى مكتب الدفن.

كان يعمل فيه بضعة موظّفين لا أكثر: صاحب المكتب السيّد شيريز، ومتعهّدا الدفن، وسائق سيّارة الليموزين.

وإذا ما تُوفّي شخصٌ ما في حيّ بانيه، فإنّ متعهّدَيْ الدفن كانا يذهبان بسيّارة الليموزين ويعلّقان على باب منزله ستارةً سوداء كبيرة عليها دموعٌ فضّيّة. ثم يضعان على الرصيف أمام الباب منضدةً صغيرة عليها غطاءٌ أسود له دموعٌ فضّيّة أيضاً، وفوق المنضدة صحنٌ صغير كي يضع الناس فيه بطاقات صغيرة بأسمائهم حين يأتون لزيارة الميت.

عندما مات السيّد شيريزولا، عرفت لالا على الفور لأنها رأت ابنه في مكتب الطابق الأرضي للفندق. ابن السيّد شيريزولا رجلٌ قصير القامة، بدين، له شعرٌ خفيف وشاربٌ كثّ كالفرشاة، ينظر دائماً إلى لالا كأنها شفّافة، على عكس والده الذي كانت لالا تحبّه كثيراً. والسيّد شيريزولا من أصل إيطاليّ، لم يكن طويل القامة، كهلٌ ونحيل، يمشي بصعوبة بسبب آلام الروماتيزم، يرتدي دائماً بدلةً سوداء، لا شكّ أنها قديمةٌ جداً هي أيضاً، لأنّ قماشها بليَ عند المرفقين والركبتين حتى بانت الحياكة. وكان يلبس معها حذاءً قديماً من الجلد الأسود، لكنّه ملمّعٌ جيّداً. وحين يكون الطقس بارداً، يضع وشاحاً صوفياً وقبّعة على رأسه. كان للسيّد شيريزولا وجهٌ مغضّنٌ شديد الجفاف لفحته الرياح القوية، وشعرٌ أبيض قصيرٌ جداً، أما نظّارته المضحكة من عظم ترس السلحفاة، فكان قد أصلحها بالشريط اللاصق والخيطان.

كان محبوباً جداً في حيّ بانيه بسبب لطفه وبشاشته مع الجميع، ويبدو

عليه الوقار بثيابه السوداء قديمة الطراز وحذائه الملمّع. فضلاً عن ذلك، الجميع كانوا يعرفون أنه كان في الماضي نجّاراً، معلّمَ نجارةٍ حقيقيّاً جاء من إيطاليا مع بداية الحرب لأنه لم يكن يحبّ موسوليني. هذا ما كان يرويه للالا أحياناً حين يصادفها في الشارع وهو ذاهب لشراء حاجياته. يقول إنه وصل إلى باريس مفلساً، معه ما يكفي لقضاء ليلتين أو ثلاث ليالٍ في أحد الفنادق، ولم يكن يتحدّث أيّ كلمة فرنسية، وحين طلب صابونة لكي يغتسل، أحضروا له وعاءً من الماء الساخن.

حين تصادفه لالا، كانت تساعده في حمل حوائجه لأنه يسير بصعوبة، لا سيما حين يتطلّب الأمر صعود السلالم نحو شارع بانيه. حينذاك، أثناء سيرهما، كان يحدّثها عن إيطاليا، عن قريته، وعن أيام العمل في تونس، وعن المنازل التي كان يبنيها في كلّ مكان، في باريس، في ليون، في كورسيكا. كان له صوتٌ غريب نوعاً ما، صوت قويّ، وتجد لالا صعوبةً في فهم لهجته، لكنّها كانت تحبّ سماعه وهو يتكلّم.

لقد مات الآن. حين علمت لالا، بدا عليها حزنٌ كبير، إلى درجة جعلت معها ابن السيّد شيريزولا ينظر إليها متعجّباً، كأنه استغرب وجود شخصٍ يفكّر في والده.

غادرت لالا بسرعة لأنها لم تكن تحبّ استنشاق هواء مكتب الدفن، ولا رؤية أكاليل الورد الصناعيّ هذه كلّها، وعلى الأخصّ عمّال الدفن بعيونهم المشؤومة.

وهكذا سارت لالا في الشوارع على مهلها مُطرِقةَ الرأس، ووصلت إلى باب منزل السيّد شيريزولا عن غير قصد. رأت عند الباب الستارة والمنضدة الصغيرة بغطائها الأسود وعليها الصحن الصغير.

فوق الباب أيضاً، لوحةٌ سوداء كبيرة، عليها حرفان على شكل هلالين بهذا الشكل:

دخلت لالا إلى المبنى، ارتقت درجات السلّم الضيّقة على مهل، كأنها تحمل أغراض السيّد شيريزولا، تتوقّف عند كلّ استراحةٍ بين الطوابق كي تلتقط أنفاسها. إنها متعبة جداً اليوم، وتشعر بأنها ثقيلة كأنها مقبلةٌ على النوم، كأنها ستموت عندما تصل إلى الطابق الأخير.

توقّفت أمام الباب وتردّدت قليلاً. ثم دفعت الباب وولجت الشقة الصغيرة. في البداية، لم تتعرّف على المكان، لأنّ الشبابيك كانت موصدة والظلام مخيّماً. لم يكن أحدٌ في الشقة. اتجهت لالا إلى الغرفة الكبيرة، هناك حيث الطاولة الكبيرة التي يغطّيها مشمّعٌ وتتربّع فوقها سلّة فاكهة. في آخر الغرفة فرجةٌ في الجدار تضمّ السرير. عندما اقتربت، لمحت السيّد شيريزولا ممدّداً على ظهره في السرير، كأنه نائم. بدا في العتمة في غاية الهدوء، بعينيه المغمضتين ويديه الممدودتين على طول جسده، حتى إنّ لالا ظنّت لوهلة أنه غافٍ وسوف يستيقظ بعد قليل. نادته بصوتٍ هامس كي لا تزعجه: «سيّد شيريزولا... سيّد شيريزولا!».

لكنّ السيّد شيريزولا لم يكن نائماً. كان ذلك واضحاً من ملابسه، ببدلته السوداء نفسها وحذائه اللامع نفسه، لكنّ السترة كانت مائلة قليلاً وياقتها تعلو وراء رأسه، وفكّرت لالا أنها سوف تتجعّد. فوق وجنتَي العجوز وذقنه ظلٌّ رمادي، وحول عينيه دوائرُ زرقاء، كأنه تعرّض للضرب. فكّرت لالا أيضاً بالعجوز نعمان، عندما كان مستلقياً على الأرض في منزله وفقدَ القدرة على التنفّس. فكّرت فيه بتركيزٍ قوي، حتى إنها رأته

للحظاتٍ ينام في السرير، بوجهه الذي محاه النوم ويديه الممدودتين على طول جسده. كانت الحياة لا تزال تنبض في ظلمة الغرفة بارتعاشٍ خفيفٍ محسوس قليلاً. دنت لالا من السرير، ورأت بوضوحٍ الوجهَ المنطفئ، وقد أصبح بلون الشمع، والشعر الأبيض الذي انسدلت منه خصلٌ وتصلّبت فوق صدغيه، وفمه نصف المفتوح، ووجنتيه الغائرتين بسبب ثقل فكّه المتراخي. ما كان يبعث على الغرابة في وجهه، هو غياب نظّارته، لهذا بدا عارياً، ضعيفاً، بسبب تلك العلامات التي أصبحت دون نفع فوق أنفه وحول عينيه وعلى جانبَيْ صدغَيه. بدا جسد السيّد شيريزولا فجأةً ضئيلاً، وصغيراً جداً داخل ملابسه السوداء، كأنه اختفى ولم يبقَ منه سوى هذا القناع وهاتين اليدين الشمعيّتين، وتلك البدلة التي عُلِّقت على نحوٍ أخرق فوق علّاقة ضيّقة جداً. عاودها الخوفُ فجأةً، الخوف الذي يحرق الجلد ويشوّش النظر. كان الظلام خانقاً، يشلّ الحركة كالسمّ. هذا الظلام القادم من قلب الساحات مجتازاً أزقة المدينة القديمة، يُغرق من يصادف، أولئك الحبيسين في غرفهم الضيّقة: الصغار من الأطفال، النساء، الكهول. يدخل إلى المنازل، تحت الأسقف الرطبة، إلى الأقبية، يتغلغل في أصغر الشقوق.

تجمّدت لالا أمام جثمان السيّد شيريزولا. شعرت بالبرد يجتاحها، وبلون جلده الشمعي المخيف يغطّي جلدها ووجهها ويديها. تذكّرت رياح البلاء التي هبّت على المدينة في تلك الليلة، عندما كان نعمان يحتضر، والبرد الذي بدا كأنه خارجٌ من ثقوب الأرض كلّها ليُفني البشر.

على مهل، ودون أن تبعد أنظارها عن جسد الميّت، تراجعت لالا إلى الوراء نحو باب الشقة. كان الموت طافياً في الظلام الرمادي بين الجدران، في السلّم، فوق الطلاء المتقشّر في الممرّات. نزلت السلالم مسرعةً بكلّ

ما أوتيت من قوّة، بقلبٍ خافق وعينين غارقتين بالدموع. اندفعت نحو الخارج، وحاولت أن تجري باتجاه القسم المنخفض من المدينة عند البحر، بينما كانت الرياح والضوء يحاصرانها. لكنّ ألماً في بطنها أرغمها على الجلوس على الأرض، وانطوت على نفسها. بدأت تئنّ، بينما الناس يمرّون أمامها، ينظرون إليها بشكلٍ خاطف ويبتعدون. هم أيضاً كانوا خائفين، هذا واضحٌ من طريقتهم في السير بمحاذاة الجدران، ينحنون قليلاً مثل كلاب اقشعرّ وبرها من الخوف.

الموت يخيّم في كلّ مكان، فكّرت لالا، ولا يمكن الهروب منه. الموت رابضٌ في المكتب الأسود في الطابق الأرضي من فندق سانت بلانش، بين باقات البنفسج المصنوعة من الجصّ، ورخام بلاط القبور المتراكم. يسكن هناك، في المبنى العفن، في غرف الناس، في الممرّات، وهم لا يعرفون ذلك ولا يرتابون به. يغادر مكتب خدمة الدفن ليلاً، على هيئة صراصير، جرذان، بقّ، وينتشر في جميع الغرف الرطبة، فوق فُرش القشّ كلّها، يزحف ويتغلغل فوق خشب الأرضيات، داخل الشقوق، ويتغلغل في كلّ شيء مثل ظلٍّ سامّ.

نهضت لالا ومشت مترنّحة، ضغطت بيديها على بطنها، حيث ينتؤ الألم. لم تعد تنظر إلى أحد. إلى أين يمكن أن تذهب؟ أمثالها يعيشون، يأكلون، يشربون، يتحدّثون، وفي تلك الأثناء، ينغلق عليهم الفخّ. لقد خسروا كلّ شيء، نُفيوا، ضُربوا، أُهينوا. يعملون على الطرقات في الرياح الجليدية، تحت الأمطار، يحفرون الحفر في الأرض الحصوية، يكسرون أياديهم ورؤوسهم، يصيبهم الجنون من صوت كسّارات الحجارة. جائعون، خائفون، يتجمّدون من الوحدة والفراغ، وحين يتوقّفون،

يصعد الموت إليهم، من تحت أقدامهم، من مكتب الطابق الأرضي في فندق سانت بلانش. عمّال دفن الموتى بعيونهم الخبيثة هناك، يمحونهم، يمحقونهم، يخفون أجسادهم، يستبدلون بوجوههم أقنعةً من الشمع، وبأياديهم قفّازاتٍ تبرز من ملابسهم الواسعة.

إلى أين تذهب؟ وأين تختبئ؟ كانت لالا تريد العثور على مخبأ في النهاية، كما في الماضي، في مغارة الحرطاني، في أعلى الجرف الصخري، مكان لا يُرى منه سوى البحر والسماء.

تمكّنت من الوصول إلى الساحة الصغيرة، وجلست على المقعد البلاستيكيّ، أمام جدار المنزل المتهالك، الذي كانت نوافذه الفارغة شبيهة بعينَيْ ماردٍ ميّت.

في ما بعد، سرى في أرجاء المدينة نوعٌ من الحمّى، ربما بسبب الرياح التي بدأت تهبّ في نهاية الشتاء، ليست رياح البليّة والبلاء، مثل تلك التي جاءت عندما بدأ العجوز نعمان يُحتضر، إنما رياحٌ قوية وباردة، تجتاز جادّات المدينة الواسعة، تثير الغبار وتطيّر الجرائد القديمة، رياح مُسكِرة يترنّح المرء معها. لم تعرف لالا رياحاً مثلها من قبل، فهي تدخل إلى الرأس وتدوّم فيه، تعبر الجسد كتيّارٍ بارد، فيرتعش ارتعاشاتٍ قوية. لذلك، ما إن أصبحت في الخارج في عصر ذلك اليوم، حتى بدأت تركض، دون أن تلقي نظرة على مكتب الدفن، حيث كان الرجل السئم صاحب البدلة السوداء.

في الجادّات الواسعة في الخارج نورٌ وفير حملته الرياح معها. كان يتقافز ويتلألأ فوق هياكل السيّارات ونوافذ البيوت. يدخل إلى رأس لالا أيضاً، يهتزّ فوق جلدها ويوهّج شعرها. رأت من حولها اليوم، ولأوّل مرّة منذ زمنٍ طويل، بياضَ الحجارة والرمال الأبديّ، بريق حجر الصوان الجارح، النجوم. إلى البعيد أمامها، في آخر الجادّة الواسعة داخل النور الضبابيّ، ظهر أيضاً السرابُ والقباب والأبراج والمآذن والقوافل، مختلطةً بزحمة الناس والسيّارات.

إنها رياح النور الآتية من الغرب وتتجه صوب الأماكن المظلمة. سمعت لالا، كما في الماضي، فرقعةَ النور فوق الأسفلت، صوت

انعكاساته المديد فوق زجاج النوافذ، طقطقة الأنسام كلّها. أين هي الآن؟ هناك الكثير من الضوء، كأنها معزولة داخل شبكة من الإبر. لعلّها تمشي الآن فوق سهل الحجارة والرمال الواسع، هناك حيث ينتظرها الحرطاني في وسط الصحراء. لعلّها تحلم أثناء سيرها بسبب النور والرياح، وقريباً ستضمحلّ المدينة وتتبخّر في حرارة الشمس المشرقة، بعد الليلة الرهيبة.

عند زاوية أحد الشوارع، بالقرب من السلّم المؤدّي إلى محطة القطار، رأت راديكس الشحّاذ يقف أمامها. كان وجهه متعباً وقلقاً، ولم تعرفه بسهولة، فقد بدا الشاب أشبه برجل. كان يرتدي ملابس لا تعرفها، بدلةً كستنائية اللون تتهدّل على عظام جسده الناتئة، وزوج أحذية من الجلد الأسود، لا شكّ أنه يدمي قدميه الحافيتين.

أرادت لالا أن تقول له إنّ السيّد شيريزولا قد فارق الحياة، وإنها لن تعود البتّة للعمل في فندق سانت بلانش، ولا في أيّ غرفةٍ من الغرف، حيث يمكن للموت أن يأتي في أيّ لحظة ويحوّلها إلى قناعٍ من الشمع، ولكن كان هناك رياحٌ والكثير من الضجيج، بحيث لم تستطِع الكلام. عندئذٍ، أظهرت لراديكس حفنةَ الأوراق النقدية المجعّدة في يدها: «انظر!».

حملق راديكس بعينيه، لكنّه لم يطرح أيّ سؤال. لعلّه ظنّ أنّ لالا سرقت هذا المال، أو أسوأ من ذلك أيضاً.

أعادت لالا الأوراق النقدية إلى جيب معطفها. هذا كلّ ما نالته من الأيام التي أمضتها في ظلام الفندق هناك، تفرك مشمّع الأرضيات بفرشاة القشّ القاسية، وتكنس الغرف الرمادية التي تفوح منها رائحة العرق والتبغ. حين قالت لصاحب الفندق إنها راحلة، هو أيضاً لم يقُل شيئاً. خرج من سريره العتيق، الذي لم يرتّبه قطّ ولا مرّة، واتجه صوب الخزنة الحديدية

في آخر الغرفة. سحب المال، عدّ، وأضاف أجر أسبوع مقدّماً، وأعطى كلّ ذلك للالا، ثم عاد للنوم من جديد دون أن يضيف كلمةً واحدة. فعل ذلك كلّه دونما استعجال، بملابس نومه، وخدّيه الحليقين على نحوٍ سيّئ، وشعره المتّسخ، بعد ذلك، استأنف قراءة صحيفته، كأن لا شيء له أهمّية على الإطلاق.

أما الآن، فإنّ لالا سكرانةٌ بحرّيّتها. تنظر حولها، إلى الجدران والنوافذ والسيّارات والناس، كأنها أشكالٌ فحسب، صورٌ وأخيلة سوف تمحوها الرياح والضوء.

كان الحزن يبدو على راديكس إلى درجةٍ جعلت لالا تشفق عليه.

«تعال!». سحبت الشاب من ذراعه، واندسّا داخل هرج الناس. دخلا معاً إلى مخزن كبير كان يلمع بالضوء، ليس بضوء الشمس الجميل، إنما بضوءٍ أبيض وقاسٍ تعكسه مجموعة من المرايا، لكنّ هذا الضوء كان يُسكِر أيضاً، يدوّخ ويعمي الأبصار. مع راديكس المتعثّر وراءها قليلاً، اجتازت لالا حيّز العطور ومستحضرات التجميل والشعر المستعار ومستحضرات الصابون. توقّفت قليلاً عند كلّ قسم، اشترت عدّة قطع من الصابون من كلّ الألوان، جعلت راديكس يشمّها. ثم اشترت قوارير عطر صغيرة، كانت تشمّها لحظةً وهي تسير على طول الممرّات، وهذا ما أدار رأسها إلى حدّ الغثيان. أحمر شفاه، ظلّ أخضر للأجفان، كحل أسود، أحمر قرميدي، مساحيق أساس، مستحضرات لتلميع الشعر، مرطّبات للبشرة، رموش اصطناعية، خصل شعر مزيّفة، تفرّجت لالا على ذلك كلّه وأرته لراديكس، الذي لم يكن يقول شيئاً. وبعد توقّف طويل، اختارت بعناية قارورة طلاء أظافر صغيرة مربّعة بلونٍ قرميدي، وقلمَ حمرةٍ أحمر قرمزيّاً. وقفت فوق

كرسيٍّ عالٍ أمام مرآة، وراحت تجرّب الألوان على ظاهر يدها، بينما كانت البائعة صاحبة الشعر الجافّ الشبيه بالقشّ تنظر إليها بعينين بلهاوَيْن.

في الطابق العلوي، راحت لالا تتسلّل بين الملابس وهي لا تزال ممسكة بيد راديكس. اختارت قميصاً دون أزرار، وسروالاً من الجينز الأزرق له حمّالات، ثم حذاء تنس وجوارب حمراء. تركت وراءها في غرفة القياس ثوبها الرمادي المخصّص للتنظيف وصندل الكاوتشوك، لكنّها احتفظت بالمعطف الكستنائي لأنها تحبّه كثيراً. صارت تمشي بخفّةٍ أكثر، تقفز بنعليها المرنَين، تضع إحدى يديها في جيب بنطالها ذي الحمّالات، وشعرها الأسود ينسدل حلقاتٍ ثقيلةً فوق ياقة معطفها، ويلمع تحت نور الكهرباء الأبيض.

نظر إليها راديكس فرآها جميلة، لكنّه لم يجرؤ على مصارحتها بذلك. كانت عيناها تلمعان بفرح، كأنّ بريق نارٍ اندلع في شعرها الأسود، وفي وجهها النحاسيّ الأحمر. كأنّ نور الكهرباء أحيا الآن لون شمس الصحراء، وكأنها وصلت إلى هنا، إلى مخزن Prisunic، آتيةً من درب الهضاب الصخرية مباشرة.

لعلّ كلّ شيء اختفى حقيقةً، وصار المخزن الكبير وحده وسط صحراءٍ مترامية لا نهاية لها، مثل قلعة من الحجارة والطين. ولكن، إنها المدينة بأسرها هي التي أصبحت محاطة ومحاصرة بالرمال، وبدأت تسمع طقطقة أسمنت المباني، بينما كانت الجدران تتصدّع، وتتساقط ألواح مرايا ناطحات السحاب.

نظرة لالا جلبت قوّة الصحراء الحارقة، فتوهّج النورُ على شعرها الأسود، على ضفيرتها الثخينة المجدولة داخل تجويف كتفيها وهي

تمشي. كان النور يشعّ من عينيها الكهرمانيتين، فوق بشرتها، فوق وجنتيها البارزتين وشفتيها، والناس في المخزن الكبير الذي يفور بالضجيج وبنور الكهرباء الأبيض، يتوقّفون ويفسحون الطريق لمرور لالا وراديكس الشحّاذ. يتوقّف الرجال والنساء مدهوشين، لأنهم يرون شخصاً لا يشبههم البتّة. في وسط الممرّ، كانت لالا تسير بسروال الحمّالات الداكن، ومعطفها الكستنائي المفتوح عند العنق على وجهها النحاسيّ الأسمر. لم تكن طويلة القامة، لكنّها بدت ضخمةً بينما كانت تتقدّم في مشيتها وسط الممرّ، ثم أثناء نزولها على السلّم الكهربائي نحو الطابق الأرضي.

كان ذلك بسبب النور المنبثق من عينيها، من بشرتها، من شعرها، نور يكاد يكون عجائبياً. يسير وراءها الصبيّ النحيل الغريب، بملابسه الرجالية وقدميه العاريتين داخل حذاء الجلد الأسود، وشعره الأسود الطويل يحيط بمثلّث وجهه وتجاويف وجنتيه وعينيه الغائرتين. كان يسير وراءها دون أن يحرّك ذراعيه، صامتاً، يجنح في مشيته قليلاً مثل كلبٍ مذعور، ينظر الناس إليه بدهشة أيضاً، كأنه ظلٌّ مفصول عن جسده. الخوف بادٍ على وجهه، لكنّه يحاول إخفاءه بابتسامةٍ قاسية وغريبة، تشبه التكشيرة أكثر.

أحياناً، كانت لالا تلتفت وتشير له بيدها، أو تمسكه بيده: «تعال!».

لكنّ الصبي سرعان ما يترك مسافةً بينهما.

عندما عادا إلى الخارج مجدّداً، في الشارع حيث الشمس والهواء، سألته لالا: «هل أنت جائع؟».

نظر راديكس إليها بعينيه البرّاقتين المحمومتين.

«سوف نأكل»، قالت لالا، وأخرجت ما تبقّى من الأوراق النقدية المجعّدة من جيب بنطالها الجديد.

على امتداد الجادّات الواسعة المستقيمة هناك الكثير من الناس، منهم من يمشي بسرعة، وآخرون يجرجرون أقدامهم على مهل. السيّارات تمرّ بمحاذاة الأرصفة، كأنها تراقب شيئاً ما، أو أحداً ما، أو مكاناً كي تُركن فيه. في السماء الخالية من الغيوم طيورُ خطّاف تهوي في نزلة الشوارع وتطلق صفيرها الحادّ. كانت لالا سعيدةً وهي تمشي هكذا ممسكةً بيد راديكس، دون أن يتكلّما، كأنهما ذاهبان إلى الطرف الآخر من العالم ولن يعودا منه بعد ذلك. تذكّرت البلاد في الضفة الأخرى من البحر، الأراضي الحمراء والصفراء، الصخور السوداء المغروسة في الرمال كالأسنان. تذكّرت ينابيع المياه العذبة المفتوحة على السماء، طعم رياح الشرقي التي ترفع طبقة الغبار وتنقل الكثبان. تذكّرت أيضاً مغارة الحرطاني في أعلى الجرف الصخري، هناك حيث شاهدت السماء، ولا شيء غير السماء. تسير الآن كأنها في طريقها إلى تلك البلاد، على طول الشوارع الكبيرة، كأنها عائدةٌ إليها. لدى مرورهما، كان الناس يفسحون الطريق منبهرين من الضوء ولا يعون السبب. تمرّ لالا أمامهم ولا تراهم، كأنها تمرّ بين أطياف البشر. دون كلام، تشدّ على يد راديكس بقوّة، وتسير باتجاه الشمس إلى الأمام.

عندما وصلا إلى البحر، كانت الرياح تعصف أشدّ وأقوى وتدفعهما، وكانت السيّارات العالقة في زحام المرفأ تطلق أبواقها بعصبيّة. من جديد، عاد الخوف وبان على وجه راديكس، فأمسكت لالا بيده بقوّة كي تطمئنه. كان عليها عدم التردّد، وإلا سوف تغادرهما نشوة الرياح والضوء وتتركهما بحالهما، ولن تكون لديهما الشجاعة ليكونا أحراراً.

سارا على طول أرصفة الميناء دون أن يلتفتا إلى السفن التي كانت صواريها تطلق أصواتاً كالأنين. تراقصت انعكاسات الماء فوق وجنة لالا،

فالتمعت بشرتها النحاسية وشعرها. كان النور حولها أحمر بلون الجمر، والفتى ينظر إليها مستسلماً للدفء المنبعث منها، يجتاحه ويُسكره. قلبه يخفق بشدّة، ويدوّي في صدغيه وفي عنقه.

ثم ظهرت الجدران البيضاء العالية، ونوافذ المطعم الكبير الواسعة. إلى هناك تريد لالا الذهاب. فوق البوّابة صوارٍ وأعلامٌ بكلّ الألوان تخفق في الهواء. تعرف لالا هذا المبنى جيّداً، فقد كانت تراه من بعيد منذ زمنٍ طويل، أبيضَ ناصعاً، نوافذه زجاجية واسعة تعكس أضواء غروب الشمس.

دون تردّد، دفعت الباب الزجاجيّ ودخلت. كانت الصالة الكبيرة معتمة، لكنّ الأغطية فوق الموائد الدائرية تظهر مثل بقعٍ ساطعة. خلال لحظة، استطاعت لالا أن ترى كلّ شيء بدقّة. باقات الأزهار الوردية داخل أواني الكريستال، الملاعق والشوك والسكاكين الفضّيّة، الكؤوس الزجاجية المحجّرة، مناديل السفرة الناصعة، ثم الكراسي المنجّدة بالمخمل الأزرق البحري وخشب الأرضية المشمّع، حيث كان النُّدُل يتنقّلون بملابسهم البيضاء. هذا غير واقعيّ وبعيد، مع ذلك، ها هي ذي تدخل إلى هنا وتسير على مهلٍ دون صوت فوق الأرض الخشبية، تمسك يد راديكس الشحّاذ بقوّة.

«تعال!» -قالت لالا- «سوف نجلس هنا!».

أشارت إلى طاولة بالقرب من واجهة زجاجية واسعة، واجتازا صالة المطعم. حول الموائد المستديرة، كان الرجال والنساء يرفعون رؤوسهم عن أطباقهم ويتوقّفون عن المضغ والكلام. بقي الندل في جمود، ملعقة السكب مغروزة في طبق الأرز، أو زجاجة النبيذ الأبيض مائلة قليلاً، تترك خيطاً رفيعاً من النبيذ ينساب داخل الكأس، ينسلّ مثل شعلة على وشك أن

تنطفئ. ثم جلست لالا وراديكس أمام الطاولة المستديرة، أحدهما قبالة الآخر أمام الغطاء الأبيض، تفصل بينهما باقة الورود. حينذاك، عاد الناس إلى الكلام والمضغ، إنما بصوتٍ أخفض، وعاد النبيذ يُراق، والملعقة تسكب الأرزّ، والأصوات تهمس قليلاً، يطغى عليها ضجيج السيّارات العابرة أمام النوافذ العريضة، كأنها أسماكٌ متوحّشة داخل حوض سمك.

لم يجرؤ راديكس على النظر من حوله. كان ينظر إلى وجه لالا فقط، بكلّ قواه. لم يرَ في حياته وجهاً بهذا الحسن، وهذا الصفاء. كان نور النافذة يضيء شعرها الأسود الكثيف، فيتوهّج حول وجهها وفوق عنقها وكتفيها، وبلغ يديها اللتين أراحتهما فوق الشرشف الأبيض. كانت عينا لالا شبيهتين بحجر الصوّان، بلون المعدن والنار، ووجهها مثل قناعٍ نحاسيٍّ مصقول.

جاء رجلٌ طويل القامة ووقف بالقرب من طاولتهما. كان يرتدي بدلةً سوداء وقميصاً أبيض بلون شراشف الطاولات. له وجهٌ بدين يبدو عليه الاضطراب، وفمٌ دون شفاه. كان يتهيّأ ليفتح فمه ويطلب من الولدين الرحيل على الفور دون إحداث مشكلات، عندما التقت نظرته الحزينة بنظرة لالا، نسي فجأةً ماذا كان يريد أن يقول. كانت نظرة لالا قاسية كالصوّان، مفعَمة بقوّة كبيرة، بحيث كان لا بدّ لرجل البدلة السوداء أن يُشيح نظره. تراجع خطوةً إلى الوراء كأنه يهمّ بالذهاب، ثم قال بصوتٍ مضحك، مخنوقٍ بعض الشيء: «هل.. هل ترغبان في شرب شيء؟!».

كانت لالا لا تزال تنظر إليه بثبات دون أن يرمش لها جفن. قالت فقط: «نحن جائعان، أحضِر لنا الطعام!».

ابتعد رجل البدلة السوداء، ثم عاد مع لائحة الطعام ووضعها على الطاولة.

لكنّ لالا أعادت اللائحة دون أن تكفّ عن التحديق في عينَي الرجل. لعلّه سيتذكّر لاحقاً كراهيّته ويخجل من خوفه.

«أحضِر لنا الأطباق نفسها التي يأكلونها». طلبت لالا، ودلّته على مجموعة الناس الجالسين في الطاولة المجاورة، هؤلاء الذين كانوا يراقبونهما بين حينٍ وآخر من فوق النظّارات وهم ملتفِتون نصف التفاتة.

ذهب الرجل وتحدّث إلى أحد الندل، الذي جاء يجرّ عربةً صغيرة محمّلةً بأطباقٍ من كلّ الأصناف. في تلكَ الأطباق، الطماطم وأوراق الخسّ، وشرائح سمك الأنشوا والزيتون والقبّار، والبطاطس الباردة، والبيض المرشوش بمسحوقٍ أصفر، وأشياء كثيرة أيضاً. كانت لالا تنظر إلى راديكس وهو يأكل بسرعة، ينحني فوق صحنه مثل كلبٍ ينهش، وتشعر برغبةٍ في الضحك.

الضوء والرياح ظلّا يرقصان من أجل لالا. حتى هنا، فوق الكؤوس والأطباق، فوق مرايا الجدران، فوق باقات الأزهار. وصلت الأطباق تباعاً إلى المائدة، عامرةً، متوهّجة، مليئةً بشتّى أنواع الطعام التي لا تعرفها لالا. أسماك تسبح في صلصةٍ برتقالية، جبالٌ صغيرة من الخضار، أطباقٌ فيها الأحمر، وأخرى الأخضر والبنّيّ، تغطّيها قِبابٌ فضّيّة، وراديكس يرفعها ليستنشق روائحها. كان رئيس الخدم يسكب لهما بطريقةٍ احتفالية نبيذاً بلون الكهرمان، ثم في كأسٍ واسع ورقيق آخر، نبيذاً بلون الياقوت، يقارب في لونه السواد. غمست لالا شفتيها في الشراب، لكنّ لونه في الغالب هو ما كانت تشربه، وهي تنظر إليه كيف يشفّ. أسكرهما الضوء أكثر مما فعل النبيذ وأصناف الطعام وروائحها. أكل راديكس بسرعة، من كلّ شيء في الوقت نفسه، وشرب النبيذ كأساً وراء كأس. لكنّ لالا لم تأكل شيئاً تقريباً،

كانت تنظر إلى الصبيّ وهو يأكل، والناس في القاعة كأنهم تجمّدوا أمام أطباقهم. تباطأ الزمن، أو أنّ نظرتها هي التي شلّت حركة كل شيء، هي والضوء.

في الخارج، كانت السيّارات تتابع عبورها أمام النوافذ الزجاجية، ويظهر لون البحر رمادياً من بين السفن.

عندما أنهى راديكس ازدراد كلّ ما في الأطباق، مسح فمه بمنديل المائدة، واستند إلى ظهر الكرسي. كان وجهُه قد تورّد قليلاً، ولمعت عيناه بشدّة.

«هل كان الطعام لذيذاً؟»، سألت لالا.

«نعم»، قال ببساطة. وأصابه شيءٌ من الفواق لكثرة ما أكل.

جعلته لالا يشرب كأساً من الماء، وطلبت منه أن ينظر في عينيها إلى أن يزول الفواق.

اقترب الرجل صاحب البدلة السوداء من طاولتهما: «قهوة؟».

هزّت لالا رأسها نافية.

عندما أحضر النادل الفاتورة فوق صينية، أعادتها لالا إليه: «اقرأها!».

أخرجت من جيب معطفها رزمة الأوراق النقدية المجعّدة، وبدأت تفردها واحدةً واحدة فوق الشرشف. أخذ رئيس الندل المال. كان يهمّ في الذهاب، لكنّه تراجع وقال لها: «يوجد سيّد يريد التحدّث إليك، على تلك الطاولة هناك، بالقرب من الباب».

أمسك راديكس لالا من ذراعها وشدّها بعنف: «هيا، سنغادر هذا المكان!».

عندما اقتربت من الباب، رأت على الطاولة المجاورة رجلاً في الثلاثين، يبدو على ملامحه الحزن. وقف واتجه نحوها. ثم قال متلعثماً: «أنا، اعذريني إذا بادرت إليك هكذا، ولكن أنا...».

نظرت إليه لالا مواجهةً وهي تبتسم.

«في الحقيقة، أنا مصوّر، وأودّ أن ألتقط لك صوراً عندما ترغبين».

وحين لم تردّ لالا، واستمرّت في الابتسام، ازداد ارتباكه أكثر.

«ذلك لأنني رأيتك هناك منذ قليل عندما دخلت إلى المطعم، وكان الأمر رائعاً، أنت.. كان رائعاً فعلاً!».

أخرج قلم حبرٍ من جيب سترته، وكتب بسرعة عنوانه واسمه على ورقة صغيرة. لكنّ لالا هزّت رأسها، ولم تأخذ الورقة.

«لا أعرف القراءة»، قالت.

«فإذاً، قولي لي أين تسكنين؟»، سأل المصوّر. كان له عينان زرقاوان مائلتان للرمادي، حزينتان جدّاً ومبلّلتان، مثل أعين الكلاب. نظرت لالا إليه بعينيها المفعمتين بالنور، وكان الرجل لا يزال يبحث عن شيء يقوله.

«أسكن في فندق سانت بلانش»، قالت لالا ورحلت مسرعة.

في الخارج، كان راديكس الشحّاذ بانتظارها، يصفع الهواء شعره الطويل بوجهه النحيل. لم يكن يبدو راضياً، وعندما تكلّمت لالا معه، رفع كتفيه.

معاً، سارا حتى البحر، دون أن يعرفا إلى أين كانا ذاهبين. لم يكن البحر هنا كشاطئ نعمان الصيّاد. هنا البحر جدارٌ إسمنتيّ كبير يحاذي الساحل، معلّق بالصخور الرمادية، تصطدم أمواجه القصيرة بتجاويف الصخور

محدِثةً انفجاراتٍ، ويعلو الزبد كالضباب. لكنّه كان جميلاً، ولالا تحبّ أن تمرّر لسانها فوق شفتيها وتحسّ بطعم الملح. نزلت مع راديكس بين الصخور، إلى أن وصلا إلى خليجٍ صغير بمنأى عن الرياح. كانت الشمس حارقةً جدّاً في هذا المكان، تلمع فوق البحر، وفي البعيد، وفوق الصخور المالحة. بعد ضجيج المدينة، وروائح المطعم كلّها، كان المجيء إلى هنا مريحاً، لا شيء أمامهما سوى البحر والسماء. إلى الغرب قليلاً جزرٌ صغيرة، تنبثق من البحر كالحيتان، راديكس هو الذي قال ذلك. وكذلك قواربُ صغيرة بأشرعةٍ بيضاء، تبدو كلعب أطفال.

عندما بدأت الشمس تنحدر في السماء، وخفَّ النور فوق الأمواج والصخور، وعصف الهواء على نحوٍ أقلّ، منحهما ذلك الرغبةَ في الحلم والكلام. نظرت لالا إلى النباتات الصغيرة الخضراء التي تفوح برائحة العسل والفلفل، كانت ترتعش عند أقلّ نسمة في تجاويف الصخور الرمادية قبالة البحر. تمنّت أن تصبح صغيرةً ضئيلة، بحيث تستطيع أن تحيا داخل غيضة من تلك النباتات الصغيرة، وتسكن حينئذٍ داخل حفرة في الصخر. سوف تكفيها قطرةُ مياهٍ واحدة شراباً ليومٍ كامل، وكسرة خبز واحدة طعاماً ليومين.

أخرج راديكس من جيب سترته الكستنائية القديمة علبة سجائره المجعّدة قليلاً، وأعطى واحدةً للالا. قال إنه لا يدخّن البتّة أمام الآخرين، يفعل ذلك في مكانٍ يحبّه فقط، ومع لالا يدخّن للمرّة الأولى أمام أحد. كانت سجائره أميركية، مزوّدة بقطعة ورق مقوّى وقطن في طرفها، ولها رائحة العسل المدوّخة. دخّنا معاً على مهل، وهما ينظران إلى البحر أمامهما، بينما كانت الرياح تطرد الدخّان الأزرق.

«هل تريدين أن أحكي لك عن المكان الذي أسكن فيه، هناك في جهة الخزّانات؟!».

كان صوت راديكس قد تغيّر كلياً، أصبح الآن جهورياً قليلاً، كأنّ الانفعال يشدّ على حنجرته. كان يتحدّث وهو يدخّن لفافته، إلى أن أحرقت شفتيه وأطراف أصابعه.

«في البدء، لم أكن أسكن مع المعلّم، أتعلمين؟ كنت أعيش مع أبي وأمي في قافلة، ننتقل من معرضٍ إلى معرض، كان لدينا منصّة للرماية، في الواقع، ليس بالبنادق، إنما بالكرات وعلب الكونسروة. في ما بعد، مات أبي. وبما أنّ عددنا كبير، ولم نكن نملك ما يكفي من المال، فقد باعتني أمي للمعلّم وأتيت للعيش هنا في مرسيليا. في البداية، لم أكن أعرف أنّ أمي باعتني، ولكن ذات يوم أردت الرحيل، فقبض عليّ المعلّم وضربني، وقال لي إنني لا أستطيع العودة إلى أمي لأنها باعتني وفات الأوان، وأصبح بمنزلة أبي. لهذا، منذ ذلك الحين، لم أحاول تركه مرّةً أخرى، لأنني لم أعد راغباً برؤيتها. في البداية حزنت كثيراً، لأنني كنت وحيداً ولم أكن أعرف أحداً. ولكن في ما بعد، اعتدت، لأنّ المعلّم لطيفٌ يعطينا كلّ ما نريد أن نأكله، وكان ذلك بالنسبة إليّ أفضل من البقاء مع أمي، فهي لم تعد تهتمّ بشأني. كنّا ستّة صبيان مع المعلّم، في الحقيقة سبعة بدايةً، وقد مات أحد الصبية. أصيب بذات الرئة وفارق الحياة على الفور. حينذاك، كنا نذهب ونجلس للتسوّل في الأماكن التي دفع ثمنها المعلّم. في المساء، نحضر المال ونحتفظ بالقليل لنا، والباقي للمعلّم يشتري به الطعام. كان يحذّرنا دوماً من الشرطة كي لا تقبض علينا، وإلا فسوف يأخذوننا إلى مؤسسة المساعدة العمومية ولن يتمكّن من إخراجنا البتّة. ولهذا السبب، لم نكن

نمكث في المكان نفسه لوقتٍ طويل بتاتاً، بل يأخذنا المعلّم إلى مكانٍ آخر. أقمنا في البداية داخل هنغارٍ في الشمال، ثم صار لدينا قافلةٌ مثل قافلة أبي، ونذهب للتخييم مع الغجر في الأراضي، عند مخرج المدينة. الآن أصبح لدينا منزلٌ كبير لنا جميعاً، قبل الخزّانات تماماً. وهناك أولاد آخرون أيضاً، يعملون لصالح معلّم آخر اسمه مارسيل، وكذلك أنيتا مع أولاد آخرين، صبيّان وثلاث بنات، أظنّ أنّ البنت الكبيرة ابنتها الحقيقية. نعمل في أنحاء محطة القطار، ولكن ليس كلّ يوم حتى لا يُكشف أمرنا. ونذهب أيضاً إلى الميناء، وإلى شارع «بيلسونس»، أو إلى «كانبيير». لكنّ المعلّم يقول إنني كبرت كثيراً على التسوّل الآن، الذي يصلح للصِّبيان الصغار والبنات. يريد أن أعمل بشكلٍ جدّي، وعلّمني النشل من الجيوب، وفي المتاجر، والأسواق. مثلاً، أترين هذه البدلة والقميص والحذاء؟ نشلها كلّها من أجلي من أحد المخازن، بينما كنت أقوم بالمراقبة. منذ قليل، لو أردت، كان بوسعنا الخروج بملابسك هذه دون مقابل. الأمر بسيط، كان عليك الاختيار فقط وأنا أسرقها لك، فأنا أعرف الحيل. على سبيل المثال، بالنسبة لمحافظ النقود، يجب أن يكون هناك اثنان، واحد يسرقها وآخر يستلمها على الفور، كي لا يُمسك الأول متلبّساً بالسرقة. يقول المعلّم إنني موهوب بهذه المهنة، لأنني أملك يدين طويلتين ورشيقتين تصلحان لعزف الموسيقا أو للنشل. حالياً نحن ثلاثة نعمل بذلك، مع ابنة أنيتا. نزور المخازن الكبرى، في كلّ مكان تقريباً. أحياناً يقول المعلّم لأنيتا: هيا، سوف نذهب للتبضّع من السوبر ماركت. حينئذٍ، يأخذ صبيّين، وأحياناً يأخذ ابنة أنيتا وأحد الصِّبية. الصبيّ دائماً أنا. أنت تعرفين، المخازن كبيرة جداً. ثمة العديد من الممرّات بحيث يمكن أن تضيعي، بما فيها من أطعمة

وملابس وأحذية وصابون وأسطوانات، كلّ شيء. ولهذا حين نكون اثنين، يتمّ الأمر بسرعة. نحمل معنا كيساً له جيب خفيّ في القاع لإخفاء الأشياء الصغيرة. بالنسبة لسلع الأطعمة وغيرها، تضعها أنيتا تحت بطنها. لديها شيء مكوّر تضعه تحت ثوبها لتبدو حاملاً. والمعلّم ذاته، لديه معطف مطريّ متعدّد الجيوب في داخله، نجمع كلّ ما نريد ونرحل! تعرفين أنني في البداية كنت أخاف أن يُقبَض عليّ، لكنّ الأمر يتطلّب فقط اختيار اللحظة المناسبة وعدم التردّد. إذا ما تردّدت، فسوف يكشفك المراقبون. الآن، أصبحت أعرف المراقبين جيّداً، حتى من بعيد، لديهم جميعاً الطريقة نفسها في المشي، وفي النظر بطرف أعينهم، أستطيع التعرّف إليهم على بعد كيلومتر. بالنسبة إليّ، أفضّل العمل في الشارع بين السيّارات. يقول المعلّم إنه سوف يستدعيني للعمل بالسيّارات، هذا اختصاصه. في بعض الأحيان، يذهب إلى المدينة ويُحضر سيّارةً كي أتدرّب. علّمني كيف أفتح الأقفال باستخدام سلكٍ حديديّ، أو حتى بمفتاح مزيّف. يمكن فتح معظم السيّارات بمفتاح غير أصلي. بعد ذلك، علّمني سحب الأسلاك من تحت لوحة القيادة، وتحرير قفل عجلة القيادة. لكنّه يقول إنني أصغر من أن أقود السيّارة، لذلك فأنا آخذ كلّ ما أجده فيها. توجد أشياء كثيرة عادةً داخل درج القفّازات: دفاتر شيكات، أوراق، وأحياناً مال. وتحت المقاعد آلات تصوير، أجهزة مذياع. أفضّل العمل في الصباح الباكر بمفردي، حين يخلو الشارع تماماً، باستثناء هرّ لا أكثر بين حينٍ وآخر، وأعشق مشاهدة شروق الشمس والسماء الجليّة صباحاً. يريدني المعلّم أن أتعلّم فتح أقفال المنازل، ڤيلّات الأثرياء في هذه الأنحاء القريبة من البحر. يقول إنّ اثنين معاً يشكّلان فريقاً ممتازاً، إذا كانت حركتهما خفيفة ويجيدان تسلّق

الجدران. ولهذا علّمنا حيلاً لفتح الأقفال، وكذلك النوافذ. أما هو فلم يعد يرغب في العمل. يقول إنه كبير السن جداً ولن يكون قادراً على الجري إذا اضطرّ إلى ذلك. ولكن ليس لهذا السبب، بل لأنهم ألقوا القبض عليه في إحدى المرّات، وهذا ما يخيفه جداً. ذهبت ذات مرّةً مع صبيٍّ أكبر سنّاً مني اسمه ريتو، سبق له أن عمل لصالح المعلّم واصطحبني معه. ذهبنا إلى شارع بالقرب من «برادو». كان قد راقب منزلاً ويعرف أن لا أحد في الداخل. أنا لم أدخل، مكثت في الحديقة بينما كان ريتو يفرغ كلّ ما بوسعه. في ما بعد، نقلنا كلّ شيء إلى السيّارة، حيث كان المعلّم بانتظارنا. لقد خفت، فأنا الذي بقيت في الحديقة أراقب، وأظنّ أنّ خوفي يمكن أن يكون أقلّ لو أنني دخلت إلى المنزل وعملت هناك. ولكن يجدر معرفة كلّ شيء قبل البدء بالعمل، وإلا سيُلقى القبض علينا. في سبيل الدخول، يجب أولاً العثور على أفضل نافذة، ثم تسلّق شجرة أو مزراب مياه. يجب ألّا تشعري بالدوار. كذلك، يجب عدم الهلع. إذا ما وصل رجال الشرطة، يجب أن تظلّي دون حراك، أو أن تختبئي على السطح، لأنك إذا بدأت الجري، فسوف يمسكونك خلال خمس ثوانٍ. ولهذا يعلّمنا المعلّم كلّ ذلك في الفندق. يطلب منا تسلّق المنزل، السير على السطح ليلاً، كما أنه يعلّمنا القفز مثل المظلّيّين، وهذا ما نسمّيه: «اللفّ والدوران». يقول إننا لن نبقى على هذه الحال بشكلٍ نهائي، وإننا سنشتري قافلة ونرحل إلى إسبانيا. أنا أفضّل الرحيل إلى نيس، لكنني أظنّ أنّ المعلّم يفضّل إسبانيا. ألا تريدين المجيء معنا؟ تعرفين، سوف أقول للمعلّم إنك صديقة، ولن يطلب منك شيئاً، سأقول له فقط إنك صديقتي وترغبين في العيش معنا في القاطرة، سيكون الأمر رائعاً. ربما تستطيعين أن تتعلّمي العمل في

المخازن أيضاً، أو نسرق السيّارات معاً، فلكلٍّ دوره، وهكذا لا يرتاب بنا الناس؟ تعرفين، إنّ أنيتا لطيفة جداً، أنا واثقٌ من أنك ستحبّينها كثيراً، إنها امرأة بشعرٍ أشقر وعينين زرقاوين، ولا أحد يصدّق أنها غجرية. إذا أتيت معنا، فلن أبالي إذا لم أذهب إلى نيس. سيكون الأمر سيّان عندي لو ذهبت إلى إسبانيا، أو إلى أيّ مكانٍ آخر...».

توقّف راديكس عن الكلام. في الحقيقة كان يودّ أن يسألها عن أمور كثيرة، وعن الطفل الذي في بطنها، لكنّه لم يجرؤ. أشعل سيجارة أخرى، وبدأ يدخّن. بين حينٍ وآخر، كان يعطيها للالا، فتأخذ منها نفَساً. هما الاثنان، راحا ينظران إلى البحر الرائع، والجزر السوداء كالحيتان، والقوارب التي كانت تتهادى كالألعاب فوق البحر الطافح بالضياء. بين فينةٍ وأخرى، تهبّ الرياح بقوّة، كأنّ السماء والبحر سوف ينقلبان رأساً على عقب.

تنظر لالا الآن إلى صورها فوق أوراق الصحف وعلى أغلفة المجلّات. تنظر إلى كدس الصور، إلى الطبعات المُطابقة والنماذج الملوّنة التي يظهر فيها وجهها ويكاد يكون بالحجم الطبيعي. تقلّب أوراق المجلّات من الخلف إلى الأمام، تمسكها بالوَرب تقريباً، وتميل برأسها جانباً.

«هل أعجبتك؟!»، سألها المصوّر وفي صوته شيءٌ من القلق، كأنّ للأمر أهمّية!

أما هي، فكانت تغرق في الضحك على ضحكتها الصامتة التي تلمع فيها أسنانها البيضاء الناصعة. تضحك على ذلك كلّه، على تلك الصور، على تلك الصحف، كأنها أضحوكة، كأنّ تلك التي تظهر فوق الأوراق شخصٌ آخر. أولاً، هذه ليست هي، إنها حوّا، الاسم الذي منحته لنفسها وأعطته للمصوّر، وهكذا يناديها، وهكذا ناداها أوّل مرّة التقاها على سلّم حيّ بانيه واصطحبها إلى منزله، إلى شقّته الواسعة الفارغة في الطابق الأرضي من المبنى الجديد.

الآن صارت حوّا في كلّ مكان، فوق صفحات المجلّات، فوق مسوّدات الصور وطبعاتها، فوق جدران الشقّة. حوّا ترتدي اللون الأبيض مع حزامٍ أسود حول خصرها، وحيدةً وسط بيدر من الصخور لا ظلّ لها. حوّا بالحرير الأسود وعصابة ملفوفة حول جبهتها، مثل امرأة من قبيلة أباتشي. حوّا تقف في متاهة شوارع المدينة القديمة، باللون القرميدي،

بالأحمر، بالذهبيّ. حوّا تقف فوق البحر المتوسط، حوّا وسط زحام شارع بيلسونس، أو على سلالم المحطّة. حوّا تلبس النيلي حافية القدمين فوق أسفلت ميدان واسع كالصحراء، ووراءها أخيلة الخزّانات والمداخن التي تطلق الدخّان. حوّا وهي تسير، وهي ترقص، وهي نائمة، حوّا ذات الوجه الأسمر النحاسيّ والجسد الممشوق الأملس، التي تلمع في الضوء، حوّا بنظرتها الحادة كالصقر، وشعرها الأسود الكثيف المسترسل على كتفيها، أو المنسدل من مياه البحر كالخوذة.

ولكن من هي حوّا؟ في كلّ يوم حين تستيقظ في غرفة المعيشة البيضاء والرمادية، حيث تنام على فرشةٍ هوائيّة على الأرض مباشرة، تذهب للاغتسال في الحمّام دون ضجيج، ثم تخرج من النافذة وتذهب عبر شوارع الحيّ على غير هدى إلى أن تصل إلى البحر. كان المصوّر يستيقظ، يفتح عينيه، لكنّه لا يتحرّك، ويتصرّف كأنه لم يسمع شيئاً كي لا يزعج حوّا. يعرف أنها هكذا، ولا يحاول ردعها. بكلّ بساطة، كان يترك النافذة مفتوحة كي تستطيع الدخول مثل قطّة.

أحياناً لا تعود حتى الليل، وتتسلّل إلى الشقّة عبر النافذة. حين يسمعها المصوّر، يخرج من مخبره ويذهب للجلوس بقربها في غرفة المعيشة ليتحدّث إليها قليلاً. يكون شديد التأثّر دائماً حين يراها، لأنّ وجهها مفعَمٌ بالنور والحياة، يرمش بعينيه مبهوراً قليلاً، لأنه خرج لتوّه من عتمة غرفة التظهير. يظنّ أنّ لديه الكثير ليقوله لها، ولكن حين تكون حوّا أمامه، ينسى ماذا سيقول. هي التي كانت تتكلّم، تحكي عمّا شاهدت وما سمعت في الشوارع، بينما تأكل القليل من الخبز والفاكهة والتمور التي حملتها معها إلى بيت المصوّر بكميّاتٍ كبيرة.

والأكثر روعةً من ذلك كلّه، هي الرسائل، التي كانت تصل من كلّ مكان تحمل اسم حوّا على المغلّف. صحف الأزياء والمجلّات الملحقة بها، مضيفةً اسم المصوّر وعنوانه. هو أيضاً كان سعيداً وقلقاً من تلقّي هذا الكمّ من الرسائل. كانت حوّا تطلب منه أن يقرأها، وتصغي إليه طوال الوقت وهي تميل برأسها إلى الجانب قليلاً، بينما تشرب الشاي بالنعناع (أصبح مطبخ المصوّر الصغير مليئاً بعلب مسحوق الشاي، والشاي بالياسمين، ومظاريف النعناع الصغيرة). كان في الرسائل أشياء غريبة أحياناً، أشياء في غاية السخف كتبتها فتياتٌ يافعات رأين صورة حوّا في مكانٍ ما، ويتحدّثن إليها كأنها معرفة قديمة. أو رسائل من شبان وقعوا في غرامها، يقولون إنها جميلة مثل نفرتيتي، أو مثل أميرات حضارة الإنكا، ويرغبون في رؤيتها ذات يوم.

تبدأ لالا بالضحك: «يا لهم من كاذبين!».

عندما كان المصوّر يُريها الصور التي ظهّرها، حوّا بعينيها اللوزيتين تلمعان مثل حجرين كريمين، وبشرتها العنبرية تتلألأ بالنور، شفتاها بابتسامتها اللعوب الصغيرة، وارتسام وجهها الدقيق جانبياً، كانت تبدأ بالضحك أيضاً وتردّد: «يا لك من كاذب! يا لك من كاذب!».

ذلك لأنها كانت تعتقد أنّ تلك التي في الصورة لا تشبهها.

وكان هناك أيضاً رسائل أكثر جدّيّة تتحدّث عن عقود، عن المال، عن مواعيد، عن عروض أزياء. المصوّر هو من كان يقرّر كلّ شيء، يتصل بالخيّاطين، يسجّل المواعيد في جدوله الزمني، يوقّع العقود. هو الذي يختار التصاميم والألوان، ويقرّر موقع التصوير، ومن ثم يصطحب حوّا بشاحنته الفولكسفاكن الحمراء الصغيرة ويذهبان بعيداً، إلى مكان يخلو

من البيوت، لا شيء فيه سوى التلال الرمادية التي تغطّيها أدغال العشب الشوكية، أو إلى دلتا النهر الكبير، فوق شواطئ السبخات الملساء، هناك حيث للسماء والماء اللون نفسه.

كانت لالا حوّا تحبّ السفر في شاحنة المصوّر الصغيرة كثيراً، لأنها كانت تتفرّج على المناظر وهي تنزلق فوق زجاج النوافذ. الطريق المعبّد يتلوّى باتجاهها، البيوت، الحدائق، الأراضي البور المهملة على جانبي الطريق، الناس الواقفون على جانبي الطريق ينظرون بعيونٍ فارغة، ثم يختفي كلّ شيء كما في الحلم. لعلّه حلمٌ تعيشه لالا حوّا، حلمٌ لا نهار فيه ولا ليل حقيقةً، لا جوع ولا عطش بعد الآن، تنزلق فيه مناظر الصخور الكلسية البيضاء، وأشواك العلّيق، وتقاطع الطرقات، والمدن التي يعبرونها، بشوارعها وصروحها وفنادقها.

لم يكن المصوّر يتوقّف عن تصوير حوّا. يبدّل الآلة، يقيس الضوء، يضغط على زرّ التصوير. وجه حوّا في كلّ مكان، تحت نور الشمس يضيء ببهاء تحت سماء الشتاء، أو في قلب الليل وهو يرتعش على أمواج المذياع الذي يرافقه في المخبر، أو في الرسائل التي تصله عبر الهاتف. يغلق المصوّر على نفسه داخل مخبره. تحت المصباح البرتقالي الصغير، يتابع النظر دون توقّف في الوجه الذي بدأ يتخذ شكلاً فوق الورق داخل حوض حمّام الأسيد. العينان في البداية، واسعتان تسودّان تدريجياً، ثم الشعر الأسود، خطوط الشفاه، شكل الأنف، الظلّ تحت الذقن. العينان تنظران إلى البعيد، كما تفعل لالا دائماً، إلى الجانب الآخر من العالم، فيبدأ قلب المصوّر بالخفقان بسرعة، في كلّ مرّة، كما في أوّل مرّة عندما التقط أوّل نور في نظرتها في مطعم «غالير»، أو عندما عثر عليها في ما بعد بالمصادفة على سلالم المدينة القديمة.

منحَته شكلها، صورتها، لا شيء آخر. أحياناً ملمس راحة يدها، أو الشرارة الكهربائية حين يلامس شعرها جسمه، وكذلك رائحتها الحامضة قليلاً، اللاذعة بعض الشيء كرائحة الحمضيات، ونبر صوتها، وضحكتها الصافية. ولكن من تكون؟ لعلّها ليست سوى ذريعة لحلمٍ يلاحقه في مختبره المعتم، حيث آلات التصوير ذات المنفاخ، والعدسات التي تكبّر ظلّ عينيها وشكل ابتسامتها! حلم يحلم به، شأنه شأن بقية الرجال وهم يشاهدون صورها فوق صفحات الجرائد وأوراق المجلّات اللامعة.

اصطحب معه حوّا بالطيّارة إلى مدينة باريس، وذهبا إلى مواعيد الأعمال بالسيّارة تحت سماء رمادية على امتداد نهر السين. التقط لها صوراً فوق أرصفة النهر الطينية، في الساحات الكبرى، في الجادّات المترامية الأطراف. كان يصوّر دون أن يسأم الوجه النحاسي الفاتن الذي ينزلق النور عليه كما الماء. حوّا ترتدي قميصاً داخلياً من الساتان الأسود، حوّا ترتدي معطفاً مطرياً أزرق بلون الليل، بشعرها المجدول ضفيرةً واحدة ثخينة. في كلّ مرّة تلتقي فيها نظرته بنظرة حوّا، كان يصيبه وخزٌ في قلبه، مع المزيد من الصور دائماً. يقترب، يتراجع، يبدّل آلة التصوير، يضع ركبة على الأرض، بينما لالا تضحك عليه: «كأنك ترقص!».

كان يريد أن يغضب، ولكنّ هذا مستحيل. يمسح جبينه المبلّل بالعرق وقوس حاجبه الملتصق بعدسة الآلة. تخرج لالا من حقل الضوء فجأةً وتذهب، لأنها تعبت من كثرة التصوير. أما هو، ولكي لا يشعر بالفراغ، فكان يتابع النظر إليها في ظلام مختبره المرتجل لساعات في حمّام غرفة الفندق، ينتظر ظهور الوجه الجميل في وعاء الأسيد وهو يعدّ ضربات قلبه، لا سيما النظرة، النور العميق المنبثق من عينيها المائلتين، النور العنبريّ

اللون. نظرةٌ آتية من أبعد ما يكون، وكأنّ شخصاً آخر خفيّاً كان ينظر عبر بؤبؤيها ويفكّر بصمت. ما يظهر بالتدريج في ما بعد شبيهٌ بغيمة تتشكّل، الجبين، ثم خطّ الوجنتين البارزتين، وجلدها النحاسيّ المبرغل الذي لوّحته الشمس والرياح. ثمة شيءٌ غامض فيها، يتكشّف بالمصادفة فوق الورق، شيء يمكن رؤيته، ولكن لا يمكن امتلاكه البتّة، حتى وإن التقط لها صورة في كلّ لحظةٍ من حياتها حتى الموت. ابتسامتها أيضاً، فائقة العذوبة، الساخرة إلى حدٍّ ما، التي تغضّن جانبيّ شفتيها وتضيّق عينيها المائلتين. هذا كلّ ما يريد المصوّر التقاطه بآلات التصوير، ثم يعيد خلقه في عتمة مختبره. أحياناً يشعر كأنّ ذلك سيظهر بشكلٍ حقيقي، الابتسامة، نور العينين، جمال الملامح. لكنّ ذلك لا يدوم سوى برهة. فوق الورقة الغارقة في الأسيد، يتحوّل الرسم الأحمر، يتعكّر، وتغطّيه الظلال، وكأنّ الصورة تمحو الشخص الحيّ.

لعلّ ذلك يحدث في مكانٍ آخر غير الصورة! هل هو في مشيتها، أم في حركتها؟ ينظر المصوّر إلى حركات لالا حوّا، إلى طريقتها في الجلوس، في تحريك يدها وراحتها المفتوحة، لترسم خطّاً منحنياً مثالياً من مفصل الكوع حتى أطراف أصابعها. ينظر إلى خطّ العنق، والظهر الليّن، واليدين والقدمين الكبيرتين، والكتفين، والشعر الأسود الكثيف بانعكاساته الرمادية، ينهدل حلقاتٍ عريضة فوق كتفيها. ينظر إلى لالا حوّا كأنه يلمح للحظات وجهاً آخر يقارب وجه المرأة الصبيّة، وجسداً آخر وراء جسدها، محسوساً إلى حدٍّ ما، خفيفاً، عابراً. تظهر المرأة الأخرى في العمق، ثم تختفي، تاركةً ذكرى مشوّشة. تُرى من تكون؟ تلك التي يدعوها حوّا، من تكون؟ وأيّ اسمٍ تحمل في الحقيقة؟

أحياناً كانت حوّا تنظر إليه، أو أنها تنظر إلى الناس، في المطاعم، في قاعات المطارات، في المكاتب، تنظر إليهم وكأنّ عينيها سوف تمحوهم ببساطة وتعيدهم إلى العدم، إلى حيث يجب أن يكونوا. حين تكون نظرتها هكذا، يشعر المصوّر برعشة كأنّ البرد دخل إليه. لا يعرف ماذا يحدث. لعلّها المرأة الأخرى التي تعيش داخل لالا حوّا، هي التي تنظر وتحكم على الناس بعينيها، كأنّ هذه المدينة العملاقة في تلك اللحظة، هذا النهر، تلك الساحات، تلك الجادّات، تختفي ليظهر امتداد الصحراء والرمال والسماء والرياح.

لذلك، كان المصوّر يأخذ حوّا إلى أماكن شبيهة بالصحراء، إلى السهول الحصوية الفسيحة، إلى السبخات والأراضي البور. بالنسبة إليه، حوّا تمشي في نور الشمس، ونظرتها تمسح الأفق مثل نظرة الجوارح، تبحث عن ظلّ، عن طيف. تنظر لبرهةٍ طويلة، كأنها تبحث فعلاً عن أحدهم، ثم تبقى دون حراك فوق ظلّها، ويبدأ المصوّر بالتقاط الصور.

عمَّ تبحث؟ ماذا تريد من الحياة؟ كان المصوّر ينظر إلى عينيها، إلى وجهها، ويشعر بعمق القلق وراء نورها القويّ. يرى أيضاً الاحتراز، غريزة الهروب، هذا النور الغريب الذي يلمع للحظات في عيون الحيوانات البرّيّة. قالت له ذلك في أحد الأيام وكان يتوقّع ذلك، أخبرته عن الطفل الذي تحمله في أحشائها ويكوّر بطنها وينفخ ثدييها: «أتعرف؟ ذات يوم سأرحل، سوف أهرب، ولا يجدر بك اللحاق بي، لأنني سأرحل للأبد!».

لم تكن لالا تطمع بالمال، فهي لا تبالي به. في كلّ مرّة يعطيها المصوّر مالاً، ثمن ساعات التصوير، كانت تأخذ الأوراق النقدية، تختار منها واحدةً أو اثنتين، وتعيد إليه الباقي. أحياناً هي من كانت تقدّم له المال، حفناتٍ من

الأوراق والقطع المعدنية تخرجها من جيب بنطالها ذي الحمّالتين، كأنها لا تريد الاحتفاظ بشيء لنفسها.

أو أنها كانت تطوف شوارع المدينة، تبحث عن المتسوّلين في زوايا الشوارع وتعطيهم المال، حفناتٍ من القطع النقدية وهي تشدّ على أياديهم بقوّة كي لا يفقدوا شيئاً منها. تعطي للغجريات اللواتي يغطّين وجوههن ويطُفن في الشوارع الكبرى حافيات الأقدام، للنساء العجائز اللابسات السواد، اللواتي يجلسن القرفصاء عند مداخل مكاتب البريد، للمشرّدين المستلقين فوق المقاعد العمومية في الجادات، وللرجال الكهول الذين ينبشون في قمامة الأغنياء عند حلول الليل. جميعهم يعرفونها جيّداً، وحين يرونها تصل، تلمع عيونهم. يظنّ المشرّدون أنها عاهرة، لأنّ العاهرات وحدهن من يعطيهم الكثير من المال، يبدؤون إلقاء النكات والضحك بصوتٍ عالٍ، لكنّهم يبدون في قمّة السرور حين يرونها رغم كلّ شيء.

أصبحت حوّا حديث الناس في كلّ مكان. كان الصحافيّون في باريس يأتون لرؤيتها. ذات مساء، بدأت امرأةٌ تطرح عليها الأسئلة في بهو الفندق.

– يتحدّثون عنك، عن سرّ حوّا، من هي حوّا؟

– أنا لا أدعى حوّا. حين وُلدت لم يكن لي اسم، وكنت أُدعى حينذاك: «بلا اسم»، أي لا اسم لي.

– لماذا حوّا إذاً؟

– إنه اسم أمي، واسمي حوّا ابنة حوّا، هذا كلّ شيء.

– من أيّ بلاد أتيت؟

– البلاد التي أتيت منها لا اسم لها، مثلي.

- أين تقع؟

- هناك، حيث لا يوجد شيء، لا يوجد أحد.

- لماذا أنت هنا؟

- لأنني أحبّ السفر.

- ما أكثر ما تحبّين في الحياة؟

- الحياة.

- من الأطعمة؟

- الفاكهة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لونك المفضّل؟

- الأزرق.

- الحجر المفضّل عندك؟

- حصى الطريق.

- الموسيقا؟

- التهويدات.

- يقال إنك تكتبين القصائد؟

- لا أعرف الكتابة.

- ماذا عن السينما؟ هل لديك مشاريع؟

- كلّا.

- ما هو الحب بالنسبة إليك؟

فجأةً، ضاق صدر لالا وغادرت بسرعةٍ دون أن تلتفت. دفعت باب الفندق، وتوارت في الشارع.

بعض الناس يتعرّفون عليها في الشارع الآن، فتياتٌ في عمر الصِّبا يطلبْنَ منها الإمضاء على صورها. لكنّ حوّا لم تكن تعرف الكتابة، لذلك كانت ترسم علامة قبيلتها فقط، تلك التي تُدمَغ بها جلود الجمال والماعز وتشبه القلب نوعاً ما:

هناك أناسٌ كثر في كلّ مكان، في الجادّات، في المخازن، في الطرقات. يتزاحمون، يتبادلون النظرات، وحين تقع نظرة لالا حوّا عليهم، كأنّ كلّ شيء يختفي ويصبح أخرسَ وأجوف.

ولالا حوّا تريد عبور تلك الأماكن بسرعة كي تعرف ماذا يوجد بعدها. ذات ليلة، اصطحبها المصوّر إلى مرقص يدعى القصر، قصر باريس، اسمٌ كهذا. كانت قد ارتدت للرقص ثوباً أسود مفتوحاً عند الظهر، لأنّ المصوّر أراد التقاط الصور.

المكان هنا أيضاً شبيهٌ بالساحات الكبيرة الخالية، التي لا تجد فيها سوى أخيلة المباني وهياكل السيّارات المركونة تحت الشمس. إنه مكانٌ مخيفٌ وخاوٍ، يحتشد فيه الرجال والنساء، يقطّبون وجوههم في الظلمة الخانقة ووميض الأنوار الكهربائية، داخل سحب دخان السجائر وهديرٍ كالرعد يضرب الأرض فتهتزّ هي والجدران.

جلست لالا حوّا في ركنٍ على درجات السلّم وراحت تتأمّل الراقصين، وجوههم اللامعة من التعرّق، ملابسهم البرّاقة. في آخر الصالة، داخل مكانٍ يشبه الكهف، كان العازفون يحرّكون غيتاراتهم ويضربون على طبلاتهم، لكنّ صوت الموسيقا بدا آتياً من مكانٍ آخر، شبيهاً بصرخات العمالقة.

ثم دخلت الحلبة بين الناس وبدأت ترقص أيضاً. رقصت كما تعلّمت

في الماضي وحيدةً بين الناس، لتخفي خوفها لأنّ المكان مليء بالصخب والأضواء. بقي المصوّر جالساً على السلّم دون حراك، حتى دون أن يفكّر في تصويرها. في البداية، لم ينتبه الناس لوجودها، لأنّ النور كان يُبهر أبصارهم. فجأةً، بعضهم وراء بعض، توقّفوا عن الرقص وأفسحوا المكان للالا حوّا كي يشاهدوها، كأنهم شعروا بشيءٍ عجيب دون أن يخشوه. بقيت وحدها داخل دائرة الضوء ولم تعُد ترى أحداً. كانت ترقص على إيقاع الموسيقا الكهربائية البطيء، وكأنّ الموسيقا تعزف داخل جسدها. يلمع الضوء فوق قماش فستانها الأسود، وفوق بشرتها النحاسية وشعرها. لم يكن بالإمكان رؤية عينيها بسبب الظلام، لكنّ نظرتها كانت تمرّ فوق الناس وتملأ الصالة بكلّ قوّتها وجمالها. رقصت حوّا حافية القدمين فوق الأرض الملساء، قدماها الكبيرتان المسطّحتان تضربان على وقع الطبول، أو بالأحرى، هي من كانت بباطن قدميها وعقبيها تدوزن إيقاع الموسيقا. تماوَجَ جسدُها الرَّخْص، وركاها، كتفاها، باعدَت ذراعيها قليلاً كالجناحين. كانت أنوار المصابيح المتحرّكة تتقافز فوقها وتغمرها، وتخلق دوّامات حول خطواتها. وحيدةً في الصالة الكبيرة، وحيدةً كما لو أنها وسط ميدان، كما لو أنها وسط هضبةٍ صخرية والموسيقا الكهربائية تعزف لها وحدها بإيقاعها البطيء الثقيل. لعلّ أولئك الذين كانوا هنا حولها اختفوا جميعهم: الرجال، النساء، انعكاسات صورهم المخيفة فوق المرايا الساطعة! لم تعد تراهم أو تسمعهم الآن. حتى المصوّر الجالس فوق درجة السلّم اختفى. أصبحوا كالصخور، ككتل الهضاب الكلسية. أما هي فقد تحرّرت أخيراً واستطاعت أن تتحرّك. كانت تدور حول نفسها، تباعد ذراعيها، تضرب الأرض بقدمَيها، بأطراف أصابعها، ثم بكعبيها،

كأنها ترقص داخل دائرة كبيرة من الأشعة، يرتفع محورها عمودياً ويصل إلى سماء الليل.

رقصت كي ترحل وتصبح غير مرئيّة، كي تعلو كالطير فوق السحاب. كانت الأرض البلاستيكية تحت قدميها الحافيتين قد أصبحت حارقةً وخفيفةً بلون الرمال، والهواء حول جسدها راح يدور بسرعة الريح. ثم، من داخل دوار الرقص، ظهر نورٌ، ليس نور المصابيح القاسي والبارد، بل نور الشمس الرائع، حين تصبح الأرض والصخور، وحتى السماء، بلونٍ أبيض. إنها الموسيقا الكهربائية البطيئة والثقيلة، موسيقا الأورغ والطبلات، كانت تسري في جسدها عميقاً ببطء، وربما لم تعد تسمعها، غمرت جلدها النحاسي وشعرها وعينيها. ثم انتقلت حمّى الرقص إلى الناس حولها، الرجال والنساء الذين توقّفوا لبرهة، عادوا للحركة، إنما على إيقاع جسد حوّا، يضربون الأرض بكعابهم وأصابع أقدامهم، بأفواهٍ مطبقة ودون نفس. سكارى، ينتظرون أن تصل إليهم حركة الرقصة من تلقاء ذاتها، وتأخذهم معها، مثل تلك الأعاصير المائية التي تمشي فوق البحر. كان شعر لالا الثقيل يعلو ويضرب كتفَيها برتابة، وأصابع يديها المتباعدة ترتعش. فوق الأرض الزجاجية، أقدام الرجال والنساء العارية تضرب أسرعَ فأسرع، أقوى فأقوى، بينما كان إيقاع الموسيقا الكهربائية يتسارع أكثر. داخل الصالة الكبيرة، لم يعد هناك جدران، ولا مرايا، ولا أضواء، اختفت كلّها، تلاشت بدوار الرقص وانقلبت. لم يعد هناك وجودٌ لتلك المدن اليائسة، مدن دركات الجحيم، مدن الشحّاذين والعاهرات، حيث الشوارع فخاخٌ والمنازل قبور. لم يعد هناك أيُّ شيء من ذلك كلّه، محَت نظرة الراقصين السكرى الحواجزَ والأكاذيب القديمة كلّها. أصبح

حول لالا مساحاتٌ بيضاء لا نهاية لها من التراب والحصى، مساحات حقيقية من الرمال والملح وأمواج الكثبان. كما في الماضي، في نهاية درب الماعز، هناك حيث كلّ شيء جمّده الزمن، كأنك في آخر الأرض، عند سفح السماء وعلى عتبة الريح. كما في أوّل مرّة أحسّت فيها بنظرة ذاك الذي تسمّيه «السرّ». هكذا ومن قلب دوارها، بينما كانت قدماها تلفّان بها أسرع فأسرع، شعرت من جديد، ولأوّل مرّة منذ زمنٍ طويل، بالنظرة البعيدة تحدّق فيها. وسط الميدان الواسع الخالي، بعيداً عن الراقصين، بعيداً عن المدن الضبابية، نفذت إليها نظرة السرّ ولامست قلبها. فجأةً، بدأ النور يتوهّج بقوّةٍ لا تُحتمل، انفجارٌ ساطع وحارق كالبرق نشر أشعّته في الصالة كلّها، لا شكّ أنه حطّم الأنوار والمصابيح المستطيلة، وصعق العازفين الذين يضعون أصابعهم فوق غيتاراتهم، وتشظّت مكبّرات الصوت كلّها.

ببطء، ودون أن تتوقّف عن الدوران، تكوّمت على نفسها وانزلقت فوق الأرض الزجاجية كدمية تفكّكت أوصالها. بقيت لبرهة طويلة ممدّدةً على الأرض، وحيدةً، وجهها مخفيّ تحت شعرها قبل أن يقترب منها المصوّر، بينما كان الراقصون يبتعدون، دون أن يدركوا ماذا حدث لهم.

جاء الموت. بدأ بالخراف والماعز ومعها الخيول، تُترَك في مجرى النهر ببطونها المنفوخة وقوائمها المتباعدة. ثم جاء دور الأطفال والكهول، الذين يهذون أولاً، ثم يفقدون القدرة على النهوض. كانوا يموتون بأعدادٍ غفيرة، بحيث كان لا بدّ من تأمين مقبرة عند أسفل النهر، فوق ربوة من التراب الأحمر. يُحمّلون عند الفجر دون جنازة، مكفّنين بقماشٍ عتيق، ويُدفنون داخل حفرة بسيطة حُفِرت على عجل، يوضع عليها في ما بعد بعض الحجارة كي لا تأتي الكلاب وتنبش التراب. مع الموت، وصلت رياح الشرقي في الوقت نفسه. كانت تعصف هبّات تغمر الرجال بطيّاتها الحارقة، طاردةً رطوبة الأرض كلّها. في كلّ يوم، كان نور يطوف فوق مجرى النهر مع غيره من الأولاد بحثاً عن القشريات. يضعون أيضاً فِخاخاً صنعوها من شرائط العشب والعيدان لاصطياد الأرانب البرّيّة واليرابيع، ولكنّ الثعالب كانت تمرّ قبلهم غالباً.

الجوع هو الذي أهلك الناس وأماتَ الأطفال. كان المرتحلون قد وصلوا إلى مشارف المدينة الحمراء منذ أيام، لكنّهم لم يتلقّوا أيّ طعام، مع قرب نهاية المؤن. في كلّ يوم، كان الشيخ يرسل محاربيه إلى أمام أسوار المدينة لطلب الغذاء والأراضي لشعبه. لكنّ الوجهاء كانوا يقطعون الوعود دوماً ولا يقدّمون شيئاً. كانوا يقولون: «نحن فقراء جداً أيضاً، غابت الأمطار وأيبس الجفافُ الأرض، احتياطيُّ الموسم استُنفِد كلّه». في بعض الأحيان، كان الشيخ الأكبر وأبناؤه يذهبون بأنفسهم إلى

أسوار المدينة لطلب الأراضي والبذار وجزءاً من واحات النخيل. لكنّ ردّ الوجهاء يكون: «ليس هناك ما يكفي من الأراضي لهم. من أعلى النهر وحتى البحر، الأراضي الخصبة مستولى عليها، والجنود المسيحيون يأتون دائماً إلى مدينة أغادير ويأخذون القسم الأكبر من المحصول لأنفسهم».

وفي كلّ مرّة، كان ماء العينين يصغي إلى ردّ الوجهاء ولا يقول شيئاً، ثم يعود إلى خيمته في مجرى النهر. ولكن ما كان يتعاظم في قلبه الآن، ليس الغضب، ولا نفاد الصبر، إنما اليأس الذي يتقاسمه مع شعبه. مع مجيء الموت في كلّ يوم، ومعه رياح الصحراء الحارقة، بدا الرجال الهائمون على امتداد ضفاف النهر القاحلة، وأولئك الجالسون القرفصاء في ظلّ مآويهم، كأنهم يعاينون حقيقة موتهم أمام أعينهم. إذ إنّ تلك الأراضي الحمراء، وهذه الحقول اليابسة والمصاطب الشظيفة المغروسة بالزيتون والليمون، وواحات النخيل الظليلة كلّها، غريبة، بعيدة، وأشبه بالسراب.

أراد الأغظف وسعدبو تحدّي اليأس ومهاجمة المدينة، لكنّ الشيخ كان يرفض هذا العنف. كان رجال الصحراء الزرق متعَبين جدّاً، بعد أن مضى زمنٌ طويل على مسيرهم دون طعام. كان معظم المحاربين يعانون من الحمّى، سقيمين أو مُصابين بسوء التغذية، تغطّي سيقانَهم الجروحُ المتقيّحة. حتى أسلحتهم، لم تعُدْ صالحة للاستخدام.

كان أهل المدينة يرتابون برجال الصحراء، ويبقون الأبواب موصدةَ طول النهار. ومن راودته نفسه أن يتسكّع بالقرب من الأسوار، كان يتلقّى طلقاً نارياً كتحذير.

حينئذٍ، وعندما أدرك ماء العينين أنه لم يعُد هناك أملٌ، وأنّ الجميع

هالكون لا محالة، واحداً تلو الآخر فوق مجرى النهر الحارق، أمام أسوار المدينة التي لا ترحم، أعطى الإشارة للتوجّه نحو الشمال. هذه المرّة، لم تُقَم الصلاة، ولم يكن هناك لا إنشادٌ ولا رقص. بعضهم وراء بعض، ببطء، مثل حيوانات مريضة تفرد أطرافها وتنهض متعثّرة، غادر الرجال الزرق مجرى النهر وبدؤوا مسيرهم نحو المجهول.

الآن لم يعُد جيش الشيخ هو نفسه. كان المحاربون يسيرون برفقة قافلة الرجال والدوابّ، مُنهَكين مثلهم، ثيابهم ممزّقة، نظراتهم محمومةٌ وفارغة. ربما ما عادوا يؤمنون بدواعي هذا المسير الطويل، لكنّهم سوف يتابعون التقدّم بحكم الاعتياد فقط حتى آخر حدود قواهم، وهم على وشك السقوط في كلّ لحظة. كانت النساء يتابعن السير منحنياتٍ إلى الأمام تستر وجوههن مناديلهن الزرقاء، والكثيرات منهن لم يعُد أطفالهن معهن، لأنهم ظلّوا هناك، في تراب وادي سوس الأحمر. يليهم، في نهاية القافلة الممتدّة على طول الوادي، الأولادُ والكهول والمحاربون الجرحى، كلُّ أولئك الذين يمشون الهوينى. كان نور يقود المحارب الضرير ويمشي بينهم، حتى إنه لم يكن يعرف أين عائلته التائهة في مكانٍ ما داخل سحابة الغبار. بضعة محاربين فقط، كانوا لا يزالون فوق مطيّاتهم، والشيخ الأكبر بينهم فوق ناقته البيضاء متدثّراً بعباءته.

لا أحد كان يتكلّم. كلّ واحد يسير بحاله، بوجهٍ قد اسودّ وعينين محمومتين تحدّقان في أرض التلال الحمراء، يسيرون باتجاه الغرب للوصول إلى الدرب الذي يفضي إلى الجبال حتى مدينة مراكش المقدّسة. تحت وهج الضوء الذي يضرب رؤوسهم وأعناقهم ويحرّك الألم في أطرافهم، يتسرّب إلى داخل أجسامهم ويحرقها. ما عادوا يسمعون الرياح، ولا صوت وقع خطوات الرجال وهي تجرف رمل

الصحراء. ما عادوا يسمعون إلا صوت القلب وهدير الأعصاب، والألم الذي يصفر ويصرّ وراء طبلة الأذن.

لم يعُد نور يشعر بيد المحارب الضرير التي تمسك بكتفه. كان يسير فقط ولا يعرف السبب، دون أملٍ في التوقّف يوماً. لعلّ أباه وأمه في اليوم الذي قرّرا فيه ترك مخيّم الجنوب، كانا محكومين بالتشرّد حتى آخر حياتهما، بهذا المسير الذي لا ينتهي، من بئرٍ إلى بئر على امتداد الوديان الجافّة! ولكن هل في العالم أراضٍ غير هذه؟ مساحاتٌ شاسعة لا نهاية لها تتماهى مع السماء داخل الغبار، جبالٌ لا ظلّ لها، حجارةٌ مسنّنة، أنهارٌ دون ماء، أدغالٌ شائكة، كلّ شوكة فيها يمكن أن تسبّب الموت بجرحٍ صغير. في كلّ يوم، على سفوح التلال في البعيد بالقرب من الآبار، كان الرجالُ يرون بيوتاً جديدة، وحصوناً من التراب الأحمر تحيط بها الحقول وواحات النخيل. يرونها كأنها سراب، ترتعش في الهواء الساخن البعيد ولا يمكن بلوغها. لم يكن سكّان القرى يظهرون. كانوا قد فرّوا إلى الجبال، أو اختبؤوا وراء الأسوار، يستعدّون لمحاربة رجال الصحراء الزرق.

في مقدّمة القافلة، كان أبناء ماء العينين فوق خيولهم يشيرون إلى فتحة الوادي الضيّقة وسط فوضى الجبال: «الطريق! طريق الشمال!».

وهكذا مضت الأيام وهم يجتازون الجبال. كان الهواء الحارق يعصف في الوهاد، والسماء الزرقاء فوق الصخور الحمراء فسيحةٌ شاسعة. المكان خالٍ، لا بشر فيه ولا حيوانات، أثرُ أفعى فوق الرمال أحياناً، أو خيال عُقابٍ في أعالي السماء. يكملون طريقهم ولا يبحثون عن الحياة، ولا يرون بارقة أمل. كالعميان، يمشي الرجال والنساء بعضهم وراء بعض، يضعون أقدامهم فوق آثار أقدام من سبقهم، التي اختلطت

بآثار دوابّ القطيع. لكن من كان دليلهم؟ كان الطريق الترابي يتعرّج على طول الشِّعاب، يجتاز ركام الحجارة، ويختلط بمجاري السيول الجافّة.

أخيراً وصل المسافرون إلى أطراف وادي إيسين، الذي توسّع بسبب ذوبان الثلوج. كانت المياه تتقافز بين الضفاف القاحلة جميلةً ونقيّة، لكنّ الرجال نظروا إليها دون انفعال، لأنّ هذه المياه ليست ملكهم، ولا يستطيعون إيقافها. مكثوا بضعة أيام على أطراف الوادي، بينما كان محاربو الشيخ الأكبر، برفقة الأغظف وسعدبو، يتجهون صعوداً في طريق شيشاوة(*).

«هل وصلنا، هل هذه أرضنا؟»، يسأل المحارب الضرير باستمرار. كانت مياه النهر الباردة تنزل فوق الصخور شلّالات، وأصبح الطريق أكثر صعوبة. في ما بعد، وصلت القافلة أمام قرية شلوحية في آخر الوادي، وكان ينتظرهم هناك محاربو الشيخ بعد أن نصبوا خيمتهم الكبيرة. قدّم شيوخ الجبل أضاحي الخراف لاستقبال ماء العينين. كانت هذه قرية أغلاغلا الواقعة عند سفح الجبل العالي. استقرّ أهل الصحراء بالقرب من أسوار القرية، دون أن يطلبوا شيئاً. في المساء، جاء أطفال القرية يحملون اللحم المشوي واللبن الرائب، وشبع كلّ فردٍ من الطعام كما لم يشبع منذ زمنٍ طويل. ثم أضرموا ناراً من خشب الأرز، لأنّ الليل كان بارداً.

نظر نور مطوّلاً إلى اللهب المتراقص في الليل المدلهمّ. كان هناك أغانٍ أيضاً، لحنٌ غريب لم يسمع مثله قطّ، غناءٌ حزين وبطيء يرافقه صوت الناي. ثم جاء من القرية رجالٌ ونساء يطلبون بركة ماء العينين ليشفي أمراضهم.

(*) مدينة مغربية صغيرة تقع بالقرب من مراكش، بنَتها مجموعة مصمودة الأمازيغية.

بعد ذلك، سار المرتحلون صوب السفح الآخر للجبل، باتجاه المدينة المقدّسة. ربما في مراكش سيعرف أهلُ الصحراء نهاية آلامهم، كما يقول محاربو ماء العينين، فهناك بايع ماء العينين مولاي «حفيظ»، أمير المؤمنين، قبل أربع عشرة سنة خلت. وهناك منح الملك قطعة أرضٍ للشيخ لكي ينشئ فيها زاويةً للغظفية(*). فضلاً عن ذلك، فإنّ الابن البكر لماء العينين انتظره في المدينة المقدّسة لينضمّ إلى الجهاد، والجميع يبجّلون مولاي هيبة، ذاك الذي يدعونه «الدهيبة»، شذرة الذهب، ويلقّبونه بمولاي السبع، الأسد، لأنه كان قد اختير ملكاً على أراضي الجنوب.

في المساء، عندما كانت القافلة تتوقّف وتوقد النيران، كان نور يقود المحارب الضرير إلى حيث يجلس جنود ماء العينين، ويجلسان للاستماع إلى قصص الزمن الماضي، عندما جاء الشيخ وأبناؤه كلّهم مع محاربي الصحراء فوق جمالهم السريعة ودخلوا المدينة المقدّسة، واستقبلهم الملك مع ولدَيْ ماء العينين، مولاي السبع ومحمّد الشمس. كانوا يحكون أيضاً عن الهبات التي قدّمها الملك لمساعدة الشيخ في بناء أسوار مدينة السمارة، وعن الرحلة التي قطعوها مع قطعان الإبل الغفيرة، التي كانت تغطّي السهل كلّه، بينما كانت السفينة البخارية الكبيرة «بشير» تحمل النساء والأطفال والمعدّات والمواد الغذائية على متنها، وأبحرت عدة أيام وليالٍ من ماغادور، حتى ميناء طَرفاية(**).

(*) الزاوية هي أشبه بحلقات لتعليم الأمور الدينية، وهي أمكنة للعبادة أيضاً. وهي المكان الذي ينزوي فيه المريدون بحضرة مشايخ التصوّف.

(**) ماغادور: اسم قديم لمدينة الصويرة أطلقه عليها البرتغاليّون، وهي ميناء بحري في المغرب تابع لقطاع مراكش آسفي.

طرفاية: مدينة ساحلية تقع على مستوى رأس جوبي، في الجنوب الغربي للمغرب على ساحل المحيط الأطلسي.

كانوا يروون أيضاً أسطورة ماء العينين وهم ينغّمون أصواتهم قليلاً، فيبدو ذلك مثل حكاية حلم من الماضي. كان صوت المحاربين يمتزج بلظى النار، ونور يلمح للحظاتٍ خيالَ الشيخ الكهل من خلال تلافيف الدخان، مثل الشعلة في وسط المخيّم.

«وُلد الشيخ الكبير بعيداً في الجنوب، في مكانٍ يسمّى الحوض الشرقي، وكان والدُه ابن مولاي إدريس، وأمُّه من سلالة النبيّ. عندما ولد الشيخ الكبير، سمّاه والده أحمد، لكنّ والدته أطلقت عليه اسم ماء العينين، لأنها بكت فرحاً لحظة ولادته...».

كان نور يصغي في الليل، مُسنِداً رأسه فوق حجر، إلى جانب المحارب الضرير.

«عندما بلغ السابعة من العمر، كان قد حفظ القرآن دون أيّ خطأ. حينئذٍ، أرسله والده محمّد الفاضل إلى المدينة الكبرى مكّة المكرّمة، وفي طريقه، كان الصبيّ يصنع المعجزات.. يشفي المرضى، أما أولئك الذين يطلبون منه الماء، فكان يقول لهم: سوف تعطيكم السماء ماء، وعلى الفور، كانت الأمطار تهطل مدراراً فوق الأرض...».

كان المحارب الضرير يؤرجح رأسه قليلاً، كمن يُخضِع الكلام للإيقاع، ونور ينساق إلى النوم شيئاً فشيئاً.

«حينذاك، جاء الناس من أصقاع الصحراء كلّها لرؤية الطفل صانع المعجزات، وكان الطفل، ابن الشيخ محمّد فاضل بن مامين، يضع فقط قليلاً من لعابه على عينَي المريض، وينفخ في شفتيه، فينهض المريض على الفور ويقبّل يد الطفل لأنه شفّاه...».

كان نور يشعر بجسد الضرير يرتجف بلصقه، بينما كان يؤرجح رأسه ببطء فوق كتفيه.

صوت الحكواتي الرتيب، تراقص اللهب والدخان، الأرض نفسها، بدت له كأنها تتحرّك على إيقاع الصوت.

«وهكذا استقرّ الشيخ في مدينة شنقيط المقدّسة، عند بير أنزران بالقرب من الداخلة(*) لكي يعطي دروسه، لأنه كان ملمّاً بعلم الفلك والأعداد وبكلمة الله. ولهذا أصبح رجال الصحراء تلاميذه، وكانوا يُدعَون "بريك الله"، أيْ أولئك الذين نالوا بركة الربّ».

كان صوت المحارب الأزرق يتابع إنشاده في الليل، أمام لهب النار المتصاعدة والمتراقصة مع الدخان، الذي يغطّي الرجال ويثير سعالهم، بينما كان نور يصغي إلى حكايا المعجزات. عن الينابيع التي تتفجّر في الصحراء، والأمطار التي تغمر الحقول القاحلة، وكلمات الشيخ الأكبر في ساحة شنقيط، أو أمام مسكنه في بير أنزران.

كان يصغي إلى بداية مسير ماء العينين الطويل عبر الصحراء، حتى وصل إلى السمارة أرض أدغال العوسج، حيث أسّس الشيخ مدينته. وإلى معاركه الأسطورية ضد الإسبان في العيون وإفني وتزنيت، برفقة أبنائه: مُربِّيه ربُّه، طالب، الأغظف، الشمس، وذاك الملقّب بمولاي السبع.

وهكذا في كلّ مساء، كان الصوت نفسه يكمل الأسطورة على هذا الشكل وهو ينغّم، فينسى نور أين هو، كأنّ الرجل الأزرق يروي قصّته هو بالذات.

عندما وصلوا إلى الجهة الأخرى من الجبال، نفذوا إلى سهل الوادي الأحمر الكبير، وساروا باتجاه الشمال وصاروا ينتقلون من قرية

(*) جهة الداخلة – وادي الذهب، وهي إحدى الجهات في التقسيم الإداري للمغرب على الحدود الجنوبية مع موريتانيا.

إلى قرية. وفي كلّ قرية، كان يأتي إلى القافلة رجالٌ بعيونٍ متّقدة ونساء وأطفال وينضمّون إليهم، يأخذون مكان أولئك الذين فارقوا الحياة.

كان الشيخ الكبير يسير في المقدّمة فوق ناقته البيضاء، محاطاً بأبنائه ومحاربيه، فيرى نور في البعيد غيمة الغبار البيضاء، تبدو كأنها تقودهم.

عند مشارف مدينة مراكش الكبرى، لم يجرؤوا على الاقتراب، ونصبوا خيامهم بالقرب من نهرٍ جافّ في الجنوب. لمدة يومين، انتظر الرجال الزرق دون أن يتحرّكوا تقريباً، في ظلّ خيامهم وداخل أكواخ الأغصان. كانت رياح الصيف الحارّة تغطّيهم بالغبار، لكنّهم كانوا ينتظرون، ذلك لأنّ قواهم كلّها كانت مكرّسة للانتظار.

أخيراً في اليوم الثالث، عاد أبناء ماء العينين يرافقهم رجلٌ طويل القامة بلباس محاربي الشمال فوق جواده. جرى اسمه على كلّ لسان: «مولاي هيبة»، ذاك الذي يُلقَّب بـ«مولاي دهيبة»، شذرة الذهب، مولاي سبع.

عندما سمع المحارب الضرير اسمه، بدأ يرتجف وفاض الدمع من عينيه المحروقتين. جرى إلى الأمام مندفعاً، مباعداً ذراعيه، مطلقاً صرخةً طويلة، نوعاً من الأنين الحادّ يمزّق المسامع.

حاول نور اللحاق به وإمساكه، لكنّ الأعمى كان يجري بكلّ قواه وهو يتعثّر فوق الحجارة ويترنّح على الأرض الترابية. كان أهل الصحراء يفسحون الطريق أمامه، بل إنّ بعضهم اعتراه الخوف، وأشاحوا بأنظارهم لأنهم ظنّوا أنّ الضرير يسكنه شيطان. بدا المحارب الضرير كأنه قد غُيّض بفرح وألم يفوقان الطبيعة. سقط عدّة مرات على الأرض، متعثّراً بأحد الجذور أو بحجر. لكنّه في كلّ مرّة، كان ينهض ويتابع الجري نحو المكان الذي كان فيه ماء العينين ومولاي هيبة دون أن يراهما. أخيراً

استطاع نور الوصول إليه وأمسكه من ذراعه، لكنّ الرجل كان مستمرّاً في الجري وهو يصيح ويجرّ نور معه. كان يتجه أمامه في خطٍّ مستقيم، كأنه كان يرى ماء العينين وابنه، يتقدّم نحوهما دون أن يخطئ الطريق. حينئذٍ، خاف جنود الشيخ وقبضوا على بنادقهم كي يمنعوا الضرير من المضي قُدماً. لكنّ الشيخ قال ببساطة: «دعوهما يأتيان!».

ثم نزل عن ناقته، واقترب من المحارب الضرير.

«ماذا تريد؟».

ارتمى المحارب الضرير على الأرض، مدَّ ذراعيه إلى الأمام، والنحيب يهزّ جسده ويخنقه. كان أنينُه الطويل الحادّ وحده مستمرّاً في الخروج من حنجرته، وقد أضحى واهياً ولاهثاً كالنشيج. فتكلّم نور حينئذٍ: «امنحه البصر أيها الملك العظيم!»، قال له.

نظر الشيخ الكبير مطوّلاً إلى الرجل الممدّد على الأرض، الذي كانت الشهقات تهزّ جسده، إلى ثيابه المهلهلة، ويديه اللتين أدماهما الطريق. دون أن ينطق أيّ كلمة، جثا بالقرب من الأعمى ووضع يده على عنقه. بقي الرجال الزرق وابن الشيخ وقوفاً. كان الصمت مهيباً في تلك اللحظة، حتى إنّ نور شعر بالدوار. قوّة غريبة، مجهولة، كانت تنبثق من الأرض الترابية وتغمر الرجال في دوّامتها. لعلّه نور المغيب، أو قوّة النظرة التي تركّزت على هذا المكان وحاولت أن تنبجس مثل مياهٍ حبيسة. على مهلٍ، انتصب المحارب الضرير واقفاً، ظهر وجهُه في الضوء ملطّخاً بالرمال والدموع. بطرف لثامه الأزرق السماويّ، مسح ماء العينين وجه الرجل. ثم مرّر يده فوق جبينه، وعلى أجفانه المحترقة، كأنه يريد أن يمحو شيئاً ما. بأطراف أصابعه المبلّلة باللعاب، فركَ عينَي الضرير، ونفخ برفقٍ في وجهه، دون أن ينطق كلمة. دام الصمت طويلاً

جداً، حتى إنّ نور لم يعُد يذكر ما حدث وما قال من قبل. كان جاثياً على ركبتيه إلى جانب الشيخ، ينظر فقط إلى وجه المحارب الضرير، الذي يضيئه نورٌ مدهش. كان الرجل قد توقّف عن النحيب وبقي ماثلاً أمام الشيخ، ذراعاه متباعدتان قليلاً، عيناه الجريحتان مفتوحتان على اتساعهما، كمن كان يثمل على مهلٍ بنظرة الشيخ.

ثم اقترب أبناءُ ماء العينين، ومعهم مولاي هيبة أيضاً، وساعدوا الشيخ العجوز على النهوض. برفقٍ شديد، أمسك نور المحارب من ذراعه، وأنهضه أيضاً. بدأ الرجل يمشي مستنداً إلى كتف الصبيّ، بينما كان نور المغيب يلمع فوق وجهه كغبار الذهب. لم يتكلّم، كان يسير على مهل، مثل رجلٍ مرَّ بمرضٍ طويل، يسير الآن فوق الأرض الحصوية بكلّ أريحية.

كان يتعثّر قليلاً لكن دون أن يباعد ساعدَيه، كأنّ الألم غادر جسمه. بقي أهلُ الصحراء صامتين دون حراك، ينظرون إليه وهو يسير باتجاه الطرف الآخر للسهل. لم يعُد هناك ألم، غدا وجهه هادئاً ولطيفاً، وملأ نور الشمس الذهبية التي تلامس الأفق نظرته، وفوق كتف نور، أضحت يده خفيفة، مثل يد رجلٍ يعرف الطريق.

وادي تَادلة(*)، 18 حزيران 1910

غادر الجنود سطات وابن أحمد(**) قبل الفجر. كان الجنرال موانيه هو الذي يقود الكتيبة المغادرة «ابن أحمد»، والمؤلّفة من ألفي جندي مشاة مسلّحين ببنادق من نوع ليبل. كانت قافلة الجنود تتقدّم ببطء فوق السهل الحارّ باتجاه وادي نهر تادلة. في مقدّمة الرتل الجنرال موانيه، وضابطان فرنسيّان، ومستطلعٌ مدنيّ، يقودهم مرشدٌ مغاربيّ يرتدي مثل محاربي الجنوب ويمتطي جواداً كالضبّاط.

في اليوم نفسه، الكتيبة الأخرى، التي يبلغ عدد أفرادها خمسمئة فقط، غادرت مدينة سطات لتشكيل المقبض الثاني للكمّاشة، التي كان عليها الإطباق على ثوّار ماء العينين وهم في طريقهم إلى الشمال.

كانت الأرض الجدباء تمتدّ أمام الجنود على مدّ البصر، قرميديةً، حمراء، رمادية، تلمع تحت السماء الزرقاء، تهبّ فوقها رياح الصيف الحارقة وتحمل معها الغبار، فتحجب الضوء كالضباب.

(*) وادي تَادلة يقع في قلب المغرب، ينتمي إلى السهول الداخلية، يمتدّ على مساحة 3600 كم²، يحدّه شمالاً هضبة الفوسفات، وجنوباً سلسلة جبال الأطلسي.

(**) سطات: مدينة مغربية تقع جنوب الدار البيضاء. يُطلق عليها لقب عاصمة الشاوية. ابن أحمد: مدينة مغربية تابعة لإقليم سطات.

دون كلام، كان الضبّاط في المقدّمة يدفعون خيولهم للانفصال عن باقي الجنود، على أمل الهروب قليلاً من سحابة الغبار الخانقة. عيونهم ترقب الأفق لرؤية ما يمكن أن يكون هناك: ماء، قرى من الطين، أو العدوّ.

مضى زمنٌ طويل والجنرال موانيه ينتظر هذه اللحظة. في كلّ مرّة يجري فيها الحديث عن الجنوب وعن الصحراء، كان يفكّر فيه، في ماء العينين الذي لا يُقهر، الرجل المتعصّب الذي أقسم على طرد المسيحيين كلّهم خارج أرض الصحراء، هو نفسه رأس المتمرّدين، قاتل الحاكم كوبولاني(*).

كان قائد الأركان العامة يقول: «ما من خطر في كازا وفور-ترينكه وفور-غورو(**). إنه مجرّد متعصّب، نوعٌ من المشعوذين، صانعُ أمطارٍ، جرجر وراءه صعاليك الدرعة وتندوف وزنوج موريتانيا كلّهم».

لكن تبيّن أنّ رجل الصحراء ليس لقمةً سائغة. فقد كانت تُعطى إخبارية بوجوده في الشمال بالقرب من مراكز مراقبة الصحراء. وحين يذهبون لرؤيته، يكون قد اختفى. ثم يعودون للحديث عنه مجدّداً، على الساحل هذه المرّة، في ريو دو أورو، في إفني. بطبيعة الحال، كانت علاقته مع الإسبان جيّدة! ماذا كان يفعل هناك، في العيون، في طرفاية، في رأس جوبي؟ بمجرّد أن يُنهي ضربته، كان الشيخ المكّار كالثعلب

(*) Xavier Coppolani (1866-1905): قائد عسكري فرنسي، كان له دور فعّال في الاحتلال. قدّم دراسة باسم «مشروع موريتانيا الغربية» توضّح للحكومة الفرنسية التسهيلات لدخول موريتانيا وإخضاعها لفرنسا. وكُلّف بالمهمة وحقّق قسماً منها إلى أن اغتيل على يد المجاهدين في قلب حاميته العسكرية.

(**) كازا: الدار البيضاء. فور-ترينكه: بلدة تقع في الطرف الشمالي لموريتانيا، اسمها الحالي بير مغرين. فور-غورو: بلدة صغيرة تقع في شمال موريتانيا اسمها الحالي أفديرك، أُنشئت في محيط آبار المعادن أثناء الاستعمار الفرنسي.

يعود مع محاربيه إلى «أرضه»، هناك في جنوب الدرعة، في الساقية الحمراء، في حصنه السمارة. ومن المستحيل أن يغادرها. فضلاً عن ذلك، ثمّة غموضٌ وتطيّر. كم رجلاً استطاع عبور هذه المنطقة؟ بينما كان المراقب فوق جواده إلى جوار الضبّاط، راح يتذكّر رحلة كاميّ دول(*) في عام 1887. قصّة لقائه مع ماء العينين أمام قصره في السمارة. بعباءة الحايك(**) الزرقاء السماوية، وعمامته البيضاء العالية فوق رأسه، دنا الشيخ ونظر إليه مطوّلاً. كان دول أسير مغاربة الصحراء، ممزّق الملابس، مرضوض الوجه من التعب والشمس، لكنّ ماء العينين نظر إليه دون حقد ودون احتقار. تلك النظرة الطويلة، وهذا الصمت، الباقيان حتى الآن، هما ما يجعل المراقب يرتجف في كلّ مرّة يفكّر فيها بماء العينين. ولكن لعلّه الشخص الوحيد الذي شعر بذلك وهو يقرأ قصّة دول. «متعصّب» -يقول عنه الضبّاط- «متوحّش لا يفكّر سوى بالنهب والقتل، وبإشعال مقاطعات الجنوب بالحديد والنار، مثلما حدث في عام 1904، عندما اغتيل كوبولاني في ولاية تگانت الموريتانية، وفي آب من عام 1905، عندما قُتل موشان(***) في وجدة».

(*) Camille Douls (1864–1889): مستكشف فرنسي للصحراء وشمال إفريقيا. حين أعدّ نفسه للسفر إلى المغرب، تعلّم العربية وحفظ بعض السُّوَر من القرآن الكريم، وخُتن كالرجال المسلمين. وعندما أنزله قارب إسباني للصيد على البرّ في منطقة الساقية الحمراء، أسره رجال الصحراء وطمروه حتى العنق في الرمال، إلى أن تلا عليهم صلاةً قبل الشهادة، عند ذاك أخذوه إلى الشيخ ماء العينين فعفا عنه.

(**) الحائك أو التلحيفة: لباس مغربي تقليدي ذو أصل أندلسي، يشبه العباءة ومؤلّف من قطعة قماش واحدة تستر الجسم كلّه.

(***) Émile Mauchamp (1870–1907): طبيب فرنسي اغتيل في مراكش، واتُّخذ اغتياله ذريعةً للغزو الفرنسي لمدينة وجدة المغربية.
هناك اختلاف بين ما ذكره لوكليزيو في هذا الموضع من تواريخ، وما وجدناه، ولكننا فضّلنا تركها كما ذكرها، فربّما كان ذلك مقصوداً منه.

غير أنه، في كلّ يومٍ يسير فيه مع الضبّاط، كان المراقب يشعر في قرارة نفسه بنوع من القلق والتوجّس لم يتمكّن من تفسيرهما، كمن كان يخشى أن يلتقي بغتةً، عند منعطف تلّة، أو في صدع أحد الجداول الجافّة، نظرة الشيخ الكبير وحدها وسط الصحراء.

«انتهى أمرُه الآن، لم يعد بمقدوره الصمود أكثر، إنها مسألة شهور، وربما أسابيع. إنه مجبرٌ على التراجع، أو لا بدّ له أن يرمي نفسه في البحر، أو أن يتيه في الصحراء، لا أحد يسانده الآن، وهو يدرك ذلك جيّداً».

مضى زمنٌ طويل والضبّاط ينتظرون هذه اللحظة، مع قائد الأركان العامّة للجيش، في وهران والرباط وداكّار نفسها. الرجل "المتعصّب" محاصَرٌ الآن، البحر من جهة، والصحراء من الجهة الأخرى. سوف يضطرّ الثعلب العجوز للاستسلام. ألم يتخلَّ عنه الجميع؟ في الشمال، وقّع مولاي حفيظ معاهدةً لإنهاء الجهاد. وقد وافق على الحماية الفرنسية. وهناك رسالة تشرين الأول 1909 أيضاً، التي وقّعها ابن ماء العينين نفسه، أحمد هيبة الملقّب بمولاي السبع، يعرض فيها خضوع الشيخ لسلطة المخزن(*) ويناشد الإغاثة. «السبع وحيد الآن، السبع وأبناء الشيخ الآخرون، الشمس في مراكش، الأغظف قاطع الطريق ناهب الحمادة. لم يعد لديهم أيُّ موارد أو أسلحة، وأهل سوس تخلَّوا عنهم.. لم يعُد لديهم سوى مجموعة صغيرة من المحاربين، من الصعاليك، لا يحملون من السلاح سوى غدّارات قديمة بفوهات برونزية، وسيوف تركية ورماح! كأنهم في العصور الوسطى!».

بينما كان يسير فوق جواده مع الضبّاط، كان المراقب المدنيّ يفكّر

(*) مصطلح يدلّ على النخبة الحاكمة في المغرب، التي تتألّف من النظام الملكي والأعيان وكبار العسكريين، ورؤساء الأمن، وغيرهم من أعضاء المؤسسة التنفيذية.

في كلّ أولئك الذين ينتظرون سقوط الشيخ العجوز. الأوروبيون في شمال إفريقيا، «المسيحيون» -كما يدعوهم أهل الصحراء-، ولكن، أليس المال هو دينهم الحقيقي؟ الإسبان في طنجة وفي إفني. الإنكليز في طنجة والرباط. الألمان، الهولنديون، البلجيكيون، أصحاب المصارف كلّهم، ورجال الأعمال الذين يرقبون سقوط الإمبراطورية العربية، وكانوا قد أعدّوا خطط الاحتلال واقتسام الأراضي، غابات بلّوط الفلّين والمناجم وواحات النخيل. وكلاء مصرف باريس وهولندا، الذين رفعوا قيمة الرسوم الجمركية في جميع المرافئ. رجال الأعمال التابعون للمندوب إتيين، الذين أنشؤوا «شركة زمرّد الصحراء»، و«شركة نترات قورارة-توات(*)»، ويرون أنّ الأراضي الجرداء يجب أن تسمح بمرور السكك الحديدية التي تخيّلوها، والطرق العابرة للصحارى، والعابرة لموريتانيا، والجيش نفسه هو الذي سيفتح الطريق برصاص البنادق.

ماذا يستطيع أن يفعل شيخ السمارة العجوز وحده في وجه هذه الموجة من المال والرصاص؟ ماذا تستطيع أن تفعل نظرته المتوحّشة، نظرة حيوان مُطارَد، أمام هؤلاء الذين يحسبون الحسابات ويطمعون بالأراضي والمدن، أمام أولئك الذين يرغبون في الثراء الموعود على حساب مأساة هذا الشعب؟!

إلى جانب المراقب، يسير الضبّاط فوق خيولهم، بوجوهٍ جامدة لا ينطقون كلمةً واحدة عديمة الفائدة. يمعنون النظر في الأفق، وفي ما وراء الهضاب الصخرية، هناك، حيث يمتدّ وادي تادلة الضبابيّ.

لعلّهم لا يفكّرون حتى في ما يفعلون. كانوا فوق جيادهم يسيرون في الطريق الذي يفتحه لهم المرشد الطوارقيّ فوق جواده الأشهب.

(*) منطقتان جزائريتان واقعتان في العرق الغربي الكبير من الصحراء الكبرى.

من ورائهم، كان الرماة السنغاليّون والسودانيّون بلباسهم الموحّد الذي صار رمادياً من الغبار، ينحنون إلى الأمام، يسيرون بتثاقل وهم يرفعون أرجلهم عالياً، كأنهم يجتازون خطوط حقل. كانت أصوات خطواتهم تضرب فوق الأرض الصلبة بانتظام، ومن خلفهم سحابة الغبار الحمراء والرمادية تتصاعد ببطءٍ وتلوّث السماء.

كان ذلك قد بدأ منذ زمنٍ طويل، والآن لم يعُد بالمستطاع فعلُ شيء، كأنّ هذا الجيش في طريقه لمهاجمة أشباح. «لكنّه لن يقبل الاستسلام البتّة، خصوصاً للفرنسيّين. إنه يفضّل أن يُقتل رجاله كلّهم حتى آخر واحدٍ فيهم، وأن يُقتل هو بالذات مع أبنائه على أن يؤخذ أسيراً... وسيكون هذا أفضل له، صدّقني! لأنّ الحكومة لن توافق على استسلامه بعد مقتل كوبولاني، تذكّر ذلك. لا، إنه رجل متعصّب، قاسٍ، متوحّش، يجب أن يُمحى عن الوجود، هو وأفراد قبيلته كلّهم، أهل "بريك الله"، كما يُسمّون... من العصور الوسطى، أليس كذلك؟».

كان أتباع الثعلب العجوز قد خانوه وتخلّوا عنه، بعضهم وراء بعض. انفصلت القبائل عنه، لأنّ الزعماء شعروا أنّ تقدّم المسيحيين لا يُقاوَم، في الشمال، في الجنوب، توغّلوا حتى من جهة البحر، اجتازوا الصحراء وأصبحوا عند أبوابها، في تندوف، في تبلبالة، في وادان، واحتلّوا مدينة شنقيط المقدّسة أيضاً، هناك حيث لقّن ماء العينين تعاليمه الأولى.

ربما جرت آخر المعارك الكبرى في بوذنيب(*)، عندما سحق الجنرال ڤنيي رجال مولاي هيبة الستة آلاف. ولهذا فرَّ ابن ماء العينين إلى الجبال

(*) أقامت فيها قوّات الاحتلال الفرنسي أول مركز عسكري كقاعدة انطلاق لهجماتها العسكرية ومدّ سيطرتها، جرت فيها معركة مجيدة عام 1908، فقد حاولت القبائل صدّ العدوان الأجنبي.

واختفى ليداري عاره دون شكّ، فقد أضحى مهزوماً، لحماً دون عظم كما يُقال. وهكذا بقي الشيخ العجوز وحيداً سجين قلعته، دون أن يُدرك أنّ السبب ليس الأسلحة، إنما المال، هو الذي غلبه، مال الصيارفة، الذي دُفع لجنود السلطان حفيظ، إضافةً إلى ثمن بزّاتهم الرسمية الجميلة، المال الذي جاء جنود المسيحيين يبحثون عنه في المرافئ، حين اقتطعوا حصّتهم من الرسوم الجمركية، مال الأراضي المسلوبة وواحات النخيل المغتصبة والغابات التي مُنحت لهؤلاء الذين يعرفون الاستيلاء عليها. كيف يستطيع أن يدرك ذلك كلّه؟ هل كان يعرف ما هو مصرف باريس وهولندا؟ هل كان يعرف ما هو القرض المخصّص لإنشاء سكّة حديدية؟ هل كان يعرف ما هي شركة استثمار النترات قورارة-توات؟ هل كان يعلم فقط أنه، بينما كان يصلّي ويمنح بركته لرجال الصحراء، كانت حكومة فرنسا وحكومة بريطانيا العظمى توقّعان اتفاقاً يعطي الأولى بلاداً اسمها المغرب، والثانية بلداً اسمه مصر؟ هل كان يعلم أنه، بينما كان يخطب وينفخ في آخر وجوه رجاله الأحرار، رجال إزرگيين، والعروسيين، وأولاد تيدرارين، وبو سباع، وتوبالت، ورقيبات الساحل، وأولاد دليم، وإمراگين، ويبثّ الشجاعة في قبيلته بالذات «بريك الله»، هل كان يعلم أنّ اتحاد أصحاب المصارف، العضو الرئيسي فيه مصرف باريس وهولندا، كان يمنح الملك مولاي عبد الحفيظ(*) قرضاً بقيمة 62,500,000 فرنكٍ ذهبيّ بفائدة 5%، بضمان جميع الرسوم الجمركية لموانئ الساحل، وأنّ الجنود الأجانب قد دخلوا البلاد للمراقبة، كي

(*) السلطان عبد الحفيظ بن الحسن العلوي، ويعرف باسم مولاي عبد الحفيظ، كان سلطان المغرب من (1908-1912). وقد كان شاعراً وملمّاً بالعلوم الفقهية، ويحرص على مجالسة العلماء والفقهاء وعلى رأسهم الشيخ ماء العينين.

تصبّ 60% على الأقل من إيرادات الجمارك اليومية في المصرف؟ هل كان يعلم أنه في لحظة مؤتمر الجزيرة(*)، الذي وضع نهايةً للجهاد في الشمال، كان الملك مولاي عبد الحفيظ يدين بمبلغ 206,000,000 فرنكٍ ذهبيّ، وكان بديهياً أنه لن يتمكّن من تسديده لدائنيه على الإطلاق؟

لكنّ الشيخ لم يكن يعلم ذلك كلّه، لأنّ جنوده لا يحاربون من أجل الذهب، إنما من أجل بركته فحسب، ولأنّ الأرض التي يدافعون عنها ليست ملكهم، ولا أحد يملكها، لأنها فقط الفضاء الواسع أمام نظرهم، وهي هبة من الله.

«... وحش متعصّب، يقول لرجاله قبل المعركة إنه سيجعلهم خالدين لأنهم لا يُقهرون. يرسلهم لمهاجمة البنادق والمدفعيات، ولا سلاح معهم سوى الرماح والسيوف».

كانت كتيبة الرُّماة السود الآن تحتلّ وادي تادلة كلّه من جهة معبر النهر، وجاء وجهاء تادلة لإعلان استسلامهم للضبّاط الفرنسيين. كانت أدخنة نيران المخيّم تعلو في هواء المساء، والمراقب المدني ينظر، كما في كلّ مرحلة، إلى سماء الليل البديعة التي تظهر شيئاً فشيئاً. كان لا يزال يفكّر في نظرة ماء العينين، الغامضة والعميقة، تلك النظرة التي وقعت على كاميّ دول المتنكّر بزيّ تاجرٍ تركيّ، نظرة اخترقته حتى أعماق روحه. ربّما عرف الشيخ ماذا كان يضمر هذا الرجل الغريب بملابسه المهترئة، أوّل لصّ يسرق الصور ويكتب يومياته كلّ مساء فوق صفحات القرآن. لكنّ الأوان قد فات الآن، ولا شيء يستطيع الوقوف في وجه القدر. إذ إنّ البحر من جهة، والصحراء من الجهة الأخرى.

(*) مؤتمر الجزيرة الخضراء عُقد في 16 كانون الثاني 1906 لتقرير مصير المغرب كمستعمرة أوروبية بين فرنسا وإسبانيا.

الآفاق مسدودة أمام شعب السمارة، وتُحاصر آخر القوم الرحّل. الجوع والعطش يحيط بهم، ويعيشون الخوف والمرض والهزيمة.

«كان يمكن أن نجعله لقمةً سائغة منذ زمن طويل، شيخك وصعاليكه لو أردنا. مدفعية 75 أمام قصره المبني من الطين والتبن، بعض الرماة، وسوف يُمحَى عن الوجود. ربما ظننّا أنه لا يستحقّ العناء، وفكّرنا أنه من الأفضل أن يسقط من تلقاء ذاته، مثل ثمرة يملؤها الدود.. ولكن الآن، بعد اغتيال كوبولاني، هذه لم تعد حرباً. إنها عملية رجال شرطة ضد عصابة من قطّاع الطرق، هذا كلّ ما في الأمر».

الرجل العجوز خانه أولئك الذين كان يريد الدفاع عنهم. رجال سوس وتارودانت وأغادير أنفسهم، هم الذين وشوا به: «الشيخ الكبير، مولاي أحمد بن محمّد الفاضل، الملقّب بماء العينين، يسير باتجاه الشمال مع محاربي الصحراء، رجال درعة والساقية الحمراء، وكذلك الرجال الزرق من ولاتة وشنقيط. أعدادهم كبيرة جداً، حتى إنهم يغطّون سهلاً بكامله. يسيرون نحو الشمال، إلى مدينة فاس لخلع السلطان، وتنصيب مولاي هيبة الملقّب بالسبع، الابن البكر لماء العينين».

لكنّ قيادة الأركان العامة لم تصدّق الخبر. ولا شكّ أنه أضحك الضبّاط.

«لقد جُنّ الرجل العجوز. كأنه قادرٌ بجيشٍ من الصعاليك خلع السلطان وطرد الجيش الفرنسي!». الأمر هكذا على ما يبدو. الثعلب العجوز محشورٌ بين البحر والصحراء، وقد اختار الانتحار. إنه المخرج الوحيد الباقي له، أن ينتحر هو وقبيلته كلّها.

واليوم، الحادي والعشرين من حزيران عام 1910، كانت كتيبة الرماة الزنوج في طريقها إليه مع الضبّاط الفرنسيين الثلاثة، وعلى رأسهم

المراقب المدني. انحرفت نحو الجنوب لملاقاة الكتيبة الأخرى القادمة من سطات. كان فكّا الكماشة يغلقان للإطباق على الشيخ وصعاليكه على أفضل وجه.

كانت الشمس بنورها المشوب بالغبار تحرق عيون الجنود. في البعيد، فوق هضبة تطلّ على السهل المحصّب، ظهرت قريةٌ من الطين الأحمر، بصعوبة يمكن تمييزها عن الصحراء. «القصبة الزيدانية»(*)، قال المرشد فقط، لكنّه أوقف جواده على الفور. ففي البعيد زمرةٌ من المحاربين كانوا فوق خيولهم يعْدون على طول الهضاب. اتخذ الرماة السود أماكنهم، وتنحّى الضبّاط جانباً. فرقعت طلقات متفرّقة، دون أيّ صفير أو إصابة. ظنّ المراقب المدني أنّ هذا الصوت يشبه على الأرجح الصوت الذي يطلقه الصيّادون في الريف. كانوا قد أسروا رجلاً عربياً جريحاً من قبيلة بني عمير، وهذا يعني أنّ الشيخ ماء العينين ليس بعيداً الآن، وأنّ محاربيه في الجنوب يسيرون في طريق البروج. تابعت فرقة الجيش تقدّمها، لكنّ الضبّاط ظلّوا بالقرب من الجنود. بدأ كلّ واحد منهم يتفحّص الأدغال الشائكة. كانت الشمس لا تزال عالية في وسط السماء، حين حدثت ثاني المناوشات على طريق البروج. دوّت طلقات النار من جديد في الصمت الحارق، فأعطى الجنرال موانيه الأمر بالهجوم باتجاه قعر الوادي. بدأ الجنود السنغاليّون يطلقون الرصاص وهم في وضعية الجثوّ، ثم هرعوا موجّهين حربات بنادقهم إلى الأمام. كانت قبيلة بني موسى قد قتلت اثني عشر جندياً أسود قبل أن تهرب عبر الأدغال، تاركةً فوق الأرض عشرات القتلى. عند ذاك، تابع الجنود السنغاليّون الهجوم باتجاه أسفل الوادي، وبدؤوا يُخرجون الرجال الزرق من مكامنهم في كلّ مكان. ولكن أين

(*) أسّسها زيدان بن منصور الذهبي، زمن السعديين حين كان والياً على بلاد تادلة.

هم أولئك المحاربون المنيعون الذين كانوا يتوقّعونهم؟ وجدوا رجالاً بأسمال مهلهلة وشعر منفوش، عزّلاً، يركضون وهم يعرجون ويسقطون فوق الأرض الحصوية. متسوّلون بالأحرى، نحيلون أحرقتهم الشمس، أضنتهم الحمّى، يتصادمون في ما بينهم ويطلقون صرخات اليأس، بينما كان السنغاليّون، تحت فورة الغضب وحسّ الانتقام القاتل، يطلقون نار بنادقهم عليهم ويغرسونهم بالحراب في الأرض الحمراء. عبثاً كان الجنرال موانيه يطلق نداءه للتجمّع. أمام الجنود السود، كان الرجال والنساء يلوذون بالفرار في فوضى عارمة ويتساقطون على الأرض. الأولاد يركضون وسط الدغل وقد أصابهم البكم من شدّة الخوف، وقطعان الغنم والماعز تتصادم وتطلق الثغاء. كانت أجساد الرجال الزرق تتناثر في كلّ مكان فوق الأرض. دوّت آخر الطلقات النارية، ولم يعُد يُسمَع أيّ صوت. ساد الصمت الحارق من جديد فوق المنظر.

هناك في أعلى الهضبة، كان الضبّاط دون حراك فوق خيولهم المضطربة أشدّ اضطراب. وقفوا يتأملون سهل الأدغال الواسع الذي توارى فيه الرجال الزرق، كأنّ الأرض ابتلعتهم. عاد الجنود السنغاليّون يحملون رفاقهم القتلى، دون أن يلقوا نظرةً واحدة على مئات الرجال والنساء الذين سقطوا على الأرض بأسمالهم. في أحد الأماكن، عند منحدر الوادي، وسط شجيرات الشوك، صبيٌّ يافع يجلس بالقرب من جثمان محاربٍ ميّت، ينظر بكلّ قواه إلى الوجه المضرّج بالدماء الذي انطفأت عيناه.

في الشارع الذي أضاءته شمس الصباح المشرقة، كان الشابّ اليافع يسير دونما استعجال بمحاذاة السيّارات المركونة. ينزلق جسده النحيل على طول هياكلها، يسري خياله فوق المرايا وعلى الجوانب اللامعة والمصابيح، ولكن ليس هذا ما كان ينظر إليه. كان ينحني قليلاً فوق كلّ سيّارة ويتفحّص داخل العربة، المقاعد، البساط تحت المقعد، الزجاج الخلفي، صندوق القفّازات.

يسير بصمت وحيداً في الشارع الكبير الخالي، حيث كانت الشمس ترسل أول أنوار الصباح، نوراً صافياً ونقيّاً. بدت السماء شديدة الزرقة، جليّة، خالية من الغيوم. كانت رياح الصيف تهبّ من جهة البحر، تتغلغل في الشوارع وعلى طول الجادّات المستقيمة. تجول في الحدائق الصغيرة فتهزّ أشجار النخيل والأروكاريا العالية.

كان راديكس يحبّ رياح الصيف كثيراً، فهي ليست رياحاً مزعجة مثل تلك التي تثير الغبار وتخترق الجسم لتجمّده حتى العظام. هذه رياحٌ خفيفة، محمّلة بالروائح الشذيّة، لها رائحة البحر والعشب. كان قد نام في العراء في حديقة مهجورة، رأسه بين جذور شجرة صنوبر ثمريّ ظليلة، ليس بعيداً عن البحر.

قبل شروق الشمس، استيقظ وشعر على الفور بأنّ رياح الصيف قد وصلت. تدحرج قليلاً فوق العشب كما تفعل الكلاب، ثم جرى دون

توقّف حتى شاطئ البحر، وتأمّله لحظةً طويلة من أعلى الشارع. كان في غاية الروعة والهدوء ولا يزال بلون الليل الرمادي، لكنّه ملطّخ بألوان الفجر الوردية والزرقاء في بعض المواضع. شعر لبرهة بالرغبة في النزول من جهة الصخور التي لا تزال باردة، يخلع ملابسه ويغطس في الماء. رياح الصيف تلك، هي التي نادته إلى البحر ليشاهد مياهه. لكنّه تذكّر أنه لم يعد لديه الكثير من الوقت ويجدر به الإسراع، لأنّ الناس سوف يستيقظون بعد قليل. وهكذا عاد لصعود الشوارع بحثاً عن السيّارات.

وصل أمام مجمّع كبير للمباني والحدائق. مشى على طول ممرّات الموقف الكبير الذي تُركن فيه السيّارات. لا أحد في الحدائق، ولا حتى في أبعد نقطة وصل بصره إليها. لا تزال ستائر الأبنية مسدلةً، والشرفات خالية. رياح الصيف تهبّ فوق واجهات المباني وتهزّ الستائر. هناك أيضاً صوت صريرٍ ناعم من أغصان الميموزا وأشجار الغار والنخيل العالية وهي تتمايل.

كان وصول الضياء بطيئاً، بدأ في السماء، ثم فوق أعلى المباني، وبدت مصابيح الشارع شاحبة. راديكس يحبّ هذه الساعة كثيراً، لأنّ الشوارع هادئة والمنازل مغلقة، لا أحد غيره، كأنه وحيدٌ في العالم. سار على مهلٍ على طول ممرّات المبنى، وفكّر أنّ المدينة كلّها ملكُه ولم يبقَ أحدٌ غيره، كما يحدث بعد الكوارث. لعلّه وهو نائم في الحديقة، هرب الرجال والنساء، رحلوا جرياً نحو الجبال وتركوا بيوتهم وسيّاراتهم. مشى بمحاذاة هياكل السيّارات المركونة وهو ينظر إلى داخلها. المقاعد فارغة، عجلات القيادة ساكنة. خالجه شعورٌ غريب بأنّ هناك عيوناً تراقبه وتهدّده، فتوقّف ورفع رأسه نحو أعلى جدران المباني. كان نور الفجر قد أضاء أعلى

الواجهات بظلّه الورديّ، لكنّ الستائر والنوافذ بقيت مسدلة، والشرفات الواسعة خالية. كان صوت الرياح العابرة لطيفاً وبطيئاً جداً، صوت لا يسمعه البشر، عاوده الشعور بالفراغ الذي يحلّ فوق المدينة عوضاً عن صخب البشر وحركتهم.

لعلّه حين كان نائماً ورأسُه بين جذور شجرة الصنوبر الظليلة العجوز، وعلى نحوٍ عجيب، جاءت رياح الصيف من عالمٍ آخر، وعملت على تنويم السكان كلّهم، الرجال والنساء، ولا يزالون غافين في أسرّتهم داخل شُققهم بشبابيكها الخارجية المغلقة، غارقين في نومٍ سحريّ لن يكون له نهاية أبداً. سوف تتمكّن المدينة الآن أن ترتاح أخيراً، أن تتنفّس، بشوارعها العريضة الخالية، وسيّاراتها المتوقّفة، ومخازنها المغلقة، بمصابيحها وأنوارها الحمراء المطفأة، ويمكن للعشب أن ينبت على هواه في شتوق الطريق المعبّد، تعود الحدائق كالغابات ويصير بوسع الطيور والجرذان أن تذهب إلى أيّ مكان دون خوف، كما في الماضي، حين لم يكن هناك بشر.

توقّف راديكس قليلاً لكي يصيخ السمع. إنه صوت العصافير ولا شيء آخر، هي التي كانت تستيقظ في الأشجار. الزرازير، عصافير الدوري، الشحارير. الشحارير بشكلٍ خاصّ، كان يطغى صوتها وتطير متثاقلةً من شجرة نخيلٍ إلى أخرى، أو تمشي متقافزةً فوق أسفلت أرض موقف السيّارات الكبير المبلّل. كان الفتى يحبّ الشحارير كثيراً، بمعطف ريشها الأسود ومناقيرها الصفراء، وطريقتها الخاصة في القفز، تميل برؤوسها قليلاً إلى الجانب لتراقب المخاطر كاللصوص، ولهذا السبب كان يحبّها. إنها مثله أيضاً، مشتّتة قليلاً، كالعفاريت نوعاً ما، وتعرف كيف تطلق صفيراً يصمّ الآذان للتحذير من الخطر. تستطيع أن تضحك حين تقلّب صوتها في

حناجرها وتُضحكه هو أيضاً. تابع راديكس السير على مهله في مواقف السيّارات، وبين حينٍ وآخر، كان يطلق صافرة ردّاً على الشحارير. لعلّ الفتى حين كان نائماً في الحديقة المهجورة ورأسه بين جذور شجرة الصنوبر الظليلة، غادر الرجال والنساء المدينة الكبيرة هكذا، دون أن يُحْدثوا صوتاً، وأخذت الشحارير أماكنهم. هذه الفكرة أسعدت راديكس كثيراً، فصار يصفّر بشكلٍ أقوى مستخدماً أصابعه، ليقول للشحارير إنه على وفاق معها، وإنّ كلّ شيءٍ لها، كلّ شيء: البيوت، الشوارع، السيّارات، وحتى المخازن وما فيها.

ازداد سطوع الضوء بسرعة في الموقف حول المباني. لمعت قطرات الندى فوق سطوح السيّارات، وفوق أوراق الشجيرات القصيرة. كان على راديكس أن يبذل جهداً كبيراً كي لا يتوقّف ويتفرّج على قطرات النور هذه. فقد كانت في موقف السيّارات الخالي، حول تلك الجدران البيضاء المرتفعة والستائر المسدلة والشرفات الخالية، تلمع ببريقٍ شديد، كأنها كانت الشيء الوحيد الحقيقي والحيّ. كانت ترتعش قليلاً في أنسام الرياح، وتبدو كآلاف العيون المثبّتة التي تنظر إلى العالم.

عند ذاك، وعلى نحوٍ غامض، شعر راديكس بتهديدٍ يثقل على كلّ ما حوله، هنا في موقف سيّارات المباني، الخطر يجول. قد يكون نظرةً، أو ضوءاً لا يستطيع الفتى رؤيته أو إدراكه. التهديد يختبئ تحت عجلات السيّارات المركونة، في انعكاسات المرايا، في نور مصابيح الشارع الشاحب، الذي بقي يشعّ رغم نور النهار. اقشعرّ بدنُ الصبيّ، وأحسّ بقلبه يتباطأ، ثم يخفق بسرعة، وتبلّلت راحتا يديه بعرقٍ بارد.

كانت قد اختفت العصافير، ما عدا طيور الخطّاف التي كانت تعبر

بسرعةٍ كبيرة وهي تطلق صفيرها. فرّت الشحارير إلى الجانب الآخر من كتل المباني الأسمنتية الكبيرة، وسكت الهواء. حتى الرياح، توقّفت رويداً رويداً. لا يستمرّ الفجر طويلاً فوق المدينة الكبيرة، فهو يُظهر معجزته لوهلة، ثم يتوارى. وصل النهار الآن. لم تعد السماء رماديةً ووردية، اجتاحها لونٌ كامد. شيء يشبه الضباب من ناحية الغرب، هناك حيث مداخن الخزّانات بدأت تلفظ أدخنتها السامّة دون شكّ.

رأى راديكس ذلك كلّه، وكلّ ما يحدث، وانقبضت نفسه. بعد قليل، سوف يشرّع الرجال والنساء نوافذهم وأبوابهم، يرفعون الستائر ويخرجون إلى الشرفات. سوف يسيرون في شوارع المدينة، يشغّلون محرّكات سيّاراتهم وشاحناتهم، يسيرون وهم ينظرون إلى كلّ شيء بعيونهم الخبيثة. ولهذا كان يشعر بتلك النظرة وهذا التهديد. لا يحبّ راديكس النهار، إنه يحبّ الليل والفجر فقط، عندما يهدأ كلّ شيء ويخلو من البشر، حين لا يبقى سوى الخفافيش والقطط الشاردة.

وهكذا عاد يغذّ السير صعوداً بين ممرّات موقف السيّارات الكبير، يتفحّص بحذرٍ أكثر دواخل السيّارات المركونة. بين حينٍ وآخر، كان يرى شيئاً قد يكون ذا أهمية، فيتلمّس مقابض الأبواب، هكذا بسرعة أثناء عبوره، في حال كانت مفتوحة. رصد ثلاث سيّارات لم تكُن أبوابُها مقفلة، لكنّه تركها الآن، لأنه لم يكن على يقين بأنها تستحقّ العناء. وفكّر بالعودة إليها في وقتٍ لاحق، بعد جولةٍ حول المجموعة السكنية، لأنّ سرقة السيّارات المفتوحة تتمّ بسرعة.

سطع نور الشمس في السماء فوق الأشجار، لكنّها لم تشرق بعد. كان يُمكن رؤية نورها الدافئ الجميل فقط، ينبثق وينتشر في السماء. صحيحٌ

أنّ راديكس لم يكن يحبّ النهار، لكنّه يحبّ الشمس، وكان سعيداً برؤيتها تظهر. لاحت أخيراً، قرصٌ متوهّج يلقي الضوء الساطع في أعماق عينيه، فتوقّف عن السير لبرهة مبهوراً.

انتظر وهو يصغي إلى ضربات قلبه في شرايينه. كان الخطر يحيق به ولا يستطيع أن يحدّد مكانه. النهار يزداد، ويزداد معه ضغط الخوف، يأتيه من أعلى الجدران البيضاء الكبيرة المغطّاة بمئات الستائر الزرقاء، من السطوح العالية المشكوكة بهوائيات التلفاز، من أعلى الأبراج الأسمنتية، من رؤوس أشجار النخيل وجذوعها الملساء. السكون على وجه التحديد، هو الذي يبعث فيه الخوف، وكذلك هدوء النهار، وأنوار مصابيح الشارع التي لا تزال مضاءة وتصدر أزيزاً حادّاً. كأنّ صخب البشر الاعتيادي ومحرّكاتهم لن يعود بعد الآن، كأنّ النوم أوصد عليهم داخل سديمٍ حارّ، فتجمّدت المحرّكات واختنقت الحناجر وأغمضت العيون في الوجوه.

«حسنٌ، إلى العمل!».

قال راديكس ذلك بصوتٍ مسموع ليبثّ الشجاعة في نفسه. عادت يداه تتلمّسان مقابض الأبواب، وعيناه تتفحّصان دواخل السيّارات الباردة. بينما كان نور الشمس يلمع فوق قطرات الندى المعلّقة على الهياكل وعلى الزجاج الأمامي.

«لا شيء.. لا شيء».

كانت حركته السريعة تبدّد اضطرابه الآن. فقد طلع النهار مضيئاً، وعمّا قريبٍ سوف تظهر الشمس فوق سطوح المباني العالية. إنها تسطع بالتأكيد فوق البحر وتعكس فوق رؤوس الأمواج شراراتٍ برّاقة. سار راديكس إلى الأمام دون أن ينظر حوله.

«كلّ شيء على ما يرام، شكراً».

فتح باب إحدى السيّارات دون صوت. انسلّ جسد الفتى إلى الداخل وراحت يداه تتلمّسان كلّ شيء، تحت المقاعد، الزوايا، جيوب الأبواب. ثم فتح صندوق القفّازات وتلمّست يداه بسرعة ومهارة، مثل يدَي الأعمى.

«لا شيء!».

كان داخل السيّارة فارغاً، بارداً ورطباً مثل كهف.

«الأوغاد!».

بعد القلق، انتاب الصبيّ الغضب، وعاد إلى الممرّ يسير على امتداد المبنى وهو يتفحّص كلّ سيّارة.

فجأةً، أجفله صوت، هديرُ محرّك وصوت صفيح. من وراء سيّارة صالون(*) خضراء، رأى راديكس شاحنة عمّال التنظيفات تفرغ الحاويات. دارت حول المباني دون أن تدخل إلى الموقف. سار متخفّياً بعض الشيء وراء صفٍّ من أشجار الغار وجذوع النخيل، وفكّر أنه يشبه إحدى تلك الحشرات غريبة الشكل ذات اللون المعدني، مثل خنفساء الروث ربما، بظهره المحدّب ومشيته المتهزهزة.

عندما عاد الهدوء من جديد، رأى راديكس فوق قاعدة سيّارة الصالون أشكالاً قد تكون ثمينة. اقترب من الزجاج الخلفي واستطاع أن يميّز ملابسَ، الكثير من الملابس المكدّسة في الخلف داخل مغلّفات من البلاستيك البرتقالي. وفي الأمام أيضاً ملابسُ وعلبُ أحذية، وعلى الأرض بالقرب من المقعد، شيءٌ لا يمكن أن تكشفه العين غير الخبيرة، طرف جهاز

(*) سيّارة ستايشن واغن، سيّارة عائلية ذات تصميم هيكلي بسطح متمدّد إلى الخلف، ولها باب خلفيّ.

مذياع. كانت أبواب السيّارة مقفلة، لكنّ النافذة الأمامية مفتوحة قليلاً. شدّ راديكس بكلّ قوّته، ثم تعلّق بحافّة الزجاج كي يوسّع الفتحة. ميلّيمتراً بعد ميلّيمتر، أذعن الزجاج وصار بإمكان راديكس أن يزلق يده الطويلة النحيلة إلى أن تمكّنت أطراف أصابعه من لمس زرّ الأمان، فسحبه. فتح الباب وتسلّل إلى المقعد الأمامي.

كانت السيّارة واسعة جداً، ومقاعدها عميقة مصنوعة من الجلد الصناعي الأخضر الداكن. ارتاح راديكس لوجوده داخل السيّارة. بقي للحظة جالساً فوق المقعد البارد، يداه فوق المقود، ينظر إلى الموقف والأشجار من خلال الزجاج الأمامي الواسع. كان أعلى الزجاج الأمامي موشّحاً بلون أخضر نضر، يُظهر نوراً غريباً في السماء البيضاء حين يحرّك المرء رأسه. على يمين المقود جهاز مذياع. أدار راديكس الأزرار، لكنّ المذياع لم يعمل. ضغط يده على زرّ صندوق القفّازات، فانفتح الغطاء. داخل الصندوق أوراقٌ وقلم حبرٍ جافّ ونظّارةٌ سوداء.

انزلق راديكس من فوق المقعد الأمامي نحو الأرضية الخلفية. تفحّص الملابس بسرعة. إنها ملابس جديدة، بدلات، قمصان، أثواب مؤلّفة من قطعتين، سراويل نسائية، كنزات صوفيّة، جميعها مطويّة داخل محافظ بلاستيكية. كوّم راديكس إلى جانبه كدساً من الملابس، وكدساً آخر من علب الأحذية وربطات العنق والأوشحة. كان يحشو الملابس في السراويل، ثم يعقد الأرجل ليصنع رزماً. فجأةً، تذكّر جهاز المذياع. انزلق إلى المقعد الأمامي، وغاص رأسه نحو الأرضية، وبدأت يداه تتحسّسان الجهاز وترفعانه قليلاً. أدار أحد الأزرار، وهذه المرّة، صدحت الموسيقا، انسابت أنغام غيتار وسرت كغناء العصافير عند الفجر.

فجأةً، سمع جلبة رجال الشرطة وهم قادمون. لم يرَهم عندما وصلوا، ولعلّه لم يسمع فعلاً صوت العجلات الخفيف فوق أرض ممرّ المتحلّق الحصوية المعبّدة، ولا طقطقة الستارة التي ارتفعت في مكانٍ ما في واجهة العمارة العريضة والهادئة، والتي كانت قد ابيضّت من نور النهار، لعلّ شيئاً آخر نبّهه، بينما كان رأسه في الأسفل يستمع لموسيقا العصافير من جهاز المذياع. في جوفه، وراء عينيه، أو حتى داخل أحشائه، انعقد شيءٌ ما وانقبض، اجتاح الفراغ هيكل السيّارة الواسعة كما البرد. عند ذاك، رفع رأسه ورآها. كانت سيّارة الشرطة السوداء تسير مسرعةً في ممرّ موقف السيّارات، وكان لعجلاتها صوت الماء الراكد فوق الأسفلت والحصى الصغيرة. رأى راديكس بوضوحٍ وجوهَ رجال الشرطة بلباسهم الأسود الموحّد. في الوقت نفسه، أحسّ بنظرة قاسية وقاضية تراقبه من الأعلى، في إحدى شرفات العمارة، هناك حيث فُتحت الستارة بسرعة منذ قليل.

هل يبقى مختبئاً داخل السيّارة الكبيرة قابعاً كالحيوان؟ ولكن كَان رجال الشرطة يتجهون نحوه بالذات، إنه يعرف ذلك دون ريب. بحركةٍ واحدة، فرد جسمه واندفع إلى الخارج من باب السيّارة الأمامي، وبدأ يجري فوق الرصيف باتجاه سور موقف السيّارات.

أسرعت السيّارة السوداء فجأةً، فقد رآه رجال الشرطة. حدثت جلبة، دوّت في موقف السيّارات صيحاتٌ قصيرة وارتدّت فوق الجدران البيضاء العالية. سمع راديكس زعيق الصفّارات الحادّ كأنها طلقات رصاص، فأدخل رأسه بين كتفيه. صار قلبه يخفق بقوّة، ولم يعد يسمع شيئاً آخر سواه، كأنّ أرض الموقف، المباني، أشجار الحديقة، بدأت تخفق معه وتنتفض وتتألم.

جرت ساقاه، جرتا وراحتا تضربان الطريق المعبّد بالأسفلت، تضربان الأرض الرخوة لمصاطب العشب، تقفزان فوق أحواض الأزهار، فوق أسيجة العشب. أطلقهما للرياح بكلّ ما أوتي من قوّة، ساقاه الجامحتان اللتان كان يهزّهما الهلع ولا تعرفان إلى أين تذهبان، ولا أين ستتوقّفان. وصل إلى السور الفاصل العالي، لكنّ ساقيه لا تستطيعان الطيران. جرتا على امتداد السور، تعرّجتا بين السيّارات المركونة. لم يكن الصبي بحاجة إلى الالتفات كي يعرف أنّ سيّارة الشرطة السوداء لا تزال هناك، وأنها قريبة جداً وتقوم بانعطافات سريعة وهي تصرّ بعجلاتها وتجأر بمحرّكها. كانت في الخلف، في آخر طريقٍ مستقيم ينفذ في نهايته إلى الجادّة العريضة، وجسد راديكس الصغير يركض مثل أرنبٍ أُخرج من مكمنه. سيّارة الشرطة السوداء تكبر، تقترب، عجلاتها تنهب ممرّ القارّ والحصى. بينما كان يركض، سمع راديكس أصوات الستائر في الشرفات ترتفع، في كلّ مكان تقريباً فوق واجهة المبنى، وفكّر أنّ الناس كلّهم الآن على الشرفات يتفرّجون عليه وهو يركض. فجأةً، ظهرت ثغرةٌ في الجدار، لعلّها بابٌ، فقفز راديكس داخلها. أصبح الآن في الجانب الآخر من السور، وحيداً في الجادة الكبرى التي تصل إلى البحر، يسبق سيّارة الشرطة بثلاث دقائق أو أربعٍ، الوقت الذي تحتاجه السيّارة السوداء للوصول إلى مدخل الموقف والانعطاف إلى الشارع العريض. هذا أيضاً شيءٌ يعرفه الصبي دون أن يفكّر فيه، كأنّ قلبه الهلع وساقيه يفكّرون عنه. ولكن أين المفرّ؟ في آخر الشارع البحر والصخور. إلى هناك اتجه الفتى مسرعاً بشكلٍ غريزي، حتى أدمع الهواء الحارّ عينيه. لم تعُد أذناه تسمعان صوت الرياح، ولم يعُد يرى من الطريق سوى شريطٍ أسود يلمع بشدّة تحت نور الشمس، وفي نهايته،

فوق جدار الكورنيش لونٌ حليبيّ، مزيج البحر والسماء. كان يركض بسرعةٍ حثيثة، وما عاد يسمع صوت عجلات سيّارة الشرطة السوداء فوق الطريق المعبّد، ولا صوت البوق المريع، الذي أُطلق مرّتين لتنبيهه وتردّد صداه بين الأبنية.

أيّتها الساقان، امنحيني بضع قفزات أيضاً، هيّا! وأنت أيها القلب، مزيداً من الخفقات فقط، هيّا، فالبحر لم يعد بعيداً، مزيج البحر والسماء، حيث لا بيوتٌ ولا بشر ولا سيّارات.

حينئذٍ، وفي اللحظة التي وثب فيها جسد الشاب اليافع فوق طريق الكورنيش المعبّد، متجهاً مباشرةً نحو اللون الحليبي، مزيج البحر والسماء، مثل ظبيٍ أوشك على اللحاق بقطيعه. في تلك اللحظة بالذات، وصلت حافلةٌ زرقاءُ كبيرة لا تزال مصابيحها مضاءة. لمعت الشمس المشرقة مثل وميض البرق فوق زجاجها الأمامي المنحني، وسُمِعَ صوت صفيحٍ فظيع وصريرُ مكابحَ صارخة، عندما تحطّم جسد راديكس فوق غطاء محرّك الحافلة ومصابيحها الأماميّة. ليس بعيداً عن هناك، عند أطراف حديقة النخيل، امرأةٌ شابّة شديدة السُّمرة، ساكنةٌ كالظلّ، كانت تنظر بكلّ قواها. لم تتحرّك، كانت تنظر فحسب، بينما كان الناس يأتون من كلّ الجهات ويتجمّعون في الشارع حول الحافلة والسيّارة السوداء، وغطاء القماش الذي أخفى جسد السارق المحطّم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تزنيت(*)، 23 تشرين الأول 1910

هنا في الموقع الذي تختلط فيه المدينة مع تراب الصحراء الأحمر، حيث جدران الحجارة الجافة قديمة وأطلال المنازل ترابٌ مدكوك. وسط أشجار الأكاسيا، التي احترق بعضها، والرياح المحمّلة بالغبار تعصف على هواها، بعيداً عن الآبار، بعيداً عن ظلال النخيل، كان الشيخ الجليل يُحتضَر.

وصل إلى هنا، إلى مدينة تزنيت، في نهاية مسيرةٍ طويلة عبثية. في الشمال، في بلاد الملك المهزوم، كان الجنود الأجانب يتقدّمون من مدينةٍ إلى مدينة، يقضون على كلّ من يجابههم. في الجنوب، كان جنود المسيحيين قد دخلوا إلى وادي الساقية الحمراء المقدّس، بل احتلّوا مدينة السمارة وقصر ماء العينين الخالي. هبّت رياح البلاء فوق جدرانه الحجرية، وراحت تتسرّب عبر فتحات السهام الضيّقة، تلك الرياح التي تُفني كلّ شيء، وتُفرغ كلّ شيء.

الآن، رياح البلاء تعصف هنا، الرياح الدافئة القادمة من الشمال،

(*) مدينة تقع في جنوب المغرب على مسافة قريبة من ساحل الأطلسي، فيها ضريح الشيخ ماء العينين. في عام 1912 جرت فيها بيعة ولده مولاي أحمد الهيبة أميراً للجهاد وسلطاناً على المغرب.

جالبةً الضباب من البحر. حول تزنيت، كان الرجال الزرق ينتظرون وهم مبعثرون كالدوابّ التائهة، يحتمون تحت أغصان أكواخهم.

فوق الخيام كلّها، لا صوت يُسمع غيرُ صوت الريح التي تهزّ أغصان الأكاسيا، وبين حينٍ وآخر، صياحُ دابّةٍ مُقيّدة. هدوءٌ راسخ ومخيف لا يزال سائداً منذ هجوم الجنود السنغاليّين في وادي تادلة. الآن، سكتت أصوات المحاربين وأغانيهم. لم يعد أحدٌ يتكلّم عمّا سيحدث لاحقاً، ربما لأن لا شيء يمكن أن يحدث بعد الآن.

إنها رياح الموت تهبّ فوق الأرض اليباب، رياح البلاء القادمة من الأراضي التي احتلّها الغرباء، من موگادور، من الرباط، من فاس، من طنجة. الرياح الدافئة التي تحمل همس البحر، وأبعد من ذلك أيضاً، هدير المدن البيضاء، التي يتسيّدها أصحاب المصارف والتجّار.

في المنزل الطينيّ بسقفه نصف المهدّم، يستلقي الشيخ العجوز ممدّداً فوق عباءته، مباشرةً على التراب المدكوك. الحرارة خانقة، الهواء يضجّ بطنين الذباب والدبابير. هل هو عارفٌ الآن أنّ كلّ شيءٍ ضاع، كلّ شيء انتهى؟ أمس وأول أمس، جاء رُسلٌ من الجنوب يحملون له الأخبار، لكنّه رفض سماعها. احتفظ الرسل بأخبار الجنوب: استسلام السمارة، فرار حسن والأغظف، أصغر أبناء ماء العينين، إلى هضبة تگانت، وفرار مولاي هيبة إلى جبال الأطلس. لكنّ الرسل سيحملون معهم الآن الخبر الذي سيعلنونه هناك لأولئك الذين ينتظرونه: «نهاية الشيخ ماء العينين قريبة. منذ الآن، لم يعُد يبصر بعينيه، وفمه توقّف عن الكلام». سوف يخبرون أنّ الشيخ ماء العينين سيفارق الحياة في أكثر منازل تزنيت فقراً، كالشحّاذ، بعيداً عن أبنائه، بعيداً عن قومه.

حول البيت الخَرِب، يجلس بضعة رجال. إنهم آخر المحاربين

الزرق من قبيلة بريك الله. كانوا قد هربوا إلى سهل نهر تَادلة دون أن يلتفتوا، ودون أن يحاولوا الفهم. الآخرون عادوا إلى الجنوب باتجاه الدروب، فقد أدركوا أن لا أملَ يُرتجى في شيء بعد الآن، وأنّ الأراضي الموعودة لن تُمنح لهم. لكنّ هؤلاء الرجال، لم تكن الأرض مبتغاهم، فقد كانوا يحبّون الشيخ الكبير ويبجّلونه بقدر ما يبجّلون وليّاً. منحهم بركته الإلهية، وهذا ما وشّج الرباط بينهم كأنه عهدٌ وقسَم.

نور معهم اليوم. يجلس فوق الأرض الترابية في ظلّ سقفٍ من الأغصان، يمعن النظر في البيت الطيني نصف المهدّم، الذي يضمّ بين حناياه الشيخ الجليل. لم يعرف حتى الآن أنّ ماء العينين يُحتضر. مضت أيامٌ لم يرَه فيها يخرج بعباءته البيضاء المتّسخة متكئاً على كتف خادمه، تتبعه لالا ميمونة زوجته الأولى والدة مولاي السبع. في البداية، حين وصل ماء العينين إلى تزنيت، بعث برُسلٍ لأبنائه يطلب منهم المجيء لأخذه، لكنّ الرسل ذهبوا ولم يعودوا. في كلّ مساء، وقبل الصلاة، كان يخرج من منزله وينظر ناحية الشمال، إلى الطريق الذي يمكن أن يصل منه مولاي هيبة. الآن وقد فات الأوان، كان من الواضح أنّ أبناءه لن يعودوا.

منذ يومين فقد بصره، كأنّ الموت سلبه عينيه أولاً. ومذ ذاك، صار حين يخرج للالتفات نحو الشمال، لم تعُد عيناه هما من تبحثان عن ولده، كان وجهُه بكامله، ويداه، وجسده، في رغبة لحضور مولاي هيبة. كان نور يراه خيالاً نحيلاً، شبه الشبح، يحيط به خدّامه، يتبعه ظلٌّ لالا ميمونة الأسود. فيشعر ببرودة الموت تُظلم المنظر، وكأنّ غمامةً غطّت الشمس.

كان نور يفكّر في المحارب الضرير النائم في الوادي فوق مجرى

نهر تَادلة. يفكّر في وجه صديقه المُطفأ، الذي التهمته بنات آوى دون شكّ، وكذلك في كلّ الذين ماتوا على الطريق، وتُرِكوا للشمس واللّيل.

في وقتٍ لاحق، كان نور قد انضمّ إلى من بقي من القافلة، الذين نجوا من المجزرة ومشوا لأيام، يموتون من الجوع والتعب. كانوا قد هربوا نازحين على امتداد أشدّ الطُّرق قسوةً، يتجنّبون المدن، بصعوبةٍ يجرؤون على ارتشاف مياه الآبار. حينئذٍ وقع الشيخ الكبير فريسة المرض، وكان لا بدّ لهم من التوقّف هنا عند أبواب تزنيت فوق تلك الأرض الترابية، حيث تهبّ رياح البلاء.

غالبية الرجال الزرق أكملوا طريقهم دون هدف ودون نهاية باتجاه هضاب الدرعة، يبحثون عن الطرق التي تركوها. كان والدا نور قد عادا إلى الصحراء، لكنّه لم يتمكّن من اللحاق بهما. ربما كان لا يزال يأمل بمعجزة، بتلك الأرض التي وعدهم بها الشيخ، حيث سيجدون السلام والرخاء ولن يستطيع الجنود الغرباء الدخول إليها مطلقاً. رحل الرجال الزرق، بعضهم وراء بعض، حاملين معهم أطمارهم، ومات كثيرون منهم على الطريق! ولكن لن يجدوا سلام الزمن الماضي أبداً. ورياح البلاء لن تتركهم بسلامٍ بعد الآن.

أحياناً كانت تصل إشاعة: «مولاي هيبة قادم، مولاي السبع ملكنا!»، لكنّها تكون مجرّد سراب سرعان ما يذوب في لهيب الصمت.

فات الأوان الآن، لأنّ الشيخ الكبير ماء العينين يُحتضر. توقّفت الرياح عن الهبوب فجأةً، وهبَّ جميع الرجال بفعل الهواء الثقيل ووقفوا على أرجلهم. اتجهت أنظارهم ناحية الغرب، إلى الجهة التي تنحدر فيها الشمس نحو الأفق الخفيض. كان قد غطّى الأرض الترابية وحجارتها المدبّبة كالنِّصال لونٌ ساطع كالمعدن المصهور، وحجبَ السماء ضبابٌ

رقيق بدت الشمس من خلاله قرصاً أحمر توسّع على نحوٍ مهيب. لم يفهم أحدٌ لماذا توقّفت الرياح عن الهبوب، ولا سبب هذا اللون الغريب المضطرم عند الأفق. لكنّ نور شعر من جديد بالبرد يخترقه كالحمّى وبدأ يرتجف. التفت ناحية البيت القديم المتداعي، حيث كان ماء العينين، وسار نحوه على مهل منجذباً رغماً عنه، وأنظاره محدّقة في الباب الأسود.

وقف محاربو ماء العينين، رجال بريك الله ذوو الوجوه السُّمر وراحوا ينظرون إلى الفتى الشابّ وهو يسير نحو البيت، ولم يعترض طريقَه أحد. كانت نظراتهم خاوية ومتعبة، كأنهم يعيشون حلماً. لعلّهم هم أيضاً فقدوا بصرهم بعد طول مسيرهم غير المجدي، أحرقت أعينَهم شمسُ الصحراء ورمالُها.

على مهلٍ، مشى نور فوق الأرض الحصوية باتجاه بيت الجدران الطينية. كانت شمس المغيب قد جعلت الجدران لامعةً وزادت سواد الباب قتامةً.

دخل نور عبر ذاك الباب، كما في الماضي عندما دخل إلى الضريح المقدّس مع والده. بقي ساكناً دون حراك للحظة، أعمَتْه الظلمةُ، وشعر بطراوة البيت الرطبة. عندما اعتادت عيناه، رأى الغرفة الكبيرة العارية والأرض الترابية المدكوكة. في آخر الغرفة، كان الشيخ الجليل ممدّداً على عباءته، يسند رأسه إلى حجر. لالا ميمونة مدثّرة بعباءتها السوداء تجلس إلى جانبه وتحجب وجهها.

حبس نور أنفاسه ودخل دون أيّ صوت. بعد لحظةٍ طويلة، أدارت لالا ميمونة وجهها نحو الفتى لأنها أحسّت بنظرته. انزاح منديلُها الأسود وكشف وجهها النحاسي الجميل. كانت عيناها تلمعان في الظلام

والدموع تسري على خدّيها. بدأ قلب نور يخفق بقوّةٍ كبيرة، وشعر بألمٍ جارح يعتصر جسده. أوشك أن يتراجع نحو الباب ويرحل، عندما طلبت منه المرأة العجوز الدخول. مشى ببطءٍ إلى وسط الغرفة، محنيّاً قليلاً بسبب الألم في وسط جسده. عندما وصل أمام الشيخ، خانته ساقاه وسقط على الأرض بقوّة ويداه ممدودتان إلى الأمام، عندئذٍ، لامستا عباءة الشيخ الجليل البيضاء. بقي ممدّداً، ووجهه نحو التراب الرطب. لم يكن يبكي، ولا يقول شيئاً، ولا يفكّر في أيّ شيء، كانت يداه متشبّثتين بالعباءة الصوفيّة فقط، تشدّان عليها إلى حدّ الألم. إلى جانبه، كانت لالا ميمونة جالسةً بالقرب من الرجل الذي تحبّ، ساكنةً تغطّيها عباءتها السوداء، ولم تعد ترى أو تسمع شيئاً.

كان ماء العينين يتنفّس ببطءٍ وألم، بصعوبةٍ يرتفع صدره بالأنفاس بحشرجةٍ ملأت أصداؤها البيت كلّه. بدا وجهه النحيل في الظلمة أكثر شحوباً وشبه شفّاف.

راح نور ينظر إلى الرجل العجوز بكلّ قواه، لعلّ نظرته تُبطئ خُطا الموت. كان فمُ ماء العينين الفاغر يغمغم من بين شفتيه بكلامٍ سرعان ما تخنقه الحشرجات. لعلّه لا يزال يرنّم أسماء أبنائه: مُربِّيه ربُّه، الأغظف، طالب، حسن، سعدبو، أحمد الشمس، وعلى الأخصّ ذاك الذي كان يترقّب وصوله كلّ مساء من طريق الشمال ولا يزال ينتظره، أحمد الذهيبة، الملقّب بالسبع.

مسحت لالا ميمونة بطرف عباءتها السوداء قطرات العرق عن وجه ماء العينين، لكنّه لم يشعر بملمس القماش فوق جبينه ووجنتيه.

كانت ذراعاه تتصلّبان للحظات، ويبذل جهداً بجذعه لكي يجلس. ترتجف شفتاه وتدور عيناه في محجريهما. اقترب نور أكثر وساعد

لالا ميمونة في رفع ماء العينين وإجلاسه. للحظاتٍ قليلة، وبقوّة تفوق الطبيعة من جسده شديد الهزال، بقي الشيخ العجوز جالساً، يمدّ ساعديه إلى الأمام، كأنه يريد النهوض. كان وجهه النحيل يعبّر عن ضيقٍ شديد، وشعر نور بالخوف يملؤه بسبب هذه النظرة الخاوية، وهاتين الحدقتين الشاحبتين. تذكّر نور المحارب الضرير، ويد ماء العينين التي لامست عينيه، وتذكّر أيضاً أنفاسه فوق وجه الرجل الجريح. الآن، كان ماءُ العينين يعاني الوحدة نفسها، تلك التي لا مفرّ منها، ولا أحد بوسعه تخفيف الخواء في هذه النظرة.

الألم الذي شعر به نور كان عظيماً جداً، إلى حدّ رغب فيه بالمغادرة وترك بيت الظلام والموت هذا، والهرب إلى السهل الترابي باتجاه نور المغيب الذهبيّ. لكنّه أحسّ فجأةً بالقوّة تسري في يديه وفي أنفاسه. على مهلٍ، كمَن يحاول تذكُّر حركاتٍ قديمة، لامس نور بيديه جبهةَ ماء العينين، دون أن ينطق كلمةً واحدة. بلّل أطراف أصابعه بلعابه، ولمس الأجفان المرتجفة من الاضطراب. ثمّ نفخ برفق على وجه الرجل العجوز، وعلى شفتيه وعينيه. أحاط جذعه بذراعه، فأخذ الجسد النحيل يستسلم ويستلقي إلى الخلف.

بدا وجه ماء العينين مرتاحاً الآن ومتحرّراً من الألم.

بعينيه المغمضتين، كان الرجل العجوز يتنفّس بهدوء دون صوت، كأنه سيخلد للنوم. نور أيضاً شعر بالسلام في داخله، وانحلّ وجعه داخل جسده. تراجع قليلاً، دون أن يكفّ عن النظر إلى الشيخ. ثم خرج من البيت، بينما كان خيال لالا الأسود يستلقي على الأرض لكي تنام.

في الخارج، كان الليل ينزل على مهل، وتُسمَع صيحات الطيور المحلّقة فوق مجرى النهر الغربي من جهة واحة النخيل. عادت رياح

البحر الدافئة لتهبّ على نحوٍ متقطّع وتهزّ أوراق سطح البيت المتداعي. أضاءت لالا ميمونة قنديل الزيت، وأعطت الشيخ ماءً ليشرب. أمام باب البيت، كان نور يحسّ بانقباضٍ في صدره وحرقةٍ في حنجرته، ولم يستطع النوم. مرّاتٍ عديدة أثناء الليل، وبإيعازٍ من ميمونة، كان يذهب إلى الشيخ، يمسح يده على جبينه وينفخ فوق شفتيه وجفنيه. لكنّ التعب والأسى كانا قد دمّرا قوّته كلّها، ولم يعد قادراً على محو الخوف الذي يجعل شفتي ماء العينين ترتجفان. ربما كان الألم داخل جسده هو الذي يقطع أنفاسه.

قبل مطلع الفجر، عندما سكن الهواء في الخارج وغاب كلُّ صوت، حتى من نأمة أيّ حشرة، فارق ماء العينين الحياة. ميمونة التي كانت تمسك يده، أدركت ذلك. استلقت على الأرض إلى جانب الرجل الذي تحبّ، بدأت تنتحب وما عادت تحبس عبراتها. في تلك اللحظة، كان نور واقفاً عند الباب. ألقى نظرةً أخيرة على خيال الشيخ الجليل شديد النحول، الممدّد فوق العباءة البيضاء، وبدا له طافياً فوق الأرض. ثمّ ابتعد متراجعاً إلى الوراء، وأصبح وحيداً في الليل، فوق الهضبة الرمادية التي أضاءها نور القمر المكتمل. كان الألم والتعب كبيرين بحيث لم يستطع السير أكثر. سقط على الأرض بالقرب من أجمة الأشواك وغفا في الحال، دون أن يسمع صوت لالا ميمونة تبكي وكأنها تغنّي.

هكذا رحلت لالا ذات يوم ولم تخبر أحداً. استيقظت في الصباح قبل الفجر تماماً، كما اعتادت أن تفعل هناك في بلادها للذهاب إلى البحر، أو للوصول إلى مشارف الصحراء. أصغت إلى أنفاس المصوّر النائم في سريره العريض، وقد أضنته حرارة الصيف. في الخارج، كان قد بدأ صياح طيور الخطّاف الحادّ، وفي البعيد صوت، لا بدّ أنه صوت مِرشّ مياه ريّ البلديّة الخافت. تردّدت لالا، لأنها كانت تريد أن تتركَ شيئاً ما للمصوّر، علامةً، رسالةً، تقول له فيها وداعاً. ولأنها لم تكن تملك شيئاً، أخذت قطعة صابون ورسمت عليها إشارة قبيلتها الشهيرة، التي رسمتها للتوقيع على صورها في شوارع باريس:

وهذا أقدم رسمٍ عرفته، ويشبه القلب.

ثم انطلقت عبر شوارع المدينة، كي لا تعود بعد ذلك البتّة.

سافرت بالقطار لأيامٍ وليالٍ، من مدينةٍ إلى مدينة، من بلادٍ إلى بلاد. انتظرت القطارات في المحطات طويلاً، حتى تشنّجت ساقاها وأُنهِك ظهرُها وردفاها.

كان الناس يروحون، يجيئون، يتحدّثون، ينظرون، لكنّهم لا يعيرون انتباهاً لطيفِ المرأة الشابّة بوجهها المتعب، التي كانت ترتدي، على الرغم

من الطقس الحارّ، معطفاً عتيقاً غريب الشكل، كستنائيّ اللون يصل إلى قدميها. لعلّهم ظنّوا أنها فقيرة، أو مريضة. أحياناً في عربات القطار، كان الناس يتحدّثون إليها، لكنّها لم تكُن تفهم لغتهم، وتكتفي بالابتسام.

في ما بعد، كانت سفينتها تتهادى على مهلٍ فوق بحرٍ رائق كالزيت، وتبتعد عن الجزيرة(*) باتجاه طنجة. على سطحها نار الشمس والملح، والناس يتكوّمون في الظلّ، رجالٌ، نساء، أولاد، يجلسون بالقرب من كراتينهم وحقائبهم. بين فينةٍ وأخرى، وفي سبيل طرد مشاعر الخوف والقلق، كان بعضهم يغنّي أغنيةً بصوتٍ أخنّ وحزين، ثم تتلاشى الأغنية، ولا يُسمَع بعدها سوى ضجيج المحرّك.

من فوق الدرابزين، نظرت لالا إلى اليمّ الأزرق الداكن الأملس، ورأت الأمواج العميقة تتدحرج ببطء. أمام مخر السفينة الأبيض دلافينُ تتقافز، بعضها يلحق الآخر، ثم تتباعد. تذكّرت الطير الأبيض، أمير البحر الحقيقيّ، الذي كان يحلّق فوق الشاطئ في زمن نعمان العجوز، فخفق قلبها على نحوٍ أسرع، ونظرت بفرح كأنها ستراه فعلاً وهي تمدّ يديها فوق البحر. شعرت فوق جلدها بحرقة الشمس، الحرقة القديمة نفسها، ورأت نور السماء. كان فائق الجمال وقاسياً جداً.

صوت الرجال وهم ينشدون أغنيتهم الحزينة بلبل خواطرها فجأةً، وانهمرت الدموع من عينيها دون أن تعرف السبب. كانت قد سمعت هذه الأغنية منذ زمنٍ طويل، كما في حلمٍ قديم لم يُمْحَ كلّياً. رجالٌ سمر البشرة، بقمصانٍ مرقّطة وسراويلَ قطنيّةٍ قصيرة، أقدامهم عارية في أحذية

(*) Algeciras: الجزيرة الخضراء، وهي إحدى بلديات مقاطعة قادس، تقع في منطقة الأندلس جنوب إسبانيا.

الغيتا[*] اليابانية. واحداً تلو الآخر، أنشد كلٌّ منهم الأغنية بصوته الأغنّ والحزين، الأغنية التي لا يفهمها أحدٌ غيره، يغنّيها هكذا وهو يتمايل وعيناه نصف مغمضتين.

حين سمعت لالا الأغنية، شعرت في أعماقها وفي سريرتها الخفيّة بتوقٍ لرؤية الأرض البيضاء، وأشجار النخيل العالية في الوديان الحمراء، ومساحات الحصى والرمال، والشواطئ الواسعة الخالية، وحتى قرى الصفيح والطين وسطوح الورق المطلي بالقطران. أغمضت عينيها لبرهة، فرأت ذلك كلّه أمامها، كأنها لم ترحل، كأنها غفت لساعةٍ أو ساعتين لا أكثر.

في أحشائها، داخل بطنها المنتفخ، هناك تلك الحركة، وهذه اللطمات الموجعة أيضاً التي تضرب جسمها من الداخل. راحت تفكّر في الطفل الذي سيولد ويحلم، وهو حيٌّ منذ الآن، فأصابتها قشعريرةٌ خفيفة. حضنت بطنها المتراخي بين يديها، وتركت جسدها يتمايل متثاقلاً مع السفينة المتهادية، بينما كان ظهرها مسنداً إلى الحاجز الحديديّ المهتزّ. حتى إنها هي بالذات بدأت تغنّي من بين أسنانها، لها وللطفل الذي توقّف عن الركل وصار يسمعها، أغنية أمّها القديمة، تلك التي كانت العمّة تغنّيها لها:

«ذات يوم، آه ذات يوم، سيغدو الغرابُ أبيضَ، ويجفّ البحر. من زهرة الصبّار نأكل العسل، ومن أغصان الأكاسيا نصنع الهودج. ذات يوم، آه، ذات يوم، سيغيب السمّ من فمّ الثعبان، والموت من رصاص البنادق، في ذلك اليوم سأهجر حبيبي...».

(*) نوعٌ من ألبسة القدم يشبه الصندل أو القبقاب، يُصنع من الخشب، يُثبّت بالقدم بواسطة حبل قماشي يدخل بين إبهام القدم والإصبع المجاور. وهو رخيص الثمن.

طغى صوت ارتجاج المحرّك على صوتها، لكنّ الطفل الغريب داخل بطنها كان يصغي إلى الكلمات بانتباهٍ، فغفا. حينئذٍ، ولكي ترفع صوتها وتشدّ من عزيمتها، راحت لالا تغنّي بصوتٍ أعلى وأكثر قوّةً أغنيتها المفضّلة: «مي.. دي.. تي.. رّانيه.. نيه.. نيه!».

كانت السفينة تنساب فوق البحر الرائق، تحت سماءٍ خانقة. ثم ظهرت بقعةٌ رمادية قبيحة عند الأفق، كأنها سحابةٌ معلّقة بالبحر. إنها مدينة طنجة. استدارت الرؤوس كلّها باتجاه البقعة، وتوقّف الناس عن الكلام، حتى الرجال السود توقّفوا عن الغناء. كانت إفريقيا تدنو من صدر السفينة على مهل، غير واضحة المعالم، خالية.

أضحت مياه البحر رماديةً وأقلّ عمقاً، وحلّقت في السماء أول النوارس، رمادية هي الأخرى، نحيلةً ومذعورة.

هل تغيّر كلُّ شيء إذاً؟ تذكّرت لالا رحلتها الأولى إلى مرسيليا، عندما كان كلّ شيء جديداً، الشوارع، البيوت، الناس. تذكّرت شقّة العمّة، فندق سانت بلانش، الأراضي الخلاء بالقرب من خزّانات المياه، فكّرت في كلّ ما تركته وراءها في المدينة الكبيرة الفتّاكة. تذكّرت راديكس الشحّاذ، المصوّر، الصحافيين، كلّ أولئك الذين أصبحوا أخيلةً. الآن لم تعُد تملك إلا ملابسها، والمعطف الكستنائيّ الذي أعطتها إياه العمّة عند وصولها. لديها المال أيضاً، رزمةٌ من الأوراق النقدية الجديدة، أخذتها من جيب سترة المصوّر، وربطتها بدبّوس قبل أن ترحل. ولكن كأن لا شيء من ذلك كلّه حدث، كأنها لم تغادر قطّ مدينة الصفيح والألواح المطلية بالقطران، ولا الهضبة الصخرية والتلال التي يعيش فيها الحرطاني. كأنها غفَت لساعةٍ أو ساعتين لا أكثر.

نظرت إلى الأفق الخالي، وإلى مقدّمة السفينة، ثم إلى بقعة الأرض الرمادية والجبل. كانت تتوضّح هناك وتكبر أشياء تشبه اللطخ. إنها بيوت المدينة العربية. أجفلت، إذ إنّ الطفل في بطنها بدأ يتحرّك بشدّة.

داخل الحافلة التي كانت تسير فوق الطريق الترابي وتتوقّف لأخذ الفلّاحين والنساء والأطفال، بقي شعورُ النشوة الغريب ملازماً للالا. النور يغمرها الآن، الغبار الناعم يتصاعد كالضباب على جانبَيْ الحافلة، ينفذ إلى داخل هيكلها ويعلق في حنجرتها ويطقطق تحت أظافرها، الجفاف، التراب... تشعر بذلك كلّه كأنّ جلداً جديداً يكسوها، ونفساً جديداً.

هل يعقل أن يكون هناك شيءٌ آخر غير هذا؟ هل هناك عالمٌ مختلف، وجوهٌ أخرى، نورٌ مختلف؟ لا يمكن للذكريات الخادعة أن تنجو في هدير الحافلة الخانق والحرّ والغبار. كان النور يمحو كلّ شيء، يبدّد كلّ شيء، كما في الزمن الماضي، فوق الهضبة الصخرية. شعرت لالا مجدّداً بوقع النظرة الخفيّة عليها، ومن حولها. لم يعُد لنظرة الرجال الممتلئة بالرغبة والشهوة وجود، هناك تلك النظرة الغامضة لذاك الذي يعرف لالا ويسهر عليها كالإله.

سارت الحافلة على الطريق الترابي، واتجهت إلى أعلى التلال. أينما ولّت وجهها، كانت الأرض قاحلةً، يابسة، مثل جلد أفعى قديم. فوق سطح الحافلة، يشتدّ أجيج السماء والنور، فتزداد الحرارة بين حنايا هيكل الناقلة كأنها داخل فرن. شعرت لالا بقطرات العرق تنساب فوق جبينها، وعلى طول عنقها وظهرها. داخل الحافلة، الناس ساكنون، لا مبالون. الرجال بمعاطفهم الصوفية، والنساء بأثوابٍ زرقاء داكنة يجلسن القرفصاء على

الأرض بين المقاعد. وحده السائق كان يتحرّك، يقطّب وجهه وينظر في المرآة العاكسة. مرّاتٍ عديدة، التقت نظرته نظرة لالا وأشاحت بوجهها. كان الرجل البدين صاحب الوجه المسطّح يعدّل المرآة ليتمكّن من رؤيتها، لكنّه بحركةٍ عصبيّة، أعادها إلى وضعها الأصلي. أدار زرّ المذياع إلى آخره، فأطلق صفيراً وأزيزاً، وحين وصلت الحافلة بالقرب من برجٍ للأسلاك الكهربائية، صدحت وصلةٌ من الموسيقا غير الواضحة.

النهار بطوله، سارت الحافلة فوق طرقٍ معبّدة تارةً وأخرى ترابية، عبرت أنهاراً جافّة، توقّفت عند قرى من الطين أطفالها عُراةٌ ينتظرون. كانت الكلاب الهزيلة تركض بمحاذاة الحافلة تحاول عضّ العجلات. في بعض الأحيان، كانت الناقلة تتوقّف وسط سهلٍ قاحل بسبب تعب المحرّك، فيخرج السائق صاحب الأنف المفلطح وينحني فوق الغطاء المفتوح لتنظيف أوساخ المحرّك، ثم يخرج الرجال والنساء للجلوس في ظلّ الحافلة، أو يذهبون للتبوّل في وضعية القرفصاء بين دغل أشواك الفربيون. بعضهم كان يخرج من جيبه ثمرة ليمون حامض صغيرة، يمصّها طويلاً ويفرقع بلسانه.

ثم عاودت الحافلة انطلاقها وهي تتمايل فوق الدروب وترتقي التلال، هكذا على نحوٍ لا ينتهي باتجاه الشمس الآفلة. حلَّ الليل بسرعة فوق السهول الشاسعة المقفرة، غمر الحجارة وحوّل الغبار إلى رماد. فجأةً توقّفت الحافلة، فلمحت لالا أضواءً في البعيد، في الضفة الأخرى من النهر. كان الليل في الخارج حارّاً، يعجّ بطنين الحشرات ونقيق الضفادع، لكنّ ذلك أقرب إلى الهدوء بعد الساعات التي أمضَتها في الحافلة.

نزلت لالا، وسارت الهوينى على طول النهر. ميّزت مبنى الحمّام

العمومي، ثم معبر النهر. كان النهر أسود، فقد أبعد المدّ تيّار المياه العذبة. عبرت لالا مخاضة المياه الضحلة، التي وصلت حتى منتصف فخذيها، لكنّ برودة النهر أنعشتها. رأت في الظلام خيال امرأة تحمل رزمةً فوق رأسها، كانت قد رفعت رداءها الطويل حتى بطنها.

إلى البعيد قليلاً، فوق الضفة الأخرى، بداية الدرب الذي يوصل إلى المدينة، وتأتي بعده بيوت الطين والألواح، واحداً تلو الآخر. صعُب على لالا التعرّف عليها، فهناك بيوتٌ جديدة في كلّ مكان، حتى بالقرب من الضفة، حيث تندفع مياه النهر أثناء الفيضان. كان ضوء المصابيح الكهربائية يضيء أزقّة التراب المرصوص على نحوٍ خفيف، وبدت بيوت الألواح والصفيح كأنها مهجورة. أثناء مرورها على امتداد الشوارع، كانت لالا تسمع همسَ أصواتٍ وبكاءَ أطفالٍ رضّع. وفي مكانٍ ما، بعيداً عن المدينة، نباحَ كلبٍ برّيّ. كانت خطوات لالا تطأ آثاراً قديمة. خلعت حذاءها الرياضيّ كي تستشعر برودة الأرض والحصى.

إنها النظرة نفسها، هي التي كانت ترشدها هنا في شوارع المدينة، نظرة طويلة وغامرة بالعطف، تأتي من كلّ حدبٍ وصوب في الوقت نفسه، من آخر السماء، وتتحرّك مع الرياح. مرّت لالا أمام البيوت التي تعرفها، شمّت رائحة نار المواقد الخابية، ميّزت صوت الرياح بين الأوراق المطليّة بالقطران فوق الصفيح. عاد ذلك كلّه إليها فجأةً، كأنها لم ترحل عن هنا البتّة، كأنها غفَت لساعةٍ أو ساعتين لا أكثر.

وهكذا عوضاً عن الذهاب إلى بيت «إكيكر» الواقع بالقرب من منهل الماء، سلكت لالا درب الكثبان. كان التعب قد أنهك جسمها، وحطَّ أوجاعاً أسفل ظهرها، لكنّ النظرة المجهولة كانت ترشد طريقها، وتشير

إليها بمغادرة القرية. بقدميها الحافيتين، مشت أسرع ما تستطيع بين الأدغال الشوكية وشجيرات النخيل الصغيرة، حتى وصلت إلى الكثبان.

لا شيء تغيّر هنا. سارت على امتداد الكثبان الرمادية، كما كانت تفعل في الماضي. أخذت تتوقّف بين حينٍ وآخر وتنظر حولها، تقطف غصن نبتةٍ عشبية، تسحقها بين أصابعها وتستنشق رائحتها الحرّيفة التي تحبّها. عرفت التجاويف والدروب كلّها، تلك التي توصل إلى الهضاب الحصوية، والأخرى التي تؤدّي إلى السبخة المالحة، وتلك التي لا توصل إلى أيّ مكان. الليل عميقٌ ورائق، ونجومه فوقها برّاقة. كم من الزمن مرَّ عليها؟ لم تغيّر أماكنها، وبريقها لم يخفت، كأنها مصابيحُ سحرية. لعلّ الكثبان تحرّكت، ولكن كيف السبيل لمعرفة ذلك؟ الهيكل العظمي الذي كان يبرز مخالبه وقرونه، والذي كان يخيفها أشدّ الخوف اختفى الآن. لم يعد هناك معلّبات أغذية فارغة مرميّة، وبعض الشجيرات يبست، قطّعوا أغصانها من أجل نار المجامر.

لم تعثر لالا على مكانها فوق الكثبان. كان الممرّ الذي يوصل إلى البحر قد غطّته الرمال. بجهدٍ جهيد، ارتقت كثبان الرمال الباردة حتى القمّة. كانت أنفاسها تصفر داخل حنجرتها، والألم أسفل ظهرها موجعاً جداً إلى حدٍّ بدأت معه الأنين رغماً عنها. صرّت على أسنانها وحوّلت أنينها إلى غناء، فكّرت في الأغنية التي تحبّ غناءها، في ما مضى حين كان يعتريها الخوف: «ميه.. دي.. تيرّا.. نيه.. نيه.. نيه!».

حاولت الغناء، لكنّ صوتها فقد قوّته.

سارت فوق رمال الشاطئ القاسية، قريباً جدّاً من زبد البحر. أنسام الرياح خفيفة، وصوت أمواج الليل عذب. شعرت لالا من جديد بالنشوة

التي أحسّتها في السفينة وفي الحافلة، كأنّ ذلك كلّه كان بانتظارها ويتوقّع مجيئها. لعلّها نظرة الرجل الغامض الذي تسمّيه «السرّ» كانت على الشاطئ، تمتزج بضوء النجوم وصوت البحر والزبد الأبيض. هذه ليلةٌ لا خوف فيها، ليلة من الماضي، لم تعرف لالا مثلها قطّ.

وصلت بالقرب من الموضع الذي كان العجوز نعمان يسحب قاربه إليه، لكي يسخّن القطران أو يرتق الشباك. لكنّ المكان كان خالياً، والشاطئ مقفراً يمتدّ إلى قلب الليل. كانت شجرة التين العجوز وحدها هناك، تقف عند الكثيب بأغصانها العريضة الجانحة إلى الخلف بفعل الرياح. ميّزت لالا بغبطة رائحتها النفّاذة الغثّة، ونظرت إلى حركة أوراقها. جلست في سفح الكثيب، ليس بعيداً عن الشجرة، ونظرت إليها مطوّلاً، كأنّ الصيّاد العجوز سيعاود الظهور في أيّ لحظة.

أثقل التعبُ جسد لالا، وخدّر الألم ساقيها وذراعيها. تركت نفسها تتهاوى إلى الوراء فوق الرمل البارد وغفت في الحال، مطمئنّةً بصوت البحر ورائحة التينة.

طلع القمر من جهة الشرق، وارتفع في الليل فوق الهضاب الصخرية. أضاء بنوره الشاحب البحر والكثبان وغمر وجه لالا. في وقتٍ متأخرٍ من الليل، هبّت رياحٌ أيضاً، تلك الرياح الدافئة التي تهبّ من البحر. مرّت فوق وجه لالا وعلى شعرها وغطّت وجهها وجسدها بذرّ الرمال. أمست السماء فسيحةً شاسعة وغابت الأرض. تحت قبّة المجرّات والنجوم، تغيّرت أشياء وتحرّكت أخرى. توسّعت دوائر المدن كالعفن في جوف الوديان، في حماية الخلجان ومصبّات الأنهار. مات رجالٌ، اندثرت منازل، في سديم الغبار والحشرات. مع ذلك، هنا على الشاطئ بالقرب

من التينة، حيث كان العجوز نعمان يأتي، كأنّ شيئاً لم يتغيّر. كأنّ المرأة الشابة لا تزال مستغرقة في النوم.

أكمل القمر مساره ببطء حتى كبد السماء، ثم انحدر نحو الغرب إلى عرض البحر. كانت السماء صافيةً خالية من الغيوم. في قلب الصحراء، وما وراء الهضاب والتلال الصخرية، كانت برودة الرمال تنساب بصمت كالمياه. كأنّ الأرض برمّتها هنا، ومعها السماء والقمر والنجوم، حبست أنفاسها وأوقفت الزمن.

لحظة وصول الفجر الأوّل(*)، توقّف كلّ شيء.

في الصحراء تحت السماء المظلمة، توقّف الثعلب وابن آوى عن مطاردة الجرابيع والأرانب البرّيّة. تجمّدت الأفعى ذات القرون فوق التراب البارد ومعها العقرب ودودة الحريش، احتجزهم الفجر وحوّلهم إلى حجارة، إلى بخار، فهذه هي اللحظة التي تتوغّل فيها السماء في الأرض وتُجمّد الأجساد، وأحياناً تقطع الحياة والأنفاس. ولالا في تجويف الكثيب لا تتحرّك، يرتجف جسدها رعشاتٍ طويلة تهزّ أطرافها وتصطكّ أسنانها، لكنّها بقيت في سبات.

ثم جاء الفجر الثاني، الأبيض.

بدأ النور يخالط الجوّ المظلم ويلمع فوراً فوق زبد البحر، وعلى قشرة الملح فوق الصخور، وعلى الحجارة المسنّنة تحت شجرة التين العجوز. أضاء النور الرمادي الباهت قمّة التلال الصخرية، وأطفأ شيئاً فشيئاً نجم الجدي، والكلب، والثعبان، والعقرب، والنجوم الإخوة الثلاثة: المنطقة،

(*) ويسمّى الفجر الكاذب أيضاً، إذ يتلاشى بياضه وتعقبه ظلمة، أما الفجر الثاني فهو الفجر الصادق، الذي يبدأ ظهوره عقب الأول، وينتشر منه الضوء في الأفق.

النيلم، النطاق[*]. فجأةً، بدت السماء كأنها انقلبت، كساها غطاءٌ أبيض وأطفأ آخر النجوم. في تجاويف الكثيب، كانت الأعشاب الشوكية الصغيرة ترتعش قليلاً، وبدت قطرات الندى كاللآلئ فوق الزغب.

فوق خدَّيْ لالا، تدحرجَت بضعُ قطراتٍ كالدموع. استيقظت المرأة الشابّة وأنّت بصوتٍ خفيض. لم تفتح عينيها بعد، لكنّ أنينها علا واختلط بصوت البحر الذي لم ينقطع وطرقَ مسامعَها من جديد. كان الألم يروح ويجيء داخل بطنها، ويطلق نداءاتٍ أكثر فأكثر تقارباً، نداءاتٍ متواترة كصوت البحر.

انتصبت لالا قليلاً فوق سريرها الرملي، لكنّ الألم كان قويّاً جدّاً، حتى جعل أنفاسها تتقطّع. وهكذا أدركت على الفور أنّ لحظة ولادة الطفل قد حانت، الآن وهنا، على هذا الشاطئ. اجتاحها الخوف وعبرها كالموجة، لأنها تعرف أنها وحيدة ولن يأتي أحدٌ لمساعدتها، لا أحد. أرادت النهوض، ومشت مترنّحة بضع خطواتٍ على الرمل البارد، لكنّها سقطت ثانيةً وتحوّل أنينها إلى صرخة. لا شيء هنا سوى الشاطئ الرمادي والكثبان التي لا تزال في العتمة، وأمامها البحر، ثقيلٌ، رماديّ وأخضر، قاتم، يخالطه الظلام.

استلقت لالا على جانبها فوق الرمال، ثنت ركبتيها وراحت تئنّ من جديد مع إيقاع البحر البطيء. كان الألم يأتي أمواجاً، مثل تلك الأمواج الطويلة المتباعدة، التي كانت تتقدّم مشرئبّةً برؤوسها فوق سطح المياه الداكنة، تلتقط للحظات شيئاً من النور الشاحب، إلى أن تتكسّر. راحت لالا تتابع سير ألمها فوق البحر، كلّ ارتعاشةٍ آتية من آخر الأفق، من

---

[*] تشكّل هذه النجوم حزام الجبّار، وهي شديدة اللمعان.

المنطقة المظلمة، التي كان الليل فيها لا يزال كثيفاً، كانت تتوهّج ببطء وهي تتقدّم نحو تخوم الشاطئ عند الشرق، تمشي مواربةً قليلاً وتنشر طيّاتٍ من الزبد، بينما كان هسيس الماء فوق الرمل القاسي يصل نحوها ويغمرها. أحياناً، كان الألم يصبح قوياً جداً، كأنّ بطنها تتمزّق وتفرغ، فيعلو الأنين من حنجرتها ويطغى على صوت تكسُّر الموجة على الرمال.

نهضت لالا على ركبتيها، حاولت أن تمشي على أربعٍ على طول الكثيب للوصول إلى الطريق. كان الجهد كبيراً جداً، وتبلّل وجهها وجسمها بالعرق رغم برودة الفجر. انتظرت قليلاً وأنظارُها صوبَ البحر. التفتت إلى الطريق، في الجهة الأخرى من الكثبان، وراحت تصرخ وتنادي: «حرطاني! حرطاني!»، كما كانت تفعل في الماضي عند وصولها إلى الهضبة الصخرية، بينما يكون مختبئاً في تجويف إحدى الصخور. حاولت أن تصفّر أيضاً مثل الرعاة، لكنّ شفتيها مشقّقتان وترتجفان.

عمّا قليل، سوف يستيقظ الناس في بيوت المدينة ويرفعون الأغطية عنهم. وسوف تذهب النساء إلى الينبوع لينهلْن أوّل دفعةٍ من المياه. وربّما تأتي الفتيات الصغيرات للتسكّع هنا بين الأدغال الشائكة بحثاً عن عيدان الحطب اليابس، كي توقد النساء النار في المجامر لشيّ بعض اللحم، أو لغلي حساء الشوفان أو ماء الشاي! لكنّ ذلك كلّه بعيد، في عالمٍ آخر. كأنّ حلماً متواصلاً يستمرّ هناك فوق الهضبة الصخرية، حيث يعيش الناس عند مصبّ النهر الكبير. أو حتى إلى البعيد أيضاً، في الجانب الآخر من البحر، في المدينة الكبرى، مدينة المتسوّلين واللصوص، المدينة القاتلة بأبنيتها البيضاء وسيّاراتها المفخّخة. نشر الفجر نوره الأبيض البارد في كلّ مكان، في اللحظة التي يستقبل فيها العجائزُ الموت بصمتٍ وخوف.

شعرت لالا بأنها تفرغ، فبدأ قلبها يخفق ببطء على نحوٍ أليم. تقاربت موجات المغص كثيراً، ولم يبقَ سوى ألمٍ وحيدٍ مستمرّ، يموج ويضرب بطنها من الداخل. على مهلٍ، وبجهدٍ جهيد، جرّت جسمها بساعديها على طول الكثيب. كان أمامها على مسافة بضعة أذرع، خيالُ الشجرة ينتصب فوق كومةٍ من الحجارة، أسودَ قاتماً أمام السماء البيضاء. لم تبدُ لها التينةُ كبيرةً وقويّة هكذا كما تراها الآن. جذعها العريض يلتوي إلى الخلف، أغصانها كبيرةٌ مترامية، وتتحرّك أوراقها المسنّنة الجميلة قليلاً مع الهواء المنعش، وتلمع بنور النهار. لكنّ رائحتها الشذيّة النفّاذة، هي التي غمرت لالا، وبدا كأنها تجذبها إليها، تُسكرها وتثير غثيانها في آنٍ معاً، وراحت تتماوج مع موجات الألم. سحبت جسمها بتمهُّلٍ شديد على طول الرمال التي كانت تعيقها وهي تتنفّس بصعوبة. كانت ساقاها المتباعدتان تتركان أثراً عميقاً في الرمال وراءها، مثل قاربٍ يُسحب إلى اليابسة.

على مهلٍ، وبمشقّة، سحبت حملها الثقيل وهي تئنّ حين تشتدّ آلامها. لم يفارق أنظارَها خيالُ التينة الكبيرة بجذعها الداكن وأوراقها الفاتحة اللون، التي كانت تلمع بنور النهار. وكلّما دنت منها، كانت التينة تكبر أكثر فأكثر، حتى أصبحت عملاقة، وبدت كأنها تشغل مساحة السماء كلّها. كان ظلّها ينتشر حولها مثل بحيرةٍ لا تزال تعلق فيها آخر خيوط الليل. ببطء، جرّت لالا جسمها حتى دخلت إلى حيّز الظلّ، تحت الأغصان العالية القويّة الشبيهة بأذرع مارد. هذا ما كانت تريده، فهي تعلم أن لا أحد غيرها يمكن أن يمدّ لها يد العون الآن. نفذت إليها رائحة الشجرة القوية، أحاطتها، وهذا ما هدّأ من ألم جسدها المعذّب، واختلطت برائحة البحر والأعشاب البحريّة. عند جذع الشجرة الكبيرة، كان الرمل قد عرّى

الصخور التي صدئت بفعل الهواء البحري، وأضحت مصقولةً ومتآكلة بفعل الرياح والمطر. بين الصخور جذورٌ قويّة شبيهة بأذرع معدنية.

بينما كانت تصرّ على أسنانها كي لا تئنّ، أحاطت لالا جذع التينة بذراعيها. رفعت نفسها على مهل، واستندت إلى ركبتيها المرتجفتين. أصبح الألم داخل جسدها الآن كالجرح، ينفتح شيئاً فشيئاً ويتمزّق. لم تعد قادرةً على التفكير إلا بما تراه وتسمعه وتشعر به. العجوز نعمان، الحرطاني، العمّة، وحتى المصوّر، من يكونون، وماذا حلَّ بهم؟ كان الألم المتدفّق من بطن المرأة الشابّة ينتشر على امتداد البحر، وعلى امتداد الكثبان، ويصل إلى السماء الباهتة، أقوى من كلّ شيء، يمحو كلّ شيء، ويُفرغ كلّ شيء. ملأ الألم جسدها كالضجيج الصاخب، وجعل جسدها هائلاً مثل جبلٍ راسخٍ على الأرض.

تباطأ الزمن بسبب الألم، وصار يخفق على إيقاع القلب، على وتيرة أنفاس الرئتين، على وقع تقلّصات الرحم. بكلّ تؤدة، كأنها ترفع وزناً ثقيلاً، أسندت لالا جسمها إلى جذع التينة. أدركت أن لا أحد غيرها يمكن أن يساعدها، كالشجرة التي ساعدت أمّها في الماضي في يوم مولدها. بحكم الغريزة، استعادت حركات الأسلاف المتوارثة، الحركات التي لا تستطيع هي نفسها إدراك معناها، ودون أن يعلّمها إياها أحد. جثت عند جذع الشجرة الكبيرة الداكنة، وحلّت حزام ثوبها. مدّت معطفها الكستنائيّ على الأرض فوق التراب الحصوي. علّقت حزامها بأوّل غصنٍ في التينة، بعد أن جدلت القماش لتجعله أكثر مقاومة. عندما أمسكت بيديها الاثنتين الحزامَ القماشيّ، تأرجحت الشجرة قليلاً، وانهمر منها مطرٌ من قطرات الندى. سال الماء البكر على وجه لالا، فراحت تلعقه فوق شفتيها بلذّة.

في السماء، كانت قد آنت ساعة الشمس الآن. اختفَت آخرُ بقع الليل الداكنة، انزاح البياض الحليبي وترك مكانه لوهج آخر الفجر، في الشرق، وراء الهضاب الصخرية. أصبح البحر أشدَّ دكنةً، شبه بنفسجي، ولمعت فوق رؤوس الأمواج شراراتٌ أرجوانية، وسطع بياض الزبد وتألّق. لم يسبقْ للالا أن شاهدت وصول النهار بهذا التركيز الكبير، بعينين مفتوحتين على اتساعهما من الألم، ووجهٍ متوهّج من الضوء الساطع.

جاءت اللحظة التي أصبحت فيها التقلّصات عنيفةً وفظيعةً فجأةً، والألم مثل هذا النور الوهّاج الأحمر الذي يعمي الأبصار. كي لا تصرخ، عضّت لالا على قماش ثوبها عند الكتف، ورفعت ذراعيها الاثنتين فوق رأسها، وبدأت تشدّ الحزام القماشي، تشدّه بقوّةٍ كبيرة، حتى إنّ الشجرة تحرّكت وارتفع جسمها عن الأرض. عند كلّ طلقةٍ قويّة، وبشكلٍ متواتر، كانت لالا تتأرجح بغصن الشجرة. بدأ العرق يسيل على وجهها ويشوّش نظرها، وأصبح لون الألم أمامها دامياً، فوق البحر، في السماء، في زبد كلّ موجةٍ تتكسّر. أحياناً، كانت تنفلت من بين أسنانها، ورغماً عنها، صرخةٌ يخنقها صوت البحر. إنها صرخة ألمٍ وحزن في الوقت نفسه، بسبب هذا النور كلّه، وهذه الوحدة. الشجرة تنثني قليلاً عند كلّ هزّة، تلمع أوراقها العريضة، فتستنشق لالا شذاها على دفعاتٍ قصيرة، شذى السكّر والنسغ، مثل رائحةٍ مألوفة تُطمئِنها وتهدّئها. شدّت الغصن الكبير، فالتصق أسفل ظهرها بجذع التينة، وتابعت قطرات الندى انهمارها على يديها ووجهها وجسدها. بل كان هناك نملٌ أسودُ صغيرٌ جرى على طول ساعديها المتشبّثين بالحزام، ونزل على كامل جسدها ليلوذ بالفرار.

دام ذلك وقتاً طويلاً، طويلاً جداً، وشعرت لالا أنّ أوتار ساعدَيها

قد قسَت وصارت كالحبال. لكنّ أصابعها كانت تقبض بقوّةٍ كبيرة على الحزام القماشي، الذي لا يمكن أن يحلّه شيء. ثم ودفعةً واحدة، شعرت أنّ جسدها يفرغ على نحوٍ لا يصدّق، بينما كانت ذراعاها تشدّان بقوّةٍ على الحزام. ببطءٍ شديد، وبحركاتٍ عمياء، تركت نفسها تنزلق إلى الوراء على طول الحزام القماشي، ولامست خاصرتها وظهرها جذور التينة. أخيراً دخل الهواء إلى رئتيها، وفي اللحظة ذاتها، سمعت الصرخة الحادّة للطفل الذي بدأ يبكي.

على الشاطئ، أصبح النور الأحمر برتقالياً، ثم بلون الذهب. لا شكّ أنّ الشمس قد لامست الهضاب الصخرية في الشرق، في بلاد الرعيان. حملت لالا الطفل بين ذراعيها، قطعت الحبل السرّيّ بأسنانها، وعقدته، كما تعقد حزاماً، حول بطن الصغير الذي يهزّه البكاء. ببطءٍ شديد، زحفت فوق الرمل القاسي نحو البحر، ركعت في الزبد الخفيف، وغطّست الطفل الباكي في المياه المالحة، غسلته ونظّفته بعناية. ثم عادت إلى الشجرة، ووضعت الطفل داخل المعطف الكستنائيّ الواسع. بالحركات الغريزية نفسها التي لا تفهمها، حفرت بيديها في الرمال بالقرب من جذور التينة، وطمرت المشيمة.

استلقَت أخيراً عند أسفل الشجرة، رأسُها قريبٌ من الجذع القويّ، فتحت المعطف، أخذت الطفل بين ذراعيها، وقرّبته من ثدييها المنتفخين.

عندما بدأ الطفل يرضع، بوجهه الصغير وعينيه المطبقتين وهو يشدّ على ثديها، توقّفت لالا عن مقاومة التعب. نظرت لحظةً إلى ضوء النهار الجميل الطالع، وإلى البحر الأزرق القاتم بأمواجه المنحرفة، الشبيهة بحيوانات متراكضة. غمضت عيناها لا إرادياً. لم تكن غافية، بل كأنها

تطفو طويلاً على سطح المياه. شعرت بلصقها بالكائن الصغير الدافئ يضغط على صدرها، يمصّ حليبه بنهم من يريد أن يحيا. «حوّا ابنة حوّا»، فكّرت لالا مرّةً واحدة. كان ذلك رائعاً، وأشعرها بالراحة، كالابتسامة بعد الكثير من الألم. ثم انتظرت أن يأتي أحدٌ من مدينة الألواح والورق المطليّ بالقطران، صبيٌّ صغير يصطاد سرطان بحر، امرأةٌ عجوز تبحث عن عيدان يابسة، أو حتى فتاة صغيرة تحب فقط التنزّه فوق الكثبان لتشاهد طيور البحر. لا بدّ أن يأتي أحدٌ ما إلى هنا في النهاية، وظلّ التينة لطيفٌ جدّاً ومنعِش.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أغادير، 30 آذار 1912

وهكذا جاؤوا لآخر مرّة، ظهروا عند مصبّ النهر فوق السهل الواسع القريب من البحر. كانوا آتين من كلّ الجهات. من الشمال: قبائل إداوتغما، إداوتنان، آيت داوود، مسكالة، آيت هادي، إداوزمزم، سيدي أميل، أولئك الآتين من بيگودين، من أمزميز، من إشمرارن . من الشرق: من وراء تارودانت، أولئك القادمين من تازناخت، ورزازات، آيت قالة، أسراك، آيت قديف، أمتزگين، آيت تومرت، آيت يوس، آيت زرحل، آيت أودينار، آيت موزيت. القادمون من جبل صَغرو، من جبال باني، ومن سواحل البحر، من الصويرة وحتى أغادير المحصّنة، أتوا من تزنيت، إفني، أوريورا، طانطان، گلميم، قبائل آيت ملول، الحوسيّون، آيت بيلا، آيت بوخا، سيدي أحمد أو موسى، من إدا گوگمار، من آيت باها، وأولئك الذين جاؤوا من أقصى الجنوب بشكلٍ خاصّ، رجال الصحراء الأحرار، الأمريغيون، قبائل عريب، أولاد يحيى، أولاد دليم، العروسيون، الخلائفيون، قبيلة ركيبات الساحل، أولاد أبي السباع، الشعوب التي تتحدّث لغة الشلوح، وقبائل إداو بلال، إداو مرباط، آيت باعمران.

اجتمعوا في مجرى النهر بأعدادٍ هائلة غطّت الوادي كلّه. لكنّ

غالبيّتهم ليسوا من المحاربين، بل نساءٌ وأطفال وجرحى، كلّ أولئك الذين لم يتوقّفوا عن الترحال والهرب فوق الدروب الترابية، يطاردهم وصول الجنود الغرباء ولا يعرفون أين يذهبون. وها قد أوقفهم البحر هنا أمام مدينة أغادير الكبرى.

بالنسبة للغالبية، لم يعرفوا لماذا جاؤوا إلى هنا، إلى مجرى نهر سوس. لعلّ الجوع وحده، ومعه التعب واليأس، قادوهم إلى هنا، إلى مصبّ النهر أمام البحر. إلى أين كان بوسعهم الذهاب؟ منذ شهور، وسنوات وهم يهيمون على وجوههم بحثاً عن أرض، عن نهر، عن بئر، لكي ينصبوا خيامهم ويقيموا زرائب لأغنامهم. مات كثيرون، تاهوا في دروب لا توصِل إلى أيّ مكان في الصحراء، حول مدينة مراكش الكبرى، أو في وهاد وادي تَادلة. أولئك الذين نجحوا في الفرار، عادوا إلى الجنوب، لكنّ الآبار القديمة كانت قد نضبت، والجنود الأجانب في كلّ مكان. في مدينة السمارة، حيث كان يشمخ قصر ماء العينين بحجارته الحمراء، تعصف الآن رياحُ الصحراء وتأكل كلّ شيء. كان الجنود المسيحيون قد حاصروا رجال الصحراء الأحرار بالتدريج، واحتلّوا آبار وادي الساقية الحمراء المقدّس. ماذا يريد هؤلاء الغرباء؟ هل يريدون الأرض كلّها؟ ألن يتوقّفوا قبل أن يلتهموها كلّها؟ هذا مؤكّد.

منذ أيام وأهل الصحراء هنا في جنوب المدينة المحصّنة، في حالٍ من الانتظار لشيءٍ ما. وكان قد انضمّ إلى قبائل الجبال آخرُ محاربي ماء العينين الملقّبين ببريك الله. على وجوههم أمارات الأسى والتخلّي بسبب موت ماء العينين. يتراءى في عيونهم بريقُ الحمّى والجوع على نحوٍ غريب. في كلّ يوم، تتجه أنظار رجال الصحراء نحو القلعة، إلى حيث من المفترض أن يظهر مولاي السبع مع محاربيه فوق الخيول،

لكنّ جدران المدينة الحمراء في البعيد ظلّت صامتة، والأبواب موصدة. وهذا الصمت الذي استمرّ أياماً كان ينذر بالخطر. طيورٌ سوداء كبيرة تحوم في السماء الزرقاء، وفي الليل يسمعون عواء بنات آوى.

كان نور هنا أيضاً، وحيداً بين جمع الرجال المهزومين، هو الذي اعتاد هذه الوحدة منذ زمنٍ طويل. والده ووالدته وأخواته عادوا إلى الجنوب، في دروبٍ لا نهاية لها. أمّا هو فلم يتمكّن من العودة، حتى بعد موت الشيخ.

في كلّ مساء، بينما هو مستلقٍ فوق التراب البارد، كان يفكّر في الطريق الذي فتحه ماء العينين باتجاه الشمال نحو أراضٍ جديدة، والذي سيكمله السبع الآن كي يصبح ملكاً حقيقياً. منذ سنتين وجسده يتمرّس بالشدّة والجوع والتعب، ولا شيء آخر في ذهنه سوى الرغبة بهذا الطريق الذي سيُفتَح عمّا قريب.

وهكذا في صباح أحد الأيام، انتشرت إشاعةٌ في الخيام: «مولاي هيبة، مولاي السبع، ملكنا! ملكنا!». انطلقت عياراتٌ نارية، زغردت النساء، علا صوت الأولاد. التفت الجمع ناحية السهل المغبرّ، فشاهد نور فرسان الشيخ داخل سحابةٍ حمراء.

طغت أصوات العيارات النارية على خبط حوافر الخيول، وارتفع الضباب الأحمر عالياً في سماء الصباح مدوّماً فوق وادي النهر. سارعت جموعُ المحاربين إلى لقاء الفرسان وهم يفرغون رصاص بنادقهم من فوهاتها الطويلة. لكنّ الفرسان في غالبيتهم كانوا رجالاً من الجبال، شلوح يرتدون عباءات صوفيةً خشنة، رجالٌ متوحّشون شعورهم كثّة وعيونهم تقدح شرراً. لم يرَ نور فيهم محاربي الصحراء، رجال ماء العينين الزرق الذين تبعوه حتى الموت. لم تظهر على هؤلاء علامات

الجوع والعطش، ولم تحرقهم شمس الصحراء لأيامٍ وشهور، كانوا آتين من حقولهم، من قراهم، دون أن يعرفوا لماذا سيحاربون وضدّ من.

النهار بطوله، كان المحاربون يركضون في الوادي حتى أسوار أغادير، بينما كانت خيول مولاي السبع تعدو وترفع معها سحابةً حمراء كبيرة. ما هي غايتهم؟ كانوا يَعْدون ويصرخون فقط، بينما كانت أصوات الأولاد والنساء ترتعش في مجرى النهر. في إحدى اللحظات، رأى نور الفرسان يعبرون داخل سحابتهم الحمراء، تحيط بهم ومضات النور. إنهم فرسان السبع يشهرون رماحهم. «مولاي هيبة! مولاي السبع!»، كان الأولاد يصيحون من حوله. ثم توارى الفرسان في الطرف الآخر من الوادي، باتجاه أسوار أغادير.

على امتداد النهار، سادت نشوةٌ عارمة في الوادي، ومعها نار الشمس التي تحرق الشفاه. عند بداية المساء، هبّت رياح الصحراء، غطّت الخيام بضبابٍ ذهبي وأخفت أسوار المدينة. وقف نور يلتجئ تحت شجرة متدثّراً بعباءته.

شيئاً فشيئاً، ومع حلول الليل، زالت النشوة. جاءت برودة الظلام فوق الأرض الجافة في ساعة الصلاة، عندما رقدت المواشي لتحتمي من رطوبة الليل.

كان نور لا يزال يفكّر في الصيف القادم، في الجفاف، في الآبار، في القطعان البطيئة التي سيقودها والده إلى السبخات الملحيّة في الطرف الآخر من الصحراء، في ولاتة، في وادان، في شنشان. يفكّر في تلك الأراضي المعزولة التي لا نهاية لها، البعيدة إلى حدّ لا يعرف أهلُها هناك لا البحر ولا الجبال. مضى زمنٌ طويل لم يعرف فيه الراحة. في كلّ ما حوله، لا وجود لغير مساحات التراب والحصى، والوهاد، والأنهار

الجافة، والصخور المسنّنة كالسكاكين، والخوف، لا سيما الخوف الذي يخيّم كالظلّ على كلّ ما يرونه.

في وقت الطعام، عندما يذهب نور لمشاركة الرجال الزرق الخبز وعصيدة الدُّخن، كان يتأمل الليل المرصّع بالنجوم وهو يغمر الأرض. التعب يحرق جلده، والحمّى تسري ارتعاشاتٍ على طول جسده.

داخل خيامهم المؤقّتة، تحت ظلّ الأغصان والأوراق، توقّف الرجال الزرق عن الكلام. ما عادوا يروون أسطورة ماء العينين، ما عادوا يغنّون. كانوا يتأملون نار المجمر وهم متدثّرون بعباءاتهم المثقّبة، يرفرفون أجفانهم عندما يؤجّج الهواء الدخّان. لعلّهم ما عادوا ينتظرون شيئاً الآن، بعيون يملؤها القلق وقلوب تخفق متمهّلةً.

كانت النيران تخمد واحدةً تلو الأخرى، والظلام يجتاح الوادي. وفي البعيد، مدينة أغادير السائرة داخل بحرها الأسود، تومض بأنوارها الضعيفة. كان نور في ذلك الحين مستلقياً على الأرض يدير رأسه إلى جهة الأنوار. ككلّ مساء، راح يفكّر في الشيخ الكبير ماء العينين، الذي دُفن أمام المنزل المتداعي في تزنيت. كانوا قد أرقدوه داخل حفرة ووجهُه ناحية الشرق. وضعوا في يديه كنوزه الوحيدة: القرآن الكريم، قلمه، مسبحته الأبنوسية. أهالوا عليه التراب المفتّت، غبار الصحراء الأحمر، ووضعوا حجراً كبيراً فوقه كي لا تنبش بنات آوى الجثمان، ثم رصَّ الرجالُ الأرض بأقدامهم العارية، إلى أن أصبحت ملساء وقاسية كالبلاط. بالقرب من القبر، شجرة أكاسيا فتيّة أشواكُها بيضاء، مثل تلك التي كانت أمام المسجد في السمارة.

في ما بعد، واحداً تلو الآخر، جثا رجال الصحراء الزرق، رجال «بريك الله»، وآخر رجالات «الغظفية»، جثوا فوق القبر ومسحوا أيديهم

ببطءٍ على التراب الناعم، ثم على وجوههم، كمن يريد أن يتلقّى آخر بركة من الشيخ الجليل.

كان نور يفكّر في تلك الليلة، حين غادر جميع الرجال وادي تزنيت وبقي وحيداً مع لالا ميمونة بالقرب من القبر. في قلب الليل البارد، سمع صوت المرأة العجوز تبكي بلا انقطاع داخل منزلها المتهالك، كأنها كانت تنشد. كان قد غفا على الأرض وهو مستلقٍ بالقرب من القبر، وبقي جسده دون حراك ودون أحلام، كأنه مات هو الآخر. في اليوم التالي، والأيام التي تلَت، لم يغادر القبر تقريباً، بقي جالساً على الأرض اللاهبة متدثّراً بعباءته الصوفيّة، تشتعل عيناه وحنجرته من الحمّى. كانت الرياح قد حملت التراب فوق القبر ومحَته على مهل. ثم اجتاحت الحمّى جسد نور كلّه حتى فقد وعيه.

حملته نساءٌ من تزنيت إلى بيوتهنّ واعتنين به، بينما كان يهذي وهو عند حافة الموت. عندما تعافى بعد عدّة أسابيع، سار مرّةً أخرى باتجاه المنزل المهدّم، حيث فارق ماء العينين الحياة، ولكن لم يكُن فيه أحد. كانت لالا ميمونة قد عادت إلى قبيلتها، والرياح التي هبّت حملت معها الكثير من الرمال، بحيث لم يتمكّن من العثور على مكان القبر.

لعلّ الأمور يجدر بها أن تحدث هكذا، كان نور يفكّر، ربما عاد الشيخ الكبير إلى مسكنه الحقيقي، تائهاً في رمل الصحراء تحمله الرياح. كان نور ينظر الآن إلى امتداد نهر سوس الواسع، في الليل الذي يضيئه ضباب المجرّة قليلاً، هذا النور الساطع، آثار دماء حمل الملاك جبريل، حسبما يُقال. إنها الأرض الصامتة نفسها، مثل تلك الأرض الموجودة بالقرب من تزنيت. للحظات، شعر أنه لا يزال يسمع رثاء لالا ميمونة الباكي، ولكنْ، لعلّه صوت ابن آوى يعوي في الليل. لا تزال روح ماء

العينين حيّةً هنا، تغمر الأرض برمّتها، تمتزج بالرمال وبالتراب، تتوارى داخل الشقوق، أو تلمع على نحوٍ خفيّ فوق كلّ حجر مسنّن.

كان نور يرى نظرته هناك في السماء، وفي البقع الظلماء على الأرض. يحسّ بها عليه، كما في الماضي في ساحة السمارة، فتسري رعشةٌ في جسده. كانت النظرة تنفذ إليه، وتعمّق شعوره بالدوار. ماذا يريد منه؟ ربما كان يطلب شيئاً ما، هكذا بصمتٍ، فوق السهل، يحيط الرجال بنوره. ربما كان يطلب منهم الانضمام إليه، هناك حيث هو، ممتزجاً بالأرض الرمادية، تبعثره الرياح، وقد أصبح تراباً... استسلم نور للنوم، تحمله النظرة الخالدة، دون حراكٍ ودون أحلام.

عندما سُمعت أصوات المدافع أوّل مرّة، بدأ الرجال الزرق والمحاربون يركضون نحو التلال للاستطلاع من جهة البحر. كان الصوت يزلزل السماء كالرعد. بارجةٌ حربيّة مدرّعة هائلة، شبيهة بحيوان متوحّش، وحيدة في بحر أغادير، كانت تطلق بروقها. كان الصوت يصل بعد وقتٍ طويل، قصفٌ يتبعه دويٌّ مروّع حين تنفجر القذائف داخل المدينة. خلال لحظات، تحوّلت أسوار الحجارة الحمراء إلى ركام مهدّم يعلوه دخان النيران الأسود. بعد ذلك، ومن بين الجدران المحطّمة، خرج الأهالي: رجالٌ، نساء، أطفال، ينزفون، يصرخون. ملؤوا وادي النهر وهم يبتعدون عن البحر هلعين بأسرع ما بوسعهم.

التمع البريق الخاطف عدّة مرّات من فوهات مدافع الطرّاد «كوزماو»، وتردّد صدى القذائف المدوّي التي كانت تتشظّى في قصبة أغادير في وادي نهر سوس كلّه. ثم ارتفع دخّان الحرائق الأسود عالياً في السماء الزرقاء، وغطّى بظلّه خيام البدو الرُّحّل.

حينئذٍ، ظهر فرسان مولاي السبع. عبروا مجرى النهر، وانسحبوا نحو التلال أمام سكّان المدينة. في البعيد، كانت البارجة كوزماو ساكنةً في بحرٍ بلون المعدن، وقد وجّهت مدافعها ببطءٍ نحو الوادي، حيث كان أهل الصحراء يهربون. لكنّ النار لم تلمع في فوهات المدافع. ساد صمتٌ طويل، علت خلاله أصوات الناس المتراكضين وصياح الدوابّ، بينما كان الدخّان الأسود يتصاعد باستمرارٍ نحو السماء.

عندما ظهر جنود المسيحيين أمام أسوار المدينة المتهدّمة، لا أحد عرف على الفور من هؤلاء. ولعلّ مولاي السبع ورجاله ظنّوا أنهم محاربون من الشمال أرسلهم مولاي الحفيظ، أمير المؤمنين، في سبيل الجهاد.

لكنّ هؤلاء هم كتائب الكولونيل مانجان الأربع، الذين جاؤوا مسيراً إجبارياً إلى مدينة أغادير الثائرة. أربعة آلاف رجل بالبزّات العسكرية، رماةٌ أفارقة، سينغاليّون، سودانيّون، صحراويون، مسلّحون ببنادق «ليبل»، ومعهم عشرة مدافع من نوع نوردينفيلت. اقترب الجنود ببطء باتجاه ضفة النهر، وانتشروا على شكل نصف دائرة، بينما بدأ في الجانب الآخر من النهر، في سفح التلال الحصوية، الجيش المؤلّف من ثلاثة آلاف فارسٍ تابعين لمولاي السبع، يدور حول نفسه، مما أثار زوبعةً هائلة من الرمال الحمراء ارتفعت نحو السماء. بعيداً عن زوبعة الغبار، كان مولاي السبع بردائه الأبيض، ينظر بعين القلق إلى صفّ جنود المسيحيين الطويل، الشبيه برتلٍ من الحشرات يسير فوق الأرض القاحلة. كان يعرف سلفاً أنّ المعركة خاسرة، كما حدث في بوذنيب في المرّة السابقة، عندما أردى رصاص الرماة أكثر من ألف فارس من فرسانه الآتين من الجنوب. بقي ساكناً فوق جواده الذي كان ينتفض نافد الصبر، ينظر إلى

الرجال الغرباء يتقدّمون ببطء نحو النهر كأنهم في تدريب. مرّاتٍ عديدة، حاول مولاي السبع إعطاء الأمر بالانسحاب، لكنّ محاربي الجبال لم يصغوا إلى أوامره. كانوا يدفعون جيادهم نحو العدوّ داخل تلك الدائرة المسعورة، منتشين برائحة الغبار والبارود، يطلقون الصرخات بلغتهم البربرية، ينادون أسماء أوليائهم الصالحين. عندما تكتمل الدائرة، سوف يرمون أنفسهم داخل الفخّ الذي نُصب لهم، ويلقون حتفهم معاً.

لم يعُد بيد مولاي السبع حيلة، وامتلأت عيناه بدموع الحسرة. في الضفة الأخرى من النهر الجاف، كان الكولونيل مانجان قد ركّز مدافعه في كلّ جناحٍ من أجنحة جيشه، في أعلى الهضاب الصخرية. عندما يندفع الفرسان المغاربة إلى الوسط، في اللحظة التي يعبرون فيها مجرى النهر، سوف يحصدهم رصاص الرماة من كلّ الجهات، ولن يبقى عليه سوى الإجهاز عليهم بالرماح.

ساد صمتٌ ثقيل من جديد فوق السهل، حين بدأ فرسان الصحراء يتوقّفون عن الدوران. كان الكولونيل مانجان يراهم بمنظاره ويحاول أن يفهم. هل هم يتراجعون الآن؟ سيكون عليه حينئذٍ السير مجدّداً لأيام فوق هذه الأرض القاحلة، باتجاه هذا الأفق الهارب الذي يلقي اليأس. لكنّ مولاي السبع بقي ساكناً فوق جواده، لأنه كان يعلم أنّ النهاية قريبة. إنّ محاربي الجبال، وأبناء رؤساء القبائل، جاؤوا إلى هنا ليقاتلوا، وليس لكي يلوذوا بالفرار. كانوا قد توقّفوا عن الدوران من أجل الصلاة قبل الهجوم.

بعدئذٍ، جرى كلُّ شيء بسرعة كبيرة، تحت شمس الظهيرة القاسية. اندفع الفرسان الثلاثة آلاف، متراصّين كأنهم في استعراض، يشهرون بنادقهم التي تقدح بواسطة الحجر ورماحهم الطويلة. عندما وصلوا إلى

مجرى النهر، نظر الضبّاط الآمرون إلى الكولونيل مانجان الذي رفع ذراعه. انتظر مرور أول الفرسان، ثم أخفض ذراعه فجأةً، وبدأت فوهات البنادق المعدنية تطلق سيلاً من الرصاص، ستمئة رصاصة في الدقيقة، بهزيزٍ مروّع تخلّل الهواء ودوّى في الوادي برمّته. هل للزمن وجود، عندما تكون بضع دقائق كافية لقتل ألف رجل، وألف جواد؟ عندما أدرك الفرسان أنهم وقعوا في الفخ، ولن يتمكّنوا من اجتياز حاجز الرصاص، أرادوا أن يرجعوا القهقرى، لكنّ الأوان قد فات. كانت رشقات رصاص البنادق تمسح مجرى النهر، وأجساد الرجال والخيول تتساقط دون توقّف، كأنّ ساطوراً هائلاً غير مرئي كان يحصدهم. سالت أنهارٌ من الدماء فوق الحصى، وامتزجت بخيوط الماء الرفيعة. ثم عاد الهدوء، بينما كان آخر الفرسان يلوذون بالفرار باتجاه التلال، ملطّخين بالدماء فوق جيادهم التي اقشعرّت من الذعر.

دونما استعجال، بدأ جيش الجنود السود يسير على امتداد مجرى النهر، فرقةً بعد فرقة، وعلى رأسهم الضبّاط والكولونيل مانجان. ذهبوا في طريق الشرق، باتجاه تارودانت ومراكش لمطاردة مولاي السبع. رحلوا دون التفاتة منهم إلى مكان المجزرة، دون النظر إلى أجساد الرجال مقطّعة الأوصال فوق الحصى، أو إلى الخيول المبعثرة، أو إلى الكواسر التي كانت قد وصلت إلى الضفاف. كما أنهم لم ينظروا إلى أطلال أغادير، ولا إلى الدخّان الأسود الذي كان لا يزال يتصاعد في السماء الزرقاء. في البعيد، كانت البارجة كوزماو تنساب فوق بحرٍ بلون المعدن، متّجهةً نحو الشمال.

وقتذاك، توقّف الصمت، وسُمع صراخ الأحياء، الرجال، الخيول الجريحة، النساء، الأطفال، مثل أنينٍ واحد لا ينتهي. مثل أغنية. صوتٌ

مفعَمٌ بالرعب والألم، يصل من كلّ الجهات في آنٍ معاً، فوق السهل وفي مجرى النهر.

مشى نور فوق الحصى وسط الأجساد الممدّدة. كان الذباب الشره والدبابير تطنّ في سحاباتٍ سوداء فوق الجثث، فشعر بانقباضٍ في حنجرته إلى حدّ الغثيان.

تحرّكوا بتمهّل، كأنهم يستيقظون من حلم، أبعدت النساء والرجال والأطفال أشواك الدغل، وساروا فوق مجرى النهر دون كلام. على امتداد النهار وحتى حلول الليل، كانوا ينقلون جثث الرجال إلى الضفة لدفنها. عندما حلَّ الظلام، أضرموا ناراً على كلّ ضفّة لإبعاد بنات آوى والكلاب البرّيّة. جاءت نساءٌ من القرية يحملن الخبز واللبن الرائب، فأكل نور منه بلذّة. ثم غفا مستلقياً على الأرض، حتى دون أن يفكّر في الموت.

في اليوم التالي، ومنذ الفجر، حفر الرجال والنساء قبوراً أخرى للمحاربين، ثم دفنوا الخيول أيضاً. وركّزوا فوق القبور حجارةً كبيرة من النهر.

عندما انتهى كلّ شيء، عاد آخر الرجال الزرق لإكمال مسيرهم نحو الجنوب، في ذاك الطريق الطويل الذي يبدو لا نهاية له. كان نور يسير معهم حافي القدمين، لا شيء معه سوى عباءته الصوفيّة، وقليلٍ من الخبز لفّه داخل خرقةٍ رطبة. إنهم آخر الأمازيغ، آخر الرجال الأحرار، رجال قبيلة توبالت، وتكنة، وتيدرارين، والعروسيّين، والسباع، وركيبات الساحل، إنهم آخر الناجين من رجال بريك الله. ليس لديهم من المُلك سوى ما تراه أعينهم وما تلمسه أقدامهم العارية. كانت الأرض أمامهم مسطّحة تمتدّ كالبحر وتلمع بالملح. تتماوج وتبتدع مدناً بيضاء بأسوار

مهيبة، وقباباً تنفجر كالفقاعات. الشمس تحرق وجوههم وأياديهم، والضوء يزيد الدُّوار، عندما تصبح ظلال الرجال شبيهةً بآبار لا قرار لها.

في كلّ مساء، كانت شفاههم الدامية تبحث عن عذوبة الآبار، عن الطين الأُجاج في مياه الأنهار القلوية. ثم يعتصرهم الليل البارد، يحطّم أطرافهم، يقطع أنفاسهم، يلقي بوزرِه فوق كواهلهم. ليس للحرّيّة نهاية، إنها شاسعةٌ وسع الأرض، جميلةٌ وقاسية كالنور، عذبةٌ كعيون الماء. كلّ يوم، عند بداية الفجر، كان الرجال الأحرار يعودون إلى الطريق نحو وطنهم في الجنوب، هناك حيث لا أحدَ غيرهم يستطيع العيش. في كلّ يوم، الطقوس نفسها، يمحون آثار مواقدهم، يدفنون مخلّفاتهم، يلتفتون ناحية الصحراء، يؤدّون صلاتهم دون كلام. يرحلون كما في حلم، ويختفون.

جان ماري غوستاف لوكليزيو:

كاتبٌ فرنسيّ، تعود أصوله إلى جزيرة موريشيوس. وُلد في مدينة نيس في عام 1940. حقّق نجاحاً كبيراً منذ روايته الأولى، ثم تتالت أعماله حتى جاوز عددها أكثر من خمسين كتاباً في الرواية والقصة والمقالات والدراسات. ومن هذه الكتب: «الحمّى»، «الطوفان»، «صحراء»، «ثلاث مدن مقدّسة»، «الباحث عن الذهب»، «ثورات»، «الحلم المكسيكي أو الفكر المنقطع»، وغيرها.

فاز لوكليزيو بجوائز عدّة، من أبرزها «جائزة الأكاديمية الفرنسية» في عام 1980، وجائزة «جان جيونو» في عام 1997، وجائزة «إمارة موناكو» في عام 1998، وغيرها، قبل أن يحصل على جائزة نوبل للآداب في عام 2008، بصفته «كاتب الانطلاقات الجديدة والمغامرة الشعرية والنشوة الحسّية، ومستكشفاً لإنسانية خارج الحضارة السائدة».

لينا بدر

مترجمة سورية. ترجمت أكثر من عشرين عملاً أدبياً عن الفرنسيّة، ومن أبرز هذه الترجمات: «السمكة الذهبية» لجان ماري غوستاف لوكليزيو، و«سوء تفاهم مع موسكو» لسيمون دي بوفوار، و«أفيون» لماكزانس فيرمين، و«سبع حكايا تعود من بعيد» لجان كريستوف روفان،

و«ليلة النار» لإيريك إيمانويل شميت، و«علاقات خطرة» لبيير دولاكلو، وغيرها.

صدرت بترجمتها عن داري «سرد للنشر» و«ممدوح عدوان للنشر والتوزيع»: «قلب للضحك والبكاء» لماريز كونديه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

"الصحراء هي بلاد الشمس، إذاً هي كل الجمال على الأرض!"، بهذه العبارة يختزل "لوكليزيو" عشقه للصحراء التي كتب عنها مراراً، وفي روايته هذه يجعلنا نحن أيضاً من عشّاقها، إذ سنراها بطريقةٍ مختلفة، ونحن نرافق رجال الرمال والرياح والنور والليل، ونساءها وأطفالها، بقيادة الشيخ "ماء العينين"، عبر دروب رحلةٍ شاقّة، في أوائل القرن العشرين.

telegram @soramnqraa

تتقطّع هذه الرحلة بواحدةٍ أخرى، تجري بعد عدّة عقود، فنرافق الصبية "لالا"، وهي تكتشف ذاتها وهويّتها وحريّتها، عبر أساطير الصحراء وحكايات البحر، وصولاً إلى "مرسيليا" التي تهاجر إليها بحثاً عن فرصتها بين آلاف المهاجرين هناك.

وما بين الزمنين، نغرق نحن القراء في زمننا اليوم، في غمار هذه الرواية الشاعرية التي قالت عنها الأكاديمية السويدية عند منح كاتبها جائزة نوبل للآداب عام 2008، إنها "تقدّم صوراً رائعة لثقافة مفقودة في صحراء شمال إفريقيا". نغرق في الصمت المهيب، فنرى الحرية باتساع الفضاء، ونسمع الصوت المهول في عصيانه، فيما رياح الصحراء تذرو كل شيءٍ آخر وتمحوه.

ISBN 978-9933-701-27-7
9 789933 701277 >
CNL CENTRE NATIONAL DU LIVRE
دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع